

دراسات في الحضارة



د. لويس عوض



دراسة التفت الحصانة

دراسات في الحضارة

د. لويس عوض



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف

الفنان : محمد بغدادى

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٩٨٩

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت / ٦٦٥٩٠٠ ص . ب / ٢٤٨٥
القاهرة . جمهورية مصر العربية



الباب الأول

تأملات في المسألة القومية

الفصل الأول

الأساطير السياسية^(١)

كشفت دعوة الأستاذ توفيق الحكيم لنظرية حياد مصر (الأهرام ٣ و ١٢ مارس والأخبار ١٨ مارس ١٩٧٨) وتأيد الدكتور حسين فوزى لهذه الدعوة (الأخبار ٢٣ مارس ١٩٧٨) من جهة، كما كشفت حملة الدكتور وحيد رافت على نظرية حياد مصر (الأخبار ١١ و ٢٥ مارس ١٩٧٨) ، كشف هذا الجدل حول قضية حياد مصر عن ظاهرتين أصيلتين في الفكر السياسي المصري : الأولى هي اننا ، رغم ما مر بنا من تجارب ، لم نكف عن استخدام اللغة كستار دخان لستر ما نريد ان نتجنب الافصاح عنه بوضوح ، والثانية هي اننا ، رغم كل ما مر بنا من تجارب ، لم نكف عن الاسترسال في الاساطير السياسية التي الفنا الحياة فيها منذ عشرات السنين .

فنظرية حياد مصر التي يدعو اليها توفيق الحكيم وحسين فوزى قياسا على حال سويسرا تبدو في ظاهرها تجديدًا لتلك الاسطورة السياسية التي أشاعها الحزب الوطني أيام محمد فريد لتحديد مصر أيام الحرب العالمية الأولى بين الامبراطورية العثمانية والامبراطورية البريطانية ، رغم ما كان فيها من تعارض مع فلسفة الحزب الوطني نفسه منذ مصطفى كامل القائمة على التمسك بامبراطورية مصر الافريقية ، أى السودان والملحقات بما فيها من « زيلع ومصوع وهرر » — وأوغندا والقرن الافريقي .

(١) « الأهرام » ١٩٧٨/٤/٧

وقد حاول سليمان حافظ ومجموعة من الساسة المصريين تجديد هذه الدعوة الى « الحياء الدائم » على طريقة سويسرا أيام حرب السويس عام ١٩٥٦ مع تنحية جمال عبد الناصر ، لانقاذ مصر من العدوان الثلاثي الذي كاد ان يفترس مصر من جديد لو لا تدخل روسيا وامريكا لانهايه . ويلاحظ ان هذه الدعوة كانت تتجدد في مصر في فترات اليأس الوطنى ثم تنقشع في فترات القوة والامل ولنسمها مؤقتا نظرية « مصر الصغرى » ، القابعة في بيتها المنطوية على نفسها . وهذه احدى الاساطير السياسية المتداولة في الفكر السياسى المصرى .

هذا في الظاهر . أما وراء ستار الدخان في كلام توفيق الحكيم وحسين فوزى فهو بإيجاز ووضوح انسحاب مصر من المجموعة العربية وتخليها عن ارتباطاتها مع جاراتها لكى تلتفت لشئونها الخاصة بعد طول ضياع وإعادة بناء نفسها بعد طول خراب . وهذا في رأى منطق مشروع رغم عدم موافقتى عليه ، وليس بحاجة الى كل هذا اللف والدوران للتدليل عليه كقول توفيق الحكيم أن مصر الحقيقية هى « متحف العالم » الذى لا يسان الا بالحياد . أو انها « فندق العالم » محط سياح المشرقين والمغربين ، وهو ما يستوجب أن تعيش في حياد دائم . ولم يبق الا أن يقول قائل ان مصر ينبغي أن تكون « كباريه العالم » لتكتمل الصورة اذا رأينا أن نربط هويتنا ومستقبلنا بالشيكات السياحية .

هو منطق مشروع للأسباب التى ساقها توفيق الحكيم في مقاله الثانى لا في مقاله الاول ، وهى أنه ليس على مصر واجبات عربية ما لم تكن لها حقوق عربية . وبما أن مصر بسبب ادائها لواجباتها قد « أضاعت حياتها ومالها وأفلست واشتغلت خادمة بالاجر في بيوت الدول العربية الغنية » نتيجة لاضطلاعها بالعبء الأكبر في الدفاع عن المنطقة العربية ، وبما ان الدول العربية ترفض أو تعجز عن الدخول في الوحدة الاندماجية مع مصر في الاقتصاد والدفاع الوطنى والسياسة الخارجية ، وهو الشرط المستحيل التحقيق الذى اشترطه توفيق الحكيم لعروبة مصر وأضطلاعها بالمسؤولية عن المنطقة العربية ، فمن حق مصر اذن أن تلتفت لشئون نفسها ولو أدى الامر أن تدبر ظهرها للعالم العربى في سبيل انقاذ نفسها . وما ينطبق على المنطقة العربية ينطبق أيضا على المنطقة الافريقية .

فليكن . ولكن توفيق الحكيم ، ومن ذهب مذهبه ، يتجاوزون عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ الا وهى الحقيقة الجيوبوليتية (الجغرافية السياسية) التى تربط مصر راضية أو كارهة بالمنطقة العربية وبالمطقة الافريقية وهى حقيقة الامن القومى المصرى البحت بلا فلسفة ولا ميتافيزيقا ولا مجردات طنانة كتلك التى يطلقها البعثيون ومن ذهب مذهبهم فيطمسوا حقائق الحياة والتاريخ بالشعارات المسكرة . وأنا لست بحاجة الى أن أسمي نفسى عربيا أو أفريقيا لكى أدرك أن أمن مصر نفسها متوقف على أمن المنطقة العربية ولا سيما في شرق البحر المتوسط والبحر الاحمر ، وعلى أمن المنطقة الافريقية ولا سيما في منابع وادى النيل وفي مدخل البحر الاحمر .

ولهذا ، لكى نكون أمناء مع أنفسنا ومع الغير . يجب أن نفصل قضية عروبة مصر عن قضية الكفاح المشترك في العالم العربى وفي أفريقيا السوداء للحفاظ على أمن المنطقتين الذى يتوقف عليه أمن

مصر في داخلهما .

وقد كنا قبل ١٩٥٢ نسعى تضامن شعوب المنطقة للتخلص من الاستعمار ، حتى قبل طرح دعوة القومية العربية ، « الكفاح المشترك » . كنا نتعاضد مع السودان ليتخلص من الاستعمار البريطاني سواء قبل السودان مبدأ وحدة وادى النيل أو رفضه . وكان دمعنا لا يكفكف يا دمشق كلما رأينا للحرية الحمراء بابا بكل يد مضرجة يدق . كل ذلك دون أن نفكر في زيجة فيدرالية أو كونفدرالية أو في قومية ميثاقية اسمها القومية العربية .

وأنا أوافق توفيق الحكيم على قوله : « اذن عندما نقول أن العرب أمة واحدة ، لها قضية واحدة ، فهو قول لا أساس له في الواقع لأن الواقع هو أن لكل دولة عربية قضيتها ومواقفها التي تهمها في المكان الاول . فليس بينها اتحاد مشترك في جيش واحد أو اقتصاد واحد ، بل فيها دول تتمتع بالغنى المفرط ، وأخرى تقاسى من الفقر المدقع ، وبعضها أرضه محتلة وتهمه مؤتمرات السلام ، والبعض أرضه حرة ، وتهمه مؤتمرات الاوبك .. الخ » .

ومع ذلك فأنا أعجز عن الربط بين هذه الحقائق وبين دعوة الحياد المصرى فالحياد كما هو مفهوم للخاص والعالم هو انتهاز سياسة تنأى بأى بلد من البلاد عن الارتباط بأحلاف عسكرية مع أية كتلة من الكتل المتصارعة في العالم ولا سيما الكتلتان العظميان ، وهذا ما درجنا على تسميته « عدم الانحياز » ولكن اسمه التقليدى المتعارف عليه من قديم الزمان كان « الحياد » .

فهل توفيق الحكيم وحسين فوزى يتحدثان حقا عن حياد مصر بين الشرق والغرب ؟ أنا لم أفهم ذلك بوضوح من منطوق كلامهما وإنما الذى فهمته والذى فهمه معى أكثر القراء هو حياد مصر بين العرب واستقلال سياستها عن سياستهم فلو جنحوا شرقا كان لنا أن نجح غربا . وهذا هو المنطق المغلف في دعوة الحياد المصرى . فهل يمكن بأى معنى من المعانى أن نسمى هذا حيادا مصريا ؟ أم أنه نوع آخر من الانحياز في مواجهة الانحياز العربى الآخر ؟

ومع التسليم بأن ما بين الدول العربية من اختلافات أصيلة يجعل من اتحادها مع مصر في جيش واحد واقتصاد واحد مجرد « حلم جميل » بعيد التحقيق أن لم يكن مستحيل التحقيق ، فمتى كان هذا يمنع أن الامن العربى جزء هام من الامن المصرى ، وان الامن المصرى جزء هام من الامن العربى ؟ وإذا كنا حقا دعاة حياد بين الشرق والغرب ، أو بين الكتلتين النوويتين ، فلماذا يكون الحياد المطلوب حيادا مصريا خاصا ولا يكون حيادا عربيا عاما ؟

ولكن الحياد الدولى ليس الحياد الذى يتحدث عنه توفيق الحكيم حين يقول « لابد اذن من حياد مصر وعدم تدخلها في قضية شقيق من أشقائها العرب الا بالتوكيل الرسمى » . فهو إنما يتحدث عن حياد مصر بين العرب ولا يتحدث عن حياد مصر بين الدول العظمى .

وهذا أيضا منطق مشروع ولكن له اسما آخر غير « الحياد » فاسمه الحقيقى هو اتباع « سياسة

مصرية خاصة « تحمى الامن المصرى نتيجة :

- (١) لعجز العالم العربى عن اتباع سياسة عربية عامة تحمى الامن العربى .
- (٢) لفشل مصر فى أن تأخذ من العرب بمقدار ما أعطت وما تعطى أثناء قيامها بالتزاماتها نحو الامن العربى والتنمية العربية .
- (٣) لضرورة تصحيح الاخطاء المصرية والعربية فى الماضى والحاضر .
- (٤) وهو أهم ما فى الموضوع . لان محصلة الاسباب الثلاثة السالفة قد تركت مصر مجهدة مستنزفة وعطلت تقدمها بل ساعدت على تأخرها بما يتهدد مستقبلها فهى فى حاجة الى مراجعة حساباتها وأسس العقد الاجتماعى فيها التى أدت الى ما هى فيه من غموض فى الاهداف وبلبله فى الوسائل وانقسام فى الشخصية وفى الارادة .

باختصار ، مصر بحاجة الى فترة نقاهة من نكسه ١٩٦٧ ومن العوامل الخبيثة التى أدت الى نكسه ١٩٦٧ وتلك التى نجمت عنها ، سواء اكانت هذه العوامل مصرية أو عربية أو عالمية فليس يفيد أن نقول أن كل بلاتنا قد جاء من العرب و من الاستعمار الغربى أو من التوسع الروسى ، أو حتى من اسرائيل . وليس من الرشد السياسى أن نبحث دائما عن كبش فداء نعلق عليه أخطاؤنا ونقائصنا كلما أردنا تشخيص ما بنا من علل .

وفرة النقاهاة هذة ، أو فترة الاصلاح سمها ما شئت من الاسماء ، تحتاج لجيل كامل من الواقعية السياسية فى الداخل والخارج ومن تصفية الاساطير السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التى نشرت كل هذا الضباب فى الحياة المصرية وغيرت مدلول الكلمات فغدونا نسمى البرروقراطية اشتراكية وغدونا نسمى حكم الاقوى ديمقراطية مجرد أن هذا وتلك يقحم فيهما اسم الشعب واسم الجماهير ، وعشنا فى وهم أمجادنا الماضية وتقمصنا روح الاسلاف حين كانت الحضارات غير الحضارات ، فخرحنا باختيارنا من سياق العالم المعاصر ، وفكرنا لهويتنا الوطنية والقومية فاذا بنا فى هويات وهمية بلا سند من واقع أو تاريخ . وتحديثنا عن حطين ومرج دابق وعين جالوت حين كان العدو غير العدو والقضايا غير القضايا ، أكثر مما تحدثنا عن ثورة القاهرة وثورة عراقى وثورة ١٩١٩ ، وعلمنا أنباءنا تاريخ طارق بن زياد وصقر قریش وصلاح الدين أكثر مما علمناهم تاريخ على بك الكبير ومحمد على والخبديو اسماعيل وأحمد عراقى ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس وغيرهم من المجاهدين فى سبيل الاستقلال والديمقراطية . بل وتنكرنا لثراثنا الديمقراطى العتيذ فلم تعد عندنا الامة مصدر السلطات لاننا جرينا وراء سراب المستبد العادل . وهكذا .

وبموجب هذه الواقعية السياسية تدرك مصر أن أمن العالم العربى جزء من أمنها الذاتى ، فهى لا تتخلى عنه من أجل أمنها هى . ولكن بعد أن ثبت لمصر ان الطريق الذى كانت تسير فيه مصر والدول العربية ، دائما الى منتصفه ، وليس الى نهاية الشوط ، لم يزد مصر أو جاراتها امنا عبر ثلاثين سنة ، بل زادها تعرضا للعدوان وأضعف مناعتها لصد العدوان رغم ما تبذل مصر من دماء وما تنفق

من أموال وما تقدم من توضحيات ، أليس من حق مصر أن تعيد النظر في استراتيجيتها باحثة عن طريق آخر غير هذا الطريق الدائري الذى ينتهى بنا دائما حيث بدانا ولا يحل لمصر أو لحاراتها مشكلات ؟

لقد كانت حروبنا دائما حروبا ناقصة تقف في منتصف الطريق كما كانت ثوراتنا دائما ثورات ناقصة تقف في منتصف الطريق ، لأن الحرب الشاملة كالثورة الشاملة لها ثمن فادح لم تستطع مجتمعاتنا المذبذبة بين القديم والجديد وبين التخلف والتقدم ان تتحملة . فكان حالنا دائما حال سيزيف في الاسطورة اليونانية الذى كتب عليه أن يرفع الصخرة الى أعلى جبل الاولب ولكنه لا يبلغ بها القمة أبدا لأنها تتدحرج به الى السفح دائما ابدا ليبدأ من جديد . وكانت اليونان تقول أن الالهة كتبت على سيزيف هذا العذاب الابدى ، ولكنى أقول أننا كتبناه على أنفسنا لان بعضنا يعرف الطريق الى القوة ويخشى أن يسلكها ، وبعضنا يتوهم طريق الضعف هو طريق القوة ، وفئة ثالثة لا تفكر فى سيزيف ولا فى الصخرة ولا فى القمة ولا فى الالهة ، وانما كل ما يهيمها أن تعيش فى دعة ولو عاش كل من حولها الجحيم

هذه الحروب الناقصة المجهضة هى التى انتهت بنا الى حيث نحن الان . ونحن الان نجرب السلام بدلا من الحرب لعل السلام يعيد بناء ما تخرب من اقتصادنا ومن أخلاقنا ومن حياتنا المدنية ولعل السلام يدفع بعجلة التنمية والتقدم على المستوى المادى والفكرى ، فتنعاف مصر من جديد وتخرج أقدر على صيانة أمنها وأمن العرب مما كانت حتى الان ، بلا أوهام ولا أساطير ، ولكن بقدمين ثابتتين على أرض الواقع تقود المجموعة العربية والافريقية الى حضارة القرن الحادى والعشرين . فاذا جاء السلام ناقصا ومجهضا كما جاءت حروبنا ناقصة ومجهضة فאלله وحده يعلم الى أين المصير . وكما أن الحرب لا تطلب لذاتها فكذلك السلام لا يطلب لذاته ، وانما يطلب لتحقيق التقدم المادى والفكرى والحق بأرق الحضارات . فاذا حل السلام ودأبنا على ما نحن فيه فلن تنقذنا حرب ولا سلام .

وليس المقصود بدعوة السلام أن تنسلخ مصر من المجموعة العربية وأن تشبه مصر بسويسرا أو السويد فهذا غير ممكن لو طلبناه لاختلاف التاريخ والجغرافيا والتكوين الثقافى والحضارى ولاختلاف الظروف والمصالح ، وهو ما يمكن أن نجمله تحت عبارة « الحقيقة الجيوبوليتية » فبغض النظر عن الصراعات القومية داخل المنطقة العربية فان التاريخ يحدثنا بأن شرق البحر المتوسط وجنوبه كانا دائما يعتبران منطقة استراتيجية واحدة تسعى الامبراطوريات الغازية المعادية أن تستولى عليها فى مجموعها ما أمكنها ذلك .

فمنذ اجتاحت الحيشيون الشام لم يتركوا العراق فى سلام ، ولولا بأس مصر العسكرية لما ارتدوا الى الأناضول حيث جاءوا . وقمبيز لم يقف فى اجتياحه عند العراق بل اجتاحت مصر ، ولولا أن جيشه هلك فى صحراء مصر الغربية لاستولى على ليبيا وما وراءها . والاسكندر الاكبر لم يستول على

مصر وحدها ولكن استولى على الشام والعراق وما وراءه حتى بلغ حدود الهند ، والامبراطورية الرومانية لم تستعمر مصر وحدها بل استعمرت جنوب البحر المتوسط كله وشرقه كله ، وهكذا فعلت الامبراطورية البيزنطية . والعرب فعلوا ما فعله الروم والرومان جميعا . لم يكتفوا بتأسيس دولة في مصر بل طلبوا تأمينها بتأمين الشام حتى حلب . وهكذا حين جاء الصليبيون في العصور الوسطى ليستولوا على مفاتيح الشرق لم يقفوا عند بيت المقدس كما كانت دعاواهم تقول ، بل حاولوا الاستيلاء على مصر وبقية الشام ، رغم أن المنصورة لم يكن فيها قبر مقدس وأنطاكية لم تكن فيها جليئة ولا طريق ألام . والمغول والتتار لم يخرّبوا بغداد وحدها بل استولوا على دمشق ولولا بأس مصر العسكري لاستولوا على المنطقة كلها . والامبراطورية العثمانية لم تعف دولة في شرق البحر المتوسط أو جنوبه من الاحتلال العثماني والتبعية لستانبول . وبونابرت حين غزا مصر غزا بعدها الشام وكان مخططه المعلن لحكومة الادارة أن يسد البحر الاحمر ، طريق الشرق الاقصى ، على الانجليز ، ولولا توازنات القوى في المنطقة وظروف فرنسا الاوربية لافلح فيما أفلح فيه الاسكندر ويوليوس قيصر وقسطنطين وآل عثمان . ومنذ القرن التاسع عشر اقتسمت المثلثا وفرنسا شرق البحر المتوسط وجنوبه بعد أن تبين لهما أن شقاقهما لن يؤدي الى أفراد احدهما بالسيطرة على المنطقة ، وقد توجتا هذه الشركة الآتمة بالوفاق الودي عام ١٩٠٤ واليوم تتكرر المأساة بين الدولتين العظميين أمريكا وروسيا بعد أن ورثتا الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية .

فهل نحن بحاجة بعد كل هذا الى دليل على أن المنطقة العربية ، من الفارسي الى الأطلسي كما يقولون ، منطقة جيوبوليتية واحدة ، أمنها واحد ومصيرها واحد ازاء الغزو الخارجي وازاء النفوذ الخارجي سواء جاء من وسط آسيا أو من شطآن أوروبا أو من قارة الاطلنطيد أو من مروج الاقوام السلافية ؟ وهلى نحن بحاجة بعد كل هذا الى دليل على أن عزلة مصر عن غلافها العربى وعزلة العرب عن وقائهم المصرى أسطورة سياسية ولدها الاحساس بالقهر والاحباط وطلب النجاة بأى ثمن ولو كان الاعتصام فى برج الاوهام السويسرية الذى عاش فيه لبنان زمنا ثم أفاق وهو يقطر دما على أن أمنه بل وكيانه جزء لا يتجزأ من أمن المنطقة وكيانها ؟

ومع ذلك فهذه الاسطورة الانعزالية لا تقل شططا عن اسطورة أخرى هى أسطورة الاندماجية المتمثلة فى دعوة القومية العربية التى تفرض أن شعوب المنطقة أو أقوامها من الخليج الى المحيط « أمة واحدة » ، ليس فقط ثقافيا وحضاريا ولكن عرقيا وعنصريا كذلك . وهذه الاسطورة ترتكز على خرافة « البعث العربى » واحياء مجد الامبراطورية العربية أيام الفتوحات العربية العظمى . وهذه الاسطورة ، أسطورة العروبة العرقية خارج الجزيرة العربية ، لا تقل شططا وخطرا عن أسطورة الارية العرقية أيام النازى ونظيرها فى الشطط أساطير القومية الفرعونية ، والقومية الفينيقية ، والقومية الاسرائيلية ، وكل دعوة قومية تقوم على بعث العنجهية العنصرية أو العرقية بين شعوب الارض ، وتبنى مجد الأمم على سيادة الجنس وتفوقه الموروث على غيره من الاجناس ، فتتبرر الاستعمار والاستعباد والتمييز العنصرى ، وتشغل المواطنين فى أية أمة بماضيتهم عن حاضرهم

وتدعوهم لحل مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية على حساب الامم الاخرى .. كل هذه اساطير نازية مهما اختلفت اشكالها ولن تجنى الانسانية منها الا الحروب العقيمة . ولا يقل عنها خطرا دعوة نشر المذاهب والعقائد بالقهر أو بقوة السلاح بدلا من الحوار والاحتكام الى مناهج الدعوة السلمية .

اسطورة الدعوة الانعزالية إذن لاتقل شططا عن أسطورة الدعوة الى الوحدة الاندماجية الكبرى القائمة على العروبة العرقية أو العنصرية الملتزمة لكافة ما فى المنطقة من قوميات . فالعروبة العرقية لون من ألوان النازية تقوم على احد ثلاثة افتراضات كلها سقيمة :

١ — اما أن الفتح العربى لدول المنطقة من الخليج الى المحيط جاء الى دول خالية من السكان فاقام فيها محلات ومستوطنات عربية الاعراق حيثما مشت جيوش العرب أيام بنى أمية وبنى العباس ، وهو قول هراء لاننا نعلم أن الفتح العربى جاء على اقوام وشعوب غزيرة السكان رغم ضعفها السياسى والعسكرى وخضوعها لروم المشرق ورومان المغرب ، بل أقوام وشعوب أكثر كثافة من العرب الفاتحين انفسهم واقدم حضارة .

٢ — واما تصور أن قطرة واحدة من الدم العربى الفاتح كانت كافية لصبغ دماء المنطقة كلها من الخليج الى المحيط كما تصبغ نقطة من الحبر الاحمر جردلا من الماء الباهت ، وهو قول هراء ايضا لاننا نعرف من قوانين الوراثة ان الدم الوافد هو الذى يذوب فى الدم الاصيل ما لم يتجدد بقوة متساوية فى كل جيل بحيث يغير مكونات « جيناته » ، كما نعرف ان مصر مثلا فيها من الدم اليونانى الذى « شابهها » نحو الف عام من ٣٣٣ ق . م الى ٦٤٠ ميلادية أكثر مما فيها من الدم العربى الذى « شرفها » ثلاثة قرون منذ عمرو بن العاص حتى استولى عليها التركمان طولون وأخشيده ومن جاء بعدهما من مماليك يرجية وبحرية الخ .. بل نعرف أن مصر فيها من الدم الطوراني والارى والتركاني والفارسى والكردى والشركسى والقوقازى والتركى اضعاف ما فيها من الدم العربى ، آثار الف عام من الحكم المملوكى التركى ، فضلا عما فيها من الدم الافريقى الزنجى . ومع ذلك فمصر ليست طورانية ولا أرية ولا شركسية ولا قوقازية ولا تركية ولا زنجية ، لان كل هذه الدماء الوافدة كانت تنوب اولاً باول فى البحر المصرى الكبير .

٣ — واما ان الثقافة العربية ، وقوامها اللغة والدين ، التى انتشرت منذ الفتح العربى فى ارجاء ما نسميه العالم العربى من الخليج الى المحيط ، قد اختلطت بفكرة سيادة الدم العربى على كل ما عداه من دماء سواء اختلط به أم لم يختلط ، وهو أيضا قول هراء لان فيه خلطا بين العروبة والاسلام ، فالعروبة قومية محددة بسيادة العرب قوما أو جنسا : أو أعراقا فى زمان معين ومكان معين على امبراطورية مهما اتسعت فلها نخوم معينة ، بينما الاسلام رسالة سماوية ارسلت للكافة من بنى الانسان فى كل زمان ومكان ، وهى لا تفاضل بين عربى واعجمى الا بالتقوى وهى لا تقول للصينى المسلم أو الزنجى المسلم أنت عربى لانك مسلم .

وهذا هو الجمود الذى وقعت فيه كل امبراطوريات التاريخ فتشقت داخلها القوميات المقهورة . وهذا هو عين الخطأ الذى يكرره البعثيون أو القوميون العرب فى دعوتهم الحديثة ، وهو استغلالهم لوحدة الثقافة العربية — أيا كان معناها فى أذهانهم — فى دعوة مركزية الدولة العربية ومبدأ الوحدة الاندماجية التى تهدر فيها كل القوميات ما عدا القومية العربية ، وتهدر فيها كل القضايا وكل المصالح وكل المناهج الا ما تراه قضيتها ومصالحها ومنهجها ، فغدت دعوة شقاق أكثر منها دعوة وفاق وفجرت ردود الافعال العنيفة فى كل مكان بدلا من تنمية التآلف وجمع الكلمة بين القوميات فى المنطقة العربية ، واستفزت مفكرا مثل توفيق الحكيم الى أن يعلنها صراحة : « اذن عندما نقول ان العرب أمة واحدة لها قضية واحدة ، فهو قول لا اساس له من الواقع ، لان الواقع هو ان لكل دولة عربية قضيتها ومواقفها التى تمهها فى المكان الاول » ، بل واستفزت مفكرا مثل حسين فوزى الى تصور انسحاب مصر من ارتباطاتها العربية تماما وتحول القاهرة الى جنيف تستضيف التجمعات العربية دون ان تكون طرفا فيها .

وفى عمار هذا الاستفزاز اخطأ هذان المفكران الكبيران لانهما ذهبا من النقيض الى النقيض ، ونسيا انه بالرغم من ان العرب ليسوا أمة واحدة وليسوا قومية واحدة فيها مجرد اقطار واقالم كما يذهب البعثيون ، بالرغم من تعدد قضاياهم ومصالحهم وفلسفاتهم بل ومكوناتهم الوجودية ، الا أن هناك قضية واحدة تجمعهم غاية ما تكون من الخطورة والخطر ، الا وهى قضية أمنهم القومى فرادى ومجتمعين ، واذا كان موقف دول الرفض من قضية الحرب والسلام وتنديدها باجتهادات مصر فى هذا المضمار قد زاد من فرقة العالم العربى فهذا لا يدعو الى الجنوح فى مواجهة الاخطار الخارجية من اسطورة القومية الواحدة أو الامة الواحدة الى اسطورة اعتزال كل دولة عربية داخل قوميتها والانصراف الى مصالحها المباشرة القريبة المدى .

ولكى نحس بضرورة التضامن العربى من أجل الامن العربى المشترك وأمن كل دولة عربية على حدة ، ليس من اللازم ان يكون بيننا وبين بقية العرب بعضهم أو كلهم « جيت » واحد وميزانيه واحدة « بلغة توفيق الحكيم ، أو وحدة اندماجية كوحدةنا التى قامت ثم فشلت مع سوريا ، وليس من اللازم ان يعطينا السعوديون أو الليبيون بترولهم وأن يأخذوا نيلنا ورجالنا ، وليس من اللازم أن نحكمهم من القاهرة كما فعل عبد الناصر مع سوريا أو أن يحكمونا من الرياض أو طرابلس ، وإنما يكفى ان نتعامل مع وطنى وقومى وشخصى على ادراك تام بأن كل ما نبذله من أجل الامن هو فى حقيقته من أجل أمن كل منا على حده .

فالحلفاء فى الحرب العالمية الاولى والثانية لم يدعوا انجلترا وفرنسا وأمريكا فى وحدة فيدراليه كى يضحوا بملايين البشر وببلايين الخنفيات فى قتال المحرر ودحره ، ولم يقيموا حسدا واحدا واقتصادا واحدا مع الاتحاد السوفيتى لكى يحموا امنهم من الخطر الاذلى أو الاذلى .

فالمشكلة اذن ليست فى مشكلة حياد قانونى دائم كما نجد فى توفيق الحكيم ومن ذهب مذهبه .

واما هى مشكلة تخلص العالم العربى من اساطير الوحدة والاندماج ومن اساطير العزله والاعتكاف ، وحلها هو فى بناء التضامن العربى من أجل الامن العربى والبناء العربى على الواقعية السياسية بدلا من رومانسية « الكل فى واحد » ورومانسية « البرج العاجى » . المشكلة هى عجز العرب عن ادراك مصالحهم الحقيقية وعن الاهتداء الى الطريق أو الطرق التى يحققون بها مصالحهم الحقيقية ، ومن هذه المصالح الحقيقية مصالح شعوبهم ومصالح الشعوب المكافحة معهم لحماية أمن المنطقة العربية . فمن طلاب الحرب من لا يريدون أن يدفعوا ثمن الحرب ومن طلاب السلام من يحسبون ان السلام يمكن أن يأتى بغير ثمن أو من يحسبون أن أى ثمن يمكن ان يدفع من أجل السلام .

وفى تقديرى أنه لا حرب حقيقية بغير رجل الشارع فى كل بلد عربى وبغير سلاح لا ينضب لا نتوقف لنسال من اين جاء ولماذا جاء فمن استخلص حريته بعقله وذراعه لاخوف عليه ان يستعمره الابدون . وفى تقديرى أنه لا سلام حقيقيا الا سلام القادرين على حماية حيادهم واختيارهم بين ضباغ الارض ، فبسلام الاقوياء المختارين وحده تبنى الاوطان وتجدد فيها الحضارة والحياة . أما رافضة الحرب ورافضة السلام معا فهؤلاء هم العبء الحقيقى على العالم العربى ، بين اقوالهم وافعالهم فراسخ تكفى لاحباط كل أمن وكل بناء .

الفصل الثاني

معاديات قومية (١)

منذ أن كتبت كلمتي عن « الاساطير السياسية » في افكارنا القومية .. اساطير العزلة واساطير الوحدة .. جاءتني عدة ردود .. بعضها تعقيبات وبعضها بحوث منها ما يدافع عن فكرة القومية العربية ومنها ما يجادل فيها ومنها ما ينقضها .

ولقد أسعدني بوجه عام ارتفاع مستوى المناقشة العلمية الموضوعية باستثناءات قليلة .. فانا لم اعدم من يهتمني بأني اتكلم عن القومية العربية كما يتكلم « المبشرون » الذين يسعون لنسف كيانات القومية والدينية .. أو اني اتكلم عن وعي أو غير وعي من موقع أقلية دينية تتوجس من أن يتحد العرب في كيان قومي واحد من الخليج الى المحيط .

والى هذه القلة — عفر الله لها — أقول ان التفتيش في ضمائر الناس عن دوافع خفية تدفعهم الى اعتناق المبادئ والتعبير عنها بدلا من التركيز على الحوار العلمي الموضوعي يضعف الحجة ولا يقويها ، وهو خليف بمحاکم التفتيش التي انطوت فيما انطوى من تاريخ الانسانية الحزين .. ولم تبق منها الا آثار من نالارهاب الستاليني واليهتلري والمكارثي ويكفي أن أسجل على هؤلاء انهم تركوا الفاعل الاصل في دعوة العزلة المصرية عن العرب وهو ثنائى توفيق الحكيم وحسين فوزى وأمسكوا بتلايب المتوسط المعتدل الذى يرفض الاعتزال والاندماج جميعا .

وقد انتفعت كثيرا من رد الأستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على — استاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر في الاهرام بتاريخ ١٣ / ٤ / ١٩٧٨ لاني وجدت فيه نموذجا للتحليل الموضوعي لقضية القومية العربية ومحاولة جادة لمناقشتها على أساس علمي .

واحب ان أقول ابتداء انه رغم ما يبدو من اختلاف في بعض اسس التفكير بين الاستاذ الدكتور محمد اسماعيل على وبينى .. الا أن من يتأمل كلامه وكلامى يجد أننا متفقان في كثير من المقدمات والنتائج .. وليس بيننا خلاف جوهري الا خلاف « سيمانتى » مصدره خلاف على التعريفات أو على معانى الالفاظ ، فانا استخدم مفردات اللغة مثل « القومية » و « العرقية » أو « العنصرية » و « الثقافة » و « الحضارة » و « الوطن » و « الجيوبوليتية » بمعنى ، وهو يستخدم هذه الالفاظ ذاتها بمعنى آخر — أما فيما عدا هذا من مقدمات ونتائج فثائرة الخلاف فيه أضيق ماتكون .

أنا مثلا أوافقه تماما على أن اليهود عبر التاريخ الوسيط والحديث لم يجدوا من العنت أو الاضطهاد في ظل الامبراطورية العربية أو في ظل العالم العربى الحديث عشر معشار ماوحده من عنت واضطهاد في أوروبا الوسيطة والحديثة ، بل لقد عرفوا أزمنة أيام الامبراطورية العربية والعالم الاسلامى بعامه كانوا يحتلون فيها مراكز الصدارة في الدولة العربية وفي الدولة الاسلامية . ولسا بحاجة الى شهادة حايم وايزمان أو دوحلاس هيوم أو غيرهما من المعاصرين للتدليل على ذلك فأماننا تاريخ المنطقة منذ أوسيبوس وجوريفوس في مدرسة الاسكندرية حتى شهادة ابن خلدون نحو ١٤٠٠ ميلادية ، ثم أمامنا تاريخ الدولة العثمانية منذ أن سمح الخليفة السلطان لليهود نحو ١٦٠٠ أن ينشعوا مطبعة عربية يطبعون عليها « التوراة » رغم أنه كان يحرم انشاء مطبعة عربية أو مطبعة تركية داخل حدود امبراطوريته ، حتى دستور ١٩٢٣ في مصر الذى كان يسوى في حقوق المواطنة وواجباتها بين كل رعايا مصر على اختلاف مللهم ولحلهم كما اثار الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على .

كذلك اوافق الدكتور محمد اسماعيل على على انه لا وجه للمقارنة بين دعوة القومية الآرية العرقية وبين دعوة القومية العربية كما نعرفهما في التطبيق مهما بدت في دعوة العروبة اتجاهاً عرقية من وجهة نظرى على الأقل. فليس من الضروري ان تقتري كل دعوة فاشية أو نازية ، رغم عنصريتها ، بغرف الغاز والابادة العنصرية للأقليات العرقية ، كما حدث في المانيا الهتلرية

فقد عرف العالم الحديث ألوانا من النازية والفاشية والدول الشمولية بوجه عام خلت من غرف الغاز والابادة العنصرية ومع ذلك لم تبرا من مبدا السيادة العرقية أو السيادة الحضارية أو السيادة الطبقيّة .. الخ . وكل من درس تاريخ الرينخ الثالث يعرف أن غرف الغاز لم تكن في المانيا النازية لليهود وحدهم بل كان الشيوعيون الالمان « الآريون » في مقدمة ضحاياها . ومع ذلك لم يثبت في أذهان الناس الا ابادة اليهود في المانيا النازية لان اليهود كانوا على الناس صراخا كلما مسهم اذى ، ولان الحلما المنتصرين تبوا قضايا اليهود الالمان والبولنديين ووقفوا في قضايا الشيوعيين

الاوروبيين من أعداء النازى موقف العداء أو موقف الشامتين .

ثم ان الابداء العنصرية لم تكن وقفا على النازية بل شاركت فيها الديمقراطيات بنصيب لا يستهان به ، كما حدث للهنود الحمر على يد الرجل الابيض فى أمريكا ، وكما يحدث الان للسود فى جنوب افريقيا ، ولل فلسطينيين على يد اسرائيل وعلى أيدى اعوانها فى الشرق الاوسط ، كل لاسبابه الخاصة .

فانا عندما قست اسطورة سيادة الجنس العربى على اسطورة سيادة الجنس الارى أو على اسطورة سيادة الجنس « الابيض » ، لم أكن أفكر فى أن دعاء البعث العربى يبيتون اقامة غرف الغاز للاقليات العنصرية أو لمعارضهم السياسيين أو الفكرين ، وانما كنت أفكر فى وهم اقامة القومية العربية على العروبة العرقية التى تشمل كل قوميات المنطقة من الخليج الى المحيط .

وواضح من كلام الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على انه ينكر انكارا تاما أن دعاء القومية العربية يؤسسون دعوتهم على وحدة الاعراق العربية من الخليج الى المحيط ، فهو يقول :

« ولقد حاولت ان ابحث عن تأصيل عرقى لدعوة القومية العربية التى بزغت فى صورتها الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الان ، فلم أعث على رأى له وزن علمى ، يؤصل فكرة العروبة تأصيلا عرقيا أو جنسيا ، بل على النقيض من ذلك تماما ، اذ يقوم المفهوم الاصيل للقومية العربية على الاشتراك فى الاقليم واللغة والتاريخ المشترك ولم تطرح على الاطلاق مقولة وحدة العرق أو الجنس فى أى مرحلة من مراحل الدعوة الى القومية العربية » .

فاذا كان الامر كذلك فالاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على وأنا على اتفاق عظيم ، ولا أقول على اتفاق تام . فيما يمس جوهر الموضوع وأنا أول من يمتنى أن تصفى دعوة القومية العربية من فكرة الوحدة العرقية .

ولكن الأمر ليس كذلك على وجه الدقة ، كما يتضح مما يلى :

اذا كان حقا أنه « لم تطرح على الاطلاق مقولة وحدة العرق أو الجنس فى أى مرحلة من مراحل الدعوة الى القومية العربية » ، فكيف اتفق أن مؤسسى هذه الدعوة وهم اصحاب « البعث العربى » يبدأون تاريخ المنطقة من الخليج الى المحيط منذ الفتوحات العربية العظمى وكأنما تاريخ المنطقة كلها لم يبدأ الا منذ بزغ نجم العرب فى السياسة العالمية ، أو كأنما سومر وبابل وأشور فى الطرف الشرق منها وفينيقيا وأرض كنعان ومصر القديمة فى وسطها ومعين وقتبان وسبا وذو ريدان فى جنوبها ونوميديا « ليبيا » وقرطاجة وموريتانيا فى غربها لم يكن لها تاريخ قبل ذلك التاريخ بألاف السنين . أليس من العرقية هذا التركيز على بداية التاريخ القومى فى المنطقة بانتفاضة العرب التاريخية فى القرن السابع الميلادى وما بعده مع اهدار تاريخ المنطقة وحضاراتها قبل ذلك .

وفي مكتبتى عشرات الكتب الحديثة بعضها عن التاريخ العربى وبعضها عن الادب العربى وبعضها عن اللغة العربية ، وضعها علماء اجلاء تفيض بالنزعة العرقية فى فهم معنى العروبة .

وقد بدأت اتنبه الى هذه الظاهرة منذ ربع قرن حين قرأت كتابا جليلا للدكتور جواد على عن تاريخ العرب القديم واذا بى افاجا بأن كثيرا من المشقة العلمية التى تكبدها هذا الاستاذ الجليل كانت موجهة الى اثبات ان الحياة الانسانية والحضارات الانسانية قد نشأت فى شبه الجزيرة العربية ومنها انتشرت فى كل مكان فى العالم القديم ، مستخدما فى ذلك نظرية الجفاف الصحراوى المعروفة وما سبقها من تغيرات جيولوجية ومناخية حتى لقد صور ان الانسان الأول نشأ فى جنوب الجزيرة العربية ونقل مكان جنة عدن الاولى الى منطقة عدن عند باب المندب كأنما صحراء الجزيرة العربية هى الصحراء الوحيدة فى العالم التى اصابها الجفاف فى تلك العصور الجيولوجية السحيقة .

وأمامى الآن الجزء الاول من كتاب العالم الجليل الدكتور ناجى معروف الاستاذ بجامعة بغداد ، وهو كتاب « عروبة العلماء المسوين الى البلاد الاعجمية فى المشرق الاسلامى [١٩٧٤] وفيه رصد لاسماء ٣١٣ عالما من علماء التراث الاسلامى عاشوا بين ٦٥٨ و ١٠٤٨ ميلادية ، أى نحو أربعة قرون والقباهم كلها من نوع الرومى والخراسانى والقزوينى والاصفهانى والبخارى والجرجانى والتيسابورى والرازى والمروى والبلخى والطرسوسى والسمرقندى والسجستانى والشيرازى الخ .. الخ .. وقد تقصى المؤلف أنسابهم فوحدهم عربا من قریش أو تميم أو مضر أو ربيعة أو ثقیف أو شیبان أو عبد شمس أو مخزوم أو الازد أو سى عامر أو الانصار .. الخ .. الخ . كل ذلك ليرد على قول ابن حلدون وسواه ان اغلب حملة العلم فى التراث الاسلامى كانوا من العجم ، وهو مبحث غريب لانه يجرّد غير العرب من أى اضافة الى الثقافة الاسلامية من جهة ويفترض أن الجنس العربى يبقّى عربيا حتى ولو عاش قرونا فى بلاد الاعاحم ، رغم مرور اجيال من التزاوج والانجاب من أهل الامصار التى انتقل العرب اليها ، مع التسليم بصدق هذه الانساب فى ارومتها الأولى . وعلى كل فالكتاب مهدي « الى كل من شرفه الله بالانتماء الى العرب نسبا أو ولاء أو ثقافة » رغم انهم علمونا ان الاسلام يهى عن التباهى بالانساب لانه من شيم العنجهية الجاهلية العرقية .

فهل قد غاليت كما يذهب الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على حين ذكرت أن دعوة القومية العربية قد اقترنت بزعة سيادة العرق العربى والثقافة العربية على اعراق القوميات الاخرى وثقافاتها ؟

من أجل هذا أنا اقول لسيدى الكريم الاستاذ الدكتور محمد اسماعيل على : كلا يا سيدى ، أنا أتكلم عن القومية المصرية بوصفها شيئا مستقلا عن القومية العربية — التى لا أفهمها خارج الجزيرة العربية ، فهذه وحدها عندى هى الامة العربية بأى تعريف علمى ، ولا أتكلم عن الاقليات العنصرية المتناثرة هنا وهناك فى مختلف ارجاء العالم العربى كالاكراو والدروز ممن ذكرهم وممن لم يذكرهم بادراجهم تحت تعريف الاقليات وكل من تفضل الاستاذ الدكتور فحددها وفقا لتعريف اللجنة

الفرعية لحقوق الانسان التابعة للامم المتحدة في دورتها الرابعة في الفترة من ١ الى ١٦ أكتوبر ١٩٥١ بأنها :

« الجماعات التي لها أصل عرقى ثابت وتقاليد دينية ولغوية وصفات تختلف بصفة واضحة عن بقية الشعب الذى تعيش فيه . يجب أن يكون عدد هذه الاقلية كافيا للحفاظ على تقاليدها وصفاتها كما ؛ يجب أن تدين ، بالولاء للدولة التي تتمتع بحسبيتها » .

وأنا لا أدري لماذا انصرف ذهن الاستاذ الدكتور محمد اسماعيل على الى « الاقليات » العرقية والدينية واللغوية وأنا أتحدث عن القومية العربية والقومية المصرية وعن الامة العربية والامة المصرية ، فمن غير المعقول أنه يعد الاربعين مليوناً من المصريين وسط العالم العربى الكبير اقلية عرقية ودينية ولغوية . وفي الوقت نفسه أنا أجعل سيدى الكريم عن أن تكون اشارته من طرف خفى الى أنى انتمى الى « الاقلية » القبطية فى مصر أو أنى متأثر بعقلية الاقليات لمجرد انى ارفض مقولة لا أفهمها هي مقولة « القومية العربية » .

وفي جميع الاحوال ، فليسمح لى سيدى الكريم ان اطمئنه الى أن أقباط مصر لا ينطبق عليهم أى ركن من أركان تعريف الاقليات الذى نصت عليه لجنة حقوق الانسان .

أولاً : لان الاقباط ليسوا جماعة لها أصل عرقى ثابت يختلف بصفة واضحة ولا بصفة غامضة عن بقية الشعب المصرى الذى تعيش فيه . فمعروف أن المصريين ، مسلموهم كأقباطهم تنحدر أعراقهم الأساسية عن قدماء المصريين ، فأن كانت فى هؤلاء أو أولئك دماء وافدة فقد ذابت فى البحر المصرى الكبير .

ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن « عنصرى » الامة المصرية ، فالامة المصرية ليس فيها الا عنصر واحد يتجلى فى الاغلبية الساحقة من أبنائها أيا كان دينها . وانما خرافة العنصرين نزلت الينا من زعم الاقباط أنهم وحدهم من سلالة قدماء المصريين وأنهم اصحاب مصر الاصليين ، ومن زعم المسلمين أنهم من سلالة العرب الشريفة ، فى حين ان الانثروبولوجيا الجنسية لا تميز بين هؤلاء وأولئك لا فى مقاييس الجماجم والانوف والعظام ولا فى نسبة تجلط الدم ولا فى خواص الشعر الخ .. بينما هي تميز فى كل هذه الخصائص السلالية بين المصريين عامة وبين جيرانهم من شعوب غربى آسيا فى الشام والعراق والجزيرة العربية . الجغرافيا الجنسية تعلمنا أن المصريين منذ أقدم العصور فى الأساس سبيكة من السلالة القوقازية المعروفة بالمتوسطة السمراء الوافدة بحسب كلام فلندرز ييتري وسواه من الصحراء الكبرى ومن السلالة النيلية ، وهم غير الزوج ، التي نجد بقاياها فى قبائل الشلوك والدنكا والنوير فى اعلى النيل وهم من غير الزوج ، أما غير ذلك ففروع لا أصول . الكثرة المطلقة من المسلمين أقباط اعتنقوا الاسلام قرناً بعد قرن منذ الفتح العربى : وحكاية عمر بن عبد العزيز معروفة ، وهى أنه عندما كثر دخول المصريين دين الاسلام فى أيامه نقصت حصيلة الجزية فاستأذن عامل مصر فى أن يمنحهم من ذلك تأسيساً على أن الاسلام دين عربى أرسل للعرب ، فنهزه

عمر بن عبد العزيز وكتب اليه يقول : « ان الله أرسل محمدا هاديا لا جاييا » ..

وثانيا : لان الاقباط ليسوا جماعة لها تقاليد لغوية وصفات تختلف بصفة واضحة أو غامضة عن بقية الشعب الذى تعيش فيه ، فهى تتكلم عربية مصر العامية وهى تكتب وتقرأ العربية الفصحى والتراث العربى ، وهى قد تخلت عن اللغة القبطية حين تخلى المسلمون عنها لا لشيء الا لأن المصريين من عجينة واحدة ، ولست اعرف ان للأقباط « صفات » خاصة يختلفون بها عن المسلمين .

وثالثا : لم يبق الا المعتقدات والتقاليد الدينية ، فهذه وحدها يختلف فيها أقباط مصر عن مسلميها ، وحتى فى هذه الحدود فمعروف للخاص والعام أن الكنيسة المصرية كنيسة قومية لا تعرف لها أبأ روحيا إلا بابا الاسكندرية ، وانها نشأت قبل أن تنشأ كنائس العالم اجمع بما فى ذلك الفاتيكان أو كنيسة القديس بطرس وانها فى عقائدها متممة من سائر كنائس العالم بالاسراف فى التوحيد أو ما يسمونه « المونوفيزية » أو الايمان بالطبيعة الواحدة ، ومهمة بالاسراف فى تقديس مريم الى حد وصفها « بالماريولوجية » ، بل معروف للخاص و العام أنه فى كثير من الشعائر الدينية ولاسيما طقوس الموت والميلاد والاحصاف والسحر والشفاعة ، وبعض الاعياد لا فرق هناك بين قبطى ومسلم فى التقاليد والعادات ، لان اكثرها نزل الى المصريين مع موروثات مصر القديمة . فالاقباط إذن ليسوا أقلية بتعريف لجنة حقوق الانسان كالأكراد فى العراق والارمن فى الدولة العثمانية والدروز فى لبنان الخ .. لأن وحدة العرق ووحدة اللغة فضلا عن انسجام التقاليد والثقافة تجعل من الامة المصرية سبيكة واحدة رغم أن أبناء كل ملة فيها لا يتزاجون مع الآخرين الا غرارا ، بحيث لا تميز بين المسلم والقبطى الا بمعونة دلالات عرضية ، ولا حواجز بينهما الا عند المتعصبين فى الدينين .

وما دام الأمر كذلك فالاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على قد جانب الصواب حين نهى بأنى أتحدث عن « الاقليات » فى حديثى عن « القوميات » . فاذا كان رأيه فى الاربعين مليوناً من المصريين أنه لم تكتمل لهم بعد ، أو لم تكتمل لهم فى يوم من الأيام ، شروط القومية المصرية ، فهو طبعاً حر فى اعتقاده ولكنى لا أشاطره هذا الاعتقاد .

وقد لاحظت على الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على أنه قد توخى فى تعريفه لمقومات القومية العربية نفيه البات لاي مفهوم عرقى فيها وتجنبه الاشارة الى أى مفهوم دينى فيها ، ويفهم من هذا أنه يسلم ابتداء بأن أقوام العالم العربى من أعراق متباينة ، وهو صحيح علميا ، ويفهم منه ايضا انه لا يشترط وحدة الدين كعنصر من عناصر القومية ، وهى فكرة راقية اهتمت اليها الامم المتعدنة فى صورة الدولة العلمانية التى تتعايش وتخل فيها الأديان و « المواطنة » محل وحدة الدين ووحدة الجنس بعد تجارب مريرة من اضطهاد الاقليات الدينية ، ولكنه غير صحيح تاريخيا لان القومية لم تخل فى أية مرحلة من تاريخها من وحدة الجنس أو العرق بالاصالة أو بالانتماء بالجنس وفى تعريفه يقول : « يقوم المفهوم الاصيل للقومية العربية على اساس الاشتراك فى الاقليم واللغة والتاريخ المشترك » . وهذا قول بحاجة الى تحليل لأنه من جهة تعريف ناقص للقومية ، ومن جهة أخرى تعريف مستقبلى

يقوم على الامانى اكثر مما يقوم على الواقع .

فمنذ متى كان هناك اشتراك فى « الاقليم » فى هذا الوهم أو الحلم الكبير الذى يسمى « الوطن العربى » فى ظل الاستعمار الامبراطورى أيام التوحدة والمناخنة والرماسنة والاشورىين والرومان وبيبرنة ، أو فى ظل الدولة الدينية أيام الخلافة الاموية والخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والخلافة العثمانية . بعبارة أخرى ان المنطقة من الخليج الى المحيط لم تتوحد الا فى ظل الاستعمار الامبراطورى من داخلها أو من خارجها أو فى ظل الدولة الدينية الجامعة وإذا كان التوحيد بالخلافة غير مطروح فى زماننا ، وإذا كان الاستعمار من الخارج مرفوضا رفضا باتا ، لم يبق أمامنا الا الاستعمار الامبراطورى من داخل العالم العربى . وأنا أسمى الاشياء بأسمائها : قوة عظمى من داخل العالم العربى لها قدرة الاجتياح والتوحيد تحقق « وحدة الاقليم » هذه التى يسمونها «الوطن العربى» . بعبارة أخرى تكرار تجربة محمد على وعبد الناصر .

فهل هذا هو المطلوب ؟ لا بأس ، ما دمنا نصر على الاسترسال فى الاحلام باهظة الثمن . ولكن من ذا الذى سيسمح لنا بتكرار هذه التجربة ؟ القوتان النوويتان ؟ أم تاعهما قفة ، أوروبا بشرقيها وغربيها ؟ وهل نحن نعيش فى فراغ دولى حتى يجوز لنا ان نجدد هذه الاحلام الكبيرة ؟ ثم ليس يجدر بنا أن نكون أكثر تواضعا فى حالتنا الزرية الراهنة ونركز على هدفين أقل شموخا وهما (١) احتواء اسرائيل (٢) بناء أنفسنا ؟

أكاد اقول ان الزميل الكريم الدكتور محمد اسماعيل على متفق معى فى هذا التصور المتواضع لواقعنا رغم دفاعه الحار عن « القومية العربية » فهو ينتهى فى مقاله الى قوله :

« ولكنى أضيف شيئا هاما وضروريا هو أن التسليم بوجود الامة العربية لا يعنى بالحلم والضرورة وجوب توحيد هذه الامة فى شكل دولة واحدة . ذلك ان الدولة ليست هدفا للقومية ، انما هى أداة لتحقيق المصالح الذاتية لهذه الامة حينما تفتقد الوسائل الأخرى لتحقيق هذه المصالح » . بل ويضيف أن من حق كل دولة عربية أن تحافظ على استقلالها السياسى « وأن تبأشر أمور الحرب والسلام بنفسها » ، وأن تعقد سلاما مع اسرائيل اذا رأت أن مصلحتها الذاتية فى ذلك ، وأن تتصرف فى ثرواتها الخاصة ولكن بطريقة لا تضر بشقيقاتها الدول العربية وأن تبأشر كل التصرفات التى تسهم فى تقدم شعبها ونموه أولا ، لان كل دولة مسئولة أولا عن شعبها ، وثانيا أمام الامة العربية .

فماذا بقى فى « القومية العربية » بعد كل هذه التحفظات بالتخفيف من فكرة الدولة الواحدة والجيش الواحد والاقتصاد الواحد والسياسية الخارجية الواحدة ، ومن فكرة الوطن الواحد اجمالا ؟ هى مجرد حلم جميل من احلام اليقظة ، نعرف جميعا انه من أحلام اليقظة ، ومع ذلك لا نريد أن نتخلى عنه ، رغم ان بائع الاحلام قد رحل عنا ، ورغم أن سوق الاحلام قد رفعت منذ ١٩٦٧ ؟ ولم كل هذا الاحتجاج لاني وصفت حلم اليقظة هذا بأنه اسطورة سياسية رغم أن الاسطورة أرقى

درجة من حلم اليقظة الذى نعرف انه حلم يقظة ، فالأسطورة على الاقل وهم لا يعرف صاحبه انه يتوهمه أما حلم اليقظة فهو وهم يعرف صاحبه أنه يتوهمه .

ثم هل أنا أعالى لو قلت ان الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على ، رغم رفضى لفكرة « القومية العربية » ورغم تسليمه بصحتها ، اكثر انغزالية منى وأكثر انسحابا من المجموعة العربية وأقرب منى الى موقف الكاتين الكبيرين توفيق الحكيم وحسين فوزى بعد كل هذه التخففات الجامعة المانعة من كل التزاماتنا نحو العرب بما فى ذلك التزام الامن القومى الذى أثرت ان أتقيد به لصالح مصر ولصالح العرب جميعا ، للأسباب الجيوبوليتية التى ذكرتها فى مقالى وليس بوحى من فكرة القومية العربية ؟

على كل حال أجدنى والزميل الكريم الدكتور محمد اسماعيل على متفقين تماما على الاقل حين أقرأ عبارته : « أما مسألة الوحدة العربية فلا ينبغي أن تكون هدفا يعمينا عن واقعنا المهلهل تكنولوجيا واقتصاديا ، لان الوحدة بين الضعفاء ضعف فوق ضعف فوق ضعف أما وحدة الاقوياء فهى قوة ؟ » هنا أحس أننا نتحرك معا على أرض الواقع المصرى وعلى أرض الواقع العربى الذى أحب أن أضيف — بعد اذنه — أنه مهلهل أيضا حضاريا وثقافيا واجتماعيا واخلاقيا بما يضاعف من مسئولية الطليعة المثقفة على رأس كل طبقات الامة أن تبحث عن صيغة جديدة للعقد الاجتماعى الذى يربط المواطن بالمواطن ويربط الحاكم بالمحكوم . وهما نعرف أننا نتفق أو نختلف لا على رنين الالفاظ ولكن على المعانى التى يقوم عليها نسيج الحياة .

الفصل الثالث

معنى القومية (١) (١)

لكثرة ما كتب في الايام الاخيرة حول موضوع « حياد مصر » وموضوع « القومية العربية » أخذت المناقشة العقلانية الهادئة التي بدأها الاستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى وحاول الدكتور وحيد رافت والدكتور محمد اسماعيل على « الاهرام » عدد ١ / ٥ / ١٩٧٨ [١٠٧٨] والاستاذ رجاء النقاش [« المصور » عدد ٢١ / ٤ / ١٩٧٨] . وقلمى المتواضع ، أن يجتهدوا فيها وأن يؤصلوها على أساس علمى موضوعى ، أخذت هذه المناقشة تنجرف في اتجاه العاطفة والحساسيات السياسية والاستصراخ والاستنفار . وبدأت القضايا الاساسية المطروحة للبحث تختلط وتتوارى ملامحها وتستوعب قضايا ملتهبة كقضية الناصرية التي أثارها الدكتور يوسف ادريس في « اهرام » ٢٢ / ٤ / ١٩٧٨ ، أو قضية الفيصلية التي طرحها الدكتور ميلاد حنا في « الجمهورية » ، عدد ٢٤ / ٤ / ١٩٧٨ ، أو قضية تسليية الجماهير وصرفها عن واجباتها الوطنية التي اثارها الدكتور عبد العظيم رمضان في « الجمهورية » عدد ٢١ / ٤ / ١٩٧٨ ثم أخيرا قضية « الشعور » وقضية الالف وخمسةائة سنة ، عند الاستاذ أحمد بهاء الدين [« الاهرام » ٧ / ٥ / ١٩٧٨]

(١) « الأهرام » ١١/٥/١٩٧٨ .

وبهذا تنتقل بسرعة شديدة من مستوى الفكر السياسى الذى يتقنه بعضنا الى مستوى السياسة العملية التى يتقنها بعضنا الاخر قبل ان نتفق على معانى الالفاظ التى نتداولها ، فنتقطع الخطوط والاسلاك بين المرسلين والمستقبلين ويستمر اللاتفاهم بيننا ويستحيل التوصل الى حدادى من الارضية المشتركة . ولو أننا استخدمنا العقل الهادىء بدلا من الانفعال الملتهب ، واعتبرنا أننا جميعا باحثون عن الحقيقة ولسنا اطرافا فى خصومة فكرية أو سياسية ، فربما اكتشفنا أن الهوة بيننا أضيق مما يبدو الان . وأنا شخصا لست داعية تطابق فى الافكار أو فى المنظور ، ولكنى اطالب أولا بأن يفهم كل منا صاحبه على أقل تقدير .

من أجل هذا اجد ان من واجبي أن أجرب مرة ثانية ، وابدأ منذ البداية . ولتكن البداية هى تعريف « القومية » .

« القومية » كلمة عربية مستحدثة لم يعرفها العرب الاوائل ولم تستجد فى اللغة العربية قبل القرن التاسع عشر كترجمة لكلمة Nationalism .. وقد عرفت العربية الفصحى تعبيرين أقرب ما يكون الى معنى « القومية » بالمدلول الحديث ، هما كلمة « الشعبوية » التى شاعت فى العصر العباسى للدلالة على ثورة « القوميات » على الخلافة « العربية » باعتبار أن وحدة الدين الاسلامى لا تبرر سيادة الجنس العربى واستثارته بالحكم المركزى ، وكلمة أو اصطلاح « العصبية » أو « العصبية الجامعة لكل العصابات » الذى نجاه فى « مقدمة » ابن خلدون كأساس لوحدة المجتمع على أساس العرق أو الجنس بديلا عن الجامعة الدينية كأساس لوحدة المجتمع .

« والعصبية » من « العصب » طبعاً وبذلك يتضمن معناها بالضرورة معنى وحدة العرق أو الاعراق ، أو وحدة الجنس كما نقول الان فى لغتنا السلسة فهى اساس « الجنسية » . أما كلمة « قوم » التى اشتقت منها كلمة « القومية » الحديثة فهى كلمة عامة كانت تعنى أيام العرب الاوائل « الناس » كما فى قولهم « يا قوم » ، وقد تعنى جماعة أو مجتمعا مترابطة بالدم أو بغيره كما فى « قوم لوط » وحجمها غير واضح ان كان « العشيرة » أو « القبيلة » أو « الأمة » أو كل هذه الاشياء . ومع ذلك فهى تفى بالغرض الذى تفى به كلمة « العصبية » بل وتفضلها فى التعبير عن الكيان الاجتماعى لخلوها من العنجهية .

وكلمة nationalism الاوربية بمعنى « القومية » المحدد كلمة حديثة أيضا استخدمت لأول مرة عام ١٧٩٨ كما يقول العلامة اللغوى السويسرى فالترفون فارتبورج فى قاموسه الاشتقاقى فى اللغة الفرنسية [أنظر ايضا « قاموس روبير »] . ومع ذلك فكلمة nation فى اللغات الاوربية الحديثة التى نترجمها عادة بكلمة « أمة » اقدم من ذلك بكثير ، اذ نجدها فى فرنسية القرنين الثانى عشر والثالث عشر [عام ١٢٧٠] بمعنى « ميلاد » وبمعنى « سلالة » أو جنس race .. والكلمة لاتينية الاصل من كلمة « ناتيو » natio [وجمعها nationes] اللاتسة بمعنى « ميلاد » وصيغة منها ناسكو أو « ناسيو » Nascio ، وفعلها « ناسكور » nascor بمعنى « بولد » « ناتيو »

مستخدمة بدرة منذ شيشرون على الأقل في القرن الاول ق . م . بمعنى « سلالة » أو « جنس » ، واحيانا بمعنى « قبيلة » وأحيانا « عشيرة » أو « أسرة » ، وكان شيشرون وغيره يستعملونها بمعنى يتضمن الزراية عندما يتكلمون عن القبائل البعيدة المتبررة . ومن هنا فهي تعنى « قوم » بالمعنى البدائى . [قارن « اثنوس » اليونانية] . على كل حال فافترائها بكلمة « ناسيو » بمعنى « المولد » يؤكد معناها العرق .

ومن هذا نجد أن كلمة nation بمعنى « أمة » ، وكلمة nationalism بمعنى « قومية » ، في اللغات الاوربية قديمها وحديثها ، تتضمن دائما معنى وحدة العرق أو السلالة أو الجنس ، مهما كان مختلطا ، ولا سبيل الا استبعاد فكرة العرقية أو العنصرية أو الانتماء الى جنس واحد بسيط أو منصهر من مفهوم هذين اللفظين ومن مفهوم مرادفهما في العربية الحديثة .. وقد كان من عربوا كلمة nationality بكلمة « الجنسية » على صواب في هذا التعريب وعلى دراية باصل الكلمة وتاريخها ودلالاتها .

فمعنى وحدة العرق أو العنصر أو الاصل اذن معنى ملازم لفكرة « القومية » وللفكرة « الأمة » . واذا نحن قلنا أن وحدة العرق هي احدى مقومات « القومية العربية » فليس في هذا الكلام مدعاة للغضب أو للانزعاج ، لان وحدة الاصل هذه هي احدى مقومات كل قومية في تاريخ الانسانية ، بل لعلها المقوم الاساسى في فكرة القومية لان الانتماء الى مجموعة بشرية واحدة تربطها علاقة الدم بالمعنى الواسع طبعاً هو الذى يحدد تماسك هذه المجموعة في مجتمع واحد ويحدد تحركاتها الجماعى في بلاد الارض أو ثباتها على رقعة معينة من الارض هي التى تعرف بالوطن . وهو الذى يفسر ويعطى معنى لاشتراك أبناء هذه المجموعة المتأسكة كرجل واحد في اعمال السلم والحرب وفى جهود الحضارة والبناء واشتراكهم فى المصير وكل ما نسميه « وحدة التاريخ » . وهو الذى يفسر ويعطى معنى لاشتراك ابناء هذه المجموعة فى اللغة والدين والثقافة بوجه عام .

فالقول اذن بأن القومية العربية أو القومية المصرية أو أية قومية فى التاريخ ليست مؤسسة على وحدة العرق تخوف فى غير موضعه ، لان ما تدينه الانسانية والاديان ليس الانتماء الى جنس معين ولكن نعمة الشعور بأن هذا الجنس أرقى أو اشرف بالوراثة من غيره من الاجناس ، أو أنه جنس الله المختار كما يقول اليهود عن انفسهم . والخلو من الشعور بالانتماء الى أى جنس أو عنصر أو سلالة ، أى جماعة بشرية مترابطة فيه درجة من درجات الضياع شبيهة باحساس اللقطاء أو الايتام أو من لا أسرة لهم ولا أهل ولا أقرباء .

والشعور بالقومية اقدم من الشعور بالوطن ، لان الاقوام عاشت فى عصور الصيد ثم الرعى متنقلة بغير وطن محدد ، وهى لم تعرف الوطن الا بالاستقرار بعد اكتشاف الزراعة . ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان نتحدث عن القومية الا مقترنة بظهور درجة كافية من التنظيم الاجتماعى والسياسى داخل المجموعات البشرية يجعل كلا منها متأسكا ومدركا لضرورة تماسكه ولاسباب هذا

التماسك ، ولاختلافه عن المجموعات البشرية الاخرى . فالقومية اقدم نشأة من الوطنية والوطنية أكثر رقيا من القومية لان المدنية لا تظهر حقا الا ببداية حياة الاستقرار بين الشعوب وبداية تكوين « الامم » بالمعنى الراقى .

ومع ذلك فقد عرف التاريخ قوميات بلا أوطان في عصور الهجرات الكبرى فيما قبل التاريخ وعبر التاريخ القديم والوسيط كتحرركات الهكسوس والحيتيين والاغريق والرومان الاولى ثم كتحرركات القوط والفندال والهون والاقوام السلافية وكتحرركات التتر والمغول وكان آخر نموذج للقوميات التى تعيش بلا وطن ثابت يهود العالم بعد « الدياسورا » أو التشتت . أو فلنقل أنها كانت قوميات تبحث عن أوطان لأن أوطانها الاولى جف ضرعها وأصحت غير ملائمة للحياة ، فالرابط بين الانسان والانسان لم يكن عندئذ وحدة الوطن ، ولكن وحدة الدم .. وهذا هو السبب فى ان كل قومية من هذه القوميات القديمة كانت تفترض انها تنحدر من جد واحد اعلى مثل جرايكوس أبو الاغريق أو هيللين أبو الهيلينيين أو رومولوس أبو الرومان أو يعرب بن قحطان أو عدنان الخ ... وبعضهم جعل نسبه فى السماء ، وفى كثير من الاحوال كان هذا الجد الاعلى أو مؤسس القوم eponym شخصا اسطوريا .

وقد كانت اديان التوحيد خطوة الى الامام فى طريق الانسانية لانها أبرزت وحدة الجنس البشرى بنسبته الى آدم وحواء لتحل مشكلة القوميات المتناحرة .. وكان هذا جوهر محنة اخناتون . وكل قومية تبحث دائما أبدا عن وطن تستقر فيه ومنه تبدأ حياتها المدنية بالمعنى المتعارف عليه ، والا هلكت واندثرت وكان مصيرها مصير مجتمعات الثمل والنحل لا تعرف لنفسها رابطا اجتماعيا الا وحدة العنصر ، التى قد تكون لازمة للبقاء على المستوى البيولوجى ولكنها غير كافية على المستوى الحضارى . ومن هنا كانت القومية فى صورها الاولى اقرب الى الفطرة وأكثر سذاجة وعدوانية من الوطنية ، لان الحضارة بأى معنى حقيقى لم تبدأ الا باستقرار القوميات فى أوطان ثابتة .

وكثيرا ما كان يحدث ان الاقوام الغازية حين تستقر فى الاوطان المفتوحة تنسب الوطن الى القوم لا القوم الى الوطن ، فالانجلو سكسون حين فتحوا بريطانيا — بلاد البريتون بين ٥٠٠ و ٦٠٠ ميلادية سموها « انجلاند » أى ارض الانجليز [انجلترا] ، وبقيت كلمة « بريطانيا » فقط كتعبير سياسى شامل لاسترضاء السكان الاصليين . وكذلك الفرنجة أعطوا أسمهم لفرنسا بعد أن كان اسمها « جاليا » ، وقبائل « الالمانى » اعطوا اسمهم لالمانيا أو جيرمانيا ، وهكذا .

ولم ينجح غاز فى أن يغير اسم « ايجيبت » [هت كا بتاح أى « قصر روح الاله بتاح »] ، ولم ينجح غاز فى أن يغير اسمها الاخر « مصر » [« بير اوسير » أى بيت الاله أوزيريس] ، وقد بقيت منه آثار فى اسم « بوصير » أو « ابو صير » [التى كان اليونان يسمونها « بوزيريس » .. لم ينجح فى تغيير اسم مصر الا ابن من ابائها حاسبا أنه يستطيع بذلك ان يصبح امبراطور العرب ،

ولكنه خرج من ذلك صفر اليدين .

فالقومية الراقية اذن لم تبدأ الا حين اقترنت بالوطنية ، بل لم تبدأ الا حين ظهرت الدولة المركزية وحل فيها حكم القانون والمؤسسات محل ارادة الحاكم والعرف والتقاليد ، وتحول فيها القوم من مجرد قطع يرعاه ويهشهم بعضاه ، الى مجرد « رعية » ، الى « أمة » فيها « مواطنون » لا رعايا . ولهذا كان من تعريفات « الامة » أنها شخصية قانونية مكونة من مجتمع يسوده دستور واحد وقوانين واحدة وسيادة لا تتجزأ على أرضه ومواطنيه . فالمصريون مثلاً لم يكونوا أمة أيام حضارة نقادة أو البداري أو دير تاسا أو مرمدة بنى سلامة في عصر ما قبل الاسرات . بل لم يكونوا أمة قبل ان يوحد مينا أو عرمرر الوجهين ويقم في مصر الدولة الواحدة ، بل كانت شعبي ودولتين ومن قبل ذلك كانت شعوبا ودويلات .. وبالمثل فالعرب لم يصبحوا أمة قبل ان يوحدهم النبي بل كانوا قبائل متفرقة . والفرق كان باختصار ظهور الدولة الواحدة والوطن الواحد .

وبهذا المعنى نحن لا نستطيع ان نتكلم اليوم عن « الامة العربية » وعن « الوطن العربي » الا بعد زوال الحدود السياسية داخل العالم العربي وقيام الدولة المركزية الواحدة التي يحكمها دستور واحد وقوانين واحدة وتكون صاحبة سيادة لا تتجزأ على كل أراضيها وكل مواطنيها . وهذا لا وجود له في الحاضر ، وهو على أحسن الفروض مرهون بالمستقبل لو توافرت شروط تحققه . أما قبل ذلك فهو مجرد أمل عند البعض ومن غير المعقول أن يستمر في التعامل مع الاحلام أو الاماني تعاملنا مع حقائق الواقع . وقد كان عبد الناصر نفسه أول من ادرك هذا الخطأ بعد انفصال سوريا وعبر عنه في الميثاق بشعار « حرية ، اشتراكية ، وحدة » ، أى انه أرجأ فكرة الوحدة الى ما بعد تحرير كل دولة في العالم العربي ، الى ما بعد سيادة نظام واحد فيها جميعا ، ثم بعد ذلك تكون الوحدة . أى انه أرجأ الوحدة الى أحل غير مسمى لادراكه أن مقوماتها غير متوفرة أو لن تتوفر الا في المستقبل البعيد ، ربما بعد مئات من السنين .

فأول مظهر من مظاهر القومية العربية ظهور الدولة المركزية الموحدة صاحبة الولاية التي لا رجعة فيها على بلاد العالم العربي ، على الأقل في الدستور والقوانين الاساسية ونظام الحكم والاقتصاد والجيش والسياسة الخارجية . قبل هذا لا مجال للكلام بأى معنى علمي وبأى معنى رسمي عن الامة العربية وعن الوطن العربي . ومع ذلك فنحن نتحدث عنهما كأنهما حقيقة واقعة ونعلمهما للتلاميذ في المدارس ونشير اليهما في اجهزة الاعلام وفي البيانات الرسمية وفي الخطب السياسية وفي الابحاث الجامعية وفي المؤلفات الادبية وفي المراسلات الدبلوماسية ، نتكلم وكأن هناك قومية عربية فعلا وكان هناك أمة عربية فعلا وكان هناك وطنيا عربيا فعلا ناسين ان للقومية معنى محددا وأن للامة معنى محددا وللوطن معنى محددا ، وهكذا نخلط الاماني بالواقع ونكذب على انفسنا وعلى الغير ، لان كل دولة من الدول العربية تتصرف في نهاية الامر تصرف الدولة القومية داخل نطاق سيادتها على اراضيها وعلى مواطنيها ، ولم نر بعد دولة عربية نزلت عن شر من هذه السيادة لغيرها من الدول العربية رغم

كثرة حديثنا عن الوحدة وعن القومية المشتركة .. وسوف يؤدي هذا الى انقسام الشخصية وبلبلية الهوية ، ان لم يكن ضياع ما هو يقينى منها جريا وراء ما هو افتراضى ، وهذا ما سميت من قبل الاسترسال فى احلام اليقظة المرادف للمراهقة السياسية وهو الاصرار على احلام سياسية لانفعل شيئا لتحقيقها بل ونعلم انه لا سبيل الى تحقيقها بسبب كثرة التناقضات من الداخل ومن الخارج ، الا بظهور قوة قاهرة من داخل العالم العربى تقيم فيه هذه الدولة المركزية .

خذ مثلا نموذجا واحدا يوضح هذه التناقضات من الداخل : كل دولة عربية لديها حصتها من اللاجئين أو المهاجرين الفلسطينيين ، منذ نكبة ١٩٤٨ . ومع ذلك فكل بلد عربى حريص على أن يعامل من فيه من الفلسطينيين معاملة الضيوف الاجانب ، ضيوف من الدرجة الاولى حقا ، ولكنهم فى نهاية الامر اجانب . فلو كنا جميعا عربا حقا ولو كانت هناك قومية عربية حقا ، فلم كل هذا الاصرار على حجب صفة المواطنة عن الفلسطينيين فى كل بلد يعيشون فيه ضيوفا ، وكأنهم اقلية قومية مستقلة فى كل وطن عربى يعيشون فيه .

والاصل فى القومية فى ابسط صورها كما رأينا هو وحدة العرق أو الجنس التى تتبعها عادة وحدة الثقافة [اللغة والدين والتقاليد والعادات والتراث الادبى والفنى] ، ولكن القومية فى معناها الراقى لا تكتمل الا بوحدة الوطن ، أى الا اذا اقترنت بالانتماء الى وطن واحد من الاوطان يتكامل به وعليه معنى « الأمة » سياسيا وقانونيا وحضاريا وتبلور فيه شخصية المجتمع وأفراده بقوة التاريخ المشترك والجغرافيا المشتركة .

ولكثرة تنقل الاقوام فى الماضى بالهجرات والغزوات اتسعت معانى هذه الوحدة فغدت مركبة بعد أن كانت ساذجة . فانصهرت فيها الاجناس الفاتحة مع الاجناس المفتوحة وانصهرت فيها الثقافات المتعددة من لغات واديان وأداب وفنون وتقاليد وعادات داخل الوطن الواحد ، ولكن كل هذا لم يحدث الا نتيجة لظهور الدولة الواحدة المرتبطة بوطن واحد . وحيث تم الانصهار ظهرت القوميات والامم بالمعنى العلمى لهاتين الكلمتين . وفى أحوال عديدة قامت الدولة الواحدة دون أن يعم هذا الانصهار فتجاورت الاجناس والثقافات داخل الوطن وتحت راية الدولة الواحدة ، وتم الانصهار فى بعض القوميات داخل الوطن الواحد .

خذ مثلا ما جرى للبريطانيين . كانت بريطانيا فى تاريخها المعروف فى القرون الاولى قبل الميلاد يسكنها قوم من سلالة سلتية أو كلتية يتكلمون لغة تعرف بالعالية ، فلما غزاهم يوليوس قيصر فى القرن الاول ق . م . وحكمهم الرومان خمسة قرون حتى ٤١٠ ميلادية حين انسحبت آخر حامية رومانية من لندن لحماية روما نفسها من هجمات القوط وبرابرة الشمال عامة ، تركوا فى البريتون وفى بريطانيا آثارا محددة : بعض أسماء البلدان ورواسب من اللغة اللاتينية وبعض آثار الحضارة كالقوانين والنظام الاثنى عشرى فى العملة والمقاييس والموازين الخ .. ولكن لغتهم الغالية ظلت غالية وديانهم الوثنية لم تتراجع أمام وثنية روما ودماءهم الكلتية ظلت كلتية . لماذا ؟ لان الرومان جاءوهم محتلين لا مستوطنين .

فلما غزت قبائل الانجلو سكسون بريطانيا ولم تكن لهم قاعدة امبراطورية في الخارج كالرومان يرتكزون اليها . كانت غزوتهم أشبه شيئا بالهجرة الجماعية فاتخذوا من بريطانيا وطناً لهم وسيطروا على مادون اسكتلندا وويلز وسموا هذا القسم الاكبر باسمهم « المجلاند » [المجلتر] أى أرض الانجليز وسموا أقاليم المجلتر باسمهم « اسكس » ، أى سكسونيا الشرقية و « وسكس » أى سكسونيا الغربية و « سسكس » أى سسكسونيا الجنوبية الخ

وتزاوجوا مع السكان الاصليين البريتون الذين رفضوا الاستسلام فترجعوا غربا واعتصموا وراء جبال ويلز حيث حافظوا على سلالتهم الكلتية وعلى لغتهم الغالية حتى اليوم أو تراجعوا الى جبال الشمال [الهيلاندز] في جنوب اسكتلندا .. ورغم أن هؤلاء وأولئك تعلموا الانجليزية الى جانب لغتهم الاصلية ، الا أنهم حافظوا على قوميتهم الكلتية وعلى لغتهم الغالية الى يومنا هذا وحافظوا على استقلالهم زمناً حتى أيام كرومويل الذى وحد كل بريطانيا بمجد السيف .

وبين ٨٠٠ و ١٠٦٦ ميلادية تعاقب الغزاة البحريون على بريطانيا من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب : البكت والجوت والنرويجيون والدنماركيون واخيرا النورمانديون من شمال فرنسا ، وكان هؤلاء أعمقهم أثراً في حياة المجلتر لانهم حكموها قروناً وكانوا يتكلمون الفرنسية ويكتبون اللاتينية فتركوا في اللغة الانجليزية رواسب لاتينية مباشرة ولاتينية عن طريق الفرنسية بما غير شخصية اللغة الانجليزية تغييراً ملموساً وجعلها أكثر خصوبة وأقدر على حمل معاني الحضارة . وقرناً بعد قرن ذابت الارستقراطية النورماندية أيضاً بالتزاوج في الشعب الانجليزى حتى لتكاد تقول أن القومية الانجليزية بالمعنى الراقى الحضارى المركب تبلورت نحو ١٤٠٠ وكان التعبير عنها في أدب تشوسر العظيم .

ومع ذلك فنحن نرى منذ منتصف القرن التاسع عشر ألواناً من الثورة « البريطانية » على القومية « الانجليزية » انتهت بانفصال ايرلندا الجنوبية ، ومعركة ايرلندا الشمالية دائرة رحاها اليوم ، وتمرد القومية الاسكتلندية يزداد يوماً بعد يوم ويهدد بالانفصال عن المجلتر أو بالحكم الذاتي ، والامر نفسه قد بدأ في ويلز . لماذا ؟ لان القومية الانجليزية لم تستطع أن تطمس الاقليات القومية داخل بريطانيا الايرلندية والاسكتلندية وقومية سكان ويلز لاختلاف الاجناس من جهة واختلاف الثقافة القومية والوطنية من جهة أخرى ، رغم وحدة اللغة ووحدة الدين بوجه عام ، ورغم أن أدباء ايرلندا كانوا عبر العصور من أعظم بناء الأدب الانجليزى ومن اصفاهم في الاساليب مثل سويفت صاحب « رحلات جليفر » وأوسكار وايلد وبرنارد شو ووليم بتلرييتس وجيمس جويس .. الخ .

وكذلك الامر بالنسبة لكتاب اسكتلندا : جيمس بوزويل ودافيد هيوم وروبرت بيرنز وولتر سكوت وتوماس كارلايل وو الخ ..

وما يقال في القومية الانجليزية والامة الانجليزية يقال ايضا في القومية الفرنسية والامة الفرنسية . فقبل ان تكون الامة الفرنسية كان يستوطن فرنسا الغاليون وكان اسمها غاليا ، وبعد ان

فتحها يوليوس قيصر حكمها الرومان جملة قرون حتى اجتاحتها في القرن السادس قبائل الفرنجة الذين غيروا اسم غاليا الى فرنسا لانهم حلوا بها حلول الغزاة المستوطنين وليس مجرد الفاتحين من قاعدة امبراطورية من الخارج كما فعل الرومان . ورغم ان الرومان اعطوا الغاليين والفرنسيين اللغة اللاتينية والمسيحية الكاثوليكية ، الا أن اختلاف الاعراق كان الاساس الذى بنيت عليه القومية الفرنسية فلم يزعم أحد أن الفرنسيين رومان رغم وحدة اللغة والدين .

بل ان الرومان والفرنجة والنورماندين عجزوا عن تغيير شخصية بعض اقليم فرنسا عرقيا أو لغويا مثل اقليم بريتانى فى اقصى الشمال وقليم الباسك فى اقصى الجنوب حيث حافظ البريتون والباسك على سلالتهم ولغتهم القومية الاصلية رغم مشاركتهم فى لغة البلاد الفرنسية ، وهكذا استمروا اقلليات قومية داخل الكيان الفرنسى الكبير ينتابهم ما ينتاب الاسكتلنديين والولش والابرنديين من قلق الاقليات القومية . ومع ذلك فنحن لا نستطيع حتى الان ان نتكلم عن امة البريتون أو امة الباسك أو امة الولش أو امة الاسكوت لانها اقلليات قومية داخل الكيان القومى الفرنسى أو الانجليزى .

ومثل العرب مثل الرومان . فالرومان اعطوا أوروبا اللاتينية [ايطاليا واسانيا والبرتغال وفرنسا] الدين المسيحى [الكاثوليكي] واللغة اللاتينية بلهجتها الحديثة .. فهل من اجل ذلك نستطيع ان نسمى الفرنسيين أو الاسبان مثلاً بأنهم رومان ؟ طبعاً لا وهل نستطيع أن نتحدث عن القومية الرومانية أو القومية اللاتينية فى الكلام عن فرنسا واسانيا والبرتغال ؟ طبعاً لا .

لماذا ؟ لان اعراق الامة الفرنسية والامة الاسبانية والامة البرتغالية اعراق غير رومانية مهما كانوا قد اخذوا عن روما اللغة المشتركة والدين المشترك أو الثقافة المشتركة ، ولان تاريخ هذه الامم واوطانها [بيئتها الجغرافية] لا اشترك بينها وبين تاريخ الرومان والوطن الرومانى .

فوحدة الجنس اذن ملازمة لمفهوم القومية مثل وحدة الدين واللغة ومع ذلك فهى وحدها غير كافية لتأسيس القومية كما أن وحدة الثقافة [الدين واللغة الخ] وحدها غير كافية لتأسيس القومية . ولقد يجتمع عنصران أو ثلاثة من هذه العناصر ومع ذلك لا تكتمل لمجموعة بشرية عناصر القومية اذا كانت تنقصها وحدة التاريخ ووحدة الجغرافيا [الوطن] . فالألمان والنمسيويون مسيحيون ويتكلمون الالمانية ومع ذلك لم يقل أحد غير هتلر ان كل من يتكلم الالمانية فهو المانى . فالألمان شئ والنمسيويون شئ آخر لان اعراقهم مختلفة من جهة ولانه لا يربط هؤلاء باولئك تاريخ مشترك أو جغرافيا مشتركة . ومعروف ان النمسيويين كان يربطهم بالمجرين تاريخ مشترك فى عصور الامبراطورية النمساوية الهنغارية أكثر مما كان يربطهم بالألمان وقد تعدد الاجناس بل واللغات فى أمة كما هو الحال فى بريطانيا وفرنسا ومع ذلك تتبلور فيها عناصر القومية بسبب الاشتراك فى بقية المقومات وفى مقدمتها التاريخ المشترك والجغرافيا المشتركة . وربما كانت القومية السويسرية هى أوضح نموذج لتعدد الأجناس واللغات داخل الأمة الواحدة والوطن الواحد .

الفصل الرابع

معنى القومية (٢) (١)

من يتتبع ظهور القوميات الحديثة مثل القومية الامريكية في أمريكا الشمالية والقوميات اللاتينية (أن صح هذا التعبير) في المكسيك وكوبا وأمريكا الجنوبية يستطيع أن يلمس بوضوح أن وحدة الجنس ووحدة الثقافة (اللغة والدين الخ ..) لم تجعلا من الامريكي الانجلوسكسونى الاصل انجليزيا فى قوميته ، ولم تجعلا من المكسيكى أو الكوبي أو البوليفارى أو الأرجنتينى أو الشيلى اسبانياً رغم وحدة الأعراق واللغة والدين ، ويستطيع أن يلمس بوضوح كيف أن اختلاف البيئة الجغرافية (الوطن) واختلاف التاريخ كفيلا أن يجعل القومية الواحدة تنصدع الى قوميات متعددة كما يستقل أبناء الاسرة الواحدة لبنى كل منهم حياته المستقلة وكيانه المستقل ، ومع مرور الزمن قد يصبح أخوة الامس أعداء اليوم كما حدث للانجليز مع الالمان رغم انحدار الانجليز السكسون عن أصول جرمانية ، فيذبح بعضهم بعضا جيلا وراء جيل فى الحروب الفظيعة .

ووحدة التاريخ لا تعنى أن تستعمر أمة أمة أو تحكمها من الخارج كما فعل الرومان والعرب وشرلمان وشرلكان والعثمانيون وفرنسا النابوليونية والمانيا هتلرية مع أمصار امبراطورياتهم ، فلو كان الامر كذلك لقلنا أن العرب مصريون لان التحامسة والمناحة والرعامسة حكموا كل ما بين الرافدين وجبال طوروس والبحر الاحمر بما فى ذلك

(١) « الأهرام » ١٩٧٨/٥/٢٥ .

جزيرة العرب نحو خمسمائة سنة متصلة في العصور القديمة ، بل لقلنا أن أهل الشام مصريون لأن مصر حكمت الشام الكبير خمسمائة سنة أخرى بين انهيار الدولة العباسية وظهور الأتراك العثمانيين ، طوال عهود الطولونيين والاختشيديين والفاطميين والايوبيين ، والمماليك . كذلك وحدة التاريخ لا تعنى أن تشترك أمتان في تحالفات استراتيجية واحدة لدفاعهما المشترك أو لاغتصاب أرض الغير ، والا لكانت انجلترا وفرنسا أمة واحدة وقومية واحدة بتعاونهما منذ بسمارك لقرن كامل في الدفاع المشترك عن غرب أوروبا .

وانما نتحدث عن القومية الواحدة وعن الأمة الواحدة عندما تسقط الحدود السياسية بين مجموعتين بشريتين (أو أكثر) وتحتويها دولة مركزية واحدة يتساوى فيها كل أنائها في حقوق المواطنة وواجباتها . وفي أكثر الاحوال في التاريخ يتم هذا التوحيد القومي لانشاء الامة الواحدة بالقوة القاهرة كما وحد مينا الوجيهين وكروميل بريطانيا وهنرى الرابع فرنسا ولنكون الولايات المتحدة وبسمارك ألمانيا لتحقيق مصلحة حيوية مشتركة وليس بقصد الاستعمار والاستغلال ثم تبقى هذه الوحدة وتزداد رسوحا مع الزمن ليس فقط على أساس التعايش السلي ، ولكن باندماج المجتمعات المتحدة في مجتمع واحد وفي كيان عرقى سياسى واقتصادى وعسكرى وقانونى واجتماعى وروحى واحد ومصرى وباشتراكها بالقبول الكامل في جهود قومية واحدة في السلم والحرب جميعا بحيث تعلم شحصة الامة الحديدية والوطن الجديد على كل ما يدخل في تكوينها ، وهذا ما سميته التاريخ المشترك بحيث لو طرأ ما يهدد بفصم عراها أو اقتطاع شر منها أو العدوان على مواطن منها هب جميع أنائها هبة رجل واحد للحيلولة دون ذلك . أما القبول بالقهر المستمر فلا تخرج منه قومية ولا أمة .

فلنكن صرحاء مع أنفسنا ومع غيرنا اذن ، وليسأل كل منا نفسه هذا السؤال : أنا مصرى من الدنيا أو اسبوط وانت مصرى من الاقصر أو اسوان والثالث مصرى من الاسكندرية أو بور سعيد أو العريش أو سيوة . ولو عرضت على احدنا ان تحكم مصر من حاضرة غير القاهرة ، ولو كانت داخل البلاد ، لوجدنا ذلك أمرا اذا فيما خلا في ظروف الحرب التي قد تلزم بغير ذلك من الضرورات . فكم مصر يا يقبل أن تكون عاصمة « الامة العربية » و « الوطن العربى » هي : دمشق أو بغداد أو الرياض أو عمان أو صنعاء أو طرابلس أو تونس أو الجزائر أو الرباط ، أو باختصار كم مصر يا يقبل أن يحكم من خارج مصر ؟ لا أحد . وبالمثل فليسأل العراق نفسه إن كان يقبل أن يحكم من دمشق أو من القاهرة أو من طرابلس أو من الجزائر أو من الخرطوم — وهكذا وهكذا . لن نجد « عربيا » في المشرق أو في الوسط أو في المغرب الا يتصور ان عاصمة دولته هي زهرة المدائن وأن أهل بلاده هم اقدر « العرب » على تصريف أمور الدولة العربية الواحدة والتحكم في أمور الدولة العربية الواحدة والتحكم في مواردها . وهذا عندى هو المحك الحقيقى لاحساس « القومية العربية » ولامكانيات ظهور « الامة العربية » بلا سفسطة ولا أوهام ، وكل ما خرج عن هذا عندى مضية للوقت واراقة للفكر السياسى والعاطفة السياسية أو احتيال بالشعارات لاستغلال عواطف البسطاء أو اقنعة ترتدى لتستر مطامع الدول والطبقات .

لقد جرب المصريون الوحدة مع السوريين فلم تم أكثر كثيرا من ثلاث سنوات رغم أن رمز هذه الوحدة — جمال عبد الناصر — كان عملاقا شامخا تحفقه له قلوب الجماهير من الخليج الى المحيط ، وما انقضى عام من الوحدة حتى شاع التملل في سوريا من « فراعنة » مصر بعد أن كانوا « العرب الاشاوس » ، ومن رمسيس الثاني من بعد أن كان يلقب بصلاح الدين . وحين اقتربت العراق من بتول الكويت أيام عبد الكريم قاسم كثرت الحشود في « الامة العربية » وعلا الصراخ والاستصراخ . وحين اقتربت مصر من اليمن تكسرت النصال « العربية » على النصال « العزبية » خمس سنوات — فعاد جيشنا مهلهلا مستنزفا عاجزا عن حماية سيناء ذاتها .

لماذا ؟ لان مصر لو تحكمت في باب المنذب جنوبا تحكمت في قناة السويس شمالا ، ولان مصر لو اقتربت من بتول الجزيرة العربية لتغيرت موازين القوى في العالم العربى وربما تغيرت خريطة العالم العربى . وعداوة الدم بين الجزائر والمغرب الان حول صحراء البوليزاريو هى خير نموذج لهذه القومية العربية الوهمية وحزب البعث العراقى والبعث السورى في حالة حرب أهلية دائمة حتى لتكاد تحس بأنهما يجلدان ملحمة على ومعاوية أو ملحمة العباسيين والامويين ، ولن أقول كلمة واحدة عما بين مصر وليبيا من امارات الاخوة العربية وحسن الجوار . ولن أقول كلمة واحدة عن معاملة الاسرى التى يلقاها « عرب » مصر المغترين في عديد من الدول العربية حيث تحتجز جوازات سفرهم أو يرتعنون في قيد « الكفيل » اذا خرجوا بحثا عن لقمة العيش ، وهو ما لا يفعله بهم احد في أية دولة أخرى من دول العالم التى لا تمت للعروبة بسبب . أما « عرب فلسطين » ، « فالامة العربية » قبلهم « فلسطينيين » وترفضهم « عربا » في كل ركن من أركان « الوطن العربى » . أما هم فيردون الصاع صاعين ، ولشدة عروبتهم تراهم يمثلون بالولاء لامريكا في مهجرهم الامريكى ، أما في لبنان والاردن وغيرهما من بلاد « العرب » فتحدتهم يشكلون دولة داخل كل دولة عربية يقيمون فيها .

هذه هو الواقع العربى عن كل زخرفة أو عبارة بلائمة .

فالقومية ادن بعد كل هذا الاستقصاء هى حصيلة مجمعة عوامى اساسيه في معادمتها وحسن الجنس والوطن والثقافة والتاريخ .

والذين يقيمون دعوه « القومية العربية » على وحدة الثقافة وحدها (اللغة والدين ، التراث - والفنون والعادات والتقاليد) يخلطون ما بين « الوحدة القومية » و « وحدة الحضارة » .

أما وحدة الجنس فلا وجود لها في العالم العربى الذى يتألف من احناس متعدده من أمم والعصور وغير كل العصور . وكذلك فوحدة الوطن لا وجود لها في العالم العربى لان العالم العربى كانه دائما أنداء مكونا من أمطار متعددة ومختلفة في مصاحبها الخبوة وفي بيئتها الجغرافية التى أهلت بعض سكانها لحياة الزراعة والصناعة والبناء والاستقرار — ولعودبة المدة — بينما أهلت بعضهم الآخر

لحياة البداوة والرعى والتجارة والبساطة والحرية الخ . أما وحدة التاريخ فهي ايضا لا وجود لها لكثرة ما بين أمم العالم العربى من المتناقضات والصراعات الشبيهة بصراعات القارة الاوربية ، وهذه الوحدة لا تتجلى حقا الا حين يتعرض العالم العربى لخطر خارجى .

والخطأ الذى وقع فيه ساطع الحصرى وتلاميذه من القوميين العرب والبعثيين العرب هو انه قاس حالة العالم العربى على حالة المانيا المقسمة قبل بسمارك الذى وحد دويلات المانيا وعلى حالة ايطاليا المقسمة قبل ما تزينى وجاريبالدى وكافور الذين وحدوا دويلات ايطاليا . وهذا خداع فى الرؤية لان العالم العربى فى جنوب البحر المتوسط وشرقه قارة كاملة لا دولة واحدة ، قارة باتساع القارة الاوربية فى شمال البحر المتوسط وغربه والعالم العربى وحدة ثقافية وحضارية واحدة لا قومية واحدة أو أمة واحدة ، كما أن أوروبا وحدة ثقافية وحضارية واحدة لا قومية واحدة أو أمة واحدة .

ومن يقف على الشاطئ الجنوى من البحر المتوسط وينظر الى سكان شاطئه الاخر الذين نجمل وصفهم تحت اسم « الافرنج » أو « الخواجات » بمعنى الاوروبيين عامة لا بمعنى قبائل الفرانك على التخصيص ، يحسبهم جميعا أمة واحدة — فأكثرهم بيض البشرة زرق العيون شقر الشعر الناعم ، وهم يרטنون بلغة أو لغات لا نفهمها ومع ذلك فجميعها خالية من الحروف ، الحلقيه ، وكثرتهم الساحقة مسيحيون من مذهب ما ، وكثرتهم الساحقة تكتب بالخط اللاتينى ، وتلبس الملابس الافرنجية وتجلس على كراس ويختلط فيها الرجال والنساء وتشرب الخمر وتأكل الخنزير وترقص بالارجل وتسمع نوعا من الموسيقى الغربية التى لا نألفها أو الغناء الغريب الصادر من القصبة الهوائية وليس من الحلقوم .. الخ .. وكلهم طامعون فينا ، فاذا ما اقتربنا منهم قليلا تبين لنا أن الانجليزى شىء والفرنسى شىء آخر والتشيكى سلوفاكى شىء ثالث والجرمى شىء رابع والايطالى شىء خامس والامانى شىء سادس والبولندى شىء سابع ، والاسبانى شىء ثامن والروسى شىء تاسع الخ .. رغم ان النظرة الجشتالتية توهمنا بان كل هؤلاء قوم واحد .

وبالمثل لو أن أبناء القارة الأوروبية نظروا هذه النظرة الجشتالتية الى سكان شبه القارة العربية ، التى افضل أن أسميها العالم العربى ، لظنوا انهم يواجهون قوما واحدا يعيش فى جنوب البحر المتوسط وشرقه ، أكثر أبنائه سمر البشرة ، سود الشعر الأكرث ، عسليو العيون ، يרטنون بلغة أو لغات كثيرة الحروف الحلقيه ويكتبون بالخط الأرامى الكورسييف : وكثرتهم الساحقة مسلمون من مذهب ما فأغلبهم سنة وأقلهم شيعة ، وأكثرهم يلبسون الجلابيب أو الملابس الفضفاضة ، ويجلسون على الأرض ، ويكرهون اختلاط الرجال بالنساء وشرب الخمر وأكل الخنزير ويرقصون بهز الأرداف وموسيقاهم غربية وغناؤهم أغرب . فاذا ما اقتربوا منا قليلا وجدوا ان المصرى شىء والعراقى شىء والشامى شىء ، واللببى شىء ، والتونسى شىء والجزائرى شىء والمغربى شىء والسودانى شىء .. الخ ، بل وجدوا ان السورى شىء واللبنانى شىء وان اليمنى شىء والسعودى شىء .. لكل شخصيته المتميزة فى سلالته وفى وطنيته وفى تاريخ بلاده . رغم انه تجمعهم جميعا وحدة الدين واللغة والثقافة

الرسمية الا أن الثقافة الشعبية لكل منهم محملة بموروثات الفولكلور الممتد في الماضي البعيد الى عهد الوثنيات الأولى بما يجعل منهم قوميات وأما مختلفة داخل وحدة الحضارة العربية الشاملة ، أو بتعبير أدق في اطار وحدة الثقافة العربية الشاملة .

من أجل هذا تجدد أفضل دائما أن أتحدث عن « العالم العربى » ولا أتحدث عن « الوطن العربى » ومن أجل هذا تجدد أفضل دائما أن أتحدث عن « الثقافة العربية » و « الحضارة العربية » ولا أتحدث عن « القومية العربية » أو عن « الأمة العربية » ، ولنحتد بالأوروبيين حين يتكلمون عن « أسرة الأمم الأوروبية » أو عن « المجموعة الأوروبية » ولا يتكلمون عن « الأمة الأوروبية » ، فنتكلم عن أسرة الأمم العربية وعن « المجموعة العربية » . فاذا ما نحن نكلمنا عن « العالم العربى » فهذا الاصطلاح جغرافى سليم لا يتضمن إحياء نأى شئ أكثر من مطوقه أما قولنا « الوطن العربى » و « الأمة العربية » ففيه تجاوز لأنه لا يصف الواقع ولكن يصف مايمكن لبعضنا أن يحلم بقيامه فى يوم من الأيام

وهذا الحلم « نظريا » ليس مستحيل التحقيق اذا توفر شرطه الأول وهو توحيد العالم العربى بأجناسه المختلفة وبمناقضاته التاريخية والجغرافية فى دولة مركزية واحدة لا تقوم بين ولاياتها حدود سياسية ، دولة مركزية ذات عاصمة واحدة وحكومة واحدة ودستور واحد وقوانين أساسية واحدة وجيش واحد واقتصاد واحد وسياسة خارجية واحدة . أقول « واحدة » لا « موحدة » أو « منسقة » الخ .. دولة ذات سيادة كاملة على جميع من فيها من المواطنين ، ودولة كل مواطنها متساوون فى الحقوق والواجبات . هذا الحلم « نظريا » ليس مستحيل التحقيق لأن تاريخ القوميات يدلنا على أن « المواطن » والانتماء القومى يمكن أن يكتسبا بالتجنس والولاء . ووحدة الجنس ، رغم أنها الأصل فى القومية ليست السبيل الوحيد لتكوين الكيانات القومية ، ومع ذلك ففى اعتقادى أن هذا الحلم لن يتحقق الا بظهور قوة القاهرة وأن الواقع السياسى العالمى لن يسمح بظهور هذه القوة القاهرة من داخل العالم العربى .

والصفاء السلالى خرافة من خرافات القومية العنصرية المتطرفة كالدعوة الآرية ، فليست هناك أمة من أمم الأرض قد حافظت على أعراقها النقية محافظة كاملة لأن هجرات القطعان البشرية لم تتوقف أبدا عبر التاريخ المعروف وغير المعروف ، وكذلك تحركات الجيوش الغازية والفاتحة لم تتوقف ابدا . وقد كان المثقفون قبل الحرب العالمية الثانية يتهكمون بنظرية النارى فى النموذج الأعلى للجنس الآرى فكانوا يقولون أن الآرى يجب أن يكون أشقر الشعر مثل هتلر « كان هتلر أسود الشعر » ، فارع القامة مثل جيبيلز (كان جيبيلز قصير القامة جدا) رشيق القوام مثل جورج « كان جورج بدينا » .

كذلك فالصفاء السلالى التام ليس مطلوبا لأنه يؤدي الى انحطاط السلالات شأنه فى ذلك شأن زواج الأقارب ، ومن أجل هذا حرمت الأديان التزاوج بين الدرجات الحميمة من القرابة

بقصد تجديد الدم ومع ذلك فتبقى حقيقة واحدة وهي أن الاسراف في اختلاط الدماء المختلفة كفى بان يطمس شخصية الأمة ويلغى وشائج الدم بين أبنائها . ولو أننا أجرينا قياسا لنسب الصفاء السلالي بين أمم الأرض لوحدنا المصريين خارج الشرقية والبحيرة والجيزة بحسب مايقول علماء الأجناس ، من أصفى الأمم سلالة بسبب قلة اختلاطهم بالغزاة والمهاجرين ، ولأن الجيوش الغازية كانت لا تحتاج للتغلغل في الوادى كثيرا والانتشار فيه طويلا بعد سقوط عاصمة البلاد في أيديها ، فمن ملك العاصمة ملك البلاد ، ومع ذلك فكثرة حركة السكان داخل مصر في القرن الأخير قد جعلت كل هذه الدراسات محدودة الجدوى .

وقبل ظهور القوميات في العالم القديم كان الانتماء للقبيلة بالدم هو أساس الجنسية وكان يمكن للأجانب أو المهاجرين أو الاجلاب التجنس بالانتماء للقبيلة على أساس حقوق والتزامات معينة ، وكان اليونان يعرفون هذا الوصف باسم **Eupatridae** وهم « الاشراف » أو البيوتات أو الأعيان أو كما يقول العرب « بنو » كذا أو « آل » كذا ، وكانوا يلزمون كل أجنبى يقيم على أرض اليونان بالانتماء الى أحد هؤلاء « الباتريداى » وكان هذا بمثابة التجنس عندهم على الأقل منذ وصولون في القرن السادس ق . م فهو الذى أجاز للأجانب الأحرار المستوطنين ممارسة حقوقهم السياسية من خلال انتابهم الى « الباتريداى » ولكن منذ كلايستين في القرن الخامس ق . م . استقر وضع جديد هو « المواطنة » أى الانتماء للمدينة أو الوطن ، فقد جعل كلايستين ممارسة الحقوق السياسية كالانتخاب على أساس عنوان الإقامة لا على أساس القبيلة ، وقسم أثينا ودولة اتيكا الى دوائر انتخابية ، وقد استقر هذا التقليد الديمقراطي حتى يومنا هذا وحلت « المواطنة » أى الانتماء للوطن محل الانتماء للجنس أو للقبيلة كأساس للقومية حتى انهيار الدولة الرومانية أو فلنقل حتى انتشار المسيحية ثم الاسلام . فباننتشار أديان التوحيد استجدت ظاهرة جديدة في تاريخ الانسانية وهي اختفاء القوميات المؤسسة على الانتماء للجنس أو للوطن ، وحلت محلها فكرة القومية المؤسسة على الأخوة فى الانسانية أولا ثم الأخوة فى الدين أو العقيدة ثانيا . ولأكثر من ألف سنة اختفت الحدود السياسية فى أوروبا واستوعب العالم المسيحى كله فى « الأمة المسيحية » تحت البابوية حيث كانت الدولة دينا ودنيا ، كما استوعب العالم الاسلامى كله فى « الأمة الاسلامية » تحت الخلافة حيث الدولة كانت دينا ودنيا .

وقد كان هذا فى البداية خطوة تقدمية لأن أديان التوحيد ، الى جانب كونها ثورات فكرية ، كانت أيضا ثورات المعدين فى الأرض المسحوقين تحت كعب الامبراطوريات القومية ، امبراطوريات روما ، وبيزنطة ، وايران الساسانية . والتأكيد على الأخوة فى الانسانية كان ولا شك خطوة الى الأمام . كذلك كان التأكيد على الأخوة فى العقيدة فى السنوات الأولى لانتشار الأديان حين كانت هناك وحدة بين الفكر والفعل وبين التعاليم والسلوك وبين الأقوال والأعمال .

فلما تحولت الدولة الدينية بعد الخلفاء الراشدين ، أى بعد ثلاثين سنة من موت النبى ، الى دولة امبراطورية أصبحت الخلافة من بعدها « ملكا عضوضا » كما جاء فى نبوة النبى فى الحديث ،

ودولة خالصة لا أثر للدين فيها الا الاسم . بل لقد بدأ الحكم الدينى والصدع بين الدين والدولة عمليا منذ عهد عثمان ، فأدى الى الفتنة الكبرى . أما على الشهيد فقد كانت تحيط به المؤامرات من كل جانب . ونفس الأمر بالنسبة « للأمة المسيحية » فى أوروبا : سنوات معدودة من حكم الآباء الصالحين ثم بعد ذلك ألف عام من أباطرة يلبسون مسوح البابوات .

ومع ذلك فقد نجح هؤلاء الأباطرة البابوات والأباطرة الخلفاء فى استخدام الدين لسمحق القوميات العنصرية واحلال القومية الدينية محل القوميات العرقية أكثر من ألف عام ، منحوا فى الظاهر فقط . أما فى الواقع فقد عادت القوميات العرقية الى الظهور من جديد منذ القرن ١٥ و ١٦ فى الأمة المسيحية أما فى الدولة الاسلامية فقد تعاقب انشقاق القوميات العرقية (الشعبية كما كانوا يسمونها) بعد عصر المأمون حتى نهاية العصر المملوكى ، وبلغ التعبير النظرى عن هذا أتمه فى أعمال ابن خلدون نحو ١٤٠٠ ميلادية . ولولا ظهور الأتراك العثمانيين وتثبيت دعائم القومية الدينية أربعة قرون أخرى ، لما تأجلت دعوة القوميات العرقية داخل العالم الاسلامى حتى نحو ١٨٠٠ . وقد أثبتت تجربة الخلافة العثمانية أن وحدة الثقافة يمكن أن تقتصر على وحدة الدين ولا تمتد الى وحدة اللغة . وهى نفس تجربة الخلافات العربية مع فارس وما وراءها ومع البربر فى شمال افريقيا .

ومنذ انقراض الدولة الدينية فى العالم المسيحى وفى العالم الاسلامى لا نعرف الا تجربة واحدة فى العصر الحديث توفرت لها كل ملامح الدولة الدينية وهى الدولة الماركسية فى الاتحاد السوفيتى حيث الأخوة فى العقيدة (الشيوعية) كانت تحل محل الأخوة فى العرق وفى الوطن وقد ظلت كذلك فعليا حتى استيلاء ستالين على السلطة فى ١٩٢٨ ولكنها انتهت رسميا باغتيال تروتسكى وحل الكومنترن (الدولية) ولم تنقذ العقيدة الشيوعية الاتحاد السوفيتى من براش الألمان وإنما انقضت صيحة ستالين « أمنا روسيا » .

والعالم الآن - الأصدقاء قبل الأعداء - يرى من الاتحاد السوفيتى وجهه القومى الروسى أكثر مما يرى وجهه الاشتراكى الدولى . وبعد أن قامت الثورة البلشفية لتربط الشر بالمعتقدات : أن لا طبقات وأن العمل أساس القيمة ، أصبح الاتحاد السوفيتى دولة قومية باسم تثبيت الثورة الرولتيارية وأصبحت الشيوعية غير قابلة للتصدير ، كما أصبحت الديمقراطية من قبل غير قابلة للتصدير رغم أن الثورة الفرنسية إنما قامت لتربط البشر بمعتقدات الحرية والمساواة والاخاء وعامة حقوق الانسان . ولكن سرعان ماتحولت الديمقراطية الى دول قومية باسم تثبيت الثورة البورجوازية تقدم مصالح أممها على نشر المبادئ الانسانية ، وبالمثل تحولت الدول الاشتراكية الى دول قومية تقدم مصالح أممها على نشر المبادئ الانسانية . وهذا كله من طبيعة الأشياء على الأقل حتى هذه المرحلة من تاريخ البشرية .

فلنحاول أن نفهم طبيعة الأشياء : القوميات الامبراطورية تشققت عبر التاريخ ، واستردت الكيانات القومية المبتلعة داخلها استقلالها لأن التوحيد الامبراطورى كان ينتهى دائما باستغلال

القومية الأقوى لغيرها من القوميات الموحدة . القوميات الدينية تصدعت عبر التاريخ لأنها بقوة الفساد الملازم للأحياء تحولت بدورها الى قوميات امبراطورية لم يبق منها من الدين الا اسمه . حتى في رمن عمرو بن العاص سمعناه يحتج على الدولة المركزية لأنه يمسك البقرة (مصر) ليحلها غيره : دورة من الوحدة بقوة السيف أو بقوة العقيدة تعقبها دورة من القوميات المستقلة . حتى الاتحاد السوفييتي اليوم لا أحد يستطيع أن يتكهى بمستقبل تركستان وكازاكستان وبلوخستان وأوكرانيا وبيلوروسيا غدا أو بعد حين . ولو قامت الدولة العربية الواحدة غدا فما الضمان الا تنهب الحكومة المركزية ثروات الشعوب المندمجة في اطار الدولة الواحدة ثم يعود التشقق من جديد . وبغير قيام الدولة العربية الواحدة لا محال لكلام عن « القومية العربية » وعن « الوطن العربى » الا على سبيل المجاز .

فإذا كان المقصود هو تكاتف العالم العربى لدرء الأخطار المحدقة به من خارجه والمزروعة في قلبه ، فالحل الأوضح هو بناء « التضامن العربى » وربما بناء « التكافل العربى » وليس بناء « القومية العربية » و « الوطن العربى » و « الدولة العربية الواحدة » . وهذا ما يجعل فكرة حياد مصر أو عزلتها عن غيرها من الدول العربية فكرة محفوفة بالمهالك لمصر ولغيرها من الدول العربية . فأمن مصر من أمن العرب وأمن العرب من أمن مصر ، والمنطقة كلها من الخليج الى المحيط بحاجة الى هذا التضامن لحماية نفسها من أطماع العير ، فاذا كان أصحاب القومية العربية قد عدلوا عن نظرية الدولة العربية الواحدة ، فلست أرى من الخلاف يبنى وبينهم الا خلافا على معانى الألفاظ . وكفى الله المؤمنين القتال .

الباب الثاني

لقاءات حضارية

فماذا كانت على وجه التحديد خصائص البحر الأبيض المتوسط في « ضفادع » ارسطوفانيس وفي « اوريستيا » اسخيلوس التي تجاوب معها جمهور القاهرة بكل تلك الحماسة الشديدة ؟ لو انا وضعنا جانباً ما للفن من سطوة على النفوس ، فالاجابة في رأيي ذات طابع فلسفى .

حين ندرس عن كثر العقائد الاوتولوجية التي سادت ولا تزال سائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط من أقدم العصور الى يومنا هذا ، نجد انها تنقسم الى انماط تتكرر في مختلف الوثنيات التي عرفها العالم القديم ، كما تتكرر في اديان التوحيد ، وهى اليهودية والمسيحية والاسلام . وسأحاول الا أعيد سرد الحقائق المعروفة ، تاريخياً كانت أو من عصر ما قبل التاريخ ، الدالة على وجود تواصل ثقافى بين شعوب العالم القديم ، من كل ما نجده في أعمال السير ايفور ايفانز ، ودارسى حضارة مينوس ، وفي أعمال السير جيمس فريزر وعلماء الاثنولوجيا المقارنة ، وفي أعمال فكتور بيرار وعلماء الميثولوجيا المقارنة ، الخ .. كذلك لن أحاول أن أبين كيف ان عبادة ايزيس انتشرت على مدى الأمصار في اليونان وروما وبريطانيا وايرلندا . وبالمثل فمن تحصيل الحاصل ان اذكر كم بتأثير مدرسة عين شمس على نشأة الفكر اليونانى وتطوره ، وكيف ان الفيشاعورية والأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة وديانة هرميز المثلث السعظمات وفلسفة الواصلين أو العارفين بالله ، تلك التي يسمونها فلسفة « الغنوص » ، كانت ثمرة زواج العقل اليونانى من العقل المصرى ، أو العكس ، أو كيف أن الآلهة اليونانية والآلهة المصرية اندمجت في مصر اليونانية الرومانية . ولكنى بدلا من ذلك سوف اركز على الأنماط الأساسية للأفكار الأوتولوجية ، وعلى الأنماط الأساسية للثيودوكيا أى المنطق الالهى ، وهى أنماط تلتقى أحيانا وتفرق أحيانا أخرى في أديان المنطقة وفلسفاتها .

فمن الافكار الاساسية في ثقافة البحر الأبيض المتوسط فكرة « الام العذراء » و « الاله المعبود » . فلنركز على احدى هاتين الفكرتين ، الا وهى فكرة « الاله المعبود » . ففكرة الاله أو البطل المضحى (بفتح الحاء) ، ونمطه المسيح كما هو معروف ، فكرة مشتركة بين اديان التوحيد وبين اديان الوثنية ، أو اديان الشرك . هذه الفكرة ، رغم انها عملاً اللوحة كلها في الديانة المسيحية فهى كذلك موضوع رئيسى في اليهودية وفي الاسلام . ولهذه الفكرة مقابلاتها الانثروبومورفية ومقابلاتها الزومورفية في فكرة الثور المضحى ، اله الشمس في ديانة ميثرا ، وفي فكرة الحمل المضحى ، عند القبائل السامية ، وفي نمط « اسحاق – اسماعيل » في اليهودية والاسلام . وعلاقة « الأب – الابن » مقررة كذلك في قصة ابراهيم وذريته ، وكذلك نجد ان ثيودوكيا « الفداء » (المنطق الالهى القائم على نظرية الفداء) مقررة ايضا في هذه القصة مع بعض التحريجات الاوهيميرية اى المؤسسة على فلسفة تأنس الالهة . وفي اليهودية نجد ان قصة « ابراهيم – اسحق » فقدت اهميتها من الناحية التاريخية وليس من ناحية التليولوجية أى « الغائية » ولسبب اولا آخر انتقل التركيز الى الجيل التالى لشخص اسحق ، اى انتقل الى شخصية يعقوب – اسرائيل ، الذى تدل حلقة الذئب في قصة ابنه يوسف ، على انه كان له مقابل زوو مورفى ، الا وهو « الحمل » . وهكذا نجد اننا ، حتى في هذه الحالة ، لم نبتعد عن النمط الاصلى للقصة الذى يحافظ على الفكرة المتوارثة القائمة على القربان المقدس وعلى الفداء من خلال تضحية « الحمل » . ومع

ذلك فهناك الفارق التالى : وهو انه بينما نجد فى اليهودية ان « يعقوب — اسرائيل » انتهى بان اصبح المؤسس التاريخى لبنى اسرائيل ، نجد فى الاسلام ان اسماعيل ، مع نعتة ايضا بانه المؤسس التاريخى للعرب ، قد احتفظ بكافة ابعاده الدينية من حيث انه « الابن المضحى » أو المراد ان يكون كذلك ، وبكافة ابعاده الميتافيزيقية ، من حيث انه « الحمل المضحى » ، أو القربان المقدس . وباركان القصة الاساسية : شخصية اسماعيل ، و« الحمل المضحى » ، ونظرية « الفداء » كما يسمونها فى العربية ، لم يكن مصادفة ان « عيد الاضحى » الذى يسميه الاوروبيون « قربان بيرام » يحتل فى العالم الاسلامى على وجه التقريب نفس المنزلة التى يحتلها « عيد الفصح » أى عيد القيامة فى العالم المسيحى .

وفى الوثنيات القديمة كان النمط الاصلى للاله المعذب هو اوزيريس فى مصر وبرومتيوس أو ديونيزوس فى اليونان وروما ، وتموز فى الحضارة البابلية الاشورية ، وادونيس أو اتيس فى آسيا الصغرى وحواشيها ، الخ .. وليس فى هذا جديد . ولكن فى كل هذا لاجد علاقة « الاب — الابن » مقررة فى رمز الاله المعذب الا فى حالة تموز ، أو دوموزى — ابسو ، اى « ابن ابسو الحقيقى » . وهو مثل قولهم « ابن يابنوس الحقيقى » أو « ابن جوبيتر الحقيقى » . غير ان وضعه بصفة عامة لم يكن وضع الاله وانما كان وضع التيتان (المارد) أو نصف الاله ، أو الخالق الاوسط (الديميورجوس) وهو اله كثوثى ، اى من الهة التربة . وهو بالمثل يتعذب ، وهو بالمثل ابو الجنس البشرى ، فهو صورة من صور آدم مغلا أو آدم ممزقا . ومن قبل شليجل وادجار كيبه بزمان طويل ، رأى لاكتانس وغيره من آباء الكنيسة فى آلام برومتيوس ، أو ماسماه لاكتانس « برومتيوس ممزقا أو طعينا » ، نبوء غامضة بآلام المسيح . ومعرفة طبيعة الاله أو التيتان أو الطل المعذب ونسبه غاية فى الاهمية لفهم العلاقة بين الله والانسان ، بين الخالق والكون ، بين الفكر والمادة . فهى ذات قيمة أونتولوجية . كذلك فان معرفة طبيعة آلام الاله وسببها فى غاية الاهمية لفهم اليهودوكيا أو المنطق الالهى .

ومن هذا يتبين ان كافة اديان حوض البحر الابيض المتوسط الكبرى ، سواء منها الوثنية أو التوحيدية ، تتقاسم بناء ميتافيزيقيا ورمزيا واحدا يعبر عن فكرة الخلاص أو التجدد أو الفداء عن طريق آلام الاله أو نصف الاله أو التيتان أو البطل المعذب . وفى مصر القديمة كانت قصة أوزيريس الرمزية قصة رئيسية عند الشعب وفى عبادة الخصوبة وفى مملكة الموتي ، ولكن اوزيريس نفسه لم يصبح قط كبيرا للآلهة كما اصبح بتاح أو رع أو تحت أو أمون فى حقب مختلفة . ونفس الكلام على وجه التقريب يمكن ان يقال عن عبادة برومتيوس وديونيزوس فى اليونان القديمة وفى روما القديمة فقد كان برومتيوس الاله الحامى للفخارين فرغم اهميته البالغة فقد كان فى صميمه الها أورحيا للخمر والجنس يقتربان اساسا بدراما الأحصاب على المستويين الجسدى والروحى . وقد خصص لبرومتيوس وديونيزوس معا مكان ثانوى فى البانتيون اليونانى الرسمى وفى البانتيون الرومانى الرسمى ، وهو مجمع الآلهة ، لانهما كانا من الارباب حامية الفقراء ولم يكونا من ارباب المؤسسة الاجتماعية ، ولما كانت مصر اكثر حصوبة واكثر حنازية من اليونان ومن روما ، فقد كان من الطبيعى ان تخصص مكانا اكبر فى ديانتها القديمة لآلهة التربة . وفى الامكان ان نقول نفس القول عن تموز فى ديانة ما بين النهرين . وفى جميع الاحوال كان الاله المعذب هو « الراعى

الصالح» و « حبيب الناس » و « الفادى » ، وكان الخاطئ العظيم والحامل العظيم للخطايا .

وفى ظل التوحيد ، احتفظ العالم المسيحي برمز واحد من كل ثيوجونيا الماضى ، وهو رمز الاله المعذب ، واحتفظ بفكرة واحدة هى فكرة الخلاص عن طريق الألم . اما فى اليهودية وفى الاسلام فقد فقدت فكرة « الأبن المضحى » أو « الفادى » كثيرا من أهميتها الميتافيزيقية ، ولكن آثارا منها قد بقيت فى قصة ابراهيم - اسحاق عند اليهود ، وفى قصة ابراهيم واسماعيل عند المسلمين ، وذلك باستثناء الاسلام الشيعى وربما الاسلام العلوى حيث نجد ان آلام الحسين أو آلام على لها نفس القيمة الكاثارسية ، اى التطهيرية ، التى لآلام المسيح عند المسيحيين . ومع ذلك فانه بهذا التضاد نفسه يتكشف ما فى اليهودية والاسلام معا من وحدة الأصل مع المسيحية .

واليهودية لا ترفض فكرة المسيح أو المخلص ، ولكن ترفض آلام المسيح أو آلام المخلص كما ترفض فكرة ان المسيح أو المخلص قد جاء بالفعل . وهى تحدد مجيئه فى نهاية الزمن ، أو فى نهاية الوجود المادى ، ليبدأ ألفية الفردوس الأرضى ومن ثم يبدأ الملكوت . ففى اليهودية نجد ان المسيح يشبه شخص خريسا سبأذى الخصل الذهبية فى ديانة زرادشت ، وهو الذى ينام على سفح جبل ديموند أو جبل الشياطين ، وسوف يصحو من نومه فى نهاية الزمن ليفتك بكل الشياطين أو يرسل الشر فى العالم . هى رؤيا شبيهة بالرؤيا التى نجدها فى الأكلوج السادس للشاعر فرجيل ، والمخلص فيها شخصية قريبة من شخصية هرقل المجاهد حاملا هراوته ليفتك بكل وحوش الشر فى ملاحم عديدة ليبدأ حكم الخير فى جنة المسيريديس وليبلغ مقام الالهية بما دفعه من ثمن فادح فى الجهاد .

وبالمثل فان الاسلام لا يرفض فكرة المسيح أو المخلص ، ولكن يرفض فكرة الخلاص عن طريق الألم بانكار صلب المسيح وفقا للنظريات الغنوصية والشبهية التى شرحها فلاسفة الأفلاطونية المسيحية فى الاسكندرية فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . والاسلام ، مع قبوله لفكرة النجى ، الثانى للمسيح فى نهاية الزمن تحت اسم المهدي المنتظر ، يقول بهذا الرأى فى الاله المعذب انه لم يكن معذبا ولم يكن الها وقد كانت الأفلاطونية المسيحية من قبل ترى ان وجود المسيح على الأرض كان مجرد ظل لوجوده فى عالم المثل . ولذا فقد فسرت آلام الظل بأنها ظل الآلام . كذلك ففى التوحيد الصارم الذى قام عليه لاهوت آريوس ومدرسته ان ابن الله لا يمكن أن يكون مساويا لله الأب فى الجوهر ولا متكافئا معه ، وبالتالى فالمسيح مخلوق بالكلمة ، أى بكن فيكون ، مثله فى ذلك مثل آدم . وكان طبيعيا أن تغض هذه النظرية من نسب المسيح الالهى ومن جوهره الالهى ، وترتب عليها محاولة تفنيد فكرة الثالوث الديالكتيكية القائمة على مبدأ « الثلاثة فى واحد » وتفنيد آراء علماء اللاهوت من اثنايوس الى ديوسكور عبر كليمنت الاسكندري واوريجن وكيرلس ، ومن مجمع نيقية الى مجمع خلقدونيا عبر مجمع افيسوس وعشرات من المؤتمرات الدينية فى ذلك العصر المتميز بالشجار المحتدم داخل العالم الخاضع للثقافة الهلنسية .

ولم تكن اضاغاف علماء اللاهوت فى العالم المتأثر بالثقافة اللاتينية بأقل تميزا بالشجار المحتدم كما نجد فى أعمال القديس اوجسطين وتروايان ولاكتانس وفولحانس ، أكثرهم قدموا من نيسا من تونس .

وأهم مافي كل ذلك الصراع انه كان بمثابة ملحمة فكرية واحدة عظمى دارت رحاها خلال تلك القرون السبعة الأولى من التاريخ الميلادى بين الاسكندرية والقسطنطينية وانطاكية وروما وقرطاجة . وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط دارت المناظرة فى اطار بناء ميتافيزيقى واحد وفى اطار هيكل رمزى واحد . ولم تكن الميتافيزيقيا ولا الرموز مستوردة من ثقافة أخرى ، بل كانت جميعا منبثقة من تربة منطقة البحر الأبيض المتوسط عبر آلاف من السنين السابقة على ذلك ، ولا بد أنها كانت نتاجا خاصا من نتاج فكر البحر الأبيض المتوسط أو اكتشافا خاصا من اكتشافاته . وسواء سمياه « ملحمة الخليقة » أو « دراما الخليقة » ، فقد سردت أو حسدت داخل نفس المقولات الفكرية وداخل نفس السياق الكنائى أو المجازى أو التاريخى ، مستخدمة نفس القاموس الفلسفى وليد التعمق الفكرى . وسواء تعانقها أو تضاربها استهدفت اليهودية والمسيحية والاسلام وفلسفات المنطقة التى لا حصر لها تحقيق العايات التالية : (١) تفسير أو استكناه طبيعة الله والكون ، وطبيعة الفكر والمادة ، (٢) تفسير أو استكناه طبيعة الخير والشر (٣) تفسير أو استكناه طبيعة الاختيار والجبر ، وطبيعة الحرية والضرورة ، (٤) خلاص روح الانسان فى العالم الآخر ، (٥) صياغة قانون اخلاقى للأحياء يرتبط بالقانون الاجتماعى أما ما تبقى فهو فى رأى من التفاصيل .

والسؤال يطرح نفسه بصورة تلقائية : ولكن ألا تحاول الأديان الأخرى ان تحقق نفس الغايات ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكن بطريقة أخرى . فالكونفوشية والبوذية والشنو وعبادة روح الطبيعة (الابعيميرم) وعبادة الأسلاف ، بل وعبادة عناصر الطبيعة التى كانت تدين بها القبائل التوتونية التى حطمت الامبراطورية الرومانية وكان يدين بها اخوتهم من قبائل الشمال النوردية ، تحاول حقان تستكناه بعض هذ المشكلات أو كلها ، ولكن طرقها الى ذلك مختلفة لأنها نابعة من ثقافات مختلفة ومن ظروف اثنولوجية مختلفة . فعوضها قائم على الحكمة الشائعة خال من كل احساس ميتافيزيقى . كما ان اطارها الرمضى مختلف ايضا . فليس هناك البتة فى تاريخ الأديان مثل هذه السبكة الفريدة من « العقل » و « الخيال » ولا هذا الصراع المتوتر بين « العقل » و « الخيال » . فما هو عقلانى يعبر عنه دائما برموز لا عقلانية وبلغة لا عقلانية ، واللاعقلانى يتم اثباته دائما بأدلة عقلانية وحشيات عقلانية . والوحد والاشراق ، بل وأحص خصوص التجربة الصوفية ذاتها ، تجرد فى صورة قضية منطقية ، بل قضية رياضية . وانا هنا لا أشير الى الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة ووحد الوجود والحلولية ، الخ .. ولكن اشير الى التقاليد الأرسطاطاليسية العقلانية فى التجربة الدينية وفى الميتافيزيقا الدينية كما ارساها القديس توماس الأكوينى فى العالم المسيحى وكما ارساها أئمة السنة والمعتزلة العظام فى العالم الاسلامى .

هذه القدرة على ادماج الفكرة الذاتية والفكرة الموضوعية عن الله والعالم ، هى فى نظرى احدى الخصائص المميزة لثقافة البحر الأبيض المتوسط ، وهى تتجلى من « كتاب الموتى » و « انوما ايليش » (« كتاب الخليقة » عند البابليين) الى الكتاب المقدس والترات ، ومن أفلاطون وارسطو الى المفسرين القدامى والمحدثين ومن بطاركة الاسكندرية وقرطاجة وزنادقتها حتى سافونارولا و جيوردانو برونو . وحين يسمى هوميروس زيوس « جامع السحب » ، نحس باننا نواجه دبانة بدائية تقوم على عبادة

« ثور » واسرة الأرباب النوردية . ولكن حين يسمى هو ميروس زيوس « ابا الآلهة والبشر » ، نحس بأننا قد دخلنا بالفعل في منطقة اللاهوت الراقى . وسواء أكانت « الكلمة » تسبق « الكون » أو كان « الفكر » ناعما من « المادة » ، أى سواء في المذهب المثالى أو في المذهب المادى فان التعبير عن الفلسفة قائم على المستويين الرمزي والعقلي . فنظرية ازلية المادة التي نجدها من طاليس الى لوكرتيوس عبر ارسطو لها مقابلها المخاى في الأسطورة المادية عن الخليفة . كما نجدها في « ثيوغونيا » هسيود حتى « ميتامورفوز » اوفيد . وبالمثل فان التفسير المثالى للعالم ، من افلاطون الى افلوطين ، له مقابله الرمزي في مختلف المعتقدات الديوبولوجية بعالم الجان ، والنيمفولوجية بعالم الحور التي نجدها ماثورة في كل ثقافات البحر الأبيض المتوسط ، من « الكوريات » أى « الحور » اليونانية وتناسخات فيثاغورس وما ورد في الكتاب المقدس والقرآن عن عالم الحور وعالم الجان . وموضوع الخصوبة الجسدية الذي نجد التعبير عنه في فكرة ايزيس وعشتار وافروديت وفينوس الولود نجده قد تسامى الى مستوى الخصوبة الفكرية او الروحية الذي نجد التعبير عنه في صورة ايزيس ذات الحجاب وفينوس اورانيا أى فينوس السماوية والمينرفا موندى اى مينرفا ربة الحكمة بوصفها عقل العالم . وهناك مبدأ أكر نجده نافذا في جميع الأحوال وهو تجربة « الحياة في الكل » ، وهو الاحساس العميق بوحدة الوجود ، وهو التسامى الدائم بما هو جزئى الى ما هو كل . وهذا يتم احيانا من خلال العقل المشتعل فيؤدى الى الفلسفة ، وهو يتم احيانا من خلال الخيال المشتعل فيؤدى الى الدين أو الى السحر ، وهو يتم في احيان ثالثة من خلال الحدس المشتعل فيؤدى الى التصوف او القداسة . هذا في نظرى هو البحر الأبيض المتوسط بكل انبيائه وفلاسفته وزنادقته وصوفييه وقديسيه انه يمثل البحث الدائم عن تعميم الفردى وعن تجريد المادى . فلا بد فيه دائما من نظرية ، وهى غالبا ما تكون نظرية شاملة ، لتبرير السلوك البشرى ، ولا بد فيه دائما من قانون ينظم الأخلاق الانسانية . حتى الغدر نجده في ماكيافيللى فيلسف في نظرية نبيلة . وبلا نظرية وبلا فلسفة ، نضيع تماما ، نحن أبناء البحر الأبيض المتوسط . بغيرهما نتردى في هاوية بربرية .

وبالطبع هناك درجة من كل هذا في ثقافات العالم الاخرى ، ولكن المسألة مسألة طبيعة غالبية . فبعض الثقافات الاخرى ، كثقافة العالم الانجلوسكسونى ، تقوم في جوهرها على المبدأ المضاد . فالحركة فيها ليست من الكلى الى الجزئى ، ولكن من الجزئى الى الكلى . وهى تتجه الى المنهج الاستقرائى اكثر من اتجاهها الى المنهج الاستنتاجى ، وهى تجريبية اكثر منها تجريدية ، وهى براجماتية وسببية اكثر منها قطعية ومطلقة ، وهى مناسبة اكثر منها ملتزمة . وكثيرا ما نجد هذه الثقافات الانجلوسكسونية تضيق بالفلسف وبالاتجاه العقل . والتجربة الدينية فيها اقرب ان تكون تجربة فردية من أن تكون تجربة محسدة في مؤسسات . وقوتها الحقيقية ليست في الفلسفة التأملية ولا في الفكر الدينى ، فليس لها انبياء ولا رسل ، اما قد يسوها ومتصوفتها وفلاسفتها فهم اقل عددا من نظائريهم في حوض البحر الابيض المتوسط . بل أن القوة الحقيقية لهذه الثقافات الانجلوسكسونية ليست في العلوم البحتة أو المجردة التي تتعامل مع الكليات ، وانما هى في العلوم الوضعية والتطبيقية والاستقرائية والتجريبية التي تتعامل مع المحسوسات والجزئيات . وفى الكلام عن الفنون نجد ان قوتها الحقيقية ليست في الفنون الشكلية اللاشخصية كفن التصوير وفن

المعمار وفن النحت وبعض انواع الموسيقى البناية ، بل وليست في انماط الدراما والقصة اللافردية ، ولكن في انواع الرؤيا والاحساس والتعبير القائمة اساسا على التجربة الفردية والشخصية مثل الشعر الغنائى ومثل دراما الطبايع وقصص الطبايع أو دراما الشخصية المتفردة وقصص الشخصية المتفردة . حتى الفضيلة أو ما يسمى بالاخلاق نجدها عند هذه الشعوب الانجلوسكسونية اساسا اجتهدا فرديا وليست انصياعا لمقياس شائع أو ممل . هم يبلغون العظمة ، لا بعظمة الرؤيا ولكن بالسلوك المناسب . وهم لا يبدأون بفكرة تعبير العالم ولكن ينتهون بتغييره فعلا .

هذه بعض الخصائص المميزة لثقافة البحر الابيض المتوسط . نجدها في الثقافات المصرية والاشورية البابلية واليونانية واللاتينية والعبرية والعربية . نجدها في الوثنية وفي اليهودية وفي المسيحية الكاثوليكية وفي المسيحية الارثوذكسية كما نجدها في الاسلام . وسواء في اسسها المثالية أو في اسسها المادية فان العقائد الأساسية في البحر الأبيض المتوسط من ناحية الشكل تجدد التعبير عنها في بناء رمى عظيم واحد ، اما من ناحية المضمون فهي تمثل تجريد العلاقة بين « الفكر » و « العالم الخارجى » ، بين « الله » و « الانسان » . ان ثقافة البحر الابيض المتوسط تجسد سعى الانسان الدائم للبحث عن تليولوجيا أى غائية كلية ، وللبحث عن اخلاق موضوعية لاشخصية . فليست هناك اسطورة أو حرافة أو قصة أو حدوتة أو امثولة لا تتضمن بالوعى أو باللاوعى بحثا غائيا أو بحثا اخلاقيا . والاستغراق في الخيال لمجرد الاستعراق في الخيال لا مكان له في ثقافة البحر الابيض المتوسط . فنسجها كله اناجوى ، كله تروبولوجى ، كله الليجورى . وبالإضافة الى ذلك فأن ابناء البحر الابيض المتوسط يكشفون عن عبقريتهم في الفكر والسلوك من خلال انشاء « مدارس » و « فرق » في الدين أو في الفن أو في الادب أو في السياسة الخ .. ، ومن خلال صياغة بيانات وبرامج واعلانات عن العقيدة أكثر مما يكشفون عنها عن طريق اعتمادهم على المهوبة الفردية وعلى الانجاز الفردى .

ومع ذلك ، فمن المبالغة في تبسيط الامور ان يقال ان كل هذه الاديان والفلسفات النابعة من شعوب البحر الابيض المتوسط رغم كل ما بينها من وحدة في الميتافيزيقا وفي البناء الرمزي ، تقول نفس الشيء . فبينما نجد ان القاسم المشترك بينها هو الاحساس العميق بازواجية الوجود ، ازدواجية الفكر والمادة ، الخير والشر ، والاحساس العميق بضرورة الخروج من هذه الازدواجية سواء بتحطيم المادة أو بتحطيم الفكر أو بإيجاد مركب منهما يقوم على تداخل الاضداد ، يمكن ان نقول في اطمئنان ان اديان المنطقة وفلسفاتها تنقسم الى ثلاثة انماط متميزة : الدرامية والملحمية والتركيبية أو التجميعية .

ففى بعضها ان الخلق دراما ، وكذلك خلاص الانسان وصراع الخير والشر ، وفي غيرها ان كل هذه العناصر خاملة للملحمة كونية .

وربما لم يكن هناك ايضاح لهذا الاختلاف أفضل من موقفى المسيحية والاسلام من الخطيئة الاولى وهما على طرفى نقىض ، ولتناقضهما نظيره في الوثنيات الأولى . فالمسيحية رغم انها قد تأرجحت بين فكرة « فساد الانسان بالفطرة » وفكرة « مسح الخطيئة الاولى » ، قد كانت دائما ترى ان الانسان مولود

بالخطيئة ، ومن أجل هذا فهو بحاجة الى ولادة رمزية جديدة في « البراءة الاولى » طقسها المعمودية ، كما أنه بحاجة الى طقوس رمزية للتكفير عن الخطيئة الاولى تقوم على تقمص شخصية الاله المعذب بتناول الاسرار المقدسة (جسد المسيح ودمه) لكي يتطهر الانسان من الشر . ومعنى هذا ان آدم قد وهب ميراثه من الشر الى كل ابنائه أو بعبارة مبسطة ان كل وجود في المادة وجود في الخطيئة . وبما ان خلاص الانسان ، أو ما كان اثنا سيوس يسميه تأله الانسان ، لا يمكن ان يتم الا من خلال صلب ابن الله الذي هو في الوقت نفسه ابن الانسان ، فان هناك حلا انتحاريا ، أو كارثة مأساوية ، تتميز بهما العقيدة المسيحية ، وهما ينتهيان بتعطيم الجسد لاطلاق سراح روح الانسان ، وهذه هي فلسفة « الموت باب الحياة » . والمنطق الالهى القائم على قيام « الله الأب » بتضحية نفسه من خلال « الله الابن » يؤكد هذه الفلسفة الانتحارية . وبما ان الانسانية في مجموعها لا تستطيع ان تقوم على الانتحار الشامل للتكفير عن خطيئتها الاولى أو لتبرأ من فساد فطرتها ، فهي تفعل ذلك عن طريق رمز « الفداء » ، أى عن طريق « آلام المسيح » . فالمسيح اذن هو بالنيابة « الاله الخاطئ » و « البطل الخاطئ » في الدراما الكونية العظيمة ، وتدميره هو الثمن الفادح لمصالحة الله والانسان .

أما في الاسلام فالموقف مختلف . فالانسان لا يولد بالخطيئة الاولى ، اى ليس خطاء بالفطرة . وقد اخطأ الانسان في الجنة الاولى فنفاه الله منها الى الارض ، وبالتالي لا يمكن ان يعاقب مرتين على نفس الجريمة . وقد استرد الانسان براءته الاولى وهو على الارض بتوبته عن العصيان الاول ، وتوبته حصل على الغفران الالهى . فالجسد ليس « فى جوهره » خطاء ، والمادة ليست « فى جوهرها » نجسة . أى ان الانسان ليس فاسدا بالفطرة . فما ان يعلن الانسان ايمانه ، أى يشهر اسلامه ، بشهادة ان لا اله الا الله وشهادة ان محمدا رسول الله حتى يضمن براءته الاولى . ومن بعد ذلك يصبح مسئولا عن افكاره واعماله لانه يملك حرية الاختيار . ويستطيع التمييز بين الخير والشر وفى الاسلام كما فى المسيحية نجد أن مشكلة الجبر تحجم دائما فى الخلفية . فالله قد ترك الشيطان يعيث فى العالم فسادا ليختبر فضيلة الانسان وليعجم شجاعته ، ولكن الشيطان يمكن للانسان قهره بعون الله . وقد وعد الله عونه للمؤمنين وحدهم والناطقين بالشهادتين . وبذلك يؤدى النطق بالشهادتين فى الاسلام نفس الوظيفة التى يؤدىها العماد فى المسيحية ، الذى به يكون ضمان الميلاد الجديد فى البراءة الاولى . ومع ذلك فالاسلام يختلف عن المسيحية من حيث انه لا يحتاج الى مزيد من طقوس القرايين ، أو دراما الفداء ، ورموز الالم والتكفير للتطهير الكاثارسى . الصراع فى الاسلام صراع ملحى بين الخير والشر ، ونتيجة هذا الصراع تحدد دخول الانسان النعيم أو الجحيم .

وفى هذه الثيودوكيا أو المنطق الالهى نجد ان الانفصام تام والازدواج خارجى بين الفكر والمادة ، بين الروح والجسد . ونجد الانكار البات لمبدأ الوجود ذى الطبيعتين ، وعلاقة « الاب — الابن » بين الخالق والخلقة فهو كون بغير خالق اوسط . وانما نجد بدلا من ذلك ان علاقة السيد بالعبد تحدد العلاقة بين الله والانسان . ففى الاسلام الانسان عبد الله لا ابن الله فالعبد يستطيع ان يشتري عتقه وخلاصه بل

ويشتري سيادته بالايان المطلق وبالطاعة الكاملة وبالعامل الصالح أو الجهاد ضد الشر ، ومن آن لآخر بدموع التوبة كلما جنح عن السبيل السوى . انه رقى كرق هرقل في بيت أوريشيون الذى خاض هرقل في طاعته معاركه الاثنى عشرة ليال مكانه بين آلهة الاولمب . وفي هذه الشيودوكيا نجد ان الله اله مائة في المائة وان الانسان انسان مائة في المائة ، وان الخير خير والشر شر . وليس هناك زواج من أى نوع كان بين السماء والارض ، مهما كان هناك حوار بينهما بل وتدخل بالمعجزة الالهية . ومن هنا فان ابن الانسان لا يزيد عن كونه ابن الانسان ولا يمكن ان يكون ابن الله . وبما ان فكرة تقديم الله نفسه قربانا فكرة مرفوضة ، فان آلام المسيح تكون مجرد آلام ظاهرية . وتبعاً للتقاليد الفكرية الغنوصية والافلاطونية المسيحية كل آلام في دار الفناء لا بد وان تكون ظاهرية ، لاننا نحن اهل الفناء لا بوحدها كاشاح . وفي هذا نحن بعيدون عن الصراع الملحمي بين النور والظلام في ديانة زرادشت ، حيث النور والظلام متساويان في القدم وشريكان يحكمان على عرش الكون .

وقد دخلت الغنوصية وكل مدارس الافلاطونية في طريق مسدود لانها عجزت عن إيجاد حل لهذه المشكلة ، وهى كيف يمكن « للخير المطلق » ان يخلق الشر أو ان يتغاضى عن وجوده . وبعد عذاب فكرى فظيع انتهى نوميديوس الى الموقف الزرادشتى الذى يفرط في ان الله لامتناه في القوة تمسكا منه بان الله لامتناه في الخير . وهذا هو السبب في ان اشكال الافلاطونية المختلفة يمكن ان تؤدي فقط الى فلسفة عظيمة وربما الى لا هوت عظيم ، ولكنها لا يمكن ان تؤدي الى ديانة عظيمة . وقد وجد الاسلام حلا لمشكلة العلاقة بين « الومنا » (البواطن) و « الفيسوميا » (الظواهر) . فافتراضه هو ان كل ما يخلقه الله لا بد وأن يكون بالضرورة خيرا . والانسان والعالم المادى قائلان للفناء ولكن الشر ليس من جوهرهما . والاسلام يحكم انه احتفظ بفكرة الشيطان عائنا وفقا للمخطط الالهى تحت سلطان الله المطلق ، فهو ايضا من خليفة الله ، قد قدم للناس ديناً عظيماً يوفق بين توترات الزرادشتية التى لاحت لها وتوترات الغنوصية التى لا حل لها . لقد كان خطأ الزرادشتية ان اردوا جيتها كانت ازدواجية تشاؤمية ولم تعط للناس اى امل شخصى في الخلاص .

والديانة التى لا تعطى تأكيداً بالخلاص ديانة لا مستقبل لها . اما الغنوصية فقد كان خطؤها انها لم تضمن الخلاص الا للصفوة « الواصلة » أو « العارفة بالله » . والديانة التى لا تعد بخلاص الجماهير ليست ديانة اصلا .

والنظرة المتفحصية تنبئ باننا لا نزال نتحرك داخل اطار البناء الرمزي القديم الذى ربط في حلقة واحدة ما بين أوزيريس وحوريس في الشاطئ الجنوبي من البحر الابيض المتوسط وما بين بروميس وهرقل في شاطئ الشمال . وقد ركزت المسيحية على الخلاص عن طريق آلام الاله المعذب ، بينما ركز الاسلام على الخلاص عن طريق جهاد الانسان المنتصر . ركزت المسيحية على مأساة الخير والشر ، بينما ركز الاسلام على ملحمة الخير والشر . ركزت المسيحية على انسانية الله ، بينما ركز الاسلام على الوهية جوهر الانسان بوضعه فوق مرتبة الملائكة . فلنقل انهما وجهان من وجوه الهيومانزم .

والآن ، هل تجاوزت حدود التأمل المعترف بها ؟ ربما . ولكن هكذا اتصور ما يميز ثقافة البحر الابيض المتوسط من عناصر الوحدة ومن عناصر الانقسام . لقد عرفت ثقافة البحر الابيض زمنا لم يوجد فيه حوريس منتصرا بعيرا وزيريس ممزقا ، ولا أوزيريس ممزقا بعير حوريس منتصرا ، وفي ذلك الزمان كان الله المحسد في الانسان والانسان المتسامي الى الله ينتميان الى نفس الحلقة الرمزية . أما الانقسام فهو من عمل الاحيال التالية .

وقد ركزت على ديانات البحر الابيض المتوسط لان الدين في نظري من اهم مكونات ما يسمى عادة بالثقافة . فهو يتضمن الفلسفة الاساسية والاخلاق الاساسية والفلكور الاساسي والطقوس الاساسية بل وبعض التقاليد والمواقف الاساسية في اى مجتمع من المجتمعات . وهذا هو حال الفن كذلك ، والادب ايضا . وهو بالمثل حال عبقرية الزمان والمكان التي نسميها « التاريخ » . ولا يقل أهمية عن الدين وعن كل هذه الاشياء في تكوين الثقافة نشاط الانسان النظري والعملى الذى يسمونه العلم المحرد والعلم التطبيقي ، وهو ثمرة من مصارعة الانسان مع ظروف حياته المادية . ويتأمل كل هذه المكونات نجد انها مظاهر لنفس الازدواجية أو لنفس الوجود دى الطبيعتين أو لنفس تداخل الضدين وهما الفكر والمادة أو الروح والحسد ، أو الخير والشر ، أو الله والعالم الخارجى .

وبعد ان تدبرنا كل هذا ، اعود الى ملاحظة الاستاذ جاك بيرك حول حماسة جمهور القاهرة عند مشاهدة مأساة اجامنون وآلام أوريسست التى عرضت عليه منذ بضع سنوات ، هى فى الظاهر موضوعات تنتمى الى احواء بعيدة وارمنة بعيدة وامكنة بعيدة واديان بعيدة واجناس بعيدة وثقافات اثنية بعيدة . ومع ذلك فهل تعالج هذه الموضوعات شيئا غير مأساة قدر الانسان الذى سقط بين ناموس الآلهة الصارم وسقوطه اليائس فى الخطيئة وهو فى وجوده الزمنى الفانى ؟ وهل تعالج شيئا غير لفظة الانسان للقبول الالهى الذى لا سبيل الى نواله الا بالكفير الدامى لا ببليغ المرافعة أو الصلاة ، وانما ينال فقط بشفاعه اثينا ، بنت عقل زيوس ، ورمر اللطف الالهى ، وهى تدلى بصوتها فى جانب ترثة الانسان بعد أن عجزت عدالة الارض عن تبرئته أو ادانته ؟ هذه القضايا كانت ذات موضوع فى اثينا وفى منفيس ، وهى لا تزال ذات موضوع فى اثينا وفى القاهرة ، رغم مرور اكثر من الفى عام . هى ذات موضوع ليس فقط لانها قضايا كلية ولكن لان ما يعبر عنها هو بناء ميتافيزيقى وبناء رمزى هما من التراث المشترك فى ثقافة البحر الابيض المتوسط .

الفصل الثاني



رحلة ثقافية (١)

منذ عام أو نحو ذلك دعيت إلى حفل استقبال اقامه السكرتير الأول
لسفارة اليونان في القاهرة ، وهو شاب عظيم الحيوية واللماحة اسمه جورج
كوستولاس ، تكريما لصديقنا اليوناني المصري الاستاذ فاتكيوتيس ،
أستاذ العلوم السياسية بجامعة لندن ، بمناسبة زيارته للقاهرة .

فكانت تلك أول مرة اخالط فيها يونانيا في القاهرة وربما في العالم ، رغم
اهتمامي المعروف بالأدب اليوناني القديم الذي قدمت منه لقراء العربية
ورواد المسرح المصري روائع اسخيلوس : « أجامنون » و « حاملات
القرايين » و « الصافحات » ، و « الضفادع » لارسطوفانيس ، و
« نصوص النقد الادبي عند اليونان » و « أسطورة أوريسست والملاحم
العربية » ، وكلاما كثيرا عن « محاورات الآلهة » للوسيان ، ورغم كثرة
ما كتبت بالانجليزية عن الأدب اليوناني والاساطير اليونانية . فأبناء جيلي
كانوا يعرفون اليونان وأدبهم عن طريق الفرنسيين والانجليز والألمان . وهذا
ما نسمه عالمية الأدب وعالمية الثقافة

وكان اهم ما تحدثنا فيه هو حال الدراسات «يونانية» في مصر
ولاحظت إنكماتر أقسام الدراسات القديمة (ايونية و«لاتينية») في
جامعاتنا . لاسيما منذ اعتكاف عائلتها الكبير صد حسنة بعد ثورة
١٩٥٢ ، نحسب ما عرفت من زملائ أساتذة الكلاسيكيات لجامعاتنا
وقد تحق هذا الانكماش في تضاؤل إقبال الطلاب على هذا الفرع من
دراسة ، حتى غدت أقساما في طريقها إلى الإقراض

وأنا ممن لا يفهمون كيف تخلو مصر والعالم العربى من الدراسات اليونانية ، بغض النظر عن قيمة الأدب اليونانى قديمه وحديثه . فتاريخ المشرق العربى مرتبط فى كثير من حلقاته باليونان فى العصر القديم والوسيط ، قبل الاسلام وبعده ، بل قبل الاسكندر ومدرستى الاسكندرية وانطاكية عبر المشرق اليونانى الرومانى وغير بينزلة حتى نهاية الدولة العباسية الثانية . وكل كلام علمى فى تاريخ المنطقة أو تاريخ فكرها وعلومها يجب أن يحسب حساب اليونان . على الأقل حتى نهاية الحروب الصليبية وبينزلة .

قيل لى أن الحكومة اليونانية تدعو سنويا بعض خريجي أقسام اللغات القديمة وغيرهم ليستكملوا علومهم فى أثينا . قلت ان المشكلة ليست فى أثينا ولكن فى القاهرة . فلا يقل أهمية عن دعوة الدارسين الى اليونان أن يشجع الشباب الجاد على الاقبال على الدراسات اليونانية فى مصر بعد الثانوية العامة ، والحل عندى هو أن تخصص الحكومة اليونانية أو المؤسسات الثقافية فى اليونان منحا أو بعثات داخلية فى مصر ذاتها لأوائل الناجحين فى الثانوية العامة لدراسة اللغة اليونانية وآدابها فى كليات الآداب بالجامعات المصرية لتشجيعهم على الاقبال على هذا الفرع من الدراسة ثم رعاية المتفوقين منهم بعد أن يتخرجوا فى الجامعة بالبعثات الخارجية الطويلة الأجل . منحة من الف جنيه سنويا مضمونة فى أربع سنوات من الدراسة فى كلية الآداب تضمن لنا تثقيف شاب ممتاز فى اليونانيات سنويا من البكالوريا الى البكالوريوس . ولو اقتدت الحكومة الايطالية بالحكومة اليونانية فى ذلك بتشجيع الدراسات اللاتينية فى الجامعة بتقديم منحة سنوية مشابهة لما اشتكت أقسام الدراسات القديمة عندنا الاعسار أبدا .

هذه الميزانية مقدرة على اساس مرتب ثابت قدره ٣٠ جنيه شهريا أى ٣٦٠ جنيه سنويا و ١٤٠ جنيه للكتب و ٥٠٠ جنيه نفقات رحلة صيفية سنوية الى اليونان أو ايطاليا بحسب الحالة لزيارة الآثار وتطبيق العلم على الطبيعة .

قال كوستولاس : الفكرة جميلة ، ويجب ان نلتقى ثانية لبحثها ثم أن هناك بروتوكول التبادل الثقافى الذى يجب تشييطه . قلت سأعرفك بصلاح عبد الصبور ، رئيس هيئة الكتاب ، المسئول عن بروتوكولات التبادل الثقافى — وقد كان — وتعددت لقاءتنا .

واكتشفت أن كوستولاس كان اكثر اهتماما بالتبادل الثقافى منه بالقدماء ، أى أكثر اهتماما بالأحياء منه بالموثق وهذه هى الطريقة الأمريكية فى التفكير . أما أنا فقد نشأت على المنهج الأوروبى فى التفكير : من ليس له قديم ليس له جديد . والمعاصرة هى أن تثور على طغيان القدماء ، ولكن كيف تثور على شيء لا تعرفه ولا تحس بطغيانه ؟ المعاصرة هى أن يخلى الآباء المكان والزمان للأبناء ، ولكن هل هناك أبناء بغير آباء ؟

وتحدثنا كثيرا فى الأدب اليونانى الحديث الذى لم اكن قد قرأت فيه إلا شعر كافافيس الاسكندراني الكبير ، وسفيريس الشهير ، ثم اخيرا ايلتيس بمناسبة حصوله مؤخرا على جائزة نوبل ، الى جانب ما قرأت من روايات كازنتزاكيس .

قال اقرا افيروف ، أو افيروف توسيتزا كما يجب أن يسمى نفسه . وقرات ثلاثة من كتبه : كتاب عن الحرب الأهلية اليونانية (بعد الحرب العالمية الثانية) . ورواية « نداء الأرض » وهى نسيج من الخيال والذكريات الشخصية الواقعية عن دوره فى مقاومة النازى ورواية « فيلوس : أو مذكرات حمامة تطير كالسهم » ، وأعجبت بما قرأت وأوصيت بترجمته ونشره . والحق أنه لو لا فضل الاستاذ نعيم عطية نائب رئيس مجلس الدولة الذى تخصص فى نقل الأدب اليونانى الحديث الى اللغة العربية ، لما اضيف عمل افيروف الى المكتبة العربية بصدر رواية « فيلوس » عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وجاءتنا نحن الثلاثة — صلاح عبد الصبور ونعيم عطيه وشخصى — دعوة شخصية من افيروف لنحل ضيوفا عليه أسبوعا فى اثينا وفى ضيعته بجوار يانينا على تخوم البانيا ، للتعارف ولناقشة قضايا التبادل الثقافى ، ولتعرف على اثار اليونان وللالتقاء بأدبائها ، فلبينا الدعوة . والحق انى لم اعرف فى حياتى كرما فى الضيافة بلغ هذا الكرم الذى غمرنا به افيروف ، وكنا نسمع انه مليونير خطير الى جانب أنه وزير خطير وسياسى خطير ، ولكن القضية لم تكن قضية مال أنفقه بل كانت فى ذلك الدفء القوى الذى احاطنا به منذ ان حللنا حتى رحلنا ، وما خصصه لنا من وقته رغم كثرة مشاغله وما أعدده لنا من تسهيلات لنقطع آلاف الكيلو مترات بالطائرة والسيارة لزيارة الآثار .

فكانت لنا فى كل يوم رحلة تبدأ منذ الصباح حتى الغروب ، ننقل من أثار أثينا وسونيون الى ميكيينا حاضرة أرجوس القديمة ، حيث خرج ابطال « الالياذة » و « الأوديسا » تحملهم الف سفينة لحصار طروادة ، ثم الى جبل بارناس ونبع كاستاليا ومعبد ابولو رب الشمس والشعر الغنائى وعلام الغيوب فى دلف كما كانت اليونان تقول ثم الى يانينا وميتسيفو حيث ضياع افيروف توسيتزا وعبير القلاع التركية وذكريات على باشا الرهيب وأثار خطو اللورد بيرون أو حوافر جياده على الشعاب الجبلية .

وهناك وسط الجبال وجدنا قصر افيروف توسيتزا قد تحول الى متحف يزوره السياح من مختلف الدول ، ليروا كل شئ محفوظا على هيئته منذ ١٦٦٠ : الأثاث والأزياء والسيوف والبنادق وأدوات المطبخ والشمعدانات ، الخ ... وليروا كذلك تجربة شبيهة بتجربتي الحرائية ووكالة الغورى وتقاليد خان الخليلى عندنا ولكنها أوسع مدى ، فهناك تشرف أسرة افيروف توسيتزا بالتمويل والتسويق على صيانة الحرف والصناعات الشعبية فى بيتها ، من نسج السجاجيد والملابس والأحزمة نسجا يدويا الى صناعة التحف الخشبية المزركشة الى صناعة الجبن والنبيد .. الخ ... بما عاد على الرعاة والفلاحين وعلى أسرة افيروف توسيتزا بمال وفير . وحال دون هجرة الرعاة والفلاحين الى المدينة هربا من قسوة الحياة بين الجبال .

هذا ما تفعله الرأسمالية المستتيرة فى أوروبا لتتخذ نفسها وتنقذ الفنون التقليدية وتنقذ البيئة وتوثق صلة الانسان بالأرض التى يعيش عليها ثم لتزيد من الدخل القومى . وفى المساء عندما يفرغ الرعاة من رعيهم وخطابو العابات من أشجارهم وصانعو الجبن من جنبهم .. الخ .. يركب كل منهم سيارته ويتجمعون فى قريتهم للسمر على القهوة أو حول ككوس الأوزو أو فى بيوتهم لمشاهدة التلفزيون . هذا

هو البديل الرومانسي عن حضارة الآلة والمصنع ذى المداخلن الكثيرة . وربما لم يكن هذا الحل كافيا ، ولكنه على كل حال أرقى بكثير من فتح أسواق للرقيق العصري بالتصدير المنظم للأيدى العاملة وللعقول العاملة التى جف عنها ضرع الارض . وكنت لاحظ ان افيروف حريص على أن يسمى نفسه افيروف توسيتزا ، فسألته عن سر هذا الاسم المركب . قال : كانت هناك فى القرن السابع عشر اسرتان كبيرتان فى قرية متزيفو بجوار يانينا هما اسرة توسيتزا واسرة افيروف ، وكانت تربطهما قرابة المصاهرة عبر الاجيال على عادة أهل الريف ، ولكن حدث مؤخرا ان فرع توسيتزا اصبح بلا عقب لان اخر توسيتزا كان عقيما . ومن بعده كان يمكن أن ينمحي اسم توسيتزا من الوجود . والتقى آخر توسيتزا بافيروف فى سويسرا منذ نحو اربعين سنة . وتعهدا على شئ غريب : ان يهب توسيتزا كل املاكه وامواله لافيروف على ان يخصص افيروف هذه الثروة لحفظ الحياة والبيئة وتنميتها فى قريتهما ميتسيفو بالقرب من يانينا . وان يحول داره الى متحف تاريخي وان يحمل اسمه الى جوار اسم افيروف تخليدا لذكراه . وقد كان .

ومضى افيروف يقول : كان توزيتزا المعاصر لمحمد على باشا والى مصر من اصدقاء محمد على ، وقد نشأ فى يانينا القريبة من البانيا حيث كان محمد على رئيس عصابة تسيطر على هذه المنطقة . والارجح انه يقصد ان محمد على كان رئيسا لجماعة من الجنود المرتزقة الالبان ، أو جماعة من الانكشارية الالبان كما تسميهم كتب التاريخ . وكان توسيتزا يملك خانا أو فندقا فى يانينا وكان محمد على يقيم فى ذلك الفندق وذات يوم مرض محمد على بالحمى فنقله توسيتزا الى بيته لتطبيبه وتمريضه بين اسرته . فلما شفى محمد على اراد أن يعبر عن إمتنانه لتوسيتزا فخلع خاتمه والبسه اياه قائلا : لو احتجت الى شئ أو نزل بك مكروه فى يوم من الأيام فتعال الى . واذكرك بهذا الخاتم مهما طال الامد .

وبعد فترة وحزه اصبح محمد على عمدة فوله ، وكان برتبة بكباشى فى الجيش العثمانى وقائدا للقبلى الالبانى الذى اترك به فى الحملة العثمانية لاسترداد مصر من الفرنسيين عام ١٨٠١ . وفى قوله زار توسيتزا محمد على وجاد الصلة به . وبعد أن أصبح محمد على واليا على مصر جاء توسيتزا الى مصر . وكان من كبار الممولين الاجانب والمستشارين الماليين الذين اعتمد عليهم محمد على فى تجارة القطن وفى الاعمال المصرفية . وفى مصر سموه توسيجا بدلا من توسيتزا للنطق . وهذا هو الخواجة توسيجا الذى يرد اسمه كثيرا فى تاريخ مصر الاقتصادى ايام محمد على .

وكنت حريصا منذ اليوم الاول على مشاهدة مسرحية من المسرحيات اليونانية القديمة التى تمثل عادة فى الموسم الصيفى فى المسرح الأثرى بأثينا ، وهو مسرح هيرودوس اتيلوس (١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ مشاهد) أو فى المسرح الأثرى باييدا وروس (١٥٠٠٠ ، ١٥٠٠٠ مشاهد) . واصطحبنا افيروف فى المساء الثانى مع وزير الثقافة السابق ، الأستاذ تريانيس ، والسيدة تساتسوس الشاعرة ، وهى زوجة رئيس الجمهورية السابق ، الى مسرح هيرودوس اتيكوس ، وكان من حسن حظي ان العرض كان لتراجيديا « برومثيروس » « ومغلا » لاسخيلوس . فقد كانت اسطورة برومثيروس من الموضوعات التى شغلتنى سنوات طويلا وكتبت فيها الكتب المطولة بمختلف اللغات لما فيها من خصوبة وثورية وابعاد فلسفية واجتماعية عميقة .

كان برومئوس ماردا ، اى ابن الارض والسماء ، وليس من الالهة . وبسبب نسبه فى الارض احب البشر حبا جما واراد ان يرفعهم الى مصاف الالهة فسرق النار من الالهة واعطاها للبشر وبذلك اسس لهم الحضارة ، واعطاهم الفنون والعلوم والصناعات فغضبت عليه الالهة . وعاقبه زيوس كبير الالهة بان صلبه على جبل القوقاز وارسل اليه نسرا أو كلبا من كلاب جهنم ينهش كبده طول النهار . فاذا ما كان الليل نما كبده من جديد ليطعم عليه السر فى اليوم التالى . اما البشر فقد عاقهم زيوس بان اهلكهم بطوفان .

وكتب ريوس هذا العذاب على برومئوس الى ابد الالدين ، أى حتى نهاية الوجود فى الزمان . وكان يرسل اليه هرميز رسول الالهة ليساومه على الاستسلام مقابل فك أغلاله .

وكان برومئوس يعرف من أمه سرا رهيبا يهلع له قبل ريوس ، وهو أن مخلصا سيخرج من صلب زيوس هو الذى يخلعه من عرش السماء . وعثا ما حاول هرميز ان يستخلص من شفتى برومئوس اسم هذا المخلص حتى يفتك به كبير الالهة ويضمن البقاء على عرش السماء . لقد كانت ثورة برومئوس على الالهة تمثل دائما فى تاريخ الادب ثورة الارض على السماء . وثورة البشر على الطغاة واعظم امتحان لتحدى الجبروت وتحرير ارادة الانسان .

وحين دخلنا مسرح هيرودس اتيكوس وحدنا مقاعده الحجرية عاصة بالمشاهدين ، وما أن راوا افيروف حتى دوى المسرح بالتصفيق تحية له . لقد كانوا يحبون لافيروف الكاتب ولا افيروف الوريث ولكن افيروف المناضل الذى اطاح بحكومة الكولونيالات وعاون كرامالليس على تخليص اليونان من الدكتاتورية العسكرية عام ١٩٧٤ ، ومع ذلك فقد عرفت ان اليساريين فى اليونان ، اداء وجههرا ، لا يحبون افيروف لانه فى نظرهم محافظ اكثر مما ينبغى ، ومنحاز لامريكا أكثر مما ينبغى .

كذلك عرفت ان من الديمقراطيين ايضا من لا يحونه ، لانهم كانوا ينتظرون مه عد تخليص اليونان من حكم العسكريين ، ان يقوم بوصفه وزيرا للدفاع ، بحركة تطهير واسعة فى الجيش اليونانى . ولكنه فصل طريقة « السلامى » كما يسمونها فى اليونان ، وهى طريقة تقطيع شرائح المورتا بالمالا الرقيقة ، ورفص طريقة الجزارة . أى باختصار فضل التطهير الخفيف المقسط . يقول اعداؤه انه لم يستأصل الثورة الانقلاية فى الجيش . أما هو فيقول ان فصل مئات الضباط من القوات المسلحة يضعف القوات المسلحة . واذا ما نشبت حرب مع تركيا أو غيرها فـ يحاد اليونانيون ان جيشا اهوو خسر من لا بجيش على الاطلاق.

ولعل هذه عقدة افيروف الحقيقية . ان يكون رجل سلام ورجل حرب فى وقت واحد . ومن يقرأ كتابه الاحمر الذى ترجمه نعيم عطية الى العربية ، يجد هذا المعنى محفوطا فى اية الاسطورة . صقر بهم بحمامة فتستسلم له وتنجب منه فيلوس ، الحمامة السهم .

الفصل الثالث

ملحمة الصخور والمياه^(١)

في تواريخ القرن التاسع عشر ان « ساكن الجنان » المغفور له محمد على باشا الكبير حين اراد ان يبنى القناطر الخيرية امر بهدم الاهرام ونقل احجارها الى الموقع الجديد لاستخدامها في بناء القناطر الخيرية ، فانزعج المهندس الفرنسي لينان :دى بيلفون ، الذى كان قائما بتنفيذ المشروع والاشراف عليه وانزعج من كان معه من الخبراء الاجانب . ولما عجزوا عن اقناع والى مصر بالعدول عن قراره وسطوا لمقامه قناصل الدول الكبرى ، ولم يعدل ساكن الجنان عن قراره الا حين رجاه بعض ملوك أوروبا وحكوماتها التى يقيم لودها وزنا ان يبقى على آثار منفيس الخالدة . وفى تواريخ القرن التاسع عشر ايضا ان علماء الحملة الفرنسية مسحوا ارض مصر شبرا شبرا واثبتوا كل ما عليها من معابد فى مواقعها ، فما انقضى عصر محمد على ذى المصانع والمنشآت الكثيرة الا وقد نقص عدد المعابد التى سجلها علماء الحملة الفرنسية فى كتابهم الشهير « وصف مصر » نحو عشرة معابد أو أحد عشر معبدا ، ذهبت أمجادها لتشييد منشآت ساكن الجنان .

واليوم بعد مرور اكثر من قرن ، يقف من يريد ان يدون « وصف مصر » ١٩٥٢ — ١٩٦٨ وقفة طويلة أمام مشروع انقاذ آثار النوبة الذى تبنته وزارة الثقافة وباركه الرئيس جمال عبد الناصر ، ويرى ان مصر قد تغيرت كثيرا فغدت تقدرس واجبها نحو تراث الابهاء والاجداد ، بمثل ما

(١) « الأهرام » ١٩٦٨/١٠/٤

تقدس واجبها نحو حقوق الابداء والاحفاد . فمنذ أن بدأت ملحمة السد العالى نشأت الى جوارها ملحمة لا تقل عنها جلالا وجيشانا بأعمق المعاني . فبناء السد العالى كان معناه ارتفاع منسوب مياه النيل جنوب السد ارتفاعا عظيما وتكون بحيرة ناصر من اسوان الى شمال السودان ، وغرق كل ما تحويه اراضى النوبة من آثار الموتى والاحياء .

أما الاحياء فقد تم تهجيرهم الى مناطق اخرى من الصعيد الاعلى ، وقد كانت لهم ايام تهجيرهم فى عجلة الملهوف ملحمة ثالثة ، وقيل مأساة ، ولكن أيا كانت الاخطاء التى ارتكبت لتنفيد هذا التهجير قبل مجرى الطوفان ، فهى اخطاء يمكن تداركها مستقبلا ما دام فلك نوح قد انقذ الاحياء وانقذ معهم نماذج من حضارة الاحياء .

وانما المعجزة الكبرى فى نظرى هى اننا فى وسط هذه الزحمة وفى وسط هذا السباق مع الزمن وفى وسط هذه اللفة الملهوفة على مصير الاحياء ، من ولدوا منهم ومن سيولدون ، لم ننس واجبنا نحو الفن والتاريخ والعقيدة الدينية والاحياء التى غبرت ، لا أقول فننا وتاريخنا وعقيدتنا الدينية وأجدادنا التى غبرت ، فهذا معروف بالبداية ، وانما اقول فن الانسانية كلها وتاريخها وعقيدتها الدينية واجداد ماضيها العريق . وستظل الاجيال القادمة دائما ابدا كلما تأملت وجه مصر جمال عبد الناصر ونظرت فى وجه مصر محمد على ، ترى فى ملامحنا بعض آيات النضوج وتقول : هؤلاء قوم بلغوا حقا سن الرشد أو أوشكوا ، وتبتسم فى شئ من التهكم على ايام ساكن الجنان .

فقد احتفلت وزارة الثقافة ثلاثة ايام هى ٢١ و ٢٢ و ٢٣ سبتمبر ١٩٦٨ بانهاء اعمال انقاذ معبدى أبو سمبل . المعبد الاكبر وهو معبد رمسيس الثانى والمعبد الاصغر وهو معبد زوجته الخميلة الملكة نفرتارى ، بعد جهاد رائع دام نحو عشر سنوات ، وقد لبي دعوة وزير الثقافة لهذا الاحتفال باثنا عشر سمبل نفر كبير من ضيوفنا الأجانب ، بلغ نحو المائة من رجال الدول الأربع : الأمريكة والافريقية والاسيوية : وزراء وسفراء وعلماء ، طاروا من بلادهم الى مصر ليشتركوا فى هذا الحدث العظيم .

وقد بدأت هذه الملحمة العظيمة فى يناير ١٩٥٩ ، اثر سنوات من اليأس من مصير آثار النوبة بعد بناء السد العالى . ففى يناير ١٩٥٩ قررت وزارة الثقافة ان تخرج بمشكلة انقاذ آثار النوبة من محيطها القومى الى المحيط الدولى وان تجعل منها مسؤولية عالمية يشارك فى حملها حماة التراث وحماة الفنون وسدنة الحضارة وحفظة التاريخ فى كل بلد من بلاد العالم المتمدن . فوجهت حكومة الجمهورية العربية المتحدة الى هيئة اليونسكو استنجادا مناشدة أياها ان توجه نداء يخاطب الضمير العالمى للعمل على انقاذ آثار النوبة . وسرعان ما استجابت هيئة اليونسكو لهذا الرجاء استجابة المرحب المؤمر . بحلال هذا العمل العظيم . وفى ٨ مارس ١٩٦٠ وجهت هيئة اليونسكو هذا النداء الدولى وبدأت الحملة الحفيفة لانقاذ آثار النوبة .

وقد كانت هناك صعاب وصعاب . فآثار النوبة لم تكن معبدية أو تمثالية وحدها وإنما كانت عتادا عظيما من المعابد والبيانات الاثرية والاثار التاريخية المظموه التى لم نستخرجها إلا يد الأثر والاعمال

الانثروبولوجية من عصر ما قبل التاريخ والآثار الجيولوجية التي لم يدرسها العلماء دراسة حقة في الماضي ثم فوجيء العالم بأنها سوف تعرق نهائيا وإلى الأبد بعد سنوات قليلة من بناء السد العالي وتكون البحيرة العظيمة ، بحيرة ناصر . كانت هناك معابد فيلة وكلايشة ودندور وجرف حسين وأبو عودة وقرطاسي ووادي السبوع وبيت الوالى والمحرقه والدر والدكة وعمدا ومقاصير ابريم وبعض الكنائس الاثرية كما كانت هناك مقبرة بنوت . ولكن بطبيعة الحال كان معبدا أبو سمبل هما أشق وادق واضخم عملية من هذه العمليات الشاقة الدقيقة المعقدة . كان لابد من أموال طائلة ، بل أموال لاحصر لها لاتمام هذه المهمة التاريخية ، وكان لابد من تعبئة الخبرات العملية في مجالات الآثار وتسجيل الآثار والانثروبولوجيا والجيولوجيا من كل بلاد العالم . فبدا الامر أولا وكأنه حلم من أحلام الاساطير لن يجد طريقه الى التحقيق حتى أن بعض أهل الرأي اكتفى باليأس فدعا للاكتفاء بتصوير هذه الآثار وتسجيلها ونقل قطع منها الى المتاحف لتكون شاهدا على ما كان . ولقد كان هذا الرأي خليقا بأن يستهوى بعض رجال الآثار ممن لا يهمهم الا النقوش والطلاسم والادوات التي تحكى توارىخ الاسر والملوك واخبارهم وأيامهم والادعية التي تحفظ أرواحهم من الهلاك الأبدى وما دامت هذه النقوش والطلاسم والادوات ستحفظ في المتاحف ومادامت صورها ستثبت في سجلات التاريخ ، فالانقاذ عندهم قد تم ولا داعى للاسترسال فى الاحلام .

ولكن ارادة رجلين عاشقين للآثار وللفنون معا ، هما ثروت عكاشة وزير الثقافة ورينيه ما هو مدير اليونيسكو واصرارهما في وجه المصاعب العاتية قلنا موازين التفكير واكدنا للعالم ان من كان في قلبه حبة من الايمان يقول للجلجل تحرك فيتحرك . ان الامر ليس بمجرد تسجيل وتوثيق ، والا لاغنت الكتب والالبومات والخرائط والفهارس عن الحياة وانما هى حفاظ على الفن الجميل والفن الشاغل الذى صاغته يد الانسان الملهم العاشق للجمال منذ الاف السنين وجسدت فيه الايمان بالوطن والايمان بالملك والايمان بملك الملوك مهما تعددت اسماءه أو اختلفت صفاته وسماته من عصر الى عصر ومن حضارة الى حضارة . ولو كان الامر أمر تسجيل وتوثيق فما حاجتنا للهرم الاكبر وكل دقيقة من دقائقه مدونة فى الكتب مصورة فى اللوحات مرسومة فى الخرائط من كل مسقط ؟ ثم من ذا الذى يتحمل أمام التاريخ مسئولية زوال أثر خالد من روائع الفن استطاع أن يتحدى الزمن كل هذه الالاف من السنين . ان المدنيات ، كما قال رينيه ما هو فى خطابه العظيم بأبو سمبل فى حفل ازاحة الستار عن اللوحة التذكارية لاتمام اعمال انقاذ معبدى أبو سمبل ، ان المدنيات اشبه شئ بواحات صغيرة فى تاريخ البربرية الطويل الذى يتكون منه عمر الانسانية . فلنكن اذن من المتمدنين ، كما كان صناع تلك الآثار من المتمدنين . واذا كانوا هم قد صاغوها بما لديهم من ملكة خلاقة وإيمان عميق ، فاضعف المدنية أن نصور ما ابتكره الغير بكل ما أوتينا من علم وقدرة .

وكان قطع معبدى أبو سمبل ونقلهما واعادة بنائهما بحاجة الى نحو ٣٦ مليون دولار ، دفعت مصر ثلثها بعمالتها المحلية ودفعت الولايات المتحدة ثلثها الاخر وساهمت دول عديدة وهيئات شتى وافراد من رعاة الفنون ثلثها الاخير . وقد بدأت أعمال الانقاذ الفعلية فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٣ وانتهت رسميا فى ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨ ، أى أنها استغرقت خمس سنوات . وكانت خطة الانقاذ بسيطة هى نقل جبلين ستغمرهما المياه على جبلين عاليين على ارتفاع ٦٥ مترا ستقف المياه عند سفحهما فقد كان معبد رمسيس

الثاني ومعبد نفرتارى كلاهما محفورا كمغارة رهيبة داخل الجبلين في أبو سمبل . وبدأ العمل بقطع احجار كل من الجبلين ابتداء من القمة حتى نحو ٨٠ سنتيمترا من سقفى المعبدتين . وبعد ازالة الجبلين عن سطحى المعبدتين بدأ العمل الدقيق وهو نشر الاحجار المقوشة والتماثيل والاعمدة فى كتل منتظمة وترقيمها حتى تيسر اعادة تركيبها فى موضعها الجديد . وقد تجاوز عدد هذه الكتل المنشورة ١٠٠٠ كتلة وزن كل منها ما يتراوح بين ١٠ أطنان و ٣٠ طنا . كل هذا تم قبل نهاية ١٩٦٥ أو ما بعدها بقليل ، لان نقل المعبد الكبير الى مكانه الجديد تم فى يناير ١٩٦٦ ونقل المعبد الصغير تم فى مارس ١٩٦٦ . وفى المكان الجديد كان العمل يجرى فى نفس الوقت لتسوية الارضية التى أعدت لاستقبال المعبدتين ، وبذلك ما أن تم نقل أحجار المعبدتين حتى بدأ التركيب . وفى نوفمبر ١٩٦٦ فرغ المهندسون وعلماء الآثار من تركيب المعبدتين كل شئ مرقم وموضوع فى نظام . الهدم تجاوز عامين والبناء تم فى أقل من عام . لعبة لطيفة كبناء البيوت عمكبات الاطفال . كل ما ارجوه أن يكون علماء الآثار قد احسنوا قراءة النقوش قبل تثبيت كل حجر فى مكانه فوق أخيه أو لصق صاحبه كما يحدث أحيانا أن نسهو فنضع الاشياء بالمقلوب ، والا لخرجت لنا لعة هيروغليفية جديدة سوف يحار فى فك رموزها علماء المستقبل .

وبعد ان تم العمل الاساسى بنقل المعبدتين واعادة تركيبهما فى مكانهما الجديد ، بقيت مهمة لا تقل مشقة عن كل ما تم ، مهمة هندسية صرف ، لا تنتمى الى عالم الآثار أو عالم الفنون وهى بناء جبل على كل معبد ليسدو المعبدان وكأهما منحوتان داخل الجبل كما كانا فى القديم . وكان لابد لاقامة الجبل على سقف كل معبد من اقامة قبة خرسانية ضخمة تحتمل حمل الجبل ، وهكذا بدأ العمل فى سبتمبر ١٩٦٦ فى بناء قبتين من الخرسانة ، قبة كبيرة متوسط قطرها نحو ٥٥ مترا ومتوسط ارتفاعها نحو ٢٠ مترا ، وقبة صغيره نصف هذه المقاييس ، الأولى للمعبد الكبير ، معبد رمسيس الثانى ، والثانية للمعبد الصغير ، معبد نفرتارى ، ثم بنى الجبلان فوق القبتين ، ثم بنيت الصخور الطبيعية حول الواحيتين والصخور الطبيعية فى الارض الفراغ بين المعبدتين وما حولهما ، وهذا تم بناء الدبكور بعد ستين احرين من العمل الدائب وعاد المعبدان كما كانا فى القديم وهما الان يقفان فى مواجهة المشرق يستقبلان أشعة الشروق كل صباح وفى تواريخ محددة تنفذ أشعة الشروق إلى أعماقهما فتضيئىء وحده الالهة الجالسة فى قدس الأقداس .

ومن قبل أبو سمبل تم نقل معابد طافة ودابور وقرطاسى والدكة والمحرقه وندور وكلا بشة وعمدا ووادى السبوع وبيت الوالى واقليسييه ومقبرة بنوت ومقاصير ابريم كما تم انقاذ لوحات معبدى جرف حسين وأبو عودة وأكثر هذه المعابد قد تمت اعادة بنائها فى مواضعها الحديدية المرتفعة حيث لن يدركها الطوفان حين تكتمل بحيرة ناصر . حمسون دولة ساهمت بالمال أو شاركت بالجهد والخبرة فى انقاذ آثار النوبة ، ولم تعقد مصر نهائيا الا معبدتين أهدتهما الى الدول صاحبة الأفضال الكثيرة اعترافا بأفضائها فمعبد دندور أهدته مصر الى الولايات المتحدة ومعبد ليسيه اهدته مصر الى ايطاليا . وقد شاركت فى السنوات الحرجة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٧ بعثات عديدة من العلماء فى مختلف التخصصات جاءت من كل اطراف العالم . جاءت ٣٥ بعثة أثرية للحفر والمسح والتسجيل لتغطى كل المنطقة الواقعة بين اسوان والحدود المصرية السودانية قبلما يدركها الطوفان .

أو ليست هذه ملحمة عظيمة كان ينبغي ان تلهم الشعراء بأجمل القصيد ؟ لقد دعا ثروت عكاشة في ربيع ١٩٦٢ لفيفا كبيرا من الفنانين التشكيليين لزيارة آثار النوبة قبل ان يبدأ العلماء العث بها لعلها ان توحى اليهم ببعض المعاني التي يجسدونها بالخط واللون والحجر . وقد اندسست انا يومئذ بين هؤلاء الفنانين التشكيليين لشدة حرصى على معاينة هذه الملحمة من الفها الى يائها ، فقد كنت احس احساسا عميقا بان صفحة فى التاريخ وفى تاريخ الفنون وفى حضارة الانسان توشك ان تكتب . وعندما عاد الفنانون الى القاهرة تفجرت الوان النوبة الساخنة ومعانيها ومناخها من اسوان الى ابو سمبل فى وجدانهم وفى لوحاتهم وأعمالهم وظلت تراودهم عامين أو يزيد . وفى احتفالات ٢١ — ٢٣ سبتمبر ١٩٦٨ دعا ثروت عكاشة لفيفا كبيرا من الكتاب لزيارة أبو سمبل ولكسى لم اجد من شعرائنا احدا غير صالح جودت ، ولا اعتقد انى رأيت بيننا واحدا من كتاب القصة أو الرواية أو المسرح ، واما كان اكثر من رايت من اصحاب القلم فى الصحافة . ولا شك ان الاحتفالات الرسمية هى أردأ المناسبات لتجميع الادباء والفنانين الاصلاء الذين يحتاجون الى الهدوء للتأمل والمعايشة بالفكر والوجدان ، بعيدا عن الخطب والموائد الرسمية ولكنى رغم هذا كنت احب ان اراهم معنا لان عيد ابو سمبل هو فى نظرى عيد للاداب والفنون الى جانب كونه عيدا للتاريخ والآثار . فليت وراة الثقافة تهبى لافواج الادباء والفنانين فرص الاقامة الهادئة الكافية بين ذكريات الماضى وانحارات الحاضر .

ولم يبق فى هذه الملحمة العظيمة الا شيد واحد عظيم رحوان نترم به قريبا ، وهو الشيد الذى يحكى قصة انقاذ معبد فيله ، ذلك الذى عرفه البعض بقصر انس الوحود ، فهو لا يزال الان قائما كالدرة اليتيمة أو كأفروديت الخارجة من محاربتها فى مياه قرص دات الكروم الكثيرة ، هناك وسط الليل بين السد العالى وخزان اسوان ، لا فى شموخ ابو سمبل والرعامسة ، ولكن فى جمال اليونان والبطالسة ، نصفه غارق فى اليم ونصفه شاهد على ذلك العصر العظيم الاليم الذى تمرقت فيه ارواح الشر بين الوثنية والتوحيد ، وكان كهنة ايزيس من النوبيين يعتصمون فيه حتى نهايات القرن الرابع الميلادى من عصف ثيودسيوس واباطرة بيزنطة العيورين على دين المسيح . وبعد ان توجه رينيه ما هو مدير اليونسكو فى خطابه بابو سمبل بصلاته الى الملك المؤله فرعون مصر دى الاوتاد وناجاه بأجمل الكلمات والمعاني ، التفت الى العالم واطلق النداء الحديد : لن يبقى الا هذه الدرة الفريدة ، وانتالها لن يكلف العالم الا نحو ١٢ مليون دولار ، فيابنى الانسان فى كل مكان ، تذكروا دائما ان المدنيات اشبه شئ بالوحدات فى تاريخ البربرية الطويل ، فتآخوا وتضافروا لانتشال هذا الشاهد العظيم على مدينة عظيمة .

وعندما سمعنا كلامه اهتزت قلوبنا . وعندما طفنا على وجه المياه من حول معبد فيلة ذكرنا وفى العين دمة قول شوق فى قصر اس الوجود :

ايها المنتحى بأسوان دارا	كالغريا تريد ان تنقضا
قف بتلك القصور فى اليم عرقى	ممسكا بعضها من الذعر بعضا
مشرفات على الزوال وكانت	مشرفات على الكواكب نهضا

وتولت عزائم العلم مرضى	حار فيك المهندسون عقولا
ست وشباب الفنون مازال غضا	شباب من حولها الزمان وشاب
نع منه باليدى بالامس نفضا	رب نقش كأثما نفص الصا
اعصر بالسراج والزيت وضا	ودهان كلامع الزيت مرت
فسكبت الدموع والحق يقضى	ياقصورا نظرتها وهى تقضى

فالتحية اذن اعظم التحية لثروت عكاشة وزير الثقافة ولوزارته ، ولرئيسه ماهو مدير اليونسكو وهيئته ، ولحفظه الحضارة ورعاة الفنون اينما كانوا على وجه الارض : حكومات وجامعات وهيئات وافرادا ، ممن ساهموا بالمال أو الجهد أو بالخبرة أو بالدعوة لانقاذ آثار التوبة فاثبتوا التقاء بنى الانسان على الاخاء العظيم فى سبيل الحفاظ على القيم العليا ، وسط عالم يموج بالشحناء والبغضاء والريب والشكوك والظلمة وفى الظلام . والتحية اذن للعلماء الجهابذة ابطل هذه الملحمة العظيمة ، ملحمة الصخور والمياه ، ومع التحية اجلال من الاعماق وعرفان لاحد لمداه .

الفصل الرابع

فلنذكر الأزهر قليلا^(١)

لكل مدينة عظيمة رواية عن منشئها نسجت من جميل الأساطير :
فأثينا العظيمة أسسها الملك ثيسوس بمعونة الربة اثينا بعد عودته من العالم
السفلى ، مملكة الموتى . وطيبة الغراء أسسها أمفيون الذى كان يجذب
بأنغام مزماره الأحجار ويجعلها بسحر اللحن تتراص فى أسوارها المنيعه .
وروما الخالدة أسسها البطل رومولوس الذى ألقى مع أخيه وليدا فى الغراء
فأرضعته ذئبة حتى شب عن الطوق . والقاهرة أسسها جوهر الصقلى حين
سطع كوكب المريخ فى كبد الليل فى سمت السماء ..

فلنقل ان هذه كلها اساطير جميلة نسجها خيال القدماء . فالذى
نعرفه عن تاريخ القاهرة انها كانت حقيقة قائمة فى عصر ما قبل التاريخ وفى
مصر الفرعونية منذ الاسرات الاولى . ويظن البعض ان اسمها كان فى
الفرعونية « كاح ان رع » وفى مصر القبطية « كاهى ان رع » أى
« ارض رع » آله الشمس وكبير الالهة فى عديد من اسرات مصر
القديمة :و « كاح » المفخمة وخفيفها « كاه » فى القبطى الصعيدى و
« كاهى » فى القبطى البحرى تقابل اليونانية « جى » أو « جايا » ،
وهى ربة الارض ، أما « ان » فهى اداة الاضافة ، كقولنا « الارض
بتاعت رع » ولذلك كانت تسبق كلمة « كاهى » (ارض) اداة
التعريف « نى » لتعنى (الارض) فالاسم اذن كان « ابكاهى ان رع »
Ebkahi enra ومعناه الحرفى هو الارض بتاعت رع . وفى النصوص

(١) « الأهرام » ٢٨/٢ ١٩٦٩

القديمة كان يقال ، « ابكاهى انكىمى » Ebkahi enkimi أى « أرض مصر » أو حرفيا « الأرض بتاعت مصر » ؟ قارن « جاه » العربية و « وجيه » بمعناها المصرى وهو ذو الارض الكثيرة .

وقد كان مركز « كاهى ان رع » هذه هو ضاحية عين شمس التى كانت تسمى « ايونو » iounou بالمصرية القديمة الفصحى منذ اقدم الاسرات وتسمى « أون » oun فى دارجتها القبطية ، وقد عرفها اليونان لآلف خلت قبل الميلاد ، كما كان هذا المركز يحتوى أو يجاور اذا صح رأى العلامة أميلينو ضاحية المطرية ايضا ، وهى التى نزلت بها مريم وطفلها بين سنة ١ و سنة ٧ ميلادية فرارا من غضب هيرودس ملك اليهود ، ولست احسب ان مريم قطعت كل هذه الفياق والحقول لتفىء بشجرة أو نخلة قائمة فى بيداء وانما لتعتصم بمعبد الشمس وكهانه محتمية أو متطهرة . وقد كان اليونان يسمون اون هذه « عين شمس — المطرية » باسم « هليوبوليس » اى « مدينة الشمس » باليونانية . وقالوا انها كانت المركز الرئيسى فى مصر كلها لعبادة رع آله الشمس ، وان المعبد الاكبر للاله رع كان فيها وانها كانت بها جامعة يعلم فيها كهنتها علوم الدين والدنيا ويؤمها طلاب الحكمة من مختلف بلاد الله . وقد زارها المشرع صولون (حول ٦٤٠ — حول ٥٦٠ ق . م .) والعالم فيثاغورس نحو ٥٥٠ ق . م . والمؤرخ هيرودوث نحو ٤٦٠ ق . م . كما زارها من بعدهم افلاطون وبلوتارك وديودور الصقلى واسترابوخ .. وقد ذكر هيرودوت ان هليوبوليس كان يقام فيها احد الموالد الستة الرئيسية فى مصر القديمة (الكتاب ٢ ، الفقرة ٥٩) ، كما وصف جامعة أون وكهنتها بقوله : « وقد زرت طيبة (الاقصر) أيضا وهليوبوليس لهذا الغرض نفسه ، لاني كنت أحب ان أعرف ان كان أهل هذين البلدين سيروون على نفس الرواية التى سمعتها من الكهنة فى منفيس (وهى ان الفريجييين اقدم لغة من المصريين) . فأهل هليوبوليس يقال عنهم انهم اعلم اهل مصر . » (الكتاب ٢ الفقرة ٢) .

كانت هليوبوليس (عين شمس والمطرية) اذن المركز الرئيسى لعبادة رع آله الشمس منذ بداية التاريخ المصرى بمثل ما كانت منفيس (ميت رهينة بين سقارة والبدرشين) المركز الرئيسى لعبادة بتاح أو فتاح اله الخلق وصانع الكون ، وبمثل ما كانت طيبة (الاقصر) المركز الرئيسى لعبادة آمون وبمثل ما كانت اخنيتاتون (تل العمارنة) قرب ملوى المركز الرئيسى لعبادة أتون فى عصر اخناتون ، وبمثل ما كانت العراة المدفونة قرب قنا (ايدوس) وطنطا اهم مركزين لعبادة أوزيريس فى الوجهين القبلى والبحرى ولعل أهم ما ورد فى نص هيرودوت فى هذا السياق هو اشارته الى هليوبوليس على انها « بلد » polis على قدم المساواة مع طيبة ومنفيس . فعين شمس اذن لم تكن مجرد معبد للشمس فيه جامعة معزولة تتألق كلوثة الصحراء كأنها دير عظيم ، بل كانت مدينة بكل معنى الكلمة ، تضارع فى رواية هيرودوت منفيس وطيبة ، عاصمتى مصر فى العصور المختلفة .



واذا كانت هليوبوليس [عين شمس ، المطرية ، الزيتون] مدينة على النحو الذى ذكره هيرودوت تضارع منفيس وطيبة فليس ان تتصور ان تخومها كانت اصلا تترامى شمالا فتشمل بعض مصر

الجديدة وتترامى جنوبا فتشمل العباسية وربما الحسينية والحمالية تحذاء الصحراء وجبل المقطم غالبا حتى باب الوزير وباب زويلة وهى الحدود المعروفة لقاهرة الفاطميين أو القاهرة المعزية — ورغم أنه وقت انشاء القاهرة المعزية كان فيما يقول الاستاذ كريزويل استنادا الى المقرئى وغيره من المؤرخين المتأخرين وقياسا على المدينة العسكرية التى بناها الفاطميون من قبل قرب القبروان ، وهى المنصورية ، كان يحده هذه القاهرة المعزية الخلاء شمالا من ناحية الحسينية والخلاء جنوبا من ناحية الفسطاط ومصر القديمة والمقطم شرقا وحليج النيل غربا الى عين شمس وما بعدها كما تسمى فى وثائق الفاطميين . وبذلك تكون أون حيث معبد الشمس أو عين شمس والمطرية هى الحرم المقدس فى مدينة الشمس الكبرى أرض رع أو أب كاهى ان رع [بكاهى انرع] الشاملة ، على نحو ما نقول الان « الازهر » ، ولا نقصد فقط ذلك الحرم المقدس ولكن الحى الكبير من العتبة الى نهاية العمران شرقا . والارجح أن الفاطميين حين عسكروا فى مصر وأسسوا تحصيناتهم وقصورهم وجامعهم العظيم الذى غدا أقدم جامعة فى العالم الوسيط والحديث ، انما فعلوا كل ذلك فى الحدود القبلىة لهذه المدينة الدينية العظيمة ، مدينة الشمس أو ابكاهى انرع ، أى أرض رع ليكونوا فى مواجهة الفسطاط والقطائع مركز حكم اسلافهم الطولونيين ، كما عسكر الطولونيون من قبلهم فى القطائع ليكونوا فى مواجهة الفسطاط مركز الحكم منذ الفتح العربى أى منذ سنة ٦٤٢ . وكل من كتبوا عن تاريخ القاهرة متفقون على انها بنيت وكأنها تحصينات عسكرية معزولة . وفى المقرئى انه لم يكن يؤذن لاحد فى دخول أبوابها وتجاوز أسوارها الا جند الجيش الفاطمى ورجال الدولة الفاطمية ، وأن الشعب ظل يسكن الفسطاط بينما كان حكامه يقيمون داخل هذه الاسوار المقامة على هيئة مستطيل ضلعاه الممتدان من الشمال الى الجنوب كل منهما ١١٥٠ مترا وضلعاه الممتدان من الشرق الى الغرب كل منهما ١١٠٠ متر . وقد اتسع هذا المستطيل قليلا أيام امير الجيوش بدر الجمالى ولكن هذه الاسوار مالبثت أن اندثرت قبل مرور ثمانين سنة على حكم الفاطميين واستقرارهم ، فوصف ناصر خسرو فى « سفر نامه » للقاهرة التى زارها نحو ١٠٥٠ بنفى وجود أية اسوار بها ويضيف انه رأى بها ٢٠ ألف دكان ، مما يدل على أنها سرعان ما انتهت كقلعة عسكرية وتحولت الى مركز تجارى عظيم يمثل ما كانت الفسطاط أيام زيارة ناصر خسرو فى « سفرنامه » للقاهرة . ولكن هذا لا ينبغى أن ينسبنا أن القاهرة المعزية المحدودة شمالا ببرح الظفر وباب الفتوح وباب القنطرة والمحدودة جنوبا بباب القراطين وباب زويلة وباب الفرج وباب سعادة كانت أصلا معسكرا ضخما للخليفة الفاطمى ورجال دولته وجنوده وضخامة عدد الدكاكين التى يذكرها ناصر خسرو [٢٠ ألف] يوحى بأن جوهر الصقل انما ضرب اسواره حول آلاف مؤلفة من الدكاكين التى كانت قائمة فعلا قبل مجيء الفاطميين لتقوم بتأمين جيشه فمن المستبعد ان يكون كل هذا العدد العظيم من الدكاكين قد نشأ كله فى نحو خمسين عاما ، ومن المستبعد أيضا ان جنود جوهر والمعز كانت تقطع عدة أميال ليشترتوا حاجاتهم من الفسطاط أو عين شمس .



وفى مخطوط اللورد كروفورد فى املينو (جغرافية مصر فى العصر القبطى ص ٥٧٩ — ٥٨١) ان القاهرة كانت بها فى العصر القبطى كنائس حيث الآن حارة رويلة وحارة الروم ودرب البحر والظاهر

ورأس الخليج والخنديق .. الخ) وبعض هذه الأماكن يدخل في نطاق القاهرة المعزية . وحيث توجد أماكن للصلاة من حقنا ان نفترض قرب مساكن المصلين - وهو ما ينبغي ان يجعلنا ننظر في تحفظ الى نظرية (الخلاء) التي يقول بها الأستاذ كرزويل .

وبهذا تسقط شهادة الأستاذ كريسيول بأن القاهرة المعزية انشئت في خلاء تام ليس فيه الا دير العظام ببستان كافور وحسن قصر الشوق .



والأرجح ان الفاطميين حين دخلوا مصر وجدوا أهلها لا يزالون يسمون هذه المدينة القديمة الممتدة من عين شمس شمالا الى العباسية على الأقل جنوبا باسمها القديم في صورته القبطية « ابكاهي انرع » غالبا دون ان يدركوا تماما مضمونه الوثني واشتاله على اسم « رع » اله الشمس او دون ان يتخرجوا كثيرا من ذلك حتى لو ادركوه ، باعتبار ان اسم « رع » يمكن ان ينطبق على الشمس كما ينطبق على اله الشمس ، فقرب الغزاة الفاطميون . اسم « ابكاهي انرع » الى اقرب لفظ عربى يعرفونه وهو « القاهرة » . وربما وجدوه على ألسنة العامة « الكاهي انرع » بحكم الامتصاص اللغوى الكافي بعد ثلاثة قرون من الحكم العربى ان يحل اداة التعريف العربية محل اداة التعريف القبطية .



وهكذا نشأت اسطورة التنجيم والغراب والاجراس والفأل والنحس وكل هذه الاشياء التي رواها مؤرخو العصور الوسطى عن ظروف تأسيس الفاطميين للقاهرة ، ولا سيما لما اشتهر عن أهل المغرب من أقدم العصور حتى منذ أيام قرطاجنة من اشتغالهم بالتنجيم . فقد جرت الاسطورة حسب ماروى المقرئى بأن جوهر الصقلى حين بدأ فى تأسيس القاهرة حفر الخنادق لبناء أساس الاسوار واقام فيها قوام ربطت فيها حبال تحمل اجراسا كان من المتفق أن يدهقها المنجمون اشارة لبدء البناء عندما يرصدون فى الافلاك لحظة الطالع السعيد وقبل ان يتم ذلك ، وقع غراب على الحبال فدقت الاجراس وظن البنّاعون ان هذه اشارة المنجمين فبدأوا البناء . وكان ساعتها كوكب المريخ فى السمك ، وكان المريخ يعرف عند الفلكيين باسم « قاهر الفلك » ، فسميت « القاهرة » باسمه فيما بعد ذلك تيمنّا حين نزل المعز مصر بعد اربع سنوات من تأسيسها . أما وقت تأسيس القاهرة فقد كان يظن أن ظهور المريخ فى السمك وقت وضع اساسها كان طالع نحس ، ولذلك سماها جوهر الصقلى وقتئذ « المنصورية » على اسم مدينة المنصورية الفاطمية بمجوار القيروان . فالذى اطلق على القاهرة أسمها تيمنّا بالمريخ قاهر الفلك هو المعز لانه تفاعل بما فيه من معاني القهر والظفر ، وقد أوضح الاستاذ كريسيول ما فى هذه الرواية من نسج اسطورى ، فهى مجرد تكرار لما ذكره المسعودى المتوفى عام ٩٤٣ عن تأسيس الاسكندر الاكبر لمدينة الاسكندرية



فاذا نحن صرفنا خرافة الغراب والاجراس والمرج قاهر الفلك ، وجدنا أن ظروف انشاء القاهرة تشير كلها الى ان اسم القاهرة الجديد قد بنى على اسمها القديم « ابكاهى انزع » أو أرض رع ، فاسم القاهرة في أيام الفاطميين لم يكن مجرد القاهرة وانما كان « القاهرة المعزية » مما يوحي بأنها كانت اسما لحزب من كل أكبر منه ، أو مجرد حى كبير فى مدينة أكبر تحمل اسم القاهرة ، فما هو داخل اسوار هذا الحى الفاطمى هو القاهرة المعزية وما هو داخله وخارجه الى عين شمس هو القاهرة عموما أو أبكاهى أنزع أو أرض رع . ولو ان الاسم القديم لم يكن موجودا أو شائعا الى حد انه فرض نفسه فرضا على الفاطميين ، لاكتفى المعز بأن يطلق على حاضرة ملكه التى بناها بنفسه أو بناها جوهر له كما يقول الرواة ، اسم « المعزية » تمشيا مع عادات الملوك والعظماء حين يقولون ويقول الناس معهم : الاسكندرية أو الاسماعيلية أو التوفيقية الخ ، ولما كانت به حاجة الى أن يجعل من اسمه صفة لعلم من الاعلام أو صفة لصفة ذهبت مذهب العلم . والدليل على ذلك ان جوهر الصقلى حين دخل القاهرة وبنى فيها معسكر الفاطميين وقصورهم سماها المنصورية تخليدا للمنصورية التى اقامها الفاطميون قرب القبروان تمجيدا لخليفته المنصور الثالث ، ولكن يبدو أن القاهريين اعرضوا عن قبول هذا الاسم الجديد لحاضرتهم واستمسكوا باسم القاهرة القديم ، فلما جاء المعز اهتمدى الى هذا الحل الوسط فسمها القاهرة المعزية فأرضى الناس وخلد اسمه جميعا .



وليس بغريب أن يجد الفاطميون عند فتحهم لمصر عام ٩٦٩ ، وبعد دخول جوهر الصقلى عاصمة البلاد فى ٧ يوليو من ذلك العام ، اهل مصر متمسكين باسم كاهى انزع اسما لهذه المدينة القديمة ، بل الغريب حقا أن يجدوهم قد عدلوا عنه ، فنحن الان ، بعد أن أصبح كافة المصريين يتكلمون العربية ، نسى أن سواد المصريين كانوا ، حتى سنة ٨٠٠ على أقل تقدير ، لا يزالون يتكلمون اللغة القبطية ، وهى لهجة من لهجات اللغة المصرية القديمة على عرار ما فعله الفرس بالفارسية والنوبيون والبربر بالنوبية والبربرية . فنحن نعلم من المقرئى أن القاهرة ثارت فى عصر المأمون [٧٨٦ — ٨٣٣] ، وبعد أن أجمدت الثورة جاء المأمون بشخصه الى القاهرة ليتفقد أحوال الرعية ويستفسر بنفسه من أهلها عن أسباب ثورتهم ، فكان يمشى فى الاسواق يتقدمه الترجمة ، وهو ما يدل على ان سواد المصريين ، مع أن كثرتهم كانت قد دخلت دين الاسلام ، لم يكونوا يعرفون العربية رغم مرور نحو مائة وثمانين عاما على الفتح العربى ، ورغم ان المثقفين المصريين وكل من شارك فى جهاز الدولة من المصريين قد اتخذوا اللغة العربية ، وهى لغة الدولة الرسمية ، لغة أولى لهم .



ولا شك أن مرور نحو مائة وخمسين سنة اخرى ، من خلافة المأمون الى خلافة المعز [منتصف يونيو ٩٧٣] قد حسن الموقف بالنسبة للغة العربية ، ولكن من المعروف أن من بين جميع مظاهر الحضارة وال عمران ليس هناك ما هو أقدر على الاستمرار والتشبث بالبقاء فى العرف العام عبر آلاف

السنين أكثر من أسماء البلاد ، ولقد تعبير لغة البلاد ودياناتها ومعتقداتها وتقاليدها مرات وتبقى أسماء الاعلام [البلاد والاماكن والاشخاص] تتوارث من جيل الى جيل ، سواء في جرسها القديم أو محرفة قليلا أو كثيرا ، ولقد يبلغ التحريف مدى يطمس ظاهر الاسماء القديمة ، بقوة قوانين اللهجات أو بقوة الامتناس في اللغة الجديدة ، ولكن هذه مهمة فقهاء اللغات أن يحاولوا النباش في أصول الكلمات ليفرزوا الطارىء فيها من الاصيل .



فوجود مركز قديم مزدهر لصناعة الفخار والخزف في الفسطاط [مصر القديمة] عند سيدى أبو السعود الجارحى [قرب جامع عمرو وعلى مقربة من حصن بابليون] ورد ذكره في سائر من أرخ للقاهرة الاسلامية منذ الفتح العربى ، يوحى بأن حى الفسطاط. كان حى الفخارين منذ مصر الوثنية ، وبأنه كان مركزا لعبادة هفايستوس رب النار والصناعة عند اليونان والرومان في مصر اليونانية الرومانية على غرار حى الفخارين في اثينا القديمة وان اليونان والرومان على عادتهم رادفوا - خطأ أو صوابا - معبودهم باسم معبود المنطقة المصرية القديمة . بهذا يشته فيلولوجيا في ان الفسطاط كانت التقريب العربى لاسم Pa Sothis اى « المنسوب الى سوطيس » [بتاع سوتيس] رب الشعرى واله الفخارين والحدادين في مصر القديمة وفي بابل ، وهى صيغة منحطة من باجحوتى [بالجيم المعطشة] Pa Djhouti في المصرية القديمة الفصحى . وهذا يكون جيش عمرو بن العاص ، بعد أن هزم جيش الروم في بابليون عسكر في ذلك الشطر المأهول من المدينة وامتنص الاسم القديم الشائع له في اقرب كلمة عربية يعرفها العرب وهى « الفسطاط » بمعنى الخيمة أو الخيام ، فهو لم يؤسس الفسطاط وانما أقام معسكره فيها ، وهو لم يعط في مصر « العتيقة » هذا الاسم وإنما أخذه منها ، والدليل العقل على ان خيام عمرو ليست اصل الفسطاط أن القواد العرب كانوا يضربون فساطيطهم في كل مكان وفي كل الأمصار التى فتحوها إبان تلك الوثبة العظمى ومع ذلك لم نسمع بفسطاط آخر غير فسطاط مصر ، وحيث كانت حامية الروم قائمة وثابتة يجب أن نفترض وجود حى مدنى متاخم لها لتمويل جيش الروم على أقل تقدير .



فاذا كان المعز لم يؤسس القاهرة منذ الف عام وانما ضرب فيها معسكرا وانشأ حيا أو نعى حيا كان قائما بالفعل فما معنى كل هذه الاحتفالات الجميلة التى تقوم بها وزارة الثقافة وتعينها عليها الصحافة واجهزة الاعلام الاخرى ؟ لقد كنت أعجب لهذه الضجة التى تثار حول ما يسمونه الفية القاهرة واجادل نفسى وأجادل غيرى في أسبابها . فقد جرى العرف بين المدن - على عكس النساء - أن تزيد في أعمارها ما أمكنها ذلك لا أن تنقصها ، لان العمر في المدن أية عراقة واصالة وحضارة . وحين احتفلت باريس بعد الحرب العالمية الثانية بمرور ألفى سنة على انشائها ، عادت بتاريخ تأسيسها الى فتح يوليوس قيصر للغال [فرنسا] ، وقد كانت يومئذ قرية صغيرة عسكر فيها الرومان . ووزارة الثقافة ، قبل أية جهة أخرى ، تعرف تمام المعرفة أن عمر القاهرة خمسة الاف سنة وليس ألف سنة على الاقل لان

مصلحة الآثار تابعة لها . فاحتفالاتها اذن احتفالات بالفاطميين وليست بالقاهرة . وكنت اسأل نفسي هذه الاسئلة الحائرة : وماذا فعل الفاطميون لمصر اكثر مما فعل الطولونيون والاخشيديون والايوبيون وعامة المماليك البرجية والبحرية ؟ لكن كان الفاطميون قد ردوا بيزنطة عن العالم الاسلامى وقاتلوا الصليبيين فى موجاتهم الاولى ، فالايوبيون هم الذين ردوا الصليبيين وطهروا المنطقة من شرهم ، وكنت اسأل نفسي : أو لم يكن أولى أن نحتفل بدخول عمرو بن العاص القاهرة ، لانه أسس أحد أحيائها وهو الفسطاط كما تجرى أساطير المؤرخين ، ولكن لانه كان أول من أعاد عاصمة البلاد من الاسكندرية الى القاهرة بعد ان ظلت ألف سنة ، بين ٣٣٣ ق . م . و ٦٤٢ م . تحت اليونان ثم الرومان ثم بيزنطة متمركزة فى الاسكندرية ، وبذلك يكون عمرو بن العاص قد رد الى القاهرة من هليوبوليس الى سقارة مكانتها السياسية الاولى أيام الفراعنة ، وفى هذا مناسبة كافية للاحتفال بالقاهرة الجديدة ، ولا أقول بعمرو بن العاص . فلو أن الاسكندرية احتفلت منذ عامين ، أى من ١٩٦٧ ، بمرور ٢٣٠٠ سنة على تأسيسها لكنت تحتفل بنفسها وليس بالاسكندر الاكبر ، وهى أقدم منه وكان اسمها راكودا أيام الفراعنة . فان لم يكن بد من الاحتفال فلقد كان خيرا الف مرة ان نحتفل بفتح كعمرو بن العاص ادخل الاسلام فى مصر وقد كان ارقى قوة حضارية فى العالم الوسيط ، من أن نحتفل بفتح كالمز ادخل هو واخلافه فى مصر بدعا دينية ودعوات باطنية ونظما فى الحكم نيرونية الشكل والمضمون .



ودرجة درجة اهتديت الى الاجابة على هذه الاسئلة الكثيرة الحائرة ، أو خيل الى أنى اهتديت اليها . لم أجد تفسيراً لهذه الجلبة الكبرى حول قاهرة الفاطميين الا أن التهاب الروح القومية وانصهارها مع الوجدان الدينى هما اللذان أوحيا الى طائفة من علمائنا ومتقفيها ورجالاتنا أن ينظروا الى مصر الفاطمية هذه النظرة الخاصة ويعدها القمة الحقيقية لمصر الاسلامية ، فمصر الفاطمية رغم أنها لم تتميز باجماد عسكرية فى ضخامة اجماد صلاح الدين الايوبى أو أجماد محمد على بل ولم تتميز فى شىء واضح عن دولة احمد بن طولون أو الاخشيديين أو الظاهر بيبرس أو السلطان الغورى الا أنها تميزت عن مصر الطولونية ومصر الاخشيديية ومصر الايوبية ومصر المملوكية ومصر العثمانية بشىء واحد ، وهو ان عصرها كان العصر الوحيد فى تاريخ مصر الاسلامية الذى انتقلت فيه الخلافة الى القاهرة ولم تعد تابعة لاحد من خلفاء بنى العباس فى بغداد أو لاحد من خلفاء بنى أمية فى دمشق ، أو لاحد من خلفاء آل عثمان . وانتقال دار الخلافة الى مصر أو قيام الخلافة فيها على أقل تقدير لم يكن معناه استقلال مصر السياسى فحسب ولكن كان معناه أن مصر غدت عاصمة روحية لشطر من العالم الاسلامى لا يستهان به . ولولا المعتقدات والتخريجات العجيبة التى اصطبغ بها الفكر الفاطمى الدينى فأعيت المصريين وغير المصريين فى فهمها أو فى قبولها لظلت القاهرة منذ القرن العاشر العاصمة الروحية الكبرى للمسلمين .

هذا هو المعنى القومى الدينى الذى اهتديت اليه فى تأملى لاحتفالات ألفتية القاهرة ، فأرجو الا أكون قد اسرفت فى الاجتهاد ، فان كان هذا المعنى القومى الدينى هو الذى اهتم المحققين بقاهرة المعز أن يحتفلون بها من دون قاهرة عمرو بن العاص أو قاهرة ابن طولون أو قاهرة صلاح الدين أو قاهرة المماليك

أو القاهرة العثمانيين ، فهو اذن معنى رائع وكبير . ولا يبقى الا أن نعد العدة منذ الان للاحتفال بألفية ذلك الصرح العظيم الذى اسسه الفاطميون ليكون لهم بمثابة وزارة للإرشاد ولكنه لم يلبث أن ضاق بالغازهم الروحية والسياسية وبنى للإسلام أعظم معقل للفكر الدينى الواضح الأصيل المعتدل المتوازن بقوة العقل والعلم الذى لا مكان فيه لأسرار الباطنية ولا لشعوذة المجذوبين ، كما بنى لمصر وللشرق العربى أقوى مدرسة فى الوطنية أثبتت أهليتها لقيادة الناس فى كل الفترات الحرجة فى تاريخ البلاد ، وما هذا الا الأزهر العظيم الذى كان أهم قوة حافظة للقومية المصرية خاصة وللقومية العربية بوجه عام عبر ألف عام من تاريخ شعبنا الحزين الذى لا تقلب فيه صفحة الا وتقرأ فيه اسم حاكم شركسى أو تترى أو تركى أو كردى أو صقلبى أو صقلى أو مجرى على رأس ارسقراطية عسكرية اجنبية وجيوش من المرتقة الاعاجم ، ولقد أدت الكنيسة القبطية المرقسية نفس هذه الوظيفة القومية بين اقباط مصر ، فالأزهر والكنيسة القبطية كانا فى نظرى القوتين الحافظتين الحقيقتين اللتين صانتا شخصية هذا الشعب العظيم من الاندثار . واذا كانت قد بدت عليهما فى بعض الاونة فترات من الاسراف فى المحافظة تبلى بمبلغ الجمود فما ذلك الا من ميكانيكية الدفاع عن النفس التى تلازم فترات الضعف والاحساس بالحصار ، لان الاقوياء لا يخشون تطور الحياة .



من أجل هذا فاني ادعو الى الاستعداد منذ الان للاحتفال بألفية الأزهر ، أما فى ابريل ١٩٧٠ وهو التاريخ الذى وضع فيه جوهر الصقلى حجره الاساسى وأما فى عام ١٩٨٨ سنة أن تحول الأزهر الى أقدم جامعة فى العالم الوسيط والحديث ، يبدأ العلماء والفقهاء يلقون فيه دروسهم على تلاميذهم ومريديهم . وليكن احتفالنا بألفية جامعة الأزهر احتفالاً جامعياً يليق بأعرق جامعات العالم المعاصر ، فنستقبل وفود العلماء من كل جامعات الدنيا ونضع فيه الحوث المدروسة عن الأزهر وما نبع عنه من أفكار ومواقف وننشر فيه أمهات النصوص التى آلفها صفوة الفقهاء والمؤرخين من كافة أطراف العالم الاسلامى الذين جاؤوا فى الأزهر أو علموا فيه عبر ألف عام ■

الفصل الخامس

كلمة عن مكتبة الاسكندرية (١) (مهداة الى بناتها الجدد)

(١)

كانت مكتبة الاسكندرية التى انشئت فى زمن البطلمة ، تقع مثل كافة المنشآت العامة ، فى الميناء الشرقية بمدينة الاسكندرية ، ففى الميناء الشرقية كان يقع القصر الملكى ، والسوق **Emporium** ، ومعسكر قيصر ، والمسرح ، والمدرسة **Gymnasium** ، والمتحف . كذلك كان يقع فيها « البولا » **Boulè** أو مجلس الشيوخ ، وهو برلمان الاسكندرية . وبحسب تقديرات القدماء كانت مكتبة القصر والبلاط تضم أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ كتاب ، بينما المكتبة العامة تضم نحو ٥٠,٠٠٠ كتاب .

وكانت بدايات مكتبة الاسكندرية فى عهد بطليموس الأول ، الملقب ببطليموس سوتر **Ptolemy Soter** ، أى « المنقذ » (حكم ٣٠٥ - ٢٨٣ ق . م) ، ويقال إنه انشأها بناء على مشورة ديمتريوس الفاليري **Demetrius of Phalerum** ، وهو كاتب وسياسى أثينى نجح من الاعداء عام ٣١٨ ق . م . بسبب ميوله المقدونية لتوحيد دويلات اليونان وفقا لدعوة فيليب المقدونى ثم الاسكندر الأكبر . وقد كان الحاكم العسكرى المطلق لأثينا لمدة عشر سنوات حتى خلع عام ٣٠٧ ق . م . ففر ثم لجأ إلى بطليموس الأول الذى عينه أميناً لمكتبة الاسكندرية عام ٢٩٧ ق . م .

أما التكوين الحقيقى لمكتبة الاسكندرية فقد كان فى عهد بطليموس الثانى الشهير ببطليموس فيلادلفوس **Ptolemy Philadelphus** الذى حكم مصر من ٢٨٣ إلى ٢٤٦ ق . م . وهو الذى بنى مكتبة

الاسكندرية . وقد كلف بطليموس فيلادلفوس الشاعر اسكندر الايتولى Alexander the Aetolian أن يحقق التراجيديات اليونانية ، وكلف الشاعر ليكوفرون Lycophron ان يحقق الكوميديات اليونانية ، أما الشعر اليوناني فقد حققه اريستارخوس Aristarchus وزينودوتوس Zenodotus ، وأما الكتب الوصفية والتصويرية فقد حققها الشاعر كاليماخوس Callimachus والعالم اراتوسطين Eratosthenes . وقد عين فيلادلفوس العلامة اراتوسطين كبيرا لأمناء المكتبة كما عين كاليماخوس واحدا من امنائها . وفي كتابات المحقق سويداس Suidas أن ديوجين لايرتيوس Diogenes Laertius وأثيناوس Athenaeus كانا يشغلان وظائف في مكتبة الاسكندرية .

وكانت المكتبة الكبرى في الاسكندرية ، وهى مكتبة القصر والبلاط ، تحتوى على مؤلفات في التخصصات التالية : (١) شعر الملاحم والشعر غير المسرحى (٢) الشعر المسرحى (٣) التشريع (٤) الفلسفة (٥) التاريخ (٦) الخطابة (٧) الجغرافيا الطبيعية (٨) الفلك (٩) الانثروبولوجيا الاجتماعية وتشمل وصف عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها ولا سيما الأمم « المتبررة » (١٠) الألعاب (١١) الطيور (١٢) الطب (١٣) النباتات (١٤) العلوم المختلفة .

وبوجه عام كانت اسماء اعلام العلماء في مدرسة الاسكندرية أعظم بريقا من اسماء الشعراء والأدباء . فمبدأ البداية كان هناك اقليدس العظيم الذى عاش في الاسكندرية وعلم بها في عهد بطليموس الأول (٣٠٥ - ٢٨٣ ق . م .) . وفي الاسكندرية اسس اقليدس مدرسته التى كان يعلم فيها مختلف فروع الهندسة ، وفيها دون كتابه الشهير « المبادئ » . وكان اقليدس معاصرا للفلكي الكبير اريستارخوس الصامى Aristarchus of Samos (٣١٠ - ٢٣٠ ق . م .) ، الذى كان أول من حسب المسافات بين الشمس والقمر وأول من قال بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس . لقد كان ذلك العصر حقا عصر الفتوحات العلمية .

أما في عهد بطليموس فيلادلفوس فقد عاش عالمان من اعظم علماء العالم القديم وهما ارشميدس Archimedes (٢٨٧ - ٢١٢ ق . م .) واراتوسطين Eratosthenes (٢٨٤ - ١٩٢ ق . م .) .

وكان ارشميدس اصلا من سيراكيوز ولكنه انتقل الى الاسكندرية ودرس مع اراتوسطين وشاركه في ابحاثه في فترة من الفترات . وقد اشتهر ارشميدس بابحاثه عن الدوائر والكرات والاجسام الاسطوانية وعن المعادلات التكعيبية وعن الميكانيكا والهيدروستاتيكا .

أما اراتوسطين فكان عالما في الرياضيات والفلك وفيلسوبا ، وكان من مواليد الاسكندرية ، وقد درس فترة ، في اثينا ولكنه عاد واستقر في الاسكندرية وشغل في مكتبته وظيفة كبير الامناء بدعوة من بطليموس يورجيتيس Ptolemy Euergetes (٢٤٦ - ٢٢١ ق . م .) ، وبهذا خلفه الشاعر ابولونيوس الرودى Apollonius Rhodius في هذا المنصب . وكان اراتوسطين نفسه تلميذا للشاعر كاليماخوس ، فبدأ حياته « فيلولوجوس » ، أى عالما لغويا ، وناقدا ادبيا ثم تحول الى العلم . وكان علماء

الاسكندرية يعدونه عالما من الدرجة الثانية ، ولكن اضافاته للجغرافيا الرياضية قد عاشت كعلامات هامة في طريق الفكر العلمى . ففى رسالته « مقاييس الأرض » حسب اراتوسطين بدرجة عظيمة من الدقة محيط الكرة الأرضية وحجم الشمس والقمر وبعدهما ، وهذا ما جعلهم يصفونه « بالموسوعى » أو بدائرة المعارف (« بنتاثلوس ») .

وفى الواقع لم يحدث قط أن خسا الفكر العلمى فى مدرسة الاسكندرية . ففى القرن الثالث ق . م . كان هناك أيضا ابولونيوس Apollonius (٢٦٢ — ١٨٠ ق . م .) الذى كان يدرس فى الاسكندرية فى عهد بطليموس يورجيتيس (٢٤٧ — ٢٢٢ ق . م .) وقد اشتهر بدارسته للمخروطات (الأقماع) . وفى القرن الاول الميلادى عاش هيرو الإسكندرى Heron of Alexandria الذى اضاف لدراسات الجبر والفيزياء والبصريات ووضع قوانين انعكاس الضوء .

وفى القرن الثانى الميلادى عاش بطليموس الإسكندرى Ptolemy of Alexandria ، ولعله أبرز عالم من علماء مدرسة الاسكندرية المتأخرين ، وهو من مواليد مصر وكان فى قمة نشاطه بين ١٢١ و ١٥١ ميلادية . وكانت اهم اضافاته للعلم فى حساب المثلثات والفلك والبصريات والجغرافيا ، وكانت اشهر مؤلفاته كتابه « الجغرافيا » (الخرائط) ، وكتابه « الماجيست » Almagest الذى سمي كذلك من الاسم العربى « المجسطى » Al Majisti عن الكلمة اليونانية « مجيستى » . أما العنوان الاصلى لكتاب « المجسطى » . فكان معناه « التركيب الرياضى » ، ولكنه اشتهر فيما بعد باسم « المجموعة الكبرى » . و « المجسطى » اساسا هو كتاب فى حساب المثلثات مطبقا على الفلك . ويتناول طول السنة والشهور ، واحجام الارض والشمس والقمر وأبعادها ، وكسوف الشمس وخسوف القمر ، وفصول السنة والاعتدالين والانقلابين ، وحركة الكواكب ، الخ ..

وقد كان اراتوسطين اقرب الى الدقة فى تقديره لمحيط الارض بأنه ٢٥٠,٠٠٠ ستاد أى نحو ٤٥,٠٠٠ كيلو متر من بطليموس الاسكندرى الذى قدره بأنه ١٨٠,٠٠٠ ستاد أى نحو ٣٢,٤٠٠ كيلو متر ومع ذلك فقد كان بطليموس الاسكندرى هو الذى تحكم فى الفكر الفلكى والجغرافى اكثر من الف عام حتى ظهور العلامه كوبرنيك . وكانت علة ذلك أن الترجمات العربية توسعت فى المحافظة على تراث بطليموس الجغرافى ، ومن العربية نقل إلى اللاتينية .

وربما كان بابوس الاسكندرى Pappus of Alexandria هو اعظم علماء الرياضيات المتأخرين فى مدرسة الاسكندرية فقد عاش عام ٣٠٠ ميلادية . غير أن اضافة بابوس الى العلم كانت قيامه بشرح اسلافه من العلماء العظماء الذين تجاوزوه علما ، ولم يضيف اليهم من علمه الا قليلا . وكانت بعض مسائله الرياضية من الأهمية بمكان حتى أن ديكارت عالجهما فى العصور الحديثة .

(٢)

كل هذا يفسر لنا لماذا قامت شهرة مدرسة الاسكندرية في المقام الاول على انجازاتها العلمية . وقد حمد الابداع العلمى اليونانى فى أوروبا تقريبا طوال العصور الوسطى . فلما اعيد اكتشاف هذه الانجازات بالتواصل مع الثقافة العربية ازدهر نتيجة لذلك كوبرنيك وجاليليو وبيكون ونظرائهم فى عصر النهضة الأوروبية . وكما استبدت الارسطاطاليسية فى وجوها الشكالية المنحطة بالفكر العربى وتغلغلت فيه انتهى الابداع العربى بالعقم العربى . وتكرر نفس هذا الموقف فى أوروبا الوسيطة .

وقد كانت مدرسة الاسكندرية هى مفتاح هذا التحول الذى أصاب روح الانسان . وخير سبيل لتوضيح ذلك هو تتبع موقف مدرسة الاسكندرية من الفنون والآداب ومن العلوم الانسانية بصفة عامة .

كان العصر الذهبى لمدرسة الاسكندرية فى الفنون والآداب هو النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، أو على وجه التحديد عهد بطليموس سوتر (٣٠٥ — ٢٨٣ ق . م .) وعهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٣ — ٢٤٦ ق . م .) . وقد اعطت هذه الفترة العالم شاعرين من فحول الشعراء هما كاليماخوس Callimachus وثيوقريط Theocritus .

وقد ولد كاليماخوس عام ٣١٠ ق . م . وتوفى عام ٢٣٥ ق . م . عن سبعين عاما . وكان زميلا فى الدراسة بالاسكندرية للشاعر أراتوس Aratus المولود فى ٣١٥ ق . م . أيام بطليموس فيلادلفوس . ثم اصبح كاليماخوس فيما بعد معلما للنحو فى اليوسيس Eleusis المصرية وهى ضاحية من ضواحي مدينة الاسكندرية . وفى مرحلة ما حظى بمقابلة فيلادلفوس وظل مرتبطا بالبلاط الملكى . وقد عاش كاليماخوس حتى عهد بطليموس يورجيتيس . وقد درس كاليماخوس واراتوس معا على الفيلسوف براكسييفان Praxiphanes وهو من مدرسة المشائين ، وله رسالة تسمى « فى الشعر » ورسالة أخرى تسمى « فى التاريخ » ، الخ . . أما أراتوس فقد ترك لنا قصيدة فى الفلك تسمى « الظواهر » .

وكان ابرز تلاميذ كاليماخوس اراتوسطين الكيرينى Eratosthenes of Cyrene وارسطوفانيس البيزنطى Aristophanes of Byzantium وابو لونيوس الرودى Apollonius Rhodius الذى ولد اما فى نوكراتيس Naukratis قرب دمنهور أو فى الاسكندرية ذاتها ، ولكنه لقب بالرودى نظرا لاقامته بعض الوقت فى جزيرة رودس . وقد دخل ابو لونيوس فى معركة ادبية ضارية مع كاليماخوس تدهورت الى خصومه شخصية وانتهت بانسحابه الى جزيرة رودس .

أما موضوع هذه المعركة الادبية الشهيرة فهو الجدل حول الثورة التى استحدثها كاليماخوس فى مضمون الشعر وصورته . بدأت المعركة حين أرسى كاليماخوس اسلوبه الجديد فى الابداع الشعرى ، فنظم قصائد قصيرة كاملة بذاتها رائعة الصقل معبرة عن الثقافة العميقة وعن الذوق الرفيف الذى اتسمت به الحياة فى ذلك العصر .

وكانت هذه ثورة حقيقية في فن الشعر ، فقد كان الزرى السائد في الأدب حتى ذلك العصر أن يكتب الشعراء شعرا ملحميا يحاكون به اسلوب هوميروس . وكان ذلك شعرا ملفقا غاية في الاصطناع مليحا بالعبارات المحفوظة والصور المستهلكة والكليشيات اللغوية والمعاني المنقولة . وكانت غاية كاليماخوس هي التعبير عن ثقافة الاسكندرية الحية لا أن يكون مجرد صدى خاو للتقاليد الميتة في الشعر البطولي ، وهي التقاليد التي كان ابولونيوس يجاهد لحياتها في استناتة . وقد عبر كاليماخوس نفسه عن موقفه في « التعليق رقم ٣٠ » بقوله انه يفصل « النبيوع النقى الصافي على المجرى الدفاق الذي تعكسه الاوحوال » . وعنده ان الابداع الحقيقي هو في الأصالة الصادقة ، وان الاصالة الصادقة لا تكون الا بالصدق مع النفس ، وأن الابتكار هو وظيفة للشخصية المتفردة .

وقد تجلت عبقرية كاليماخوس فيما نظم من قصائد الرثاء وفي شعره القصصى وفي شعر « التعليقات » (الاييجرام) . وبعض مراثيه مثل قصيدة « الايتيا » Aetia أى « الاسباب » ، اخذت طابعا قصصيا وبلغ عدد ابياتها ٢٠٠٠ بيت أو ٣٠٠٠ بيت . وكان خصومه يتهمون به بأنه عاجز عن انشاء قصيدة واحدة تسترسل في آلاف عديدة من الأبيات » . والارجح ان هذا الاتهام كان في موضعه . ولكن الشعر لم يفقد شيئا كثيرا ، لأن الروح الملحمية القديمة كانت قد غاضت ، ولم تسفر محاولات ابولونيوس الرودى لحياتها في ملحمة « بحارة الأرجو » Argonautica إلا عن شعر بطولى زائف .

وما حدث في عالم الشعر الملحمى حدث ايضا في عالم الشعر التراجيذى . ففي عهد بطليموس فيلادلفوس ازدهرت كوكبة من الشعراء التراجيذين اشتهرت في الاسكندرية باسم « البلياد » Pleiad ، أى « ثريا النجوم السبعة » . وهذه اسماؤهم : (١) هوميروس الصغير Hamer the Younger (٢) سثيوس Sothisus (٣) ليكوفرون Lycophron (٤) اسكندر الابتولى Alexander Aetolus (٥) فيليكوس Philicus أو فيليسكوس Philiscus (٦) ديونيزياد Dionysiades (٧) يوفرونيوس Euphronius وهناك من أورد اسماء أخرى مثل ايانتياديس Aeantiades وسوسيفان Sosiphanes .

وأيا كان الأمر فرما باستثناء ليكوفرون ويوفرونيوس فنجوم الثريا لم تكن ساطعة في سماء الشعر كما كان اصحابها يزعمون . وبعد انتهاء العصر البطلمى لم يبق أحد منهم باديا للعين المجردة في سماء الاسكندرية . ولم يكن لأحد منهم روح الابداع الجبار الذى نجده فيما بعد في « البلياد » أو الثريا الفرنسية خلال القرن السادس عشر ممن انتحلوا لقب كوكبة الشعراء السبعة في مدرسة الاسكندرية (رونسار Ronsard ودى بليه Du Bellay وانطوان دى باييف Antoine de Baïf وبونتس دى تيار Pontus de Tyard وبلتييه دى مانس Pelletier de Mans وريمى بللو Remy Belleau ، الخ) . ونحن لا نذكر من « بلياد » الاسكندرية الا اسم ليكوفرون وحده لانه كتب ملحمة « الكساندرا » Alexandra أو « كاساندرا » Cassandra . وكان عالما نحويا وشاعرا تراجيديا كتب نحو ٦٤ أو ٦٦ تراجيديا . وقد ولد في ٣٢٠ ق . م . ، ودرس في أثينا ، ولكن ازدهار الحياة الآدسة في مجتمع

الاسكندرية اجتذبه إليها نحو ٢٨٥ ق . م . وفي الاسكندرية كلفه بطليموس فيلادلفوس بجمع وتحقيق تراث شعراء الكوميديا لمكتبة الاسكندرية .

أما الشاعر الكبير الآخر في مدرسة الاسكندرية فكان ثيوقريط ، واضع اساس تقاليد شعر الرعاة في العالم القديم . والأغلب أن ثيوقريط عاش بين ٣١٠ و ٢٥٠ ق . م . وبهذا تكون اخصب فترات ابداعه في عهد بطليموس فيلادلفوس ، وقد كان حاضرا في حفل زواج فيلادلفوس من ارسينوى Arsinoe . وقد كان ثيوقريط اصلا من سيراكيوز أو من جزيرة كوس التي كانت مستعمرة مصرية منذ ٣٠١ ق . م . اى منذ بطليموس سوتر . وعندما عاش ثيوقريط في مصر شهد تلك المعركة الأدبية التي نشبت بين كاليماخوس وابولونيوس الرودى وقد وصفهما ثيوقريط بأهما « ديكان يخطران في خيلاء في فناء ربات الفنون » .

وفي هذه المعركة انحاز ثيوقريط الى كاليماخوس ، وهذا ما كان يتمشى مع نظرية الداعية للعودة الى الطبيعة والى النهل من النبع الصافى الذى يثر من غرام البسطاء الذين يعيشون على الفطرة ، بدلا من محاولة اعتلاء الأمواج الزاخرة المتدفقة من الملاحم القديمة . ولا شك أن ثيوقريط كان في الاسكندرية وقت صدور ملحمة ابولونيوس الرودى « بحارة الأرجو » عام ٢٦٠ ق . م .

ويقول البعض أن ثيوقريط كان يعيش بصفة أساسية في بلاط الاسكندرية ولكنه كان يقضى اكثر صيفياته في جزيرة كوس . وعلى كل حال كان اكثر شعره يتناول حياة رعاة الغنم والماعز . وهناك على الأقل قصيدتان في ديوانه « أرض الحصاد » ، وهما « الراعى ثيرسيس » و « التعويذة » ، قد نظمتهما في جزيرة كوس أو حول الحياة في جزيرة كوس . وشعر ثيوقريط ليس فيه تمجيد « للهمحى النبيل » ، وليس فيه عبادة لروح الطبيعة أو حلول الله فيها ، وإنما يمثل هرب المترفين بالمدينة من حياة البلاط إلى حياة السطاء في الريف .

ولقد كان أثر ثيوقريط فيمن جاء بعده من الشعراء عظيما ، فهو الأب الحقيقى لكل ما جاء بعده من ادب الرعاة والمراثى . نجده في شعر بيون Bion وموسكوس Moschus ، بل ونجده في « الرعائيات » Bucolics و « الريفيات » Georgics لفرجيل Virgil . كذلك نجد أثر ثيوقريط في قصيدة « تقويم الراعى » لأدمود سنسر ، وفي قصيدة « ليسيداس » لملتون ، وفي « رعائيات » الكساندر بوب وفي قصيدة « ثيرسيس » لماثيو آرنولد . وبالمثل نجده في شعر الطبيعة الأكثر هدوءا عند وليم ويردزويرث .

ويقول البعض إن ثيوقريط عاش في بلاط الاسكندرية على الاقل حتى بلغ من العمر سبعين عاما وأنه مات شيخا طاعنا في السن كذلك يقال إنه في نهاية عمره عاد إلى سيراكيوز وهناك حكمه هيروداطية سيراكيوز عليه بالاعدام لأنه نظم عدة قصائد في هجاء ابنه .

وكان موسكوس هو ثانى شاعر من شعراء الرعاة في مدرسة الاسكندرية ، وكان ايضا من

مواليد سيراكيور ثم انتقل الى الاسكندرية حيث تأدب على يد أريستارخوس الاسكندري (٢١٥ — ١٤٣ ق . م .) ، وهو الناقد وعالم النحو الذى عاش وعلم فى الاسكندرية من ١٨٠ إلى ١٤٤ ق . م . وقد نسبت الى موسكوس زورا مرثية شهيرة فى موت بون Bion . أما بون فكان ثالث شاعر من شعراء الرعاة فى مدرسة الاسكندرية . وقد عاش حول عام ١٠٠ ق . م . واشتهر لنظمه القصائد الرعائية : « الياسنت » Hyacinth و « غلاطية » Galatea و « ادونيس » Adonis . وبون من مواليد أزمير والشائع انه مات مسموما ، ولكن فى قصيدة « مرثية فى بون » لموسكوس أن بون قضى أكثر حياته فى صقلية .

(٣)

ونستطيع بوجه عام أن نقول ان الابداع الشعرى والابداع العلمى تدهورا فى مدرسة الاسكندرية بعد بطليموس فيلادلفوس . وربما كان آخر اسم فى قائمة هؤلاء العظماء المبدعين هو اسم المؤرخ المصرى مانيتون Manetho الذى كان فيما روى المؤرخ يوسيبوس Eusebius مستشارا لبطليموس سوتر أول البطالة وأدخل عبادة سيرايس Serapis نحو ٢٨٦ أو ٢٧٨ ق . م . بالاشتراك مع اليونانى تيموثيوس Timotheus . وكان مانيتون اصلا من سمود كما كان كاهنا فى معبد هليوبوليس قبل أن ينتقل الى بلاط الاسكندرية .

ومهما يكن من شئ ، فمن اليسير أن نرى انه مع تدهور الخلق والابداع بدأت المحافظة على التراث حتى منذ بطليموس الأول (سوتر) . وقد بدأ حفظ التراث بدميتريوس الفاليرى الذى كان يحظى بنفوذ كبير فى بلاط بطليموس الاول . ففكرة « المكتبة » أو « المتحف » فى حد ذاتها فكرة تقوم على حفظ آثار أو مخلفات ثقافة ماتت أو فى طريقها الى الزوال وقد كان نشر الثقافة الهلينية الذى قام به الاسكندر الاكبر فى حد ذاته تبديدا للتراث اليونانى فى الامصار وقد انتهى هذا التبديد بانتقال عاصمة العالم اليونانى من أثينا إلى الاسكندرية .

وقد ترك موت ثقافة اليونان القديمة وموت ثقافة مصر القديمة فراغا فى العالم القديم عجزت روما بكل ما كان لها من جيروت عن ملئه لفقرها الشديد فى أمور الفكر ول فقرها الأشد فى أمور الروح . وقد كان العالم وقتئذ مستعدا لظهور دين عالمى جديد ، ولكن الأمر احتاج إلى جملة قرون ليظهر « النظام الجديد » (المسيحية) .

وقد اتخذت المحافظة على التراث اليونانى اشكالا متعددة . ولكن أهم القائمين بها « النحاة » فى مدرسة الاسكندرية ، وكان هؤلاء النحاة إما محققين أو معلقين أو كتاب حواش أو نقادا للنصوص اليونانية الكلاسيكية فى اجناس الأدب المختلفة .

وكان من أهم هؤلاء ارستارخوس الاسكندري ، الملقب احيانا بأرستارخوس الصاموتراسى ،

نسبة إلى صاموتراس Samothrace التي كانت مسقط رأسه ، وقد عاش بين ٢١٧ و ١٤٥ ق . م . وكان مؤدبا لبطلليموس يوباتر Ptolemy Eupater وقد كان عالما في النحو وناقدا بقي ذكره لنا في تحقيقاته للكلاسيكيات اليونانية واصبح رئيسا لمكتبة الاسكندرية .

كذلك كان هناك النحوى الشهير ديونيزيوس تراكس Dionysius Thrax وكان تلميذا لارستارخوس الاسكندري ثم انتقل الى جزيرة رودس ليعلم اللغة والأدب . وكان هناك ايضا ارسطوفان البيزنطى الذى حقق نحو ٢٠٠ ق . م . شعر الكايوس Alcaeus . وقد اعد ارسطارخوس تحقيق اعمال الكايوس بعد جيلين من ذلك . كذلك حقق فقهاء الاسكندرية شعر الشاعرة سافو Sappho ورتبوا قصائدها .

وكان من المع تلاميذ ارسطارخوس الكاتب الموسوعى ابو اللودوروس الأثينى Apollodorus of Athens الذى ولد نحو ١٨٠ ق . م . ، ودرس فى الاسكندرية ثم انتقل الى اثينا نحو ١٤٦ ق . م . وهو مؤلف موسوعة « المكتبة » Bibliotheca ، وهى موسوعة عن آلهة اليونان وابطالهم ، وتعد من افضل ما كتب عن اساطير اليونان .

الفصل السادس

الطريق إلى الاسكندرية (١)

من أجل ان أبين الطريق الى احياء مكتبة الاسكندرية القديمة كتبت مقالى السابق المجهد المحشو باسماء الاعلام الغربية التى لا يعرف منها القارىء العادى الا اسم اقليدس وارشميدس . ولعلى بهذا وفقت الى ان ابين للقارىء ان الاسكندرية القديمة لم تكن مجرد اقليدس وارشميدس وانما كانت مدرسة أو مدارس متميزة كاملة فى العلوم والفنون والآداب والفلسفة وعلوم الدين دامت قرونا طويلة تجاوزت القرون الخمسة .

لذلك لم تكن مكتبة الاسكندرية القديمة المراد احيائها مجرد مكتبة ، أو خزانة كتب ، بها نصف مليون مصنف ، ولكنها كانت فى المقام الأول جامعة بالمعنى الواسع ، رفيعة الشأن . فيها من العلماء والادباء والمفكرين فى كل تخصص اعلام نابهن جيلا بعد جيل . فمكتبة الاسكندرية لم تكن مجرد مكتبة مراجع كالمتحف البريطانى أو كالمكتبة القومية فى باريس أو كدار الكتب المصرية . وكان تجمع كل هذه الكتب فى مكتبة الاسكندرية نتيجة لتجمع كل هؤلاء العلماء والادباء والمفكرين الاعلام .

والسؤال الآن هو : ماذا يريد الاساتذة الاجلاء فى جامعة الاسكندرية الذين يدعون منذ سنوات قليلة بدأب وحماس الى مشروع إحياء مكتبة الاسكندرية القديمة ؟

هل هم يدعون الى تحديد خزانة الكتب الهائلة أم يدعون الى إحياء الجامعة القديمة العظيمة ؟

(١) « الأهرام » ١٩٨٨/٧/٣٠

ان كانوا يدعون الى احياء الجامعة القديمة العظيمة التى علم فيها اقليدس وارشميدس ، وكالماخوس وابولونيوس الرودى ، واراتوسطين وبطليموس الجغرافى ، وافلوطين وفروريوس فالدعوة الى ذلك دعوة غريبة فى بابها لأن جامعة الاسكندرية القديمة لم تكن عظيمة الا بوجود هؤلاء الاعلام فيها .

والاساتذة الاجلاء فى جامعة الاسكندرية الحديثة ما عليهم الا أن يملأوا جامعتهم بالعباقرة والنوابغ فى العلوم والفنون والآداب لكي يجددوا مجد جامعتهم القديمة ويجعلوا منها منارا يشع على العالمين كما كانت فى القديم . فان هم لم يفعلوا ذلك فكل جهدهم عقيم ولن يستجيب احد لدعوتهم سواء من مصر أو من الخارج . فالجامعات تجذب الدارسين بمن فيها من الاساتذة ، ونحن نرسل ابناءنا الى السوربون أو الى اكسفورد أو كامبريدج أو الى هارفارد أو برنستون لشهرة من فيها من الاساتذة ، ولست اعرف طريقا آخر يمكن ان يجدد مجد جامعة الاسكندرية القديمة .

لقد كانت الاسكندرية فى عهدها القديم عاصمة العالم الثقافية بعد ان انطوى مجد اثينا فهل يمكن ان نامل ان تصبح الاسكندرية اليوم عاصمة العالم الثقافية ؟ طبعا لا . فقبل ان نحلم بان تصبح الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية ينبغى أولا ان نجعلها عاصمة مصر الثقافية ، وهو امر بعيد الحدوث .

لماذا ؟ لان عاصمة مصر الثقافية حتى الآن هى القاهرة وهى كذلك لأنها مركز الحكم الذى جعل لها السطوة على جميع بلاد مصر . وجعلها تستقطب كل نشاط مؤثر فى السياسة والاقتصاد وفى التعليم وفى الحركات الفكرية وفى العلوم وفى الفنون والآداب ، بل وجعلها تستقطب سكان مصر . ففى القاهرة الكبرى وحدها فيما يقال اثنا عشر مليوناً من المصريين ، اى ربع سكان مصر كلها .

ولان القاهرة فى العصر الحديث هى العاصمة الثقافية للعالم العربى ، ومع ذلك فلو بدأنا نحلم ان نجعل منها عاصمة العالم الثقافية لكان ذلك منا اسرافا فى الوهم .

وان كان الاساتذة الاجلاء فى جامعة الاسكندرية يدعون الى احياء مكتبة الاسكندرية القديمة بمعنى خزانة الكتب ازداد الأمر غموضا لان مكتبة الاسكندرية القديمة لم تصبح فقط اثرا بعد عين بل اندثرت تماما فلم يبق منها اثر يشهد بما كان ، كما بقى من المسرح الرومانى أو من المراييوم ، بحيث يمكن ترميمه أو القيام بحملة دولية لصيانتة على غرار ما فعلنا بانى سمبل ومعابد النوبة . وكل ما بقى من هذه الذكري العطرة هو أننا نعرف من كتابات القدماء مثل بلوتارك وغيره ان مكتبة الاسكندرية القديمة كان مكانها فى الميناء الشرقية فى مكان ما بالقرب من السلسلة .

وما زلت اذكر كيف كنت فى ١٩٤٨ ، ايام ان كنت مدرسا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، اختلف مع الدكتور عبد اللطيف احمد على والدكتور صقر خفاجة وربما الدكتور زكى على وغيرهم من اساتذة اليونانيات والتاريخ اليونانى فى كلية الآداب الى « سمينار » أى « حلقة بحث » كان يعقدها فى الكلية استاذنا الكبير العلامة بيار جوجيه Pierre Jouguet رحمه الله ، وكان اعظم استاذ بردى فى العالم كله ، وكان يقرأ معنا نص كتاب بلوتارك عن ايزيس وأوزيريس ، فكان يتجول بنا فى شوارع الاسكندرية القديمة واحياؤها من واقع دراساته ساعات وساعات وكأنه شيخ حارة أو دليل سياحى لدقة

ما كان يعرف من مواقع قصورها ومعابدها ومدارسها ومسارحها ومعسكراتها وحماماتها .. الخ . ولست استبعد ان الاساتذة الاجلاء في جامعة الاسكندرية قد اهتموا بناء على هذه الدراسات وامثالها الى فكرة تقريبية عن موقع مكتبة الاسكندرية القديمة .

ولكن السؤال يبقى كما كان : ما الذى نريد احياه على وجه التحديد ؟ اهو المبنى الذى اندثر تماما ؟ أم ذخيرة الكتب الضخمة التى اقترنت بتاريخ الاسكندرية فى ازهى عصورها ؟

ان كان المطلوب هو احياء المبنى نفسه فهو امر مستحيل لأن الجثمان غير موجود حتى يمكن اعادة الروح اليه . وبالفعل حين عقدت جامعة الاسكندرية الندوة الدولية فى مارس ١٩٨٦ بقيادة الدكتور لطفى دويدار — كان الاساتذة الاجلاء دعاة المشروع قد اعدوا كل شئ مخططا على الورق بما فى ذلك الرسوم الهندسية لخزانة الكتب وما حوفا من خدمات على مساحة ٤٥,٠٠٠ متر مربع جميعها (نحو عشرة افدنة) : المكتبة تتسع لاربعة ملايين كتاب يمكن ان تزداد الى عشرة ، يحف بها مجمع من اربع قاعات للمؤتمرات وقاعات للبحث وقاعات للعرض ومتاحف للعلوم وللخطوط وقبة سماوية وقاعة تذكارية للمشاهير وقاعة استماع لموسيقى الحجرة ومطبعة وورشة ، ومسكن للباحثين المقيمين والضيوف وكافيتريا ومطعم ومطبخ وصالون للجلوس واجنحة للإدارة ومخازن للطرود وجراج على فدان ، الخ .. وربما احسن المخططون صنعا انهم لم يتقيدوا بالعمارة المعبدة فرعونية كانت أو يونانية أو رومانية أو اسلامية بل التزموا مباشرة بطراز العمارة الحديثة حتى ينتفعوا من كل شبر من الارض متاح لهم . وفى المكتبة طبعا خدماتها التقليدية من اقسام فهرسة وصيانة وتصوير ضوئى وقاعات للدوريات والخرائط والمجموعات الخاصة وقاعة مركزية للكمبيوتر الخ .. وفى الجانب الجنوبى من المكتبة مباني كليات الدراسات الانسانية (الآداب والحقوق والاقتصاد) وفى الجانب الشرقى نجد مستشفى الولادة ومستشفى الاطفال .

ومن هذا ترى ان كل شئ مخطط على الورق منذ سنوات استعدادا لمصر سنة ٢٠٠٠ . ومنذ البداية ترى ان الحلم كبير وان الواقع صغير . فعشرة افدنة لا تكفى لكل هذا المولد من النشاط العلمى والتعليمى والثقافى . وحين يبدأ العمل الجاد سوف يجد الاساتذة الاجلاء من دعاة إحياء مدرسة الاسكندرية القديمة انفسهم مضطرين الى اختصار هذا التصور بحيث يستبعدون منه ، « كليات » الآداب والحقوق والاقتصاد والمستشفيات الجامعية ، وبحيث يقتصر على مركز للدراسات العليا لا يدخله الا الخريجون المشتغلون بالبحث العلمى والأدبى والقانونى والاقتصادى الخ .. وكل ما يدخل فى باب الدراسات النظرية فى العلوم والآداب « الانسانيات » . اما التكنولوجيا والعلوم التطبيقية والتعليم الجامعى ما دون البكالوريوس فلن يجد لها مخطوطو مدرسة الاسكندرية مكانا فى حرم مكتبة الاسكندرية بوضعه الحالى المشهور بين الشاطئ والمدينة ، وهو مكان قصور البطالة الملكية ومتحف الاسكندرية فى عصرها الغابر .

ويخيل الى ان هذا الخطأ جاء نتيجة خلط المخططين بين فكرة المكتبة وفكرة الجامعة ، أو على

الاصح خلط المخططين بين فكرة مكتبة الاسكندرية القديمة وفكرة مكتبة جامعة الاسكندرية الحديثة . ولا اظن ان هدوء العلماء والباحثين يمكن ان يتوافر لمائة الف طالب في هذه الرقعة الصغيرة المحدودة بشاطئ السلسلة في الاسكندرية . وفي اعتقادي ان دعاء المشروع سوف يضطرون عند تنفيذ المشروع الى تعديل تصميماته تعديلا جوهريا ، ومن الخير لهم ان يعيدوا النظر في تصورهم قبل البدء في التنفيذ حتى لا يرتجلوا الامور في المستقبل . فما كان صالحا لألف عالم وباحث في العالم القديم لا يصلح لمائة الف دارس في العالم الحديث . نعم . لابد من اعتبار هذا البعد السكاني .

يجب ان يصارح الاساتذة الاجلاء في جامعة الاسكندرية انفسهم بهذا السؤال : اهم يسعون بمشروعهم هذا الى مجرد دعم جامعة الاسكندرية الحديثة القائمة حاليا ، ام هم يحملون حقا باحياء مكتبة الاسكندرية القديمة . فلكل غاية طريقها ومقتضاياتها .

ليس من داع اذا كنا نريد مجرد دعم جامعة الاسكندرية القائمة بالفعل ان نتوجه بالنداءات الى اليونسكو والهيئات الدولية وان نستنفر الضمير العالمى باسم احياء التراث لنجمع ما قيمته مائة مليون دولار فوق ما لدينا من مساحة يقدر ثمنها حاليا بستين مليون دولار ، فالميزانية المقدرة للمشروع بحسب ما نشر المخططون هي ١٦٠ مليون دولار باسعار سنة ١٩٨٦ ، منها ٦٠ مليوناً ثمن الارض و ٦٠ مليوناً ثمن المباني و ٤٠ مليوناً ثمن الكتب والمعدات أو التجهيزات .

ليس من داع ، اذا كنا نريد مجرد دعم جامعة الاسكندرية القائمة ، ان نلجأ الى شيء من هذا لأن حكم جامعة الاسكندرية هو حكم جامعة عين شمس وبقية الجامعات المصرية العشر وهي مسئولية مصرية في عنق الدولة وما يسرى على جامعة الاسكندرية يسرى على بقية الجامعات المصرية . بل ان تخصيص ٦٠ مليون دولار (نحو ١٣٠ مليون جنيه) ميزانية للمباني مقابل ٤٠ مليون دولار للكتب والمعدات يوحي بأن صوت المقاولين والمهندسين في المشروع كان اعلى من صوت العلماء . فميزانية الكتب لا تكفى إلا لشراء مليون ونصف كتاب من الكتب العلمية باسعار اليوم بمتوسط اقل من ٣٠ دولارا للكتاب الواحد ، بينما الحد الأدنى المقدّر لمحتويات المكتبة هو ٤ ملايين كتاب ، فما بالنّا بثمان المخطوطات والكتب النادرة والكومبيوترات والعقل الالكتروني المركزي ، وما بالنّا بمعامل الطبيعة والكيمياء واجهزة البيولوجيا والفلك الخ .. فهي كلها خارج الحساب . فلنسم الأشياء بأسمائها .

ومع ذلك ، فباستعراض الاهداف المعلنة في مشروع احياء مكتبة الاسكندرية المنشور في ندوة ١٩٨٦ الدولية نحس احساسا واضحا بأن القصد من انشاء هذه المكتبة الجديدة ليس خدمة جامعة الاسكندرية ولكن خدمة البحث العلمى في تخصصات معينة وهذا ما يقرنا من التصور الصحيح لهذا المشروع . وهذا التصور الصحيح يقوم على أن مكتبة الاسكندرية الجديدة سوف تكون في وقت واحد مركزا للبحث العلمى ومكتبة مراجع ودارا للوثائق الخاصة بمصر والبحر المتوسط والشرق الاوسط وافريقيا مع الاهتمام الخاص بالبعد التاريخى .

فهى ستقوم بتجميع النصوص والدراسات الخاصة بالحضارة المصرية عبر العصور وبتجميع كل

البرديات والنقوش المنشورة في مختلف اللغات : المصرية القديمة واليونانية واللاتينية والأرامية والقبطية والعربية وكذلك بإقتناء الكتب والمخطوطات العربية والفارسية والتركية والعبرية والسريانية وغير ذلك من اللغات الشرقية التي تتناول الفكر الاسلامي . وهى قبل كل شيء سوف تقوم بإقتناء كافة الكتب والدوريات المتاحة المتصلة بالتراث الفكرى والثقافى للبحر المتوسط وللشرق الأوسط . وما لا تستطيع ان تحصل عليه مطبوعا أو مخطوطا من كل هذه الاشياء فسوف تجمعها مصورا على الميكروفيلم أو الفوتوستات .

هذا التصور لمكتبة الاسكندرية الجديدة يقربنا كثيرا مما ينبغى أن تكون عليه هذه الدعوة . ومن يريد أن يحقق كل شيء ينتهى بانه لا يحقق شيئا على الاطلاق . وهذا هو الطريق لباء مدرسة الاسكندرية الجديدة : ان تخصص في ثقافة البحر المتوسط وتاريخه ، ومكوناته الجغرافية الطبيعية والبشرية والجيولوجية والبحرية والنباتية والحيوانية ، ومصادر ثروته الفكرية والمادية ، وتاريخ الانسان فيه واثاره وانجازاته المادية والمعنوية ، وعاداته وتقاليده ومعتقداته الدينية منذ اقدم العصور الى اليوم ، وكل ما عرف من قوانين ونظم في الحكم والسياسة والاجتماع ، وكل ما شن من حروب وما تعرض له من غزوات ، بل وموقعه الراهن في السياسة الدولية ومكوناته السياسية المعاصرة . وقبل هذا وذاك تراثه من العلوم والفنون والاداب .

وحوض البحر المتوسط ليس بالرقعة الصغيرة التى يستهان بها ، فهو يضم مصر والشام الكبير (الاردن وفلسطين وإسرائيل ولبنان وسوريا) وتركيا والبلقان وجزره وإيطاليا وجزرها وفرنسا وجزرها واسبانيا وجزرها والمغرب والجزائر وتونس وليبيا . وربما استوعب مداه الدول المجاورة له المؤثرة فيه كدول حوض النيل ودول البحر الأحمر والجزيرة العربية والعراق وإيران . ولا اظن ان هناك نفعا في امتداد اهتمام مكتبة الاسكندرية إلى افريقيا كما يقول مشروع ١٩٨٦ ، وربما كان من الاصلح امتداد الاهتمام فقط إلى حوض النيل من منابعة إلى مصابه بإعتباره الرصيد الطبيعى لمصر جغرافيا وبشرى ، وإلى الجزيرة العربية وما بين النهرين وإيران بإعتبارها الرصيد الثقافى للعديد من دول البحر المتوسط . وإلى تاريخ المغول والتتر والتركان لأنهم عاثوا في المنطقة فسادا وتركوا في سلاسلها ومعمارها اثارا باقية حتى الان .

هذا إذن هو الطريق إلى احياء مكتبة الاسكندرية : ان تجعل من نفسها اعظم مكتبة مراجع ووثائق لكل ما يتصل بالبحر المتوسط في كافة التخصصات منذ فجر التاريخ إلى اليوم . اما ان تحاول المكتبة ان تحيط بكل شيء علما فلن يؤدى إلا الى تبديد الجهد والمال . ولذا تجدى انظر في تحفظ الى دعوة المشروع أن يكون هدفه السادس استيعاب « منجزات البحث العلمى الحديث » ، فلست اظن اننا مستطيعون ان ننافس العالم المتقدم في تجميع أبحاث الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والبيولوجيا والجيولوجيا والفلك والرياضيات والهندسة والميكانيكا والديناميكا والهيدروليكا والملاحة والطيران الخ .. الخ .. لا أظن اننا نستطيع في العالم الحديث ان نصبح مركز الكون كما كنا في العالم القديم .

وإذا كنا قد اتفقنا على تقصير الخطوط لبنى على اساس متين . فقد بقيت نقطة هامة أخرى ينبغي أن نتفق عليها قبل أن نبدأ فى البناء .

ما جدوى تجميع ملايين الكتب إذا لم يكن هناك من يقرأها ؟ اليس من الأفضل أن نفكر فى تكوين البشر مع تفكيرنا فى تكوين المكتبة ؟ فلتكن هذه هى البداية : نبدأ بإنشاء مركز للبحوث يضم مائة عالم من جهازة العلماء المشهود لهم فى العالم برسوخ القدم فى تخصصاتهم ونجعل لكل علامة مساعدين اثنين من اساتذة جامعاتنا أو من الاساتذة المساعدين ، وتحيط بهذه المجموعة القائدة عشرة من طلاب البحث من خريجيننا أو من أبناء الأمم الأخرى الذين اتقوا تعليمهم الجامعى . هؤلاء الجهازة المائة ينقسمون الى فرق عمل كل فريق مكون من عشرة اساتذة ومساعديهم ويعمل فى مجموعة من التخصصات المتجانسة . مثلاً فريق من عشرة اساتذة يتخصصون فى المصريات : واحد فى اللغة المصرية القديمة وواحد فى التاريخ المصرى القديم وواحد فى الديانات المصرية القديمة وواحد فى اليونانية الرومانية وواحد فى اللغة القبطية وواحد فى مصر القبطية وواحد فى التاريخ الاسلامى وواحد فى مصر المملوكية وواحد فى مصر العثمانية وواحد فى مصر الحديثة .

وتكون لفريق المصريات مهمتان : الاولى هى الاشراف على باحث أو اكثر من خريجي الجامعات فى دراسات عليا تنتهى بوضع رسالة للدكتوراه بعد أربع سنوات فى موضوع متصل بتخصص الاستاذ أو زميله والمهمة الثانية هى تحديد المراجع الاساسية والمراجع العامة والكتب والدوريات التى يجب ان تقتنىها المكتبة لطالب البحث وتكون مهمة المكتبة اقتناء هذه المراجع والكتب والدوريات اللازمة لبحاث الباحثين . وبهذا يكون لنا بعد إنقضاء أربع سنوات بين عشرين وثلاثين عالماً شاباً فى المصريات فى مختلف العصور . فإذا افترضنا ان الاستاذ المشرف سيوجه تلميذه لقراءة مائة كتاب فقط لاتمام رسالته ، فنستطيع ان نطمئن إلى أن مكتبة الاسكندرية قد جمعت سنوياً ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ كتاب فى المصريات وحدها كلها من صفة الكتب وكلها قد قرئت .

مثلاً جرى للمصريات يمكن أن يجرى لليونانيات ، وللدراسات الرومانية ، والغالية — الفرنسية ، والأسبانية — الاندلسية ، والمغربية — الجزائرية — التونسية — الليبية ، والبابلية الاشورية والسورية ، والتركية ، والعبرية والارامية . وعشرة من العلماء الجهازة مع مساعديهم فى كل تخصص من هذه التخصصات يمكن أن تكون حصيلته سنوياً ما بين مائتين وثلاثمائة باحث وبحث ونحو ٢٠,٠٠٠ الى ٣٠,٠٠٠ كتاب سنوياً ، أى نحو ٣٠٠,٠٠٠ كتاب بعد عشر سنوات بالاضافة الى الدراسات العربية والاسلامية التى يجب ان تخصص لها فرق عمل مكثفة .

فإذا نحن تواضعنا وقصرنا تصورنا لمكتبة الاسكندرية الجديدة على انها مركز لدراسات البحر المتوسط ، أمكن لنا فى خلال ثلاثين سنة أن ننشئ « الالكساندريانا » المنشودة : مكتبة متخصصة من مليون كتاب يؤمها العلماء من كل العالم بسبب تخصصها . وليس فى هذا أمر معجز لو تقاسمت الاعباء دول البحر المتوسط والدول العربية والاسلامية الداخلة فى كردون البحث بمنح غير مشروطة وهبات غير

ممنونة ، واذا أعان اليونسكو بالدعم والخبرة والتوجيه والتنسيق .

هذا هو الطريق الى الاسكندرية ، وإلا فما قيمة أن نشترى موسوعة باولى فيزوفيا -Pauly
Wissowa لقوم لا يقرأون الألمانية أو نشترى مجموعة توينر Teubner من الكلاسيكيات اليونانية
الكاملة أو مجموعة لويب Loeb أو جويوم بوديه Guillaume Budé لقوم لا يعرفون اليونانية واللاتينية ؟

ان لدينا من ذخائر القدماء التى جمعها لنا أساتذتنا الأجانب فى مكتبة جامعة القاهرة مجموعة
نصوص الكتاب اليونان والرومان . Corpus Scriptorum Graecorum et Romanorum

وهى مجموعة لا تعوض لانها نفدت منذ قرن ولا أظن أن عشرات الالاف من الدولارات تكفى
لشرائها إن وجدت ، ولست أعتقد أن أحدا فتح أى مجلد منها منذ أن كنت أقرأ فيها عام ١٩٤٥ . ما
جدوى ؟ ما جدوى ؟

فلنبداً إذن بتكوين العلماء الذين لا أرى لهم ميزانية فى مشروع « مكتبة الاسكندرية » فإن كان
لدينا ستون مليون دولار لننفقها على المباني فلننفق نصفها على تكوين العلماء والباحثين . وهذه هى
الذخيرة الباقية ، وهذا هو الطريق الى خزانة العقول .

■ ■ ملاحظة : فى المكتبة القومية بباريس ١٠ ملايين كتاب وفى مكتبة المتحف البريطانى ٨ ملايين
وفى مكتبة لين بموسكو ٢٩ مليون كتاب وفى مكتبة الكونجرس بواشنطن ٢٠ مليوناً وفى المكتبة القومية
ببيكين ١٠ ملايين وفى دار الكتب المصرية مليون ونصف مليون كتاب . هذا غير المكتبات الجامعية ففى
السوربون ٣ ملايين كتاب وفى اكسفورد ٤ ملايين ونصف وفى جامعة جوركي ٦ ملايين ونصف وفى
هارفارد ١٠ ملايين وفى مكتبة جامعة القاهرة ٣٠٠ , ٠٠٠ كتاب . وكل هذه مكتبات عامة ، أما
المكتبات المتخصصة فلها حكم آخر .

الباب الثالث

مواجهات حضارية

الفصل الأول

محارة بغير أفروديت^(١)

كانت اليونان تقول أن أفروديت ، ربة الحب والجمال ، خرجت من محارة في شواطئ جزيرة قبرص واستحمت بشيخ البحر . ولكن جزيرة رودس جزيرة بلا أساطير .

في أواخر أغسطس ١٩٧٧ تلقيت دعوة من جامعة لندن للاشتراك في ندوة تعقد بجزيرة رودس ببلاد اليونان عن البحر الأبيض المتوسط بين الثاني والرابع من أكتوبر ١٩٧٧ ، وكانت هذه ثالث دعوة اتلقاها وأقبلها للاشتراك في مناقشة هذا الموضوع منذ ١٩٧٢ . كانت الأولى في مدينة فلورنسا قد نظمها معهد ايبالمو الايطالى المعنى بشئون البحر المتوسط في ديسمبر ١٩٧٢ ، وكانت الثانية في روما وقد نظمها مركز دراسات البحر الأبيض المتوسط الأمريكى بروما في ١٩٧٤ ، ثم هذه الأخيرة الثالثة بجزيرة رودس اليونانية .

وفي جميع الأحوال كانت الموضوعات المناقشة في هذه الندوات تندرج تحت ثلاثة فروع من البحث أحدها ثقافى حضارى والثانى اقتصادى والثالث سياسى استراتيجى . وفي جميع الأحوال كنت ادعى مع فريق للتحدث في الثقافات والحضارات ، بينما كان هناك فريق ثان من أساتذة الجامعات من مختلف بلاد العالم يدعى للتحدث في الاقتصاد والعلاقات الاقتصادية ، وكان هناك فريق ثالث من الأساتذة يدعى للتحدث في السياسة والعلاقات الدولية .

(١) « الأهرام » ١١/١ / ١٩٧٧ .

ثم اكتشفنا بعد وصولنا في أول أكتوبر أن هذا اللقاء كان احتفالا بافتتاح « مركز دراسات البحر الأبيض والشرق الأوسط » باثينا الذي انشأته اليونان ، ولم أر لهذا المركز صلة بجامعة لندن إلا أن المدير المتدب لإدارة هذا المركز هو صديقنا الجريحي المصري الريطاني الأستاذ تاكيس فاتكيوتيس أستاذ العلوم السياسية بجامعة لندن . ووجدت في انشاء هذا المركز باثينا مؤشرا بازدياد الاهتمام بإيجاد التقارب بين شعوب البحر الأبيض المتوسط : مركزان في روما ومركز في أثينا ، ومن يدري ؟ فرما غدا مركز في اكس أن بروفانس [فرنسا] ومركز في مدريد ومركز في بلجراد ومركز في استابول الخ ... وفي ظل هذه المؤشرات هل يجوز لنا أن نفكر في انشاء مركز لدراسات البحر الأبيض المتوسط تحت جناح جامعة الاسكندرية حتى لايفرد جيراننا في الشاطئ الآخر بهذا الاهتمام الجاد بحوض الحضارات تاريخها وثقافة وحضارة وعلاقات في السياسة والاقتصاد ؟

وكان مما استرعى انتباهي في هذه الندوة غرارة تمثيل مصر واليونان فيها . أما اليونان الداعية و « صاحبة الفرح » فلا غرارة في أن تكون ممثلة بهذه الغزارة بأساتذة من جامعة أثينا وغيرها من معاهد العلم في اليونان . أما مصر فقد حضر عنها — أو على الأصح منها — الأساتذة بطرس غالي (الأهرام) وحلال أمين (صندوق الكويت) ومصطفى بدوي (جامعة أكسفورد) وعبد الحى شعبان (جامعة اكستر) وعلى الدين هلال [الأهرام] ومحمود صقر (جامعة القاهرة) وشخصي . أقول منها وليس عنها لأن الدعوات كانت جامعية شخصية ولم يراع فيها التمثيل الرسمي ، وقد وجهت الدعوة للأستاذ ابراهيم مذكور وللأستاذ عبد الملك عودة وللسمير تحسين بشير ولكم لم يتمكنوا من حضور هذا اللقاء . وقد كان المؤتمر خليقا بأن ينتفع بعلمهم الغزير ولذا فقد أسفنا جميعا على تخلفهم عن الحضور كذلك أسفنا لاعتذار المفكر الكبير جمال محمد أحمد من السودان وغيره من صفوة المدعوين . ومقابل هذه الغزارة لم يكن هناك إلا أستاذ واحد مدعو من تركيا وأستاذ واحد مدعو من ايطاليا وأستاذ واحد مدعو من فرنسا وأستاذ واحد مدعو من أسبانيا وأستاذ واحد مدعو من سوريا وأستاذ واحد من السعودية وأستاذان من لبنان وأستاذان من العراق وخمسة أساتذة من إنجلترا وخمسة من أمريكا . وقد لاحظت أن البانيا ويوجوسلافيا وليبيا وتونس والجزائر والمغرب لم يدع منها أحد غير سفرائها رغم أنها من دول البحر الأبيض المتوسط . وقد حضر سفراء العراق وليبيا والكويت وممثل من الجامعة العربية .

وبالطبع لم يدع أحد من اسرائيل ، ولو قد دعى منها أحد لانسحب من الندوة كل أبناء البلاد العربية واحبطت أعمال المؤتمر . مع ذلك فقد كان هذا موقفا يونانيا يستحق التنويه . وقد تعود علماء الغرب منا ذلك ، تعودوا منا أن يختاروا في مؤتمراتهم الثقافية بينا وبين اسرائيل وقد سبق لى أن تلقيت دعوة لحضور مؤتمر نظمته جامعة لندن ووجدت في جدول أعمال المؤتمر بين أسماء المتكلمين أسماء أساتذة من جامعة اسرائيل فأبلغت إدارة المؤتمر اعتذارى عن الحضور لهذا السبب والأرجح أن زملائي من أدباء مصر والبلاد العربية فعلوا ما فعلت وبناء عليه عدلت إدارة المؤتمر جدول أعماله باستبعاد ممثلي اسرائيل . وفي مؤتمر روما طلبت تأكيدات قبل قبول الدعوة بعدم اشتراك اسرائيل في المؤتمر فجاءت برقية تؤكد عدم اشتراكها . وسيظل

الحال على هذا الوضع حتى تتعلم اسرائيل أن تصاع للقانون الدولي وترد ما اغتصت من أراض وحتى تعترف بها الدول العربية .

• • •

وقد حدثت مفاجأة قبل افتتاح المؤتمر حاءنى الأستاذ فاتكيوتيس مدير المؤتمر وأبلغنى أن أستاذا امريكيا اسمه روى ماكريديس من جامعة برندينس بالولايات المتحدة (يبدو من اسمه أنه من أصل يوناني) ، أبلغه أنه سيطلب الكلمة ليعلن وجوب اشتراك اسرائيل في مداولات المؤتمر باعتبارها دولة من دول البحر الأبيض المتوسط .. فأجسته بضرورة معه من اثارة هذا الموضوع والا اضطررنا ، نحن أساتذة البلاد العربية الى الانسحاب من المؤتمر . وبالفعل أبلغ فاتكيوتيس هذا الأستاذ الأمريكى بأنه لن يسمح له باتارة هذا الموضوع وهو يستطيع أن ينسحب من المؤتمر اذا لم يعجبه الأمر وهكذا اختفى الأستاذ ماكريديس منذ الجلسة الأولى بعد أن ترك لاعضاء المؤتمر مشورا في صورة خطاب موجه الى أعضاء المؤتمر بأن يقاطعوا المؤتمر لان اسرائيل غير ممثلة فيه . وقد راعى الأستاذ ماكريديس أن يوزع منشوره على زملائه من جامعات أمريكا وأوروبا وحدهم من دون أساتذة البلاد العربية وأساتذة اليونان طبعاً . فلم يحفل بندائه أحد من زملائه وتركوه ينسحب وحده . وهكذا انتهت هذه الفقاعة سلام . وقد سلمنى صديقى الأستاذ مالكوم كير الأستاذ بجامعة كاليفورنيا نسخته من هذا النداء فأرسلتها بدورى إلى الأخ الكريم يحيى عبد القادر سفير مصر في اليونان ليطلع على ما جرى في المؤتمر . وقد وحدث الأساتذة الأمريكيين مالكوم كير وسبيروس فريونيس وحوون ووتربرى ، وكلهم من أصدقاء العالم العربى ، شديدى الاستكثار لمسلك زميلهم الأستاذ ماكريديس ، وقد اهتموه بمحاولة نسف المؤتمر .

غير هذا لم يحدث شئ ذو نال في هذا المؤتمر أو في هذه الندوة ، ولم تكن فيه متفحرات فكرية أو سياسية ومع ذلك فقد كانت هناك في الكواليس بعض التساؤلات حول مبررات اقدام اليونان على اشياء مركز لدراسات البحر المتوسط يضم داخل اهتماماته الدول العربية التى لا تطل على البحر المتوسط كالسعودية والعراق والكويت .

• • •

وارتحل بعض الأعضاء فكرة تقول أن اليونان تطمع في معونات من الدول البترولية . وارتحل اعضاء آخرون فكرة تقول بأن اليونان تسعى لتنمية حجم التبادل التجارى والامهات مع الدول العربية . وارتحل فريق ثالث فكرة تقول بأن اليونان تسعى سياسيا الى التأيد العربى في محتها مع تركيا الخاصة بمشكلة قبرص وما قد يستجد من مشاكل فمن المعروف أن حرية رودس سسها التى انعقدت فيها أول ندوة ، وهى على مرمى المدفعية من ساحل تركيا (١٢ كيلومترا في أقرب نقطة) ، ومعها حزر الدوديكانيز (أى الجزر الاثنا عشر) فيها أقليات تركية ولها رواط تاريخية وثقافية تركية واضحة وقد كانت حتى بداية القرن العشرين تابعة لتركيا ، وقد تستجد فيها أوضاع شبيهة بالوضع الذى استجد في قبرص ، فاليونان أذن بحاجة الى أزر عربى في مواجهة أى توسع تركى مستقبل .. كل هذه الأمور في

نظري أمور مشروعة .

ولكن هناك رأيا رابعا طرح أيضا في كواليس الندوة : اذا كان القصد مجرد تقوية الروابط الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية بين اليونان والبلاد العربية ، ففيم تخصيص جلسة لمناقشة « الاهمية الاستراتيجية للبحر الأبيض المتوسط » ؟

ان الكلام في هذا الموضوع معناه البحث في « أمن » البحر الأبيض المتوسط . والبحث في الأمن معناه البحث في صور الدفاع المشترك عن البحر المتوسط والحديث في الدفاع المشترك يؤدي بالضرورة الى الحديث في الاحلاف العسكرية ، أو صور منها .

وحتى لو افترضنا ان البحر المتوسط بحيرة يجب اغلاقها ضد الطامعين فيها بنوع من التعاضد الدفاعي ، فكل كلام في هذا الموضوع شديد الخطورة بالنسبة للدول العربية بالذات لان عدیدا من دول المتوسط أعضاء في حلف الأطلنطي : تركيا واليونان وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا أى أكثر دول شمال المتوسط . وبهذا يكون كل تنسيق للدفاع عن المتوسط تشارك فيه الدول العربية معناه ربط الدول العربية بطريق غير مباشر بحلف الأطلنطي ، وهو أمر غير مشروع ، لأن الدول العربية المطلة على البحر المتوسط حتى الآن تراعى الحياد « الرسمي » ، بين الكتلتين ، حتى في أوج تعاونها مع الاتحاد السوفيتي أو مع أمريكا . ولأظن دول شمال المتوسط قادرة أو راغبة في الانسحاب من حلف الأطلنطي لتكتفى بهذا الحلف الاقليمي ، ولو أنها فعلت ذلك لما كان هناك بأس من قيام مثل هذا الحلف الجديد في وجه الطامعين ، كل الطامعين .

لحسن الحظ أنه رغم مناقشة الاهمية الاستراتيجية للبحر الأبيض المتوسط لم ترد كلمة واحدة في هذا الاتجاه .. والمهم أن لا ترد حاضرا أو مستقبلا .. الحذر واجب ، لأن تعدد مراكز دراسات البحر المتوسط على النحو الذى بينت ، اذا لم تكن هذه المراكز مستقلة تماما في آرائها القومية ، يمكن أن يجبر الى هذا النمط من التفكير .

وقد كان حريا بهذا المركز اليوناني الجديد أن يدعو مشاركين من يوجوسلافيا والباينا ، وهما ليستا عضوين في حلف وارسو، ومن بقية الدول العربية المتوسطية، حتى يكتمل الاحساس بأن أبناء الحوض المتوسط لا ينتمون لغير هذا الحوض العظيم ، حوض الحضارات القديمة .. وبعد اليس هذا يؤيد أن نفكر منذ الآن في وجوب انشاء مركز مصرى لدراسات البحر الأبيض المتوسط يرصد هذه الاتجاهات ويتعاون مع غيره من مراكز المتوسط الأوربية في تعميق كافة الروابط المشروعة من ثقافية واقتصادية وسياسية ويتصدى لكل مايمكن أن يقحم دول المتوسط في ذلك الصراع الرهيب بين الكتلتين العظيمين ؟

• • •

فلنقل ان مؤتمر رودس كان بمثابة حفلة تعارف بين المهتمين بشئون البحر المتوسط . وقد اضفى

جو هذه الجزيرة السياحية على المؤتمر جوا من الاسترخاء .. فخيّل اليّا اننا في مصيف لثلاثة أيام وليس في طاحونة عمل شاق كما يحدث عادة في المؤتمرات .. وهياً لنا عمدة الجزيرة هذا الجو فخرجوا بنا لنشاهد الاثار اليونانية القديمة والاثار الرومانية والاثار البيزنطية ، وآثار فرسان القديس يوحنا الذين احتلوا رودس بين ١٣٠٦ و ١٥٢٢ عام سقوطها في يد الاتراك العثمانيين . ومن قبلهم أثناء الحروب الصليبية .. مر برودس ملك فرنسا فيليب أوجيست في عام ١١٨٠ ، وملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد في عام ١١٦١ .. وأيام البطالسة تحالفت رودس مع مصر لصد الغزو السورى على الجزيرة ونجحت في ذلك وقد احتل الفرس رودس لفترة وجيزة عام ٦٢٠ ميلادية ثم احتلها العرب عام ٦٦٣ ميلادية .. وقد ظلت رودس تحت حكم الاتراك بين ١٥٢٢ و ١٩١٢ ، حين احتلها الايطاليون مع بقية جزر الدوديكانيز حتى عام ١٩٤٥ ، حين دخلتها جيوش الحفاء .. ولم تعد رودس الى اليونان الا مؤخرا ، منذ عام ١٩٤٨ ، ومعها بقية الجزر الاثنتى عشرة [الدوديكانيز] .



وتعداد جزيرة رودس ٦٥٠٠٠ نسمة نحو خمسم من الاتراك .. ودخلها الرئيسى من السياحة ، وقد بلغ دخلها من السياحة في العام الماضى ١٥٠ مليون دولار ، رغم أنه ليس فيها شارع الهرم وهو مساو لما حققته مصر كلها من السياحة في العام الماضى بحسب تقارير وزارة السياحة المصرية (وزارة السياحة لاتذكر لنا كم دولارا ينفق السائحون المصريون فى الخارج) .. كل ما فى رودس بلاجات وآثار .. أما ثرواتها القومية فهي محصورة فى الزيتون والصاعات اليدوية ! (بهذه المناسبة بلغ دخل أسبانيا من السياحة فى العام الماضى ثلاثة آلاف مليون دولار) .

وبعد انتهاء ندوة رودس عدت الى أثينا مع الدكتور مصطفى بدوى أستاذ الأدب العربى بجامعة أكسفورد ، والدكتور محمود صقر أستاذ اليونانيات بجامعة القاهرة .. وجددنا صداقتنا مع أحجار الأكروبول ، فهما مثلى بمن يكلمون الأحجار ويصفون الى ماتقول . ثم خصصنا يوما لزيارة معبد دلف ، المقر الرئيسى لعبادة أبولو ، رب الشمس والعرافة والشعر الغنائى والزراعة والرياضة ، حيث كانت عرافة دلف الشهيرة التى كان يحج اليها اليونان من كل فج ليستخيروها فى عظام الأمور ، فتقرأ لهم الغيب المقدر على الانسان بكلام مبهم يشبه الاحاجى .. وفى الطريق الى دلف ، مررنا بطيبة ، فلم نحد فيها أثرا لأوديب وجوكاستا ولا للوحش أبى الهول الرابض فى مدخل المدينة يستوقف كل داخل وي طرح عليه أحاجيه الغريبة ، ويدمره ان عاجز عن الاجابة ، وانما وجدنا مدينة صغيرة حديثة وادعة . حتى ملتقى الطرق الثلاثة التى التقى فيها أوديب بأبيه الملك لايوس فى موكبه وقتله دون أن يعرف هويته ، بحثنا عنه ولم نهند إليه .. وفى مرتقى جبل دلف توقفنا عند ينبوع كاستاليا المقدس بين الصخور وشرابنا من مائه البللورى ، ولكننا لم نتوضأ كما كان سقراط يتوضأ كلما ارتقى الى معبد أبولو فى مدارج الجبل .. وقبل أن نسموا الى معبد دلف مررنا بالمحاريب الكثيرة التى بنتها مدن اليونان لهذا الاله ، تقريبا منه وضاعة الية لنصرها فى السلم والحرب .. الطريق الصخرى المتعرج ، المعبد ، فى الجبل يصعد الى السماء .. ولا أحد يصل معبد أبولو حتى يمر على خزانة النذور ،

حيث كان كهنة أبولو لاشك واقفين بالمرصاد لكل صاعد للصلاة أو لاستخارة عرافة دلف الشهيرة .. ثم المعبد الجميل الذىبقى منه نصف أعمدته وجدرانه وأرضيته الحجرية .. وفوق المعبد هضبة فيها المسرح العظيم الذى يتسع لآلاف المشاهدين .. كأنما اليونان تقول : لا فن الا بعد صلاة لاله الفنون وتطهير للنفوس حتى تدخل حرم الفن فى صفاء نورانى ، أو لعل اليونان أرادت أن تقول : عبادة الفن أقرب الى السماء من عبادة الدين ، لأن الفن هو خلاصة الدين .. وفوق هضبة المسرح هضبة أرقى فى قمة الجبل ، هى أستاذ المباريات الرياضية .. آلاف المقاعد الحجرية منحوتة فى مدارج الجبل كالمرشح تماما فى هيئة نصف دائرة أو مايسمى حدوة الحصان .. كأنما اليونان كانت تريد أن تقول : بالرياضة يبلغ الانسان مساكن الآلهة .. ماكان أعجب هؤلاء القوم .. كل شىء كان عندهم مشرقا وناصعا وجميلا ، أم ترى هى الصدفة الحقة فى تكوين جبل دلف هى التى حددت لكل شىء مكانه ؟

ما أجمل أن تزور شواهد الماضى فى صحبة أستاذ عليم محاضرة القدماء .. وأستاذ اليونانيات محمود صقر لم يتوقف لحظة عن الكلام : يربط الشعر بالدين بالفكر بالتاريخ بالعادات اليومية .. ونحن بصغى ونتخيل ونتمثل ونجسد الكلمات ، فاذا ماقرأنا من كتب تجسدت أمامنا حقائق تنبض بالحياة .



وخصصنا اليوم التالى لزيارة أرجوس حيث قبر أجامموني ومسرح ايبيداوروس الشهير ، وبه ثلاثة عشر ألف مقعد حجرى منحوت فى مدارج الجبل على هيئة حدوة الحصان .. وهو معجزة من معجزات « الأكوستيك » ، أى علم الصوت ، فعلى أرضية المسرح فى أسفل الجبل الشاهق المتدرج المحيط بنا من ثلاثة أرباع الدائرة ، وقفت المرشدة السياحية تعرض علينا معجزة الزمان فى الأكوستيك .. اشعلت عود ثقاب فاذا بمئات السياح المتسائرين بين أعلى التياترو فى قمة الجبل ووسطه وسفحه ، وفى مدار الدائرة فى كل مكان ، يسمعون صوت اشتعال الكبريت بنفس الدرجة من الوضوح .. ثم مزقت المرشدة ورقة فسمعت خشخشة التمزيق فى كل نقطة بنفس الدرجة من الوضوح .. ثم جربت الصوت الانسانى فشبهت فسمع شهيقتها ورفيرها فى كل مكان .

وكانت لى فى أرجوس ذكريات خاصة لأنى عايشتها فى الخيال أعواما حين ترجمت ثلاثية اسخيلوس « أجامموني » و « حاملات القرايين » و « الصافحات » منذ اثنى عشر عاما .. ففى هذا القصر الملكى و القلعة الملكية ، حيث كان يحكم ملوك « ميكيناى » أو « ميسيناى » ، أقدم حاضرة على أرض اليونان (١٦٠٠ — ١٣٠٠ ق . م) بعد حضارة مينوس فى جزيرة كريت ، كان يقيم الملك أجامموني وأخوه الملك مينلاوس فى حاضرة أرجوس ذات الصولجان المزروج .. وهنا نزل باريكس الحميل ابن بريام ملك طرواده فى تركيا ضيفا على ميللاوس زوج هيلانه الشهيرة واختطفها أو فرها عائدا الى بلاده ، فاجتمعت كلمة قبائل اليونان على الثأر من طرواده والتفتوا حول البطل أجامموني ليقودهم فى تلك الحرب الضروس التى دامت عشر سنوات ، وانتهت بتدمير طرواده ، ولكن بعد أن نزع اليونان دم القلب وتبعثرت أشلاء أبطالهم على البطاح والسهول .. وإلى هذا القصر الملكى الشاخص القائم على قمة الجبل الشاخص ، عاد الفاتح أجامموني بعد

عشر سنوات من الحلال ليجد زوجته الخائنة كليتمسترا قد اتخذت ايجيست عشيقا أثناء عيابه ، وفي ليلة عودة القائد المصور أعدت له زوجته الخائنة حمام الدم فأجهزت عليه مع عشيقها في الحمام .. وهكذا بدأت هذه المأساة الخالدة .

وجست خلال القصر الملعون وأنا أتصور فيه كل ما قد جرى ، وأكاد أرى الحراس على الأسوار في قمة الجبل يرقبون اشتعال المتاعل في قمم الجبال المحاورة ، معلية سقوط طروادة .. فقد كان هذا سلاح الإشارة عند اليونان القديمة .. متعل يرسل الإشارة لمشعل على قمم الجبال بطول البلاد وعرضها . ووقفت أمام قبر أجا ممنون الرهيب ، ورأيت الفتى أوريسست س أحامنون وقد عاد من مفاه والتقى بأخته اليكرا وهي تصب البيذ قريانا على قبر أبيها فعرف مها كل ما قد كان ، وعاهدها على الفتك بأمة الخائنة فلما أجهز عليها أصابته اللوثة وحاصرته الفوريات ربات الانتقام وحارت فيه عدالة الأرض والسماء ، ولم ينبج من ربانية الجحيم حتى أدركه اللطف الالهى ، متمثلا في صورة الربة أثينا ننت عقل زيوس رب الازباب .



وهكذا يقف الاسان لحظات على مشارف الأبدية .. وتأملت معمار قبر أحامنون فلم أحد فيه شيئا من رشاقة اليونان ولا من صحوهم الفكرى والنفسى ولكن وجدت فيه شموخا من شموخ الآثار المصرية ، وأحجارا رازحة ، أطنانها كأطبان أحجار الهرم الأكبر .. حتى قبته تبدو وكأنها هرم مخروطى التكوين .. ترى هل حمل الأخائيون ، وهم قوم أجا ممنون (الأكواواشى كما كان المصريون يسمونهم) ذكريات من عمارة مصر القديمة وشعائر الدفن بها أيام مناوشاتهم مع المصريين أيام الدولة الحديثة ؟ .. ان عمارة مصر القديمة لم تعرف القباب واما أخذت القباب من بيزنطة .. ترى هل القباب البيزنطية أهرام بلا أضلاع ... ؟ .

الفصل الثاني

صراع الأضداد^(١)

تكلمت في ندوة رودس عن ثقافة البحر الأبيض المتوسط أو على الأصح عن ثقافته ، فرغم ما يبدو من انسجام عام في ثقافات دول البحر المتوسط فلا مناص من الاعتراف بما بين هذه الثقافات من وجوه اختلاف . وما يقال عن الثقافة يقال عن الحضارة أيضا .

وقد كانت النظرية العامة التي طرحتها على أعضاء الندوة هي أن ثقافات البحر المتوسط وحضاراته كانت دائما منذ فجر التاريخ تحكمها دورة جدلية تقوم على ظهور الحضارة ثم ظهور نقيضها ، ومن صراع النقيض أو الاضداد يحدث تداخل الأضداد ويخرج مركب جديد أكثر خصوبة امتزجت فيه جوهريات الحضارات المتصارعة ثم المتصالحة المتداخلة . ولما وجدنا في ثقافات البحر المتوسط وحضاراته حالة تتجاثف فيها ثقافة أو حضارة أخرى تبتلعها وتنسخها نسخا وتمحوها تماما من الوجود . ذلك لأن كل طرف من أطراف الصراع كان دائما يملك عناصر الحيوية والخلق في باطنه مهما ظهرت عليه أعراض الانحلال من جهة ، أو الاغتصاب السافر الساذج من جهة أخرى فمنذ فجر التاريخ كان هناك صراع خلاق بين شاطئ المتوسط الجنوبي وشاطئ المتوسط الشمالي ، وبين شرق المتوسط وغربه ، وكان هذا الصراع خلاقا لأنه كان يبدأ دائما بالمواجهة ثم ينتهي باللقاء والتصالح والتداخل وظهور نوع أرقى من الثقافة والحضارة .

فمنذ عصر الدولة القديمة في الألف الثالثة قبل الميلاد واجهت اليونان حضارة مصر القديمة ، وكانت نقطة المواجهة في جزيرة كريت ، ونشأت من هذه المواجهة حضارة مينوس التي كان مركزها مدينة كنوسوس حاضرة كريت .

(١) « الأهرام » ١٩٧٧/١١/٨

وقد كان اسم مينوس يتردد في ملاحم هوميروس التي تروى قصة حرب طروادة حول ١٣٠٠ ق. م. وكان العلماء يحارون في أمر مينوس هذا الذى تحدث عنه هوميروس ، ولا يدرون ان كان أسطورة من الأساطير أم شخصية تاريخية ، حتى جاء السير آرثر ايفانز وكشف نحو عام ١٩٠٠ عن قصره الملكى في مدينة كنوسوس وعن مدينة كاملة منقرضة كانت زاهرة في الألف الثالثة قبل الميلاد . ومن دراسة آثار معمارها وجباناتها وشعائر الدفن وطقوس العبادات فيها وتمثيلها وصناعاتها اليدوية اكتشف أن حضارة مينوس هذه كانت متأثرة أبلغ التأثير بحضارة مصر القديمة منذ بداية عصر الأسرات وموازية لها في القدم . وما يقال في حضارة كريت يقال أيضا في حضارة فينيقيا ببر الشام القديم .

وفي الألف الثانية قبل الميلاد كانت المواجهة الثانية بين مصر واليونان . فنحن نقرأ في نقوش الرعامسة أنهم سحقوا غزوات « الأكواواشى » ، وهم أقوام بحرية اصطلاح العلماء على الظن بأنهم الاخائيون الذين قادوا اليونان من أرجوس والبلونيز في حرب طروادة . وها هو ذا معمار حضارتهم ، حضارة ميكنائى التي حدثنا عنها نيلسون وغيره . يدل على تأثرهم بمعمار مصر القديمة ، فعلى بوابة قصرهم الملكى يشمخ التاج المزدوج وكأنه اقتباس من تاج فرعون المزدوج ، جامع صولجان الوجه القبلى والوجه البحرى . وها هو ذا معمار قبر عظيمهم أحامنون يعلوه هرم كالقرطاس بغير أضلاع كان بداية كل القباب . ومن طورسينا انتقل قوم « الترشو » الى ايطاليا قبل انتقال الرومان اليها ونقلوا معهم اليها فن الكتابة « الاتروسكية » السابقة على الكتابة اللاتينية . فما هؤلاء « الترشو » أبناء طور سياء ، غير الاتروسكيين في عرف العلماء . وفي طورسيناء كان ذلك المعمل الأول الذى تحولت فيه الأبجدية البكتوجرافية (التصويرية) المأثورة عن الهيروغليف الى أبجدية صوتية بالمعنى الحديث منذ نحو ١٨٠٠ ق. م. ومنها انتقلت الى فينيقيا واليونان وايطاليا وبقية أرجاء العالم القديم ، كل شعب يهذبها بصب مخارج أصواته وعاداته في الرسم والتعبير .

وفي الألف الثانية ق. م. حدثت تلك المواجهة الكبرى بين اليونان وطروادة ، وسواء أكانت حرب طروادة تعبيرا عن توسع اليونان في الأناضول أو تعبيرا عن عدوان الأناضول على اليونان فالنتيجة كانت واحدة . بعد تصارع الأضداد حدث تداخل الأضداد ، وهو الملاحم الهومرية وما خرج عنها من درامات خالدة هي قوام الأدب اليونانى كله ، حتى أفل نجم اليونان . شيء لا يمحى بين اليونان وتركيا . وكلمة تجديد التوسع تحدد صراع الأضداد ثم تجدد تداخل الأضداد . فما عصر الامبراطورية البيزنطية الا عصر غلبة اليونان على الاتراك الطرواديين ، وما عصر الامبراطورية العثمانية الا عصر غلبة الاتراك الطرواديين على اليونان .

ونحن في مصر كنا دائما الطرف الثالث في هذا الصراع ، فما تاريخ المواجهات الكبرى بين المناخنة والرعامسة في طرف ، وبين « الخاقى » أو الحثيين في الطرف الآخر ، سواء على أرض الشام أو بلاد النهرين ، الا وجه من وجوه ذلك الصراع العظيم بين مصر والأناضول ، ذلك الصراع الذى تعدد أيام الاشوريين ثم أيام البيزنطيين ثم أيام الأتراك « الاتتماء » أى الفرسا المعروفين بالعثمانيين . وسواء أكان اسم حاكم مصر امنحتب الثالث أو رمسيس الثانى أو ايسماتيك أو ابن طولون أو طومان بك أو علم بك الكبير أو

محمد على .. فالنتيجة واحدة في جميع الأحوال . هناك طروادة (بلاد الطورانيين) أو بيزنطة أو استانبول و مواجهة مصر ، هذه لها العلة آنا وتلك لها الغلبة آنا . وصراع الاضداد كان ينتهى أحيانا بتداخل الاضداد فيظهر مركب الموضوع بعد انتهاء الصراع .

وفي العالم القديم حاول امسحتب الرابع (احناتون) أن يقيم السلام المصرى فى الشرق القديم بتوحيد الدين وبدين التوحيد بدلا من شوكة السلاح المصرى ، ولكن العسكرية المصرية خذلتها بالحق أو بالباطل . ومضى احناتون وبقيت عبادة آتون أو أدونيس فى الشرق القديم كله ومعها جنة عدن . وبالمثل كان رمسيس الثانى صادقا أو كاذبا ، يلعب نفسه فى آثار ميت رهنة [منفيس] بلقب « حيب أنات » الهة « الاناضول » تقربا من الحثييين والفيسيقيين ليقبلوا حكمه كما كان الاسكندر الأكبر فيما بعد يوهم المصريين بأنه حبيب آمون ليقبلوا حكمه .

وقارىء السير جيمس فريزر سواء فى « العصب الذهبى » أو « الفولكور فى التوراة » ، يستطيع أن يرى كيف أن عبادة الخصب المتجسدة فى الثالوث المصرى أوزيريس وأيريس وحوريس ، أو الاله المعدل والأم العذراء ، والطفل الالهى أو — الابن المخلص ، عدت تراتا مشاعا فى العالم القديم كله بسبب تداخل الثقافات بعد صراع الثقافات منذ فجر التاريخ حتى ظهور أديان التوحيد . وسواء سميت أوزيريس أو تمور أو أدونيس أو أتيس أو ديونيزوس الخ .. فالاله المعذب واحد فى كل مكان ، وهو الاله الذى مزق وبثرت اسنائه ودفن كما تدفن البدور ثم قام من بين الأموات . وكل ما هناك من فرق أنه كان روح القمح فى مصر بينما كان روح الكرم فى اليونان بحسب زراعة البلاد ، وقد بقى منهما رمز الخبز والنبيد . وسواء أكان اسمها ايزيس أو عشتروت أو أفروديت أو ديميتير صاحبة الأسرار الالهية أم مايا أو هرميز رسول الالهة الذى تكلم فى المهدي صيبا بحسب مايقول هوميروس أو أبو البقرة المطاردة الهائمة بولدها الموعود على ضفاف النيل : فالأم العذراء هى الأم العذراء فى كل مكان . كذلك فالطفل الالهى هو الطفل الالهى سواء سميت حوريس أو هرميز أو هرقل ، الخ .. تراث عظيم مشترك فى كل العالم القديم ، من قصة الخلق الى قصة الطوفان ، ومن قصة الموت الى قصة البعث ، ومن قصة العصيان الأول الى رموز الخير والشر ومن قصة الغواية وسقوط الانسان الى قصة الثواب والعقاب والحساب الأخير ، والارتفاع الى مصاف الالهة . الأرض تبحث عن السماء والسماء تبحث عن الأرض والحوار بينهما لم يقطع أبدا .

وفى قمة ضعف مصر السياسى ، وفى قمة محد أثينا ، كان اليونان يتعلمون فى مصر ويحلسون الى كهنة جامعة عين شمس (هليوبوليس) أو « أون » كما كان يسميها المصريون . علوم وأفكار سلمها فيثاغورس الى سقراط وسلمها سقراط الى أفلاطون . ومنذ ذلك اليوم لم يعد الفكر اليونانى كما كان من قبل . كانت ديانة اليونان ، على الأقل منذ هسيود فى القرن الثامن قومية تؤسس نظرية الخلق على أن العقل متمثلا فى شخص زيوس كبير الالهة تطور متأخر فى الكون أو الطبيعة فقد سبقه أورانوس ثم كرونوس اللذان فقد كل منهما عرشه على الوجود لأنه كان يعتمد على القوة الباطشة فحسب وهذا بمثابة قولنا أن الفكر تطور متأخر من المادة . وهذا ماتعلمه اليونان من المصريين : أن الفكر سابق على المادة وأن الله سابق على الكون وأن

العقل الكامل هو مصدر الوجود . وهذا تجاوزت في الفكر اليونانى مدرستان عظيمتان هما مدرسة أفلاطون ومدرسة أرسطو وحدث ذلك الشرح العميق في الفكر الأوربي حتى يومنا هذا ، ومن بعده في الفكر العربى منذ زمن المعتزلة الى الآن .

وبعد أن أقل نجم أثينا سطع نجم الاسكندرية أيام البطالسة وحتى بيزنطة في ٣٢٤ م في جوب البحر المتوسط كما سطع نجم أنطاكية في شرقه . فماذا حدث ؟ ظهرت في الاسكندرية مدرسة دينية فلسفية أدبية علمية تاريخية فنية ، هى مزيج غريب من العقل اليونانى والعقل المصرى ، لم تعد تميز فيها من المصرى ومن اليونانى ، ان قلت أنها يونانية صدقت وأن قلت أنها مصرية صدقت ، ولعل خير رمز لها كان حجر رشيد الذى كان مدونا بهيروغليفية البلاد وديموطيقيتها (لغتها الشعبية) وباللوانية التى كانت لغة الثقافة .

وظهرت ديانة مختلطة زاوحت بين آلهة مصر وآلهة اليونان . واحتلظ الفكر الفلسفى بالفكر الدينى فظهرت ديانة الهرامزة نسبة الى هرميز رسول الآلهة وكتبها الذى اتخذ أيضا اسم الآلهة تحوت أو توت كاتب الآلهة في ديانة مصر القديمة . وكان هذا دين الحكماء وصفوة المثقفين لأنه صفى الوثنية القديمة من أكثر أساطيرها وركز على جوهر ما في الدين من حكمة . كما ظهرت أيضا ديانة « الغنوص » وهى حرفيا ديانة المعرفة أو ديانة « الواصلين » أو « العارفين بالله » وهى أيضا ديانة السالك المثقفين من المصريين واليونان الذين اعتكفوا في أديرة الصحراء كالهرازمة . وحتى بعد ظهور المسيحية وانتشارها في مصر ودخول الفقراء والبسطاء والمعتدين في الأرض فيها أفواحا لأنها كانت تذكرهم بعبادة اله الخصب المعذب أوزيريس ، استكر المثقفون لنفسهم دينا كان خليطا من المسيحية والأفلاطونية ، دينا عرف في تاريخ الأديان والفلسفات بالمسيحية الأفلاطونية ، امتزجت فيه العقيدة الدينية بالفكر الفلسفى ، وكان أقطابه أمثال تومينوس وزوسيموس ويامبليكوس : مصريين بعقل يونانى أو يونانيين بعقل مصرى ، ففى ذلك العصر لم تكن تميز من المصرى ومن اليونانى . ومثلهم أجيال الأدباء والعلماء مثل أبولونيوس الرودى وإيستارخوس وثيوفراست وثيوبومب ومانيون وجوزيفوس وأوسيبوس وبطليموس الجغرافى ، حتى شاعرنا الصعبدى الكبير نونوس الذى نظم « ملحمة ديونيزوس » باليونانية في القرن الخامس الميلادى .

وفي الاسكندرية أيضا ظهرت الأفلاطونية الحديثة : ظهر أفلوطين وبورفيريوس الذى كانت العرب تسميه فرفوريوس . لقد كانت الاسكندرية هى المعمل الكبير الذى كانت تخرج منه الاجتهادات الدينية والفلسفية فضلا عن العلوم والأدب حتى نهاية الوثنيات الأولى .

فلما انتشرت المسيحية كانت الاسكندرية أيضا هى المعمل الذى خرج منه الفكر الدينى الذى تأسست عليه مبادئ الكنيسة الأرثوذكسية سواء في مصر أو في اليونان أو في بر الشام . وفي الوقت الذى كان الرومان الشرقيون يؤسسون فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) كان آباء الكنيسة الشرقية بين الاسكندرية وانطاكية ، ولا سيما الاسكندرية ، يؤسسون فيه دعائم اللاهوت الأرثوذكسى ويكتبون فيه الرسائل ويجمعون فيه المجامع ويشنون معارك لاهوتية ضد فلاسفة الوثنية من جهة وضد آباء الكنيسة الرومانية الغربية (الكاثوليكية) من جهة أخرى وضد بعضهم بعضا من جهة ثالثة . كان هاك كيرلس وأثناسيوس

وديو سكوروس وأوريجين وكلمنت الاسكندري وأريوس وغيرهم من الرهبان المجتهدين داخل اطار اللاهوت المسيحى وخارج ذلك الاطار ، وكان أكثرهم من المصريين أو المتصرين ، وكانت الاسكندرية هى عقل العالم اليونانى أيام بيزنطة كما كانت الاسكندرية هى عقل العالم اليونانى أيام البطالة .

وما حدث للفكر المسيحى الشرقى (الأرثوذكسية) حدث أيضا للفكر المسيحى الغربى (الكاثوليكية) . فبينما كان الرومان مشغولين بالحرب وتوطيد أركان الامبراطورية الرومانية الغربية ، ثم فيما بعد بصدد غزوات برابرة الشمال كالقوط والهون والفندال فى أوروبا ومن بعد على أسوار روما نفسها بين ٣٠٠ و ٥٠٠ ميلادية ، كان مفكرو شمال افريقيا اللاتينية الثقافة يصوغون للرومان وأمصارهم الغربية فكرهم الدينى الوثنى الراقى ثم فكرهم الدينى المسيحى الكاثوليكي كان هناك أولا حكماء ليبيا وقرطاجنة من أمثال بونتيوس أو بوييس ومكروبيوس وشيبو الأفريقى (الأصغر) فى نهاية العصر الوثنى يحولون الوثنية الرومانية الى ينابيع للحكمة الرواقية وللحكمة بصفة عامة . ثم جاء آباء الكنيسة الغربية ، وكان أكثرهم من شمال أفريقيا لاتينى الثقافة وفعلوا بالفكر المسيحى ما فعله آباء الكنيسة الشرقية الهلينيى الثقافة بالفكر المسيحى فى الاسكندرية وأطاكية فى المشرق . أسس هؤلاء اللاهوت الكاثوليكي والكنيسة الكاثوليكية كما أسس أولئك اللاهوت الأرثوذكسى والكنيسة الأرثوذكسية . فمن شمال أفريقيا جاء الدعاة تروتيان ولاكتانس وفولجانس ، ومن شمال أفريقيا جاء القديس أوغسطين والقديس جيروم والمؤرخ الكبير أروسيوس الذى عرفته العرب باسم هرشيوش . ومن يقرأ ابن خلدون يعرف أن العالم الاسلامى لم يكن فقط مطالعا على فكر سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفريريوس وجوزيفوس وأوسابيوس فى المشرق الهليني ، واما كان أيضا مطالعا على فكر مفكرى المغرب اللاتينى وأكثر هؤلاء وأولئك مذكورون بأسمائهم فى ابن خلدون .

وهكذا نرى أنه منذ أقدم العصور كانت المواجهات المستمرة بين شمال البحر المتوسط وجنوبه تنتهى بعد تصارع الاضداد الى تداخل الاضداد ، وهكذا من الموضوع وبقية الموضوع كان يظهر مركب الموضوع الذى به تتم حلقة فى تلك السلسلة الجدلية التى هى تاريخ حضارة البحر المتوسط ، بل وتاريخ الحضارة الاسانية كلها ، ثم تبدأ حلقة جديدة من الصراع ثم التداخل والمصالحة التى بها تظهر الحضارة المركبة الجديدة التى تتضمن داخل احشائها وفى قسماتها خير ما فى الحضارتين المتواجهتين المتصارعتين . وحيث تريد حضارة أن تبعد حضارة لن يكون هناك حوار ولا مصالحة ولا حضارة أرقى تخرج من تداخل الحضارتين المتصارعتين ، وانما يكون هناك عقم وانفراد بالوجود مرادف للانتحار ، انتحار الحضارة السائدة .

وهذا ما أصاب بيزنطة وروما بل وفارس الساسانية أيضا قبيل ظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى . الظلم والعقم والحرص على الانفراد بالوجود كانت جميعا سمات بيزنطة وروما وفارس الساسانية ، والاسلام فى وجهه السياسى والاجتماعى ، بل وفى بعض وجوهه الأخلاقية والميتافيزيقية أيضا ، لم يكن الا ثورة على العقم والظلم والرغبة فى الانفراد بالوجود التى أصابت وثنية العرب ومسيحية بيزنطة وروما وزرادشتية فارس أو مانويتها أى مجوسيتها ، حين تحولت هذه الديانات على الأقل فى الأمصار الى أشكال بلا مضمون

وعمقت الفجوة بين الفكر والحياة ، وهو مانسميه بالانحلال . ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاعت الثورة العربية عند ظهور الاسلام أن تجتاح وثنية العرب ومجوسية الفرس ولاهوت بيزنطة وروما من الخليج الى المحيط .

الفصل الثالث

حوار الهلال والصليب^(١)

كان ظهور الاسلام وانشاء الامبراطورية العربية مواجهة جديدة في سلسلة المواجهات التاريخية والثقافية بين جنوب البحر المتوسط وشرقه من جهة وشمال البحر المتوسط وغربه في الجهة المضادة . وقد كان هناك وجه شبه بين انتهاء الامبراطورية الرومانية (رسميا في ٤٧٦ ميلادية ولكن فعليا في ٤١٦ ميلادية بسقوط روما في يد القوط الغربيين) . وانتهاء الامبراطورية العربية (رسميا في ١٢٥٨ ميلادية بسقوط بغداد في يد التتار فعليا في ٨٣٣ ميلادية بانطواء عصر المأمون واستيلاء الفرس والديلم والترك على الخلافة وتأسيس دولة بى بويه في ٩٤٥ ميلادية) .

فحين دخلت الحضارة الرومانية في ذمة التاريخ لم يكن هناك مناص من بروز فكرة الحضارة المسيحية الكاثوليكية في أوروبا خلال الألف سنة التالية لسقوط روما . وبالمثل حين دخلت الحضارة العربية في ذمة التاريخ لم يكن هناك مناص من بروز فكرة الحضارة الاسلامية ، خلال الألف سنة التالية لانتهاء الحكم العربى في بغداد ، فما الطولونية والاختشيدية والفاطمية والسلجوقية والأيوبيه والمملوكية البحرية والبرجية والعثمانية الا مراحل متصلة من هذه الحضارة الاسلامية التى تضاعل دور العرب فيها وتعاضل دور الاعاجم .

وخلال هذه الفترة الطويلة لم تنقطع المواجهات والمصالحات بين العالمين المسيحى والاسلامى سواء فى وجههما الامبراطورى . (الرومانى الغربى أو الشرق والعربى) أو فى وجههما الدينى البحت . وفى كل مرحلة كان ينتهى صراع الاضداد بتداخل الاضداد وظهور مركب موضوع جديد أو مركبات موضوعات جدد .

(١) « الأهرام » ١٩٧٧/١١/١٥ .

ففى العالم العربى ثم فى العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب جددت الثقافة العربية نفسها وجدد الفكر الاسلامى والتصوف الاسلامى نفسه بثقافة اليونان وعلوم اليونان وفلسفة اليونان ، وكذلك ببعض ما كان نافعا فى ثقافة الهند وفارس واللاتين ، من تاريخ أورويسوس (نحو ٤٠٠ م) فى سقوط الامبراطورية الرومانية ومن مؤلفات دانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١) ومارسيليو دى بادوا فى النظم والمذاهب السياسية وكذلك تواريخ الأفرنج ، كما يتجلى فى أعمال ابن خلدون .

وأنا لن أعيد هنا الكلام عن ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) وابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) والفارابى والبيرونى وابن الهيثم والرازى وغيرهم وغيرهم .. ولا عن حركات الترجمة فى المشرق العربى وفى المغرب العربى . ولن أعيد الكلام عن فضل العرب على أوروبا فى حفظ التراث اليونانى وفى احياء العلوم الوضعية والعلوم الدقيقة من كل ماهو معروف للخاص والعام — ولكنى سأكتفى بالقول بأن هذه الدورة الحدية الحضارية بدأت من جديد بالمواجهة وصراع الاضداد وتداخل الاضداد حين بدأت مواجهات الحروب الصليبية [١٠٩٦ — ١٢٩١] فى المشرق العربى وبدأت حروب تحرير أسبانيا فى المغرب العربى (١٢٤٢ — ١٤٩٢) . فمن صراع الاضداد هذا ثم تداخلها خرج مركب الموضوع أولا فى صورة رئيسانسان القرن الثانى عشر الأوروبى أو عصر النهضة الأوروبية الأول ثم خرج مركب الموضوع العظيم هذا الذى نسميه الرئيسانسان أو عصر النهضة الأوروبية الكبرى، ومعه حركة الاصلاح الدينى الأوروبى .

نتج عن هذا الصراع الممتد بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى أيام الحروب الصليبية أن العالم المسيحى تعرف تعرفا مباشرا على أسس العقيدة الحياة فى المجتمعات الاسلامية التى اتصل بها أو حاول ذلك على أقل تقدير .. وبدأت فيه بدايات الاستشراق وأخذ مؤرخو الأفرنج يقارنون بين معتقدات العالم الاسلامى ومعتقدات العالم المسيحى .

ولم يلبث الحال كذلك حتى استقر فى يقين المثقفين الأوروبيين أن المعرفة باللغة العربية أداة من أهم أدوات الثقافة حتى قبل الصحوة والاهتمام باحياء اليونانية بعد سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين فى ١٤٥٣ . وهكذا انشئ أول كرسى للدراسات العربية فى جامعة باريس فى القرن الثالث عشر ، وكان كبار المفكرين الأوروبيين مثل روجر بيكون (١٢١٤ — ١٢٩٤) ، والبرتوس ماجنوس (١٢٠٠ — ١٢٨٠) وريموند لول (١٢٣٥ — ١٣١٥) يقرأون فى العربية تراث فلاسفة العربية وعلمائها ، بل ويقرأون فيها ما كان قد ضاع على أوروبا من تراث اليونان . مثل « سر الأسرار » المنسوب الى أرسطو الذى ترجمه روجر بيكون فى جامعة أكسفورد من العربية الى اللغة اللاتينية .

وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تنظر الى هؤلاء المثقفين الأوروبيين الذين يقرأون ابن رشد وابن سينا وابن ناجة وابن ميمون وعشرات وغيرهم من فلاسفة العربية وعلمائها نظرها الى زنادقة يسللون الفكر المسيحى بتلك الأفكار المستوردة ، ولكن الفكر والعلم والثقافة انتصرت آخر الأمر بازدهار عصر النهضة الأوروبية الكبرى منذ الكواتروتشنتو (عام ٤٠٠) فصاعدا) وهى لاتزال معنا إلى اليوم .

أما فى غرب البحر المتوسط فمماذ أن فتح العرب أسبانيا فى ٧١١ ميلادية وأسسوا خلافتهم فى قرطبة

(٧٢٩ — ١٠٣١) ثم مملكتهم في غرناطة في القرن الحادى عشر الميلادى واستتب لهم الأمر في الأندلس حتى بدأ سلطانهم يتقلص درجة درجة فلم يبق لهم الا ملك غرناطة في منتصف القرن الثالث عشر ثم طردوا منها أخيرا باتحاد فرديناند ملك كاستيل (قشتالة) وإيزابيلا ملكة أراجون واستردادها غرناطة نهائيا من أيدي العرب في ١٤٩٢ ، ازدهرت الجامعات ومراكز العلم والأدب والفن حيثما استقرت الدولة العربية وعدت اللغة العربية هى لغة الثقافة والمثقفين .. وفى تقديرى أن طرد العرب من أسبانيا كان استكمالا للحروب الصليبية في غرب البحر المتوسط التى شنها العالم المسيحى على العالم الإسلامى في شرق البحر المتوسط .. وقد فشلت الصليبية في شرق المتوسط لأنها كانت حربا استعمارية عدوانية استهدفت قهر العرب في ديارهم وقهر الإسلام في دياره ، ثم لعدد خطوط مواصلات الصليبيين ، أما الصليبية فقد نحتت في أسبانيا لأنها كانت حربا تحريرية فقد عجز العرب بسبب طول خطوط مواصلاتهم عن تغيير لغة الأسبان أو تعبير دينهم فاكثفوا بأن أسسوا ارستقراطية أجنبية حاكمة لا تربطها بالشعب الأسبانى إلا روابط السيادة ، بل ارستقراطية تستند في سيادتها الى عسكرية معربية ، بالضبط كما فعلت بيزنطة أولا ، ثم الاتراك العثمانيون بعد ذلك في كنانة مصر ، وكما فعل العرب أنفسهم في ايران وما وراءها .

وما أن تقلص سلطان العرب في أسبانيا وأجلوا عنها نهائيا حتى أقامت الكنيسة الكاثوليكية محاكم التفتيش في كل مكان لتطهير أسبانيا من كل رواسب عربية أو اسلامية ، ولكنها كانت في حقيقة الأمر تطهيرا لأسبانيا من الثقافة والمثقفين ، وهكذا تشتت في أرجاء أوروبا ، ولاسيما في دولها الصغيرة مثل منطقة الازراس وسويسرا وهولندا ، آلاف مؤلفة من المثقفين الأسبان واليهود الذين قبلوا الثقافة العربية والفكر العربى والعلوم العربية كجزء لايتجزأ من تراثهم العقلى ، فرارا من مطاردات محاكم التفتيش ..

وحمل هؤلاء المثقفون تراثهم العقلى الى أوروبا المسيحية وتجمعوا في جامعاتها وفى بيئاتها الثقافية ، فعمقوا في أوروبا الكاثوليكية ذلك القلق العلمى والفكرى والدينى والحضارى الذى حاءوا به من الحضارة العربية والإسلامية في أسبانيا ، ففتحوا باب الاجتهاد في كل أمر من أمور الدنيا والدين ، وساهموا في وضع أسس الرينسانس من جهة وفى وضع أسس حركة الإصلاح الدينى من جهة أخرى . ولم يكن مصادفة أن سرفيتوس (١٥١١ — ١٥٥٣) الداعية للتوحيد المطلق في المسيحية وزويجلى (١٤٨٤ — ١٥٣١) وكالف (١٥٠٩ — ١٥٦٤) وهم من أصحخم مؤسسى المذاهب البروتستانية أسسوا مذاهبهم في سويسرا . كذلك لم يكن مصادفة أن التحالف السويسرى وهولندا ، بلاد سبينوزا فيلسوف الوحدانية كانت من أهم مراكز تصدير الهوجونوت والفكر الهوجونوتى . كذلك لم يكن مصادفة أن مقاطعة نافار بفرنسا ، المحاورة لأسبانيا ، كانت أكبر مخزن للفكر الهوجونوتى في فرنسا الكاثوليكية ، وأن استراسبورج في الازراس كانت من أهم مراكز اختار الفكر الثورى « الانسانى » في أوروبا في القرن السادس عشر .

سقوط غرناطة في الطرف الغربى من البحر المتوسط في أيدي الأسبان الكاثوليك عام ١٤٩٢ ، مثل سقوط القسطنطينية في الطرف الشرقى من البحر المتوسط في أيدي الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ قبل ذلك بسنوات قليلة ، قد ملأ أوروبا بالعلماء والمثقفين المهاجرين المحافظين على التراث اليونانى والتراث العربى ،

وكلاهما أعطى دفعة عظمى لحركة الريسانس وحركة الإصلاح الدينى معا . ومن قبلهما صراعات الحروب الهلالية والحروب الصليبية فى الشرق والغرب من حوض البحر الأبيض المتوسط وفى الشمال وفى الجنوب من هذا الحوض العظيم ، حوض الحضارات القديمة ، قد أفضت الى هذا التعارف المتبادل ولى هذا التداخل المتبادل بين الحضارات المتصارعة مما نتج عنه ظهور هذا المركب الجديد الذى يعد أساس الحضارة الحديثة ، ألا وهو فلسفة الهيومانزم (المذهب الانسانى) وما جاوره من حركة الإصلاح الدينى الذى تعد البروتستانتية والكاثوليكية الحديثة أهم ثمرتين من ثمراته .

ولو أننا أمعنا النظر فيما أخذته حركة الإصلاح الدينى فى العالم المسيحى عن الفكر الاسلامى بطريق مباشر أو غير مباشر ، لوجدنا أن الشيع البروتستانتية على اختلافها قد أخذت بدرجات متفاوتة طائفة من المبادئ الأساسية التى كانت بمثابة ثورة على الفكر الكاثوليكي القديم كما عرفته العصور الوسطى . وهذه هى المبادئ التالية :

١ — التوحيد التجريدى المطلق النافى لكل تجسيد أو صفات أو أسماء حسنى ، كأسماء الثالوث عند المسيحيين ، هذا التوحيد التجريدى المطلق نجده عند المصلح الدينى سرفيتوس الذى أحرقتة محاكم التفتيش فى سويسرا . ولكننا نجد درجات منه فى مختلف المذاهب البروتستانتية التى توارى فيها الثلاث (الثلاثة و واحد) بدرجات مختلفة سواء باحراء تغيير فى اللاهوت المسيحى أم دون تغيير .

٢ — ازالة التعارض بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وبين الجسد والروح . ففى كاثوليكية العصور الوسطى تأزمت فلسفة ازدواج بين الروح والجسد بسبب الاعتقاد المسيحى فى الخطيئة الأولى ولاسيما بعد أن خامرت المسيحية الفلسفة الافلاطونية القائمة على أن كل وجود حقيقى وكامل هو الوجود فى عالم المثل والنور الأول وأن كل وجود فى المادة ليس الا ظلالا فى ظلال أو وجودا ظاهريا زائفا بعيدا عن الحقيقة بدرجتين أو بدرجات .

فالحياة الدنيا ، أو العالمانية ، أو الزمنية كما تسمى أحيانا ، أى الحياة فى الزمان (والمكان طبعاً) ذاتها سقوط من الكمال الأول الذى خلق فيه آدم وحواء والأرض منفى الانسان بعد سقوطه عقاباً له على سقوطه ، ومسعى الانسان المؤمن يجب أن يكون نحو تحصيل كما له الأول وهو أمر غير ممكن الا بعد أن يخلع الانسان ثوب الجسد وينتقل الى عالم الخلود .

وبهذا المنطق فالحياة الدنيا ليست الا معبراً الى الآخرة واستعداداً لها ، وهذا الاعداد للحياة الآخرة لا يكون الا بسيطرة الروح الصافية على الجسد الدنس وقمع الشهوات الملازمة لوجود الانسان فى بيت الخطايا .

هذا اللون من الفكر الدينى هو الذى ملأ أوروبا الكاثوليكية فى العصور الوسطى بالأديرة وبالرهبان وبالراهبات وبالزهد فى الدنيا وكل مسعى دنيوى وبالعزوف عن العلم والعمل والمال والمجد والسعادة . وهو الذى صرف العالم المسيحى عن الاشتغال بعلوم الدنيا والتركيز على علوم الآخرة .

وهذا مأخذته المسيحية عن الاسلام أيام حركة الاصلاح الدينى : انه لاتعارض هالك بين الدين والدنيا وبين الروح والجسد ، ان للانسان قيمة فى ذاته لأنه أشرف المخلوقات ، بل أشرف من الملائكة أنفسهم الذين أمرهم الله أن يسجدوا لادم رغم أنه صنع من طين ففعلوا ، الا أنليس فقد عصى واستكبر ، وأن الانسان ينبغى أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا وأن يعمل لأخرته كأنه يموت غدا .

هذا الاحترام للانسان وللعالم المادى وجده الأوروبيون أيضا فى التراث اليونانى الوثنى الذى فجر حركة « الهيومانزم » فى عصر النهضة ، ولكن التوفيق الاسلامى بين الدنيا والآخرة ، وبين محمد الدنيا ومجد الآخرة ، وبين علوم الدنيا وعلوم الآخرة كان من أهم العوامل التى أخصبت الفكر المسيحى الوسيط . فاستحدثت فيه ذلك الاحتجاج العارم على ازدواجية الوجود وفجرت فيه الثورات الروتسناتية فى البلاد التوتونية والكاثوليكية الهيومانية (الانسانية) فى البلاد اللاتينية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومقبلهما بقليل وما بعدهما بقليل . وهكذا انهار صرح الرهبانية فى أوروبا وضممرت الاديرة وحلت محلها المدارس والجامعات وحتى رواج رجال الدين غدا أمرا ممكنا . وما ظهور الشخصية الفاونسية الا التعبير الرمضى عن هذه الثورة التى اجتاحت الفكر الدينى الأوروبى خلال عصر النهضة والاصلاح الدينى .

ولاشك أن فى كل دين من أديان التوحيد عناصر من هذه الفلسفة الازدواجية ومن اضطهاد الجسد واحتقار العالم المادى ، ولكن هذه الفلسفة كانت أشد وضوحا فى المسيحية منها فى الاسلام وربما كانت درجة من هذا الازدواج بين المثل والواقع لازمة لأنها مصدر تكوين الضمير ولكن المهم الا تستفحل . وقد خرج الغرب من التاريخ يوم استفحلت فيهم هذه الازدواجية بين الروح والمادة ودخل الأوروبيون التاريخ يوم تعلموا من العرب كيف يوفقون بين هذا التناقض بين الدين والدنيا ، فخدموا الدنيا بالعلوم والفنون والآداب والصناعات وخدموا الدين بالفلسفة .

٣ — كذلك منذ أخذ العالم المسيحى عن العالم الاسلامى مبدأ الغاء الحواجز بين الله والانسان . ليس للدين سدة وكل انسان قادر على فهم دينه مادام قد فهم الكتاب . لا كهة لهم وضع خاص ولا قديسين أو أولياء لهم قدرات خاصة ومقام خاص بين الله والانسان .

٤ — كانت المسيحية الكاثوليكية ترتكز ، على الأقل منذ القديس توماس الاكويى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) على نظرية الاحتيار ، أى أن الانسان مخير غير مسير ، وذلك لتبير مبدأ الحساب فى الآخرة (الثواب والعقاب) . ولما كانت المسيحية مؤسسة على أننا جميعا بنو آدم وحواء ، مولودون بخطيئة آدم وحواء ، المعروفة بالخطيئة الأولى ، المسلسلة فى دريتهما حيتا بعد جيل ، وهى لعنة تحكم حياة الانسان بالجبر القديم وتعهده بالهلاك الأكيد فى الجحيم فقد افترضت الكنيسة الكاثوليكية أن الايمان بالمسيح يمسح الخطيئة الأولى ويعطى بنى آدم وحواء فرصة للحياة الجديدة القائمة على التمييز بين الخير والشر .

والى هنا والمنطلق الأكويى كان منطقا ارسطاطاليسيا حميلا ، ولكن كان يعنيه شيء واحد وهو ان النظرة المسيحية الكاثوليكية للعالم ، على الأقل منذ القديس أغوسطين ، كانت تحكمها تلك النظرة الاعلامية القائمة على أن كل وجود فى المادة ، (فى الزمان والمكان) قوامه القصر والفساد وأنه محور

ظاهري بعيد عن كمال الحقيقة الأولى ، كمال المثل ، أو كمال الفكر المطلق ، فالوجود في المادة أو الجسد ادن مرادف للخطيئة وقد حاولت الكاثوليكية في العصور الوسطى أن تحل هذا الأشكال تطبيق الحياة الدنيا في الأديرة ومزاولة الحد الأدنى من الحياة انتظارا للموت وهو العبور العظيم من حياة الظلال الى حياة الحقائق الدائمة . وهكذا أصيب العالم المسيحي بالعقم التام نحو ألف سنة من العصور الوسطى . الانسان مختار ، نعم ، ولكنه مختار للعقم لأن كل نشاط دنيوي مخوف بالغواية والسقوط ثم عذاب الجحيم . ويا شمس الاختيار !

ومن الفكر الاسلامي حاء بعض الحل للعالم المسيحي . العالم يحكمه الجبر لا الاختيار ، لأن الله الذي خلق الانسان قدر كل شيء للانسان . فان كان هناك اختيار فهو الاختيار الأصغر داخل الجبر الأكبر . لابد اذن من ارادة العقم في الحياة بممارسة الحياة ، ولو تعرض الانسان للغواية والخطيئة ، وما على الانسان الا أن يطمع في رحمة الله .

وهكذا اقتبس الفكر المسيحي المحتج على الكنيسة الكاثوليكية من الفكر الاسلامي نظرية الجبر ، أى أن الانسان مسير لا مخير ، وتحلى ذلك في بعض الشيع البروتستانتية الرئيسية مثل مذهب لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ومذهب كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) . كان مارتين لوثر يقول إن الخطيئة الأولى كاللحبة ، كلما حلقها الانسان نبتت من جديد . ومعنى هذا أن الخطيئة ملازمة للحياة ولايمسحها حتى الايمان بالمسيح . الميل الى السقوط هو قدر الانسان . وكان كالفن يقول أن النعيم أو الجحيم في الآخرة مقدر علينا نتي قبل أن نولد ، وكل شيء معلق بارادة الله بغض النظر عما نعمله من أعمال صالحة أو أعمال طالحة .

ولست أزعم أن الفكر الاسلامي وحده كان مسفولا عن كل هذه الاجتهادات المسيحية أيام حركة الاصلاح الديني ، كما أنى لا أزعم أن الفكر البروتستانتى كله قد أخذ بنظرية الجبر ، لأن منه شيعا مثل كنيسة انجلترا وجماعة البيوريتان قد تمسكت بنظرية الاختيار ورفضت نظرية الجبر . وقد كان ميلتون يقول أن الانسان بالميلاد « مختار في السقوط » ، وهو غير نظرية « السقوط الملازم للانسان » في اللوثرية وسواها . حتى الفكر الكاثوليكي الجديد راجع نفسه متأثرا بكل هذه الاتجاهات (الجزويت والحانسية الخ ...)

على كل فهذه كانت بعض آثار الفكر الاسلامي في الفكر المسيحي أيام حركة الاصلاح الديني في أوروبا ، وهى حلقة جديدة في تلك السلسلة الجدلية الطويلة التى حكمت صراع الحضارات والثقافات حول البحر الأبيض المتوسط ثم تداخل الحضارات والثقافات وظهور الفلسفات المركبة من جوهر النقيضين في كل مرحلة من مراحل التاريخ .

الفصل الرابع

الحِيثيون الجدد^(١)

ثم كان اسم الترك الثاني، قبل أن تنطوى دولة الحِيثيين : الطرواديين، فقد غدا الحِيثيون قوة بحرية نسبيا تطل على المتوسط من خلال ميناء طرواد: الشهيرة على الدردنيل جنوبى بحر مرمرة مباشرة . أما بقية سواحل تركيا الشرقية المطلة على بحر ايجه من اقليم ليديا [أرمر] حتى اقليم كاريا والاقاليم الجنوبية : اقليم ليسيا وبامفيليا شمال جزيرة [قبرص] فكانت فى يد اليونان وما حرب طروادة الا قصة الصراع بين اليونان والحِيثيين ، غالبا عبر قرنين من حكم مورسيليس الثانى [١٣٣٤ — ١٣٠٦ ق م.] حتى احتراق طروادة عام ١١٩٠ ق م. للسيطرة على تركيا الساحلية ذاتها ، الحِيثيون يريدون الخروج من هضبة الاناضول الى البحر المتوسط ، واليونان ، اقوى دولة بحرية معاصرة لهم ومسيطره بالفعل على شواطئهم ، تريد أن تحصرهم داخل هضبة الأناضول . وقد حسم الأمر لصالح اليونان بسقوط طروادة فى أيديهم .

ثم أصبح اسم الترك الثالث البيزنطيين — بعد ألف سنة من السيادة اليونانية على سواحل المتوسط — بيزنطة التى انشأها الأغريق على البوسفور هى نفسها القسطنطينية . كانت مدينة صغيرة انشأها اليونان فى ٦٥٧ ق م على ضفتهم أى الضفة الأوربية من البوسفور فى مدخل البحر الأسود شمال موقع طروادة على الضفة التركية من الدردنيل ، وهى فى مدخل بحر مرمرة . وقد ظلت مدينة تافهة حتى جعلها الامبراطور قسطنطين عام ٣٢٤ ميلادية عاصمة للملكه [الامبراطورية الرومانية الشرقية] ، وغير اسمها من بيزنطة الى القسطنطينية ، ومع ذلك فقد لازمها اسمها القديم الذى بقى دالا على حضارة الروم حتى سقطت القسطنطينية فى أيدي الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ .

(١) « الأهرام » ١٩٧٧/١٢/٢ .

وقد ورثت بيزنطة المجال الحيوى لليونان والأتراك الحثيين معا ولدا وجب أن نعد حضارتها ثمرة الزواج بين طروادة واليونان أو بين تركيا واليونان . ولم يكن في استطاعة بيزنطة أن تقيم السلام البيزنطى في تلك الامبراطورية المترامية الأطراف الا من خلال « الخلافة » المسيحية الأرثوذكسية أو الامبراطورية المقدسة حيث المسيحية دين ودولة ، بمثل ما فعلت روما بأوروبا الغربية حين أقامت فيها « الخلافة » المسيحية الكاثوليكية المعروفة بالبابوية لتقيم السلام الرومانى في أوروبا الغربية .

ثم أصبح اسم الترك الرابع العثمانيين ، نسبة الى قبيلة تركية نزلت في الأناضول في القرن الثانى عشر حملت اسم زعيمها عثمان الأول المتوفى عام ١٣٢٦ . وقد نجح العثمانيون فيما فشل فيه الطرواديون ، فعبروا الى أوروبا في عهد سلطانهم مراد الأول [١٣٥٩ — ١٣٨٩] باستيلائه على جاليبولى ثم طراشيا بشمال اليونان حيث جعل عاصمته مدينة اندريو بوليس ثم احتل بايزيد الأول [١٣٨٩ — ١٤٠٢] مقدونيا وبلغاريا وتاليا رعم أن تيمور لك هزمه في الشام عام ١٤٠٢ .

وفي ١٤٢٨ استولى مراد الثانى على تسالونيكاهزم البولنديين في فارنا والمجر في كوزوفو عام ١٤٤٨ . وفي ١٤٥٣ استولى محمد الفاتح [الثانى] على القسطنطينية وسماها استانبول وجعلها حاضرة ملكه ، ثم استولى على المورة من الصرب الى البوسنة . وفي ١٥١٧ استولى سليم الأول على مصر بعد استيلائه على الشام .

وفي عهد سليمان القانونى [١٥٢٠ — ١٥٦٦] بلغت الامبراطورية العثمانية ذروتها فقد استولى في أوروبا على نصف المجر وحاصر فيينا بغير نجاح ، كما استولى على بلغاريا ورودس وعلى بغداد وتونس والجزائر لكى يحكم العثمانيون هذه الامبراطورية المترامية الأطراف المكونة من قوميات متعددة . والحديثون الجدد هم الأتراك العثمانيون .

كان اسم الترك الأول الحثيون عندما ظهوروا لأول مرة على مسرح التاريخ في البحر الأبيض المتوسط . قبائل طورانية تتكلم لغة هندية أوروبية احتلت وسط هضبة الأناضول وأسست عاصمتها في خاتوساس شمال شرق انقره بالقرب من البحر الأسود قبيل ١٧٤٠ ق م . وبعد أن سيطرت على تركيا كلها أسست امبراطوريتها على حساب الشام وبابل ولم يوقف زحفها في الشرق القديم الا التحامسة والمناحتة والرعامسة الذين كانوا حريصين على استخلاص الشام من قبضة الحثيين وردهم وراء جبال طوروس وقد انطوت دولة الحثيين نحو ١٢٠٠ ق م . ثم انكمشت في طروادة ، ثم اتسعت في بيزنطة التى حكمت شعوبا اكثراها مسيحي ، ثم سقطت بيزنطة في ايدى العثمانيين وحكم العثمانيون شعوبا اكثراها اسلامى ، ولحأوا الى ما فعلته بيزنطة من قبل في حكم امبراطوريتها المترامية الأطراف المكونة من قوميات متعددة اكثراها مسيحي ، وذلك باقامة الامبراطورية المقدسة أو الدولة الدينية أو الخلافة .

ومن بعد سليمان القانونى بدأ عصر الجمود ثم الانحسار ثم الموت البطىء . في ١٧١٨ فقد العثمانيون باعجارد والانيا ودلماسيا والهرسك في البلقان . وفي ١٨٢٩ استقلت اليونان وفي ١٨٣٢ اسقلت مصر وفي ١٨٥٦ استقلت رومانيا وفي ١٨٧٨ استقلت الصرب وبلغاريا . ولكن « الرجل المريض » لم يمت نهائيا

ورسميا الا في الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ — ١٩١٨] وفي ١٩٢٢ ولدت تركيا من جديد بقيادة أتاتورك ، لا عثمانية ولا بيزنطية ولا طروادية ولا حيثية ، ولكن تركية فقط .

كان الترك هم الترك سواء حكمهم العثمانيون أم حكمهم البيزنطيون أم حكمهم الطرواديون أم حكمهم الحيثيون ، يمثل مانقول أن المصريين كانوا دائما المصريين سواء حكمهم الهكسوس أو الليبيون أو الاشوريون أو الفرس أو اليونان أو الرومان أو البيزنطيون أو العرب أو السلاجقة أو الفاطميون أو المماليك أو الاتراك . قومية واضحة المعالم تتعبر ارستقراطيتها الحاكمة من عصر لعصر ولكن الشعب يبقى دائما متماسل الهوية عنصرا وثقافة رغم هضمه لما يفد عليه من عناصر وثقافات من الخارج . وكانت رقعة الامبراطورية التركية هي بوجه عام رقعة الامبراطورية البيزنطية ، شرق البحر الأبيض المتوسط ، من البلقان شمالا ومن مصر جنوبا ، مع بعض الحواشي هنا وهناك . وكانت عاصمة الترك هي هي سواء سميتها استانبول أو القسطنطينية أو بيزنطة على ملتقى البحر المتوسط بالبحر الأسود بجوار طروادة القديمة .

وكان حكم الأمصار بالدولة الدينية سواء سميتها الخلافة العثمانية أيام أن كانت الامبراطورية بامصارها اسلامية ام سميتها الامبراطورية البيزنطية المقدسة أيام أن كانت الامبراطورية بامصارها مسيحية أرثوذكسية : شعب طوراني يعرف أنه شعب طوراني مهما تزاح سياسيا وثقافيا مع شرق أوروبا المسيحي أيام بيزنطة أو تزاح سياسيا وثقافيا مع العالم العربي الاسلامي أيام آل عثمان . ومنذ ظهور تركيا الفتاة والترك يدركون اهم يخنقون أنفسهم بحبل الامبراطورية وبحبل الدولة الدينية ، وان خلاص تركيا والشعب التركي لا يكون الا بتصفية الامبراطورية وبالفناء الخلافة واقامة الحكم على الأساس القومي بدلا من اقامته على الأساس الديني : لا سيطرة على أوروبا ولا سيطرة على العرب ، وانما اكتفاء بالاناضول ، الأرض التي اختارها ابناء طور [الطورانيون] لانفسهم منذ أقدم العصور ، منذ الحيتين وربما قبل الحيتين ، منذ نحو ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد على أقل تقدير .

في أسطورة الطوفان الايرانية كما وردت في « افستا » زرادشت كان أبناء ياما ، نوح الايراني ، اريك أبو القومية الآرية ، وطور أبو القومية الطورانية ، وسلم أبو القومية السامية . هكذا كان توزيع القوميات كما فهمته ايران القديمة في الألف الثانية قبل الميلاد .

ومادامت تركيا الأوروبية رائدة لا لزوم لها ، فلا داعي لاستانبول أو القسطنطينية أو بيزنطة أو طروادة عاصمة للبلاد لأنها مدخل أوروبا من الشرق . من أجل هذا نقل أتاتورك عاصمة بلاده الى انقرة في داخلية البلاد ، بالقرب من خاتونباس عاصمة الحيثيين . واكتفى بحبال طوروس حدودا لها في الجنوب وبحبال أرمينيا حدودا لها في الشرق وبالأسود حدودا لها في الشمال وبالأبيض حدودا لها في الغرب . وهكذا فعلت تركيا بعد الحرب العالمية الأولى ما فعلته انجلترا الامبراطورية وفرنسا الامبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية . أهي رقصة الموت أم بداية ميلاد حديد ؟ هذا ما سيرويه علينا القرن الحادي والعشرون . منذ ١٨٧٠ كان جلادستون يقول : « الامبراطورية حجر طاحون حول أعناقنا » ، أي حول عنق انجلترا ، وهذا ما كانت تقوله تركيا الفتاة بالنسبة لتركيا ، وهو غير ما كان يقوله السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغانى ورياض باشا

وجامعات تجديد شباب الامبراطورية العثمانية .

المهم أنه سواء أكانت تركيا يونانية (بيزنطة) أو اليونان تركية (العثمانية) . فقلما عرف تاريخ البشرية عقما مثل هذا العقم البيزنطي أو العثماني الذي دام أكثر من ألف وخمسمائة عام في شمال شرق البحر الأبيض المتوسط وما ملكه من أمصار [٣٢٤ — ١٤٥٣ م لبيزنطة و ١٤٥٣ — ١٩١٨ للدولة العثمانية] . لماذا ؟ لأنها في الحالتين كانت دولة أو امبراطورية ثيوقراطية مقدسة تنسف كل ما عداها من قوميات باسم الجامعة الدينية وتحكم بالنطع والسياف باسم الله منبع الحب في هذا الوجود ، لأنها معصومة وعصمتها من أنها تقوم على القوانين الالهية وتحكم بالقوانين الالهية . وفي عالمنا العرني لم نستطع أن نفلت من هذا العقم البيزنطي في العصور الوسطى الا بثوراتنا القومية التي بدأت بثورة سوريا في عهد رنوبيا [الزباء] ملكة تدمر قبيل ٢٧٢ وبثورة مصر في عصر الشهداء عام ٢٩٦ م ثم بالثورة العربية الكبرى منذ الرسالة المحمدية ، تلك الثورة التي لم تتوقف حتى ردت بيزنطة وراء جبال طوروس وجردتها من كل املاكها في جوب البحر المتوسط . أما في العصر الحديث فنحن لم نفلت من هذا العقم العثماني الا منذ ثورة محمد علي الكبير رغم أننا بدأنا في التحرك للاستقلال منذ على بك الكبير .

والسؤال هنا هو : لماذا لم يخرج من هذا الزواج اليوناني التركي أيام بيزنطة أو التركي اليوناني أيام الدولة العثمانية أى مركب جديد يتداخل الاضداد بعد تصارع الاضداد ؟ الجواب : ببساطة هو لأنه كان زواجا قائما على القهر منذ بدايته حتى نهايته ، فهو اغتصاب سافر ليس له شكل ولا مضمون الا القوة الباطشة ، فلم يكن فيه طرف من الأطراف يملك شيئا من الحضارة أو الثقافة يعطيه للطرف الآخر .

فحين قامت بيزنطة كان ذلك النفس الجبار الذي ملأ اليونان القديمة من هوميروس الى الاسكندر الأكبر بالثقافة والفكر والعلم والفن والأدب قد انقطع ، ولم يبق عند دقلديانوس في نيكوميديا ولا عند قسطنطين في القسطنطينية على الشط المقابل من البوسفور ما يعطيه للعالم سوى الجبروت ومعتقدات دينية صنعت في مصر والشام المسيحية ، اتخذت ذريعة لتوحيد شرق البحر الأبيض المتوسط وقتل كل تمييز بين شعوبه وقومياته . وكان هذا أيضا حال استانبول حين حل السلاطين الخلفاء العثمانيون محل أباطرة بيزنطة المقدسة . قبائل طورانية متبربرة من فرسان آسيا دخلت الاسلام دون أن تفهم منه الا هيكله الخارجي ، ولكنها اقتدت ببيزنطة فاتخذت من الدين ذريعة لتوحيد شرق البحر الأبيض المتوسط وقتل كل تمييز بين شعوبه وقومياته . امبراطوريتان بلا عقل زعمت كل منهما أنها تقوم على الحق الالهي وعلى القانون الالهي ، فلم ير العالم منهما الا النهب والسلب وجمود الفكر واقفال باب الاجتهاد في كل وجه من وجوه الحياة .

نفس هذه التجربة في الدولة الشمولية أو الدولة الدينية الجامعة التي جربتها الكنيسة الغربية [الكاثوليكية] منذ انشاء الفاتيكان (كنيسة القديس بطرس في روما) في ٣٢٦ ميلادية ، وأقامت هذه الدولة المقدسة على الحق الالهي وعلى القانون الالهي في كل بلاد أوروبا المسيحية ما خلا البلقان والأناضول اللذين انفردت بهما بيزنطة ومعهما رومانيا وروسيا . امتدت الدولة الثيوقراطية أكثر من ألف عام في أوروبا الأرثوذكسية من انشاء القسطنطينية في ٣٢٤ ميلادية وسقوطها في يد « العثمانيين » في ١٤٥٣ ، وهي

موازية تاريخيا لامتداد الدولة الشيوقراطية أكثر من ألف عام في أوروبا الكاثوليكية بين تأسيس الفاتيكان في ٣٢٦ ميلادية وانشقاق الكنيسة الانجليزية رسميا عن كنيسة روما عام ١٥٣٥ في عهد هنري الثامن ملك انجلترا وكانت أهم سمات هذه الدولة المقدسة في الشرق والغرب مايلي :

١ — الحكم بالحق الالهي وبالقانون الالهي . فالبابا يستمد سلطته من الله بموجب « الخلافة الرسولية » أى أنه خليفة بطرس الرسول كما أن بطرس الرسول خليفة المسيح . والملك يستمد سلطته من الله بتفويض من البابا والدين والدنيا يسيران وفقا للقوانين الالهية الثابتة الواردة في الكتاب المقدس ووفقا لقوانين الكنيسة التي تبلورت فيها السنة المسيحية . وفي هذا العالم لا مجال للكلام عن « حقوق الانسان » ، فالحق حق الله . فان كان للانسان حق في شيء فذلك بفضل ايمانه بالمسيحية . وغير المؤمن بالمسيحية لا حق له في الدنيا أو في الآخرة .

٢ — الأخوة في الدين هي الرابط الوحيد بين أبناء المجتمع ، وليس الأخوة في القومية أو في الوطن ، وفي هذا المجتمع الخالي من القوميات لا وجود « للدولة » بالمعنى المتعارف عليه ، والجبهسية مرادفة للديانة ، أى العقيدة المشتركة ، كما أن « الوطن » و « المواطنة » لا معنى لهما . الفرنسي لا يحس بأنه فرنسي ، والانجليزى لا يحس بأنه انجليزى والالمانى لا يحس بأنه ألمانى الخ .. لأن « الملة » الدينية هي أساس المجتمع .. والجيوش الوطنية لا وجود لها ، انما للملوك حقوق على النبلاء وللنبلاء حقوق على رقيق الأرض ، والحنود المرتزقة يبيعون خبرتهم في القتال والدوق الانجليزى يمكن أن تكون أملاكه ورعيته في فرنسا والعكس صحيح .

٣ — اللغات والثقافات القومية لاوجود لها ، فان وجدت فلا اعتبار لها ، بل هي مصدر خطر يخشى منه تفتيت العالم المسيحي المستظل بالكنيسة الجامعة (الكاثوليكية معناها الجامعة) . انما هناك لغة واحدة هي اللغة اللاتينية المقدسة لربط ما بين كافة أبناء العالم المسيحي لأنها لغة الكنيسة ، كما أن الثقافة ثقافة واحدة هي الثقافة الدينية المكتوبة بهذه اللغة المقدسة .

٤ — لا مكان للعلوم والفنون والآداب أو أى وجه من وجوه النشاط الفكرى الا ماخدم الدين والحياة الروحية خدمة مباشرة . الموسيقى والغناء ، نعم ، ولكن للتسييح الدينى فقط ، العمارة نعم ، لبناء الكاتدرائيات والكنائس والأديرة ، ولا بأس بالقلاع والقصور لأنها مسكن الملوك والنبلاء حماة الدين . [لا للنحت والتصوير الا ماكان زخرفة أو لتزيين دور العبادة] ، ثم ان كل تشكيل مجسم حرام لأنه إحياء للاصنام واللوثنية وتمثيل للوجود الدنيوى . الفلسفة ضلال . التاريخ خارج سير القديسين اهتمام بالدنيا الفانية . كل شعر أو نثر كتب للاغراض الدنيوية حرام ، النحو والبلاغة نعم ، لأن النحو يخدم اللغة والبلاغة تخدم الوعظ . الأدب لا ، لأنه يمجّد جمال الدنيا ويدكى عبادة الجمال . الرياضيات نعم ، لأنها تخدم الموسيقى والعمارة . لا لكافة العلوم والفنون الدنيوية . الطبيعة والكيمياء سحر من عمل الشيطان . كل ما يحتاج اليه من فلك موجود في سفر التكوين . الطب تدخل في الإرادة الالهية .. الخ .

٥ — كل نشاط دنيوى خارج الزراعة والفنون اليدوية بناء للدنيا وليس بناء للآخرة (بعرق جبينك تأكل خبزك) . التجارة لازمة ولكنها غير مسيحية ، لأن خبزها لا يأتي من عرق الجبين ، الربا والتحويل .

بالفائدة (الأعمال المصرفية) حرام ، فكان طبيعيا أن يتولاه اليهود — ان كان لك شيء من متاع الدنيا فأمامك ثلاثة دروب : ابنك الاكبر يرعى املاك الأسرة ، وابنك الأوسط يدخل سلك الكهنوت أو الرهبانية ، وابنك الثالث يدخل سلك الفروسية . فان لم يكن لك شيء من متاع الدنيا فانت من رقيق الأرض وكل يجب أن يقنع بما كتب له فلا يحاول أن يخرج من الفلك المرسوم له . فما الدنيا الا متاع الغرور . باطل الأباطيل وقبض الريح .

هذه بوجه عام كانت صورة المجتمع والحياة في العصور الوسطى المسيحية . وفي أقل من ثلاثة قرون تهاوى كل شيء على عروشه . وكان محور هذا التغيير العظيم انهيار مجتمع الجامعة المسيحية وظهور القوميات الحديثة في العالم المسيحي ، وكان هذا هو أساس عصر النهضة الأوروبية . كان هذا بداية ظهور اللغات والاداب الحديثة ، وبداية ظهور الدولة الحديثة ، وبداية ظهور الفنون والعلوم والفلسفات الحديثة ، وبداية التاريخ والاجتماع والاقتصاد والقانون الحديث . كان هذا بداية ظهور العالم الحديث .

ولكن هذا العالم الحديث ظهر على انقاض روما المقدسة ، ولم يظهر على أنقاض بيزنطة المقدسة . لماذا ؟ لأن بيزنطة (القسطنطينية) سقطت عام ١٤٥٣ في أيدي الاتراك العثمانيين ، الذين أسسوا ملكهم على نفس مبدأ الامبراطورية المقدسة الذي قامت عليه الامبراطورية البيزنطية نحو ألف عام ، فجددوا أجل الدولة الدينية نحو أربعة قرون أخرى ليسترقوا شرق البحر الأبيض المتوسط باسم الجامعة الاسلامية كما استرقته بيزنطة من قبل باسم الجامعة المسيحية وضرب العثمانيون على العالم العربى السور العثماني العظيم ليحولوا دون اتصاله بأوروبا فعزلوه عن العالم المتجدد عزلا تاما نحو ثلاثة قرون ، ولم يستطع العالم العربى الفكك من قبضتهم الا بظهور محمد على الكبير في ١٨٠٤ .

الفصل الخامس

الملحمة الأخيرة^(١)

هذه المدينة الفاضلة ، سواء أكان اسمها « الجمهورية » أو « مدينة الله » أو « مدينة الشمس » أو « الطوبى » أو « أطلنطيد الجديدة » ، ليست الا محاولة لبناء الجنة على الأرض ، لأن فكرتها الأصلية مستمدة من فكرة الانسان عن الجنة ، حيث البشر كلهم متساوون ، وحيث لا خطأ ولا خطيئة ، وحيث لا شر ولا شقاء ولا حرب ولا شقاق ولا مرض ولا موت ، وإنما سلام كامل ونعمة تامة وسعادة أبدية وخلود سرمدي .

هذا الفردوس الأرضي صورته أديان التوحيد منذ أختانتون ومدينته المثلّي « أختانتون » وجعلت أساسه « الايمان » حيث الدين والدنيا شيء واحد ، وحيث الحاكم وهو الملك الحكيم أو الملك الفيلسوف أو الملك النبي أو الملك الامام رجل واحد وحيث شرائع الدنيا وشرائع الدين شيء واحد . هذه الصورة نجدها في « سفر الرؤيا » في الكتاب المقدس ، وفي « الاكلوج السادس » لفرجيل ، وفي كل كلام عن مجيء المهدي أو عودة المسيح الى الأرض قبل يوم القيامة .

هذه الصورة لمدينة الله كما يسميها أوغسطين ، أو المدينة الفاضلة كما يسميها الفلاسفة ، هي ظل الجنة على الأرض حيث يجتمع السلطان الروحي والسلطان الدنيوي في رجل واحد ، هذا الذي سمي في العالم المسيحي بالبابا وفي العالم الاسلامي بالخليفة . ومن هنا يجب أن ننظر الى « جمهورية أفلاطون » ، بعد تجربة أختانتون ، على أنها المنبع الذي نبتت منه فكرة الدولة الشيوعية أو الدولة الدينية لأن اجتماع السلطة الروحية والسلطة الزمنية

[المادية أو الدنيوية] في شخص واحد واندماجهما في نظام واحد الهى تنبع منه كل القوانين ، هو أساس كل مدينة فاضلة . وسواء أعطيت ملك الدنيا « للعقل » كما فعل أفلاطون ، أو أعطيت « للروح » كما تفعل أديان التوحيد ، فالنتيجة واحدة في الحالين ، وهى إقامة الفردوس الأرضى على الاخوة فى العقيدة وعلى طاعة القوانين الالهية . ولعل الماركسية هى آخر دعوة عرفتها البشرية لإقامة حضارة ثيوقراطية الشعب فيها هو الإله والعبد معا .

وقد أفضت كل هذه التجارب الأفلاطونية عبر ألف سنة من العصور الوسطى الأوروبية ، حيث كانت المسيحية دينا ودولة معا ، الى عريضة الدين فى الدنيا باسم إقامة الدولة الدينية أو مدينة الله ، فقتل الدين الآداب والفنون والعلوم الدنيوية كما شل كل فكر ونشاط دنيوى . باختصار قتل الدين الدنيا .

ومع ذلك فلم تتحول الدنيا الى دولة دينية ، وانما الدين الى دولة دنيوية ، وغدا الدين واجهة تحفى وراءها أبشع ألوان الظلم والاسترقاق والاستغلال للجماهير باسم الخضوع للإرادة الالهية ، وتحالفت الكنيسة مع الاقطاع فسارت الحياة على قانونين ، قانون دنيوى يحكم النبلاء وقانون الهى يحكم رقيق الأرض ، أما تلك الطبقات القلقة المتوسطة بين السادة والعبيد ، المشتغلة بالتجارة والحرف والمهن [البورجوازية] فقد اصطالح النبلاء والكنيسة على اضطهادها وكتبها حتى لا تقلق استقرار ذلك المجتمع الزراعى المستقر . وقد بلغت هذه الفجوة بين الدين والدنيا أعماق درجاتها فى زمن البابا اسكندر بورجيا [١٤٣١ — ١٥٠٣] ، وآله سيزار ولوكريس بورجيا ، حين كانت واجهة السلطان دينية بحثا ، ومضمون السلطان دنيويا بحثا ، الى درجة جعلت المفكر الايطالى الشهير ماكيا فيلى [١٤٦٩ — ١٥٢٧] صاحب كتاب « الأمير » ينظر الى سيزار بورجيا [١٤٧٥ — ١٥٠٧] على أنه النموذج الأمثل للأمير فى دولة فلورنسا .

وفى العالم المسيحى بدأ الصراع بين سلطة الملك الدنيوية وسلطة الكنيسة الروحية فى تاريخ باكر فى إنجلترا ، فكانت المواجهة بين الملك هنرى الثانى [١١٣٣ — ١١٨٩] وكبير أساقفته توماس بيكيت [١١١٧ — ١١٧٠] : الملك يريد أن يطبق قوانين الدولة على رجال الكنيسة وكبير الأساقفة يعتقد بأن السلطة الدنيوية لا ولاية لها على السلطة الروحية ، وقد حسم هنرى الثانى هذه المواجهة باغتيال صديق عمره القديس توماس بيكيت فى كاتدرائية كانتربرى . فكانت هذه المواجهة فى حقيقتها مواجهة بين مايسميه جان انوى « شرف الله » و « شرف الانسان » .

وبعد قليل من هذه المواجهة تمت المواجهة الثانية الكبرى فى إنجلترا بين الملك جون ونبلائه الذين تمردوا عليه بغية مشاركته فى السلطة ، وكان منطق الملك جون هو أن الملك الذى يحكم بالحق الالهى بتفويض من البابا قد اجتمعت فيه وله السلطتان الدينية والدنيوية ، فهو الحاكم المطلق فى دولته ورعاياه من أكبر كبير الى أصغر صغير . وقد انتهت هذه المواجهة الكبرى بانتصار النبلاء ورضوح الملك جون أن يوقع « الماجنا كارتا » أو « العهد الأعظم » عام ١٢١٥ الذى قيل فيه أن الملك لا ينفرد بالسلطة ولا يصدر القوانين الا بموافقة مجلس النبلاء ، هذا الذى كان نواة البرلمان الانجليزى ، باعتبار أن النبلاء يمثلون الشعب الانجليزى . فكان هذا الانتصار بمثابة تراجع عن نظرية « حق الملوك الالهى » ، أى أن تفويض السلطة غير آت من

الله ، وانتصارا لما يسمى الحق الطبيعي الذي تفجر فيما بعد ذلك بقرون فيما يسمى « حقوق الانسان » ، وأساسه أن السلطة تمارس بتفويض من الشعب ، وهو الدعامه الأولى للديمقراطية في العالم الحديث .

ومن يتأمل هذه الصراعات الباكرة بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، ويذكر أن ملوك إنجلترا في ذلك الزمان العبد كانوا يتقلدون سلطتهم بتفويض من بابا روما ، رأس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ويذكر أيضا أن نلاء إنجلترا كانوا أقرب تمثيلا في المنشأ والمصالح للرعية الانجلوسكسونية التي كان يحكمها ملوك نورمانديون أجنب منذ الفتح النورماندي لإنجلترا في ١٠٦٦ ، ملوك قاعدتهم العسكرية في فرنسا وقاعدتهم الروحية في روما ، يجد أن ثورة هنري الثاني على القديس توماس بيكيت والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، كانت خطوة لبويرة القومية الانجليزية وسلخ إنجلترا من ولاية روما الروحية والزمنية كما يجد أن ثورة نبلاء إنجلترا على ملكهم النورماندي جون كانت أيضا مزيدا من السير في هذا الاتجاه . ومعنى هذا خطير غاية الخطورة ، وهو أن ظهور الفكرة القومية وظهور الفكرة الديمقراطية كانا متلازمين في تاريخ العالم الحديث .

وهذه الملحمة الأخيرة لم تكن سوى ظهور القوميات الحديثة أو الدول القومية وخروجها من شرنقة الدولة الدينية الجامعة التي كان القديس أوغسطين [٣٥٤ — ٤٣٠ م] يسميها « مدينة الله » ، حيث المواطنة أساسها وحدة الدين أو العفيدة لا وحدة الوطن ، وحيث الحقوق أساسها الحق الالهي لا الحق الطبيعي ، أي حقوق الله لا « حقوق الانسان » .

هذه المدينة الفاضلة كان أفلاطون [٤٢٨ — ٣٤٨ ق م] يسميها « الجمهورية » ، وكان القديس توماس مور [١٤٧٨ — ١٥٣٥] يسميها « الطوبى » [يوتوبيا] . هذه المدينة الفاضلة قد عرفها العرب في « المدينة الفاضلة » للفارابي وفي « حى بن يقظان » لابن طفيل . ومن بعدها صورها الفيلسوف الايطالى كامبانيلا [١٥٦٨ — ١٦٣٩] في كتابه « مدينة الشمس » التي سجن من أجلها سبعا وعشرين سنة ، وكذلك صورها الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون [١٥٦١ — ١٦٢٦] وسمها « الاطلنطيد الجديدة » .

كما كانا متلازمين في تاريخ العالم القديم . كان تنويج الاسكندر الأكبر ابنا لآمون في واحة سيوة بمثابة تصفية للقومية اليونانية وللديمقراطية اليونانية ومثابة أول اعلان لقيام الدولة الشيوقراطية المستندة الى حق الملوك الالهي في أوروبا في العالم القديم ، وهو ما تسلسل فيما بعد في قاعدة الحكم في بيزنطة منذ قسطنطين في دولة الروم ومنذ أوغسطس قيصر في دولة الرومان حتى انتهاء أيام الوثنية .

وكانت المرحلة الثالثة في الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية في إنجلترا ثورة هنري بولنجبروك ، أي هنري الرابع [١٣٦٧ — ١٤١٣] ، على ريتشارد الثاني [١٣٦٧ — ١٤٠٠] « معد الله المقدس » كما كان شكسبير يسميه ، واعدامه اياه عام ١٤٠٠ ، فقد كان أساس الملك عند هنري الرابع [بولنجبروك] هو مانسميه في بلادنا « سيف المعز وذهبه » ، أما اساس الملك عند ريتشارد الثاني

فكان ذلك الضياء الالهى الذى يتلأأ فى وجوه الملوك بموجب حق الملوك الالهى . وقد كان هذا فى الوقت نفسه صراعا بين سلطة القومية الانجليزية وسلطة روما الروحية .

وقد حسم هذا الصراع بالنسبة للقومية الانجليزية بتلك الوثبة الكبرى التى وثبها هنرى الثامن [١٤٩١ - ١٥٤٧] حين فصل « كنيسة إنجلترا » نهائيا عن كنيسة روما الكاثوليكية عام ١٥٣٥ ، وأقام فى إنجلترا كنيسة قومية نصب نفسه رئيسا عليها بقصد أن تخضع له وفيه السلطان الدينى والروحية داخل بلاده . وقد كلفه ذلك أن يعدم فى ١٥٣٥ أكبر مستشاريه « القديس توماس مور » صاحب كتاب « اليوتوبيا » الشهير ، لأنه رفض أن يعترف بسلطته الروحية ، وكان يرى أن ملك الله شئ وملك الانسان شئ آخر . وقد كان الفيلسوف الانجليزى توماس مور ، مثل صديقه الفيلسوف الهولندى أرازموس [١٤٦٩ - ١٥٣٦] ، نموذجاً فريداً لانسان الينساس [عصر النهضة الأوروبية] الذى حاول التوفيق بين الدين والدنيا على أساس ضرورة وحدة العالم المسيحى الروحية ، تحت قيادة بابوية روما ، ولكن فى الوقت نفسه على أساس أن الدين لا يتعارض مع الدنيا وأن علوم الدين لاتعارض مع علوم الدنيا ، وأن الدين لو فهم على حقيقته فهو دعامة مجد الانسان فى الدنيا والآخرة وهذا المعنى يستطيع الانسان أن يبنى « المدينة الفاضلة » أو « الجمهورية » على الأرض بعلوم الدنيا كما يستطيع أن يبنها فى السماء بعلوم الآخرة ، وقد كان هذا موضوع كتابه « اليوتوبيا » [الطولى] أو « المدينة الفاضلة » .

هذا كان موضوع تلك الصراعات والتشنجات الروحية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التى نشبت فى إنجلترا بين الدين والدولة وبين سلطان الدين وسلطان الدنيا قروناً طويلة [نحو خمسة قرون] منذ مقتل القديس توماس بيكيت فى ١١٧٠ حتى حسمت نهائياً فى « الثورة المحيدة » عام ١٦٨٨ بالفصل النهائى بين الدين والدولة فى إنجلترا ووضع حد نهائى لنظرية حق الملوك الالهى وتأسيس نظرية الحكم الديمقراطى على الحق الطبيعى المرادف لما نسميه حقوق الانسان .

وماجرى فى إنجلترا جرى أيضاً فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا . وكل مانسميه اليوم بلاد الحضارة الغربية مع بعض الاختلاف فى الظروف والتواريخ . ففى فرنسا مثلاً تأخرت تصفية حق الملوك الالهى نهائياً والفصل النهائى بين الدين والدولة وإعلان حقوق الانسان قرناً كاملاً عن مسار هذه الصراعات فى إنجلترا ، تأخر حتى ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية الكبرى ، وهكذا ... ولم تكن الملكية وحدها ولا الاستقراطية وحدها ولا الكاثوليكية وحدها المدافعة عن حق الملوك الالهى وإقامة الحكومة الالهية ، أو الشيوقراطية ، على الأرض . فمنذ أن ظهرت الطبقات المتوسطة فى أوروبا [البورجوازية] واستفحل شأنها قرناً بعد قرن بعد الحروب الصليبية حتى انتصارها الاكبر فى ١٦٨٨ [إنجلترا] و ١٧٨٩ [فرنسا] . الخ .. وهى لم تكف عن ابتكار ألوان من الاجتهاد فى الفكر الدينى المسيحى المتبلور فى المذاهب البروتستانتية المختلفة تقوم على نقل الحق الالهى من يد الملوك والنبلاء الى يد الطبقات المتوسطة من تجار وحرفيين ومهنيين ، الخ . وانشاء دولة دينية [ثيوقراطية] تقوم على أن المسيحية دين ودولة ولكن رعاياها وصفوتها معا ليسوا رقيق الأرض المسحوقين والنبلاء أو أمراء الاقطاع الفاسدين وإنما ابناء الطبقات المتوسطة بناء الدنيا بدستور الدين .

وهذا ما حاوله المصلح الدينى الايطالى سافونارولا [١٤٥٣ — ١٤٩٨] فى فلورنسا فاحرقته الكنيسة الكاثوليكية حيا عقابا له على محاولة اقامة ثيوقراطية بورجوازية أكثر ديمقراطية من ثيوقراطية الملوك والنبلاء والبابوات وهذا أيضا ما حاوله القديس لويولا [١٤٩١ — ١٥٥٦] مؤسس شيعة الجزويت داخل الاطار الكاثوليكي حين أسس فى باريس جماعة « أخوان المسيح » . وهو أيضا ما حاوله كالفن [١٥٠٩ — ١٥٦٤] حين أقام جمهورية الثيوقراطية البروتستانتية فى سويسرا ، وحذا حذوه جون نوكس [١٥٠٥ — ١٥٧٢] فى اسكتلندا . وهو أخيرا ما حاوله كرومويل [١٥٩٩ — ١٦٥٨] وجماعة البيوريتان [المتطهرين أو أخوان الطهارة] فى انجلترا حين أعدموا الملك شارل الأول فى ١٦٤٥ وأقاموا جمهوريتهم بين ١٦٤٥ و ١٦٦٠ .. وهكذا . ولثيوقراطية الطبقات المتوسطة تاريخ معروف فى أمريكا ولا سيما فى ولاية نيو انجلاند وبين المورمون وغيرهم من الشيع الدينية . كل هذه التجارب الثيوقراطية اشتعلت ثم احترقت ولم يق للحصارة العربية فى نهاية الأمر الا ثلاثة تواريخ كلها مقترنة بفصل الدين عن الدولة وإعلان حقوق الانسان ، وهى ١٦٨٨ فى انجلترا و ١٧٨٣ فى أمريكا و ١٧٨٩ فى فرنسا ، وكل ما عداها صور مها .

اقرن اذن تأكل نظرية الدولة الدينية الجامعة فى أوروبا الكاثوليكية لإبان العصور الوسطى تدريجيا بظهور القوميات الأوربية الحديثة تدريجيا .. ففى المقدمة ظهرت القومية الانجليزية ، ثم تبلورت القومية الفرنسية درحة درجة حتى اشتعلت احيرا ونهايا فى حركة تحرير فرنسا بقيادة جان دارك [١٤١٢ — ١٤٣١] من يد الانجليز . وقد سبق ذلك بقرن انتقال مقر البابوية الى مدينة افينيون الفرنسية بين ١٣٠٩ — ١٣٧٨ ، وعطت تعدد مراكز البابوية فى العالم المسيحى شبيه سمط تعدد الخلافة أو انتقالها من عاصمة الى أخرى فى العالم الاسلامى ، وهو مظهر من مظاهر الصراعات القومية مهما ارتدى أردية دينية .

ومن يتتبع تاريخ حركات الاستكشاف الجغرافى التى قام بها الأوربيون يجد أنها بدأت بكل معنى حقيقى بعد انتهاء الحروب الصليبية التى دامت نحو قرنين [١٠٩٥ — ١٢٧٠] ، بما يوحى بأن فشل الحروب الصليبية كان السبب المباشر فى اتجاه الأوربيين الى استعمار العالم غير المعروف بعد فشل محاولتهم فى استعمار العالم المعروف . واذا نحن أردنا التوصيف العلمى للحروب الصليبية ينبغى أن ننظر لها على أنها كانت الحل الأوروبى ، بعد نحو ألف سنة من الاستقرار الاقتصادى الزراعى فى ظل النظام الاقطاعى تسنده الوحدة الدينية الشاملة ، لحل مشكلة الانفجار السكانى فيها من جهة ، ولحل مشكلة نمو الطبقات المتوسطة [البورجوازية] فيها ، تلك التى لم تجد متنفسا داخل كل دولة أوربية على حدة ، كانت نذيرا بتكوين القوميات فى أوروبا وبتفتيت وحدة العالم المسيحى وبنزلة النظام الاقطاعى نفسه فالحروب الصليبية اذن كانت محاولة من الاقطاع الأوروبى لتأجيل تكون القوميات الأوروبية واسقاط قلق البورجوازيات الأوروبية خارج أوروبا حتى لا تنزل النظام داخلها .

وهكذا نجد أن أولى مغامرات الاستكشافات الجغرافية جاءت من المدن والثغور التجارية الأوربية ولاسيما فى ايطاليا والبرتغال واسبانيا . وهكذا مجد الرحالة ماركو بولو [١٢٥٤ — ١٣٢٤] يخرج من البندقية حتى مملكة كوبلاى خان فى الصين ومنها يعود بصناعتين من اخطر الصناعات فى بناء الحضارات

وتدميرها ، وهما صناعة الورق وصناعة البارود . وفي ١٤٩٢ نجح كولبوس [١٤٥١ — ١٥٠٦] ، وهو من جنوا ، يكتشف أمريكا لحساب ايزابيلا ملكة أسبانيا ، وفي نفس الوقت نجح أمريجو فسبوتشي [١٤٥٤ — ١٥١٢] ، الذي أعطى اسمه لأمريكا ، وهو من مدينة فلورنسا ، يقوم بعدة رحلات الى أمريكا ويستكشف سواحلها . ونجح بارثولوميو دياز البرتغالي [١٤٥٠ — ١٥٠٠] يقوم بأول رحلة حول سواحل أفريقيا حتى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ . ونجح فاسكو دي جاما البرتغالي [١٤٦٩ — ١٥٢٤] يدور حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ ويبلغ مدغشقر ثم يصل الى الهند . ونجح البوكيرك البرتغالي [١٤٥٣ — ١٥١٥] يستولى على المستعمرات البرتغالية في الهند . ونجح ماجلان البرتغالي [١٤٨٠ — ١٥٢١] يرتاد أمريكا الجنوبية ويكتشف مضيق ماجلان في ١٥٢٠ ، ويقوم بأول رحلة حول العالم ثم يقتل في الفلبين . وفي القرن السادس عشر اكتشف الهولنديون استراليا واستعمروها في ١٦٠٥ ثم طردهم منها الانجليز ونجح الرحالة الفرنسي كارتيه يستكشف كندا في ١٥٣٤ ليستعمرها الفرنسي شامبلان في ١٦٠٨ — ونجح هرناندو كورتيز الأسباني [١٤٨٥ — ١٥٤٧] يكتشف المكسيك في ١٥١٨ ويسيطر عليها في ١٥٢١ . وفي ١٥٠٠ نجح الفاريزكارال البرتغالي يكتشف البرازيل ليستعمرها البرتغاليون في ١٥٤٨ ، كما نجح دياز دي سوليس يكتشف الأرجنتين وأورو جوأي في ١٥١٦ ليستعمرها الايطاليون والاسبان على التوالي في ١٥٣٦ ، وفي نفس العام يستعمر الاسبان شيلي .

وهكذا تسابق الايطاليون والاسبان والبرتغال والفرنسيون ، أهم الشعوب البحرية آنذاك ، لاكتشاف الدنيا الجديدة ولاستعمارها . وبعد أن تم اكتشاف أكثر العالم المجهول دخل الانجليز الميدان بعد أن تبه هنري الثامن لأهمية القوة البحرية فبنى الأسطول الانجليزي . وكان القرن السادس عشر عصر السفن التجارية والقرصنة . وبدأ الصراع في البحار والمحيطات للاستيلاء على العالم الجديد بدلا من العالم القديم واستطاع السير فرانسيس دريك [١٥٤٠ — ١٥٩٦] والسير وولتر رالي [١٥٥٢ — ١٦١٨] والكابتن ثورب باعمال القرصنة في عصر الملكة اليزابيث أن يناجزوا سفن اسبانيا والبرتغال لتصبح انجلترا سيدة البحار ، حتى أن فيليب الثاني ملك اسبانيا جهز اسطوله العظيم « الامادا » ليغزو به انجلترا عام ١٥٨٨ ليضع حدا لقرصنة الانجليز ، ولكن أكثره تحطم تحت العواصف .

ولولا أن « الامادا » تحطمت في ١٥٨٨ لما كان للانجليز وجود في أمريكا الشمالية التي هاجر أول فوج من الانجليز البروتستانت اليها في ١٦٢٠ على ظهر السفينة « مايفلاور » [زهرة مايو] فرارا من الاضطهاد الكاثوليكي في عهد حيمس الأول ، وكان نزولهم في اقليم نيو انجلاند . لو أن اسبانيا انتصرت على انجلترا أيام الملكة اليزابيث لبقيت لها سيادة البحار ولكانت أمريكا الشمالية الآن لاتينية مثل أمريكا الجنوبية .

هذا ما أفضى اليه فشل الحروب الصليبية : تبلور القوميات الأوربية داخل أوروبا نفسها وانتهاء وحدة العالم المسيحي واكتشاف ثلاث قارات كانت مجهولة تماما واستعمارها قبل عودة الكرة لاستعمار العالم القديم في القرن التاسع عشر . وقد كانت مصر أيام المماليك البحرية (١٢٥٠ — ١٣٨٢) والمماليك البرجية

[١٣٨٢ — ١٥١٧] ومعها بقية حبوب البحر الأبيض المتوسط وشرقه على صلة وثيقة مما كان يجرى في الشاطئء الشمالى من البحر المتوسط كما كانت طرفا في تجارة البندقية وجنوا وفلورنسا وغيرهما من مدد المتوسط التجارية التى نبعت فيها كل هذه الانفجارات القومية والحركات الاستكشافية والاستعمارية والهضات العلمية والفنية والأدبية والصناعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وقد كانت مصر وجاراتها في شرق المتوسط وجنوبه خليقة بأن تشارك خطوة بخطوة في هذه الثورة المادية والثقافية العظمى ، ثورة الريسانس ، فتنموا فيها الوردجوازية وتتبلور فيها الفكرة القومية ، بل وتشارك في التوسع الاستعمارى أيضا ، وهى الأقرب لأفريقيا العذراء وآسيا المعتقلة وراء الاسوار ، لولا أن حادثا حللا طراً على منطقتنا من العالم ، وهو ظهور الاتراك العثمانيين في الأناضول ، واستيلاؤهم على القسطنطينية في ١٤٥٣ وعلى البلقان فيما حوفا من سنوات ، ثم استيلاؤهم على الشام ومصر في ١٥١٦ و١٥١٧ على التوالى ثم على العراق في ١٦٥٨ ، وتجديدهم شباب الدولة الدينية الجامعة التى تسحق باسم وحدة الدين كل فكرة قومية وكل نشاط قومى .

وهكذا جددت الامبراطورية العثمانية من استانبول شباب الامبراطورية البيزنطية في القسطنطينية ، أو فلنقل جددت عقمها العظيم ، وأحييت العقم البيزنطى خمسمائة عام أخرى ، فأقامت بيننا وبين الحضارة الأوربية سور الترك العظيم . وهو نفس ما فعلته بالبلقان ، فعطلت نهضتها وهضته قروبا حتى بدأ الجدار يتصدع نحو ١٨٠٠ بظهور محمد على العظيم .

الفصل السادس

مصر تواجه ماضيها^(١)

●● يقبل الناس اليوم كحقيقة لا تقبل المناقشة النظرية القائلة بأن الحملة الفرنسية على مصر قد غيرت أفكار المصريين عن الحضارة الأوربية . وبالمثل ينبغي أن يقبل الناس كحقيقة لا تقبل المناقشة ، النظرية القائلة بأن الحملة الفرنسية على مصر قد غيرت أيضا أفكار الأوربيين عن الحضارة المصرية .

فقبل الحملة الفرنسية ، كان أكثر الأوربيين يستمدون أفكارهم عن مصر من مصدرين : الكتاب المقدس من جهة ، ومن جهة أخرى ، الذكريات البعيدة أو القريبة عن مواجعات الاسلام والمسيحية ، سواء أيام الحرب الصليبية ، أو في الأندلس ، أو في الحروب أو العلاقات السلمية مع الامبراطورية العثمانية . وكانت مصر الفرعونية عند الأوربيين هي مصر الطغيان ، مصر موسى والخروج والضربات العشر ، مصر يوسف والسنوات السبع العجاف .. أما مصر الاسلامية فكانت تذكرهم بالعرب والعثمانيين والحروب الصليبية ضد من كان الأوربيون يسمونهم « بالكفار » ، وهي نفس وصف ابناء العالم الاسلامي لابناء العالم المسيحي .

ومع ذلك فبمولد الاستشراق ، استجد مصدر ثالث ، وهو عالم « ألف ليلة » الخيالي ، بما فيه من الجن ، والحريم ، والنوادر ملهمة الحكمة ، ومغامرات الشطار أو الافاقين . وهذا هو المصدر الذي غذى رواية « الصادق » لفولتير ، ورواية « الرأس ايلاس » لصمويل جونسون ، ورواية « الواثق بالله » لوليم بيكفورد ، وموسوعة « المكتبة الشرقية » لديريلو ، الخ ... غير أن هذا المصدر لم يكن يمثل الا مصدرا للطبقة المثقفة .

(١) « المصور » ١٩٨٣/٩/١٦ و ١٩٨٣/٩/١٦ . القيت بالفرنسية في مؤتمر مرسيليا في صيف ١٩٨٣ .

ومن ناحية أخرى كانت هذه الطبقة المثقفة في أوروبا على وعى ، من خلال كتابات المؤلفين الكلاسيكيين ، بوجود مصر فرعونية ويونانية ورومانية تختلف تمام الاختلاف عن مصر الكتاب المقدس ، وعن مصر صلاح الدين ولويس التاسع ، وعن مصر الجان والخور في الحوادث الشرقية . وهذه كانت مصر الميثولوجيا النبيلة والتاريخ البطولي ، مصر الثالث الأوزيري والآثار الشاخنة ، مصر رمسيس الثاني وانطونيوس وكيلوباترا . هذه هي مصر التي نجدها في « اطلال القدماء » لفولني وفي قصيدة « أوزيماندياس » للشاعر شلي . وهي صورة مصر التي كان ثيمبوليون وعلماء المصريات في القرن التاسع عشر بسبيل إعادة اكتشافها وتوكيدها . وهذه الصورة لمصر الفرعونية قد استمرت في أوروبا حتى الثورة المصرية في ١٩٥٢ حين حلت محلها صورة مصر العربية في عهد عبد الناصر وصورة مصر الاسلامية في عهد السادات .

وجدير بالملاحظة أنه منذ الحملة الفرنسية تطابقت صورة مصر تماما عند المصريين انفسهم مع صورتها عند الأوربيين . ويجب هنا أن نضيف أنه قبل القرن التاسع عشر كان أكثر المصريين ، بوصفهم رعايا الخليفة العثماني يحسون في وقت واحد بأنهم أعضاء مخلصون في أسرة اسلامية ضخمة من جهة ، وبأنهم أمة مضطهدة ترسف تحت نير سادتهم الأتراك والمماليك الشراكسة . وكانوا بالكاد واعين بهويتهم القومية الفرعونية ، فكانوا يميزون أنفسهم من غزاتهم بلغتهم العربية ، هي لغة القرآن ولغة العرب في العصر الذهبي للإسلام قبل مجيء هذه الارستقراطية العسكرية التركية الشركسية . وهو المعنى الذي ظل دائما يدل على انتماء مصر الاستراتيجية والجيوبولطيقى لمجموعة البلاد الناطقة بالعربية وتأسيسا على هذا الانتماء الثقافي فالإسلام والعروبة كان لهما معنى واحد عند المصريين قبل عام ١٨٠٠ . وحين كان يقال في المثل السائر « النبي عربى » ، انما كان التفاخر بالعروبة يرجع إلى أن المصريين كانوا يتكلمون لغة النبي والقرآن ، وبالتالي فقد كانوا يعتقدون أنهم أوفر نبالة من أولئك المتبريرين الأتراك والشراكسة الذين كانوا أبعد منهم عن الإسلام الأصيل بسبب جهلهم بلغة دينهم .

هذه الاخوة في العروبة بين المسلمين « المستعربين » تؤكد لها الملاحم الشعبية العربية التي تصف أمجاد بنى هلال وغيرهم ، وقد كانت هذه الملاحم تبدأ دائما بالبيت الثابت التردد في بداية كل نشيد :

« أول ما نبدى القول نصلى ع النبي نبي عربى سيد ولد عدنان »

وحيث كانت هذه الملاحم والمواويل العربية ، أو العامية بتعبير أدق ، صيغا من الواضح انها معربة عن منظومات وثنية سابقة على الإسلام ، كما في ملاحم عنتره وسيف بن ذى يزن ، فاننا نجد فيها دائما نفس الصلاة على « النبي العربى » في بداية كل نشيد كما نجدها بالمثل منسوجة في صلب الأناشيد . وقد كان المصريون ككافة المسلمين المستعربين يسمون أنفسهم « أولاد العرب » .

ومن جهة أخرى كانت الطبقة الحاكمة التركية الشركسية في عهد محمد على تسمى المصريين « أولاد

العرب « أكثر مما تسميهم بالمصريين . ومراسيم محمد على كانت في كثير من الأحيان تشير الى « أولاد العرب » لتمييز بين المصريين والأجانب ، سواء أكانوا من الأوربيين أو من الترك .. ومع ذلك فليس من الواضح تماما اذا كانت هذه التسمية أصلا مجرد بطاقة تعريف للتمييز بين كافة رعايا الامبراطورية العثمانية الناطقين بالعربية من الرعايا العثمانيين الاترك بالجنس ، أم أنها كانت اصطلاحا دالا على الهوية القومية بالنسبة للمصريين وحدهم . وعلى كل حال فاصطلاح « أولاد العرب » في مراسيم محمد على وتصريحات ابراهيم باشا ليس فيه أى معنى تحقيرى ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان هذا الاصطلاح بوجه عام يعبر عن درجة من التعاطف وفي بعض الأحيان يعبر عن الكبرياء القومى . وقد استمر استخدام اصطلاح « أولاد العرب » حتى نهاية القرن التاسع عشر في كتابات عبد الله نديم وبعض العربيين .



واصطلاح « المصرى » و « المصريون » أصبح الاسم الشائع والرسمى معا للمصريين ابتداء من عهد سعيد باشا والخديو اسماعيل ، أى منذ ١٨٥٤ . ومن المعروف أن اصطلاح « المصرى » كان موجودا من قبل في أعمال الطهطاوى وفي بعض مراسيم محمد على ، بل وفي كتابات المؤلفين العرب الكلاسيكيين . فابن منظور ، صاحب « لسان العرب » يحمل اسم « ابن منظور الأفريقى المصرى » ومثله الشاعر ابن نباته المصرى ... الخ .

ومع ذلك فهناك انطباع بأن هذه التسمية انما كانت تعنى عند القدماء انتهاء جغرافيا أكثر مما تعنى هوية قومية ، مثلما يتحدث الأوربيون عن ارازموس الروتردامى ومارجريت دى فالو .

وهذا لا يمنع بتاتا أن اسم مصر المرادف لاسم « ايجيبت » في اللغات الأوروبية ، كان دائما موجودا في اللغة العربية منذ القرآن ، ولاشك أنه كان يعنى في الجاهلية مصر كوطن .

ونحن لانجد في كلمة « المصرى » اصطلاحا دالا على الهوية القومية الا حين نقرأ خطاب سعيد باشا عن أجماد مصر القديمة وضرورة عمل المصريين على احيائها ، وحين نقرأ خطبة العرش التى ألقاها الخديو اسماعيل قائلا : « أنا بوصفى مصريا » (أرى كذا وكذا) . وعندما تمسك عرابى وزميله عبد العال حلمى وعلى فهمى باضافة لقب « المصرى » الى اسم كل منهم ، فلا شك أن ذلك كان لابرار هويتهم القومية .. لقد كانوا فخورين بتوكيد أصولهم العرقية المصرية وسط البيئة العسكرية المعادية والمسيطرة من الكوادر التركية الشركسية .

فالاسم التقليدى في الأدب الاسلامى والعربى بعامة لما يسمى « ايجيبت » Egypt في اللغات الأوروبية ، هو « مصر » . وهذا الاسم صيغة من الاسم المصرى القديم « براوسير » Per Usir أو « نى أوسير » Pi Usir أو « با اوسير » Pa Usir ومعناه « بيت أوزيريس » (قارن « بوسيريس » Busiris في اليونانية و « أبو صير » في اللهجة المصرية الحديثة و « الأباصيرى » .. الخ) .

ومن جهة أخرى نجد أن الاسم الشائع « للمصريين » في التراث الاسلامى كان « القبط » ، وهى

كلمة محدرة عن المصرية القديمة « هت كابتاح » **Het Ka Ptah** أى « بيت روح الاله بتاح » ، وذلك مباشرة أو عن طريق الصيغة اليونانية اللاتينية « ايجيبتوس » **Aegyptus** . وعندما يتحدث التراث الاسلامى عن مارية القبطية فهذا لايعنى مارية « القبطية » بالمعنى الدينى فى يومنا هذا ، وانما يعنى ببساطة « مارية المصرية » . فالرسالة الشهيرة التى بعث بها النبى الى المقوقس « عظيم القبط » يدعوه فيها الى الاسلام ، لم تكن رسالة الى الرئيس الدينى للمسيحيين الأرثوذكس فى مصر ، وقد كان اسمه البطريك بنيامين وكان مطاردا من بيزنطة ، وانما كانت هذه الرسالة موجهة الى شحصية مصرية سياسية أو مدنية رفيعة المقام يمكن أن يسمح لها وضعها أن تبعث الى النبى هدية فى شخص سيدة جميلة من أسرة كريمة . وربما كان اسم « المقوقس » و « النجاشى » صيغتين من لقب واحد . وقد كان النبى يخاطب رؤساء الدول وليس الرؤساء الدينيين عندما أراد أن يبلغ الفرس والبيزنطيين برسائله الالهية الجديدة .

وعلى الأقل حتى عصر ابن خلدون (١٤٠٠ ميلادية) كانت العرب تعرف المصريين باسم « القبط » ، أما اسم بلدهم فقد ظل دائما « مصر » اذ نجد فى ابن خلدون التعريف التالى : « القبط هم سكان مصر » . وفى عصر ابن خلدون كان أكثر من نصف المصريين قد اعتنقوا الاسلام ، وبالتالي فلا محال نتاتا لفهم هذا التعريف على المعنى الدينى .

والأرجح انه عندما اسلمت مصر بنسبة كافية وأصبح مسيحيوها أقلية بدرجة محسوسة اتخذ اصطلاح « القبط » مدلوله الدينى . ونحن نعرف من المقرئى أن سواد المصريين كانوا يجهلون اللغة العربية تماما وانهم ظلوا يتكلمون باللغة القبطية حتى عصر المأمون . فبعد أن أحمدت ثورة القاهرة فى عصر المأمون ، جاء المأمون بشخصه الى القاهرة ليستقصى أسباب الفتنة وكان يمشى فى الأسواق يتقدمه الترجمة . ومحسب ما رواه الرحالة الأوربيون بقيت فى مصر عدة قرى ظل سكانها يتكلمون اللغة القبطية حتى القرن الثامن عشر .



وباختصار ، فال الهوية المصرية بين الفتح العربى فى ٦٤٠ والحملة الفرنسية فى ١٧٩٨ تأرجحت بين فكرتين : فكرة العروبة وفكرة الاسلام .

أما « القبطية » ، لو جاز أن نستعمل هذا التعبير للدلالة على الهوية القومية ، وهو ماتجده احيانا فى بعض أحاديث النبى حيث يوصى المسلمين بأقباط مصر أيام الفتح الاسلامى ، وما نجده كذلك فى التاريخ الاسلامى ، هذه « القبطية » قد اختفت بانتشار الاسلام فى مصر وغدت مجرد دلالة على هوية الأقلية الدينية فى مصر . وفى زمن النبى كان نعت « القبط » نعتا محايدا ليس فيه مايدل على الرفض . والقرآن يسمى المسيحيين « النصارى » وفى ذلك الزمن كان كل المصريين نصارى وبالتالي فلم يكن لاصطلاح « القبط » أى مفهوم دينى .

وعبر القرون اكتسبت كلمة « القبط » بين المصريين معنى جديدا ينطوى على شىء من عدم الرضا . وقد اتخذ التعبير عن هذا الشعور ، رسميا واجتماعيا ، أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك

والعثمانيين مظهر تحديد وضع أدنى للرعايا الذميين أو أهل الكتاب واستمر الوضع على هذا النحو حتى القرن التاسع عشر ، حيث نجد رفاة الطهطاوى يدافع عن مبدأ المساواة في المواطنة بين كافة سكان مصر من مسلمين وأقباط .

وما من شك في أن اتخاذ القرآن والكتاب المقدس نفس الموقف تجاه مصر الفرعونية كان يمثل اشكالا بالنسبة للمصريين ولاسيما في الزمان الوسيط منذ بداية التوحيد ، فهي فيهما مصر فرعون الطاغية ، وخروج بنى اسرائيل ، مصر يوسف الصديق والسنوات السبع العجاف . والناس تذكر تأله فرعون وسوء سلوك امرأة العزيز أكثر مما تذكر تقوى امرأة فرعون . والتعارض بين المعتقدات الدينية والكرياء القومي الذي يلهمه تاريخ الحقبة المجيدة في عمر مصر ، كان في الماضي يمثل تمزقا في الروح المصرية . ولذا فان القومية « المصرية » المجردة من أى مضمون ديني تقترب دائما بتمجيد مصر الفرعونية . فلكي تنتقل مصر من الوثنية الى التوحيد ، المسيحي منه أو الاسلامي ، كان ينبغي أن تتنكر لتاريخها القومي الفرعوني وان تستوعب في الكيان المسيحي الشامل داخل الامبراطورية البيزنطية ، أو في الكيان الاسلامي الشامل داخل الامبراطورية العربية أو الامبراطورية العثمانية وقد مر الغاليون والكلت والانجلو سكسون والفرنجة وكافة الأقسام الجرمانية والنوردية بنفس التجربة ، تجربة التفكك القومي باعتناق المسيحية .

وفي ادوارد جيبون وغيره وصف لاعمال تدمير الآثار الفرعونية أيام انتشار المسيحية الأولى في مصر باسم تحطيم الأوثان ، تتضاءل بجواره اعمال التدمير أيام الانتشار الأول للإسلام .

ومنذ بناء الدولة الحديثة في مصر على الاساس العلماني ، أى منذ عام ١٨٠٠ استقرت درجة درجة فكرة القومية وفكرة المواطنة على أساس الانتماء القومي والوطني وليس على أساس الانتماء الديني . وبالتالي أمكن للمصري أن يستوعب تاريخه الفرعوني داخل وجدانه القومي الوطني دون أى شعور بالتعارض بين الدين والدولة وهذا لاينفى طبعاً وجود جيوب بين المصريين المعاصرين لاتزال تعاني من هذا التمزق بين العقيدة القومية والعقيدة الدينية ولا ترى حلاً لهذا الأشكال الا بتغيير مفهوم القومية وتأسيسها على العزوة الدينية .

تغيرت صورة مصر تغيراً أساسياً منذ عهد محمد علي ، على أثر الاكتشاف العظيم لمصر القديمة . وكان فك شهبوليون ومعاصروه لرموز الهيروغليفية ، المفتاح الحقيقي لتاريخ مصر القديمة وحضاراتها وثقافتها بعد أن كانت معارفنا عنها قبل ذلك غاية في الغموض ، وهي التي جاءتنا عن المؤلفين اليونان واللاتين في العصر الكلاسيكي . وقد خف علم الآثار القبطية لمعاونة علم الآثار المصرية القديمة ، وأقامت الانثروبولوجيا الطبيعية والانثولوجيا الجسر الذي يصل مصر الفرعونية بمصر الحديثة . ومنذ الحملة الفرنسية ، عقداً بعد عقد ، أخذت تتشكل صورة لمصر المعاصرة قوامها أن بنيتها الأساسية بنية فرعونية . تشكلت هذه الصورة أولاً في الفكر الأوروبي ، ولاسيما في فرنسا ، ثم انتقلت بعد ذلك الى أذهان المصريين . وقد ظلت هذه الصورة قائمة في أذهان الأوروبيين الى يومنا هذا ، ولو أنه قد أصابها تعديل طفيف منذ اكتشاف البترول العربي الذي أعطى دفعة لفكرة العروبة . فالاستقبال الملكي الذي أعدته الحكومة الفرنسية لمومياء رمسيس الثاني في مطار باريس لم يكن الا التعبير الرمزي عن فكرة أن الأموات لايزالون أحياء .

وفى عصر محمد على تأرجحت هوية مصر القومية بين الفرعونية والعربية . أما محمد على نفسه فلا بد أنه كان يقدر أهمية الآثار المصرية القديمة ، على الأقل فى نظر الأوربيين ، عندما أهدى الى لويس فيليب مسلة ميدان الكونكورد كرمز للصدقة ، غير أنه من الضروري دراسة الظروف التى أحاطت بهذه الإشارة لفهم عقلية هذا الامبراطور فهما أدق . (فالقصة التى تروى أن محمد على أوشك أن يبنى القناطر الخيرية من أحجار الأهرام لولا تشفع الملكة فيكتوريا لديه باسم العالم المتمدن قصة ينبغى أيضا التثبت من صحتها . فهل يعقل أن لبنان دى بيلفون كان أيضا سيشترك فى هذا العمل التترى ؟) على كل ، فرفاعة الطهطاوى ، لاشك تحت تأثير علماء الآثار المصرية فى عصره ، يتكلم عن المصريين أنا كأبناء الفراعنة وأنا كأبناء العرب . وفى مؤلفاته يقدم وصفا مفصلا بدرجة كافية للعمائر الفرعونية ويتحدث فى شموخ عن الحضارة المحيدة التى كانت أساس العلوم والعلوم الانسانية .

ولم يبدأ التأكيد القاطع لأصول المصريين الفرعونية ، مع استبعاد كل أصل آخر ، الا من عهد سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) . فالنداء الذى وجهه سعيد الى ضباطه وكبار موظفيه وإلى علماء الدين أثناء المأدبة الملكية التى حضرها الأمراء والنبل ، مهيبا بالمصريين أن يستيقظوا وأن يستردوا استقلالهم وعظمتهم ، هذا النداء يصنف العرب والعباسيين والفاطميين كما يصنف الترك والشراكسة بين غزاة مصر وفاتحيها .. وقد تكرر نفس الأمر بالنسبة لاسماعيل .

وفى ١٨٧٨ عندما كان الأفغانى يخاطب المصريين فى حماسة مناديا أبناء الفراعنة أن يهبوا من نومهم وأن يتذكروا اسلافهم العظام ، انما كان يردد مجرد كليشيه تاريخى وسياسى كان شائعا فى القرن التاسع عشر .

وقد أكدت اللىدى دف جوردون فى خطاباتهما استمرارية تاريخ مصر الروحية رغم انتقالها من تعدد الالهة الوثنى الى التوحيد المسيحى والاسلامى . وقد أسست النظرية القائلة بأن المصريين قد حافظوا على مواقع عبادة الثالوث المصرى القديم سواء فى الدلتا أو فى صعيد مصر بوصفها مواقع أضرحة للقديسين المسيحيين وللأولياء المسلمين . وهى تذكر كمنادج السيد البدوى فى طنطا ومازى جرجس فى ميت دميسيس وغيرهما . والمثل الكلاسيكى الذى كثيرا ما يذكره علماء الآثار هو ضريح سيدى أبو الحجاج فى الأقصر حيث يوجد مسجد اقيم فوق آثار كنيسة كانت هى ذاتها قد بنيت على اطلال معبد فرعونى .

وفى اتجاه مواز أثبتت البحوث الاثنولوجية وجود صلات حميمة بين بعض المعتقدات والعادات والتقاليد فى مصر الفرعونية وفى مصر اليوم : مثال ذلك الطقوس الجنائزية ، وطقوس الولادة والسحر ضد الحسد والعين والمرض ، وطقوس الاختصاب بالنسبة للمصايين بالعقم أو المربوطين ، الخ .. وكذلك قدم علماء الانثروبولوجيا مزيدا من الادلة على هذه الاستمرارية بعد أن جابوا جبالنا مصر القديمة والحديثة طولا وعرضا باحثين عن نماذج الحماجم والأنوف وتكوينات الشعر والعظام . ولم تقف النتائج التى توصلوا اليها عند حد تأييد الاستمرارية السلالية للمصريين عبر آلاف السنين ، لكنها كشفت ايضا عن التجانس العنصرى بين الأقباط والمسلمين وكذلك عن التجانس العنصرى بين جميع سكان مصر فيما خلا الشرقية والجزيرة والبحيرة . وقد تغير هذا الوضع بالنسبة للمناطق الثلاث فى القرن العشرين بسبب كثافة الهجرة بين

أقاليم مصر . وبالمثل أدت اختبارات نسبة مجلط الدم الى نفس النتائج . وقد أدت كل هذه المقاييس الى تأكيد الاختلاف السلالي بين الأغلبية الساحقة من سكان مصر وبين الشعوب والأقوام الملقبة « بالسامية » .

وفي نفس الاتجاه ، أعطى اكتشاف الأدب المصرى القديم ، الدينى منه والدينى على السواء ، أدلة وافرة على وجود آثار حية فرعونية فى أديان التوحيد الثلاثة ، سواء فى الميتافيزيقا والكونيات ، أو فى التركيب الرمزي ، أو فى الضمير الأخلاقى . ففكرة العالم الآخر ، والبعث ، والحساب ، ورمز الثالث البالغ التعقيد وقصص الطوفان وابتادة البشر والأخوين ، وفكرة الخلق بالكلمة ، الخ ... قد أصبحت جزءا جوهريا من التفكير الانسانى عبر القرون ، ومنذ اكتشاف اخناتون وتل العمارنة والمتقفون لايفتأون يكررون مع بريستيد ومعاصريه أن التوحيد ولد فى مصر .

وأكثر الفترات فرعونية فى الفكر المصرى الحديث كانت على الأغلب الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . وقد كانت هذه فترة الثورة الشعبية لتحقيق استقلال مصر القومى ولتأسيس الديمقراطية الليبرالية فيها . وقد استمرت هذه الفترة ثمانى عشرة سنة بين ثورة ١٩١٩ وعقد المعاهدة المصرية الانجليزية فى ١٩٣٦ وتوقيع اتفاقية مونتريه فى ١٩٣٦ . والوثيقة الأولى أثبتت سيادة مصر القومية بعد أن حصل المصريون على هذه السيادة شكليا منذ ١٩٢٢ ، وانتهت « الاحتلال » البريطانى الدائم لمصر من جانب واحد وجعلت الوجود البريطانى فى مصر مؤقتا وشرعيا فقط بموافقة مصر وفقاً لضرورات الدفاع المشترك . أما الوثيقة الثانية فقد انتهت « الامتيازات » الأجنبية التى كانت تعطى للأجانب فى مصر وضعا ممتازا .

ذلك كان عصر المثال مختار والهامه الفرعونى ، ورجل المسرح يوسف وهبى ، مؤسس مسرح رمسيس . وكان لمجلس النواب يهوه الفرعونى . وقد شيد ضريح سعد زغلول على هيئة معبد فرعونى بعد مناقشة حية انحاز فيها كل كبار الكتاب فى مصر الى الطراز الفرعونى وليس الى الطراز العربى . كذلك شيدت فى تلك الفترة محطة الجيزة . وغيرها من المنشآت العامة على غرار العمائر الفرعونية .

والأرجح أن تجسيد فكرة بعث الروح الفرعونية فى مصر الحديثة قد مثلته رواية توفيق الحكيم « عودة الروح » التى كتبت فى ١٩٢٨ ونشرت فى ١٩٣٣ .

فالحكيم قد استخدم أوزيريس بصراحة وقوة ، لا كرمز فحسب ، ولكن كشرط ميلاد مصر الحديد . وقد كان أكثر كتاب مصر الكبار بين ١٩١٩ و ١٩٣٩ ، ولاسيما العقاد وحسين هيكل وطه حسين وسلامة موسى يؤكدون فى مناسبات عديدة هوية مصر الفرعونية ، الا فيما يتصل ببعض وجوه الثقافة . وقد ذهب على عبد الرازق فى كتابه « الاسلام وأصول الحكم » الى حد تصنيف العرب ضمن الغزاة .

وليس من قبيل المصادفة أن نشر دعوة الوحدة الكبرى كان فى المنشأ من عمل كتاب غير مصريين . فنشر دعوة الجامعة الاسلامية كان من عمل الأفغانى بينما كان نشر دعوة القومية العربية من عمل الكواكبي ورشيد رضا وساطع الحصرى وميشيل عفلق ، وكلهم كتاب سوريون . وكانت عائلة الرافعى السورية

الأصل موزعة بين المثل الأعلى الاسلامي والمثل الأعلى العربي . ومع ذلك فبين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ كان هناك بعض اتباع لهذا المبدأ أو ذلك من بين المصريين ولكن التيار الرئيسي في مصر كان تيار القومية المصرية القائمة على بنية أساسية فرعونية العنصر والآصرة وبنية فوقية اسلامية الثقافة عربية التراث .

وقد جاء رد الفعل في مصر من طه حسين وتوفيق الحكيم . فطه حسين أبرز ، استنادا الى التاريخ والجغرافيا ، هوية مصر المصرية وطابع البحر المتوسط في ثقافتها رغم كل روابطها بالثقافة العربية . أما الحكيم ، الذي كان ينزع الى التصوف ، فقد وجد مواطن شبه حميمة بين المصريين والهنود ، وتحدث عن الروابط الشرقية ، مبرزا البعد الميتافيزيقي في الحضارات « الشرقية » الاستاتيكية ، وفي الوجه المقابل حط من شأن الطابع المادى الذى تميزت به أقوام البدو الرحل من العرب .

وقد بدأت ثورة ١٩٥٢ بتفوقية عبد الناصر السياسية التى عبر عنها في « فلسفة الثورة » (١٩٥٤) . وكانت مصر عند عبد الناصر في تقاطع ثلاث دوائر : الدائرة العربية والدائرة الاسلامية والدائرة الأفريقية . هذه الهوية الثلاثية عقدت رؤية عبد الناصر السياسية ، وبعد أن فقد السودان في ١٩٥٦ استبعد الدائرة الأفريقية مؤقتا . وبعد خلافه مع حلف بغداد استبعد كذلك الدائرة الاسلامية . وهكذا لم يبق له الا الدائرة العربية . وتحققت أيديولوجيا القومية العربية فمنها ولدت « الجمهورية العربية المتحدة » بين ١٩٥٨ و ١٩٦١ ، حين كانت القاهرة هى قلب « الأمة العربية » . وقد عوضت باندونج وصلات عبد الناصر بنهرو وتيتو عبد الناصر عن ضياع الدائرة الأفريقية ، فحلت دائرة عدم الانحياز محل الدائرة الأفريقية ، بل وبقيت لعبد الناصر حتى بعد ضياع حلمه بالوحدة العربية . ولكننا هنا ، بقيام كتلة عدم الانحياز ، نكون قد انتقلنا من البحث عن الهوية القومية الى البحث عن تحرير الشعوب .

ومن المهم أن نلاحظ أنه بينما كانت مصر الناصرية أيام « شهر العسل » العربى تعلن فى اصرار مؤكدة هويتها العربية كمهر لوحدها مع سوريا ولتفاهمها مع العراق أيام الاخوين عارف ، كانت مصر متهمه بالفرعونية على لسان سوريا وغيرها من الساخطين العرب بعد فض الوحدة ، لا مجازا ولكن بالمعنى الحرفى ، لافرعونية الأجداد ولكن الفرعونية التى شجها الكتاب المقدس والقرآن ، الفرعونية المرادفة للطغيان والظلم وانعدام التقوى .

وفى عهد السادات أصبحت الهوية الاسلامية هى الهوية الغالبة . ودون أن يقطع السادات روابطه بالعروبة حلت « جمهورية مصر العربية » فى عهد السادات محل « الجمهورية العربية المتحدة » التى أسسها عبد الناصر . ولم يكن السادات يمل أبدا فى خطبه من تكرار أن مصر هى أم المدنية وأن تاريخها يمتد الى سبعة آلاف سنة ، مدججا دون أن يتنبه عصر ما قبل التاريخ المصرى فى تاريخ مصر . وكان يحمل عصا مارشالية تمثل صولجانا فرعونيا على هيئة زهرة اللوتس .

وبالتالى ، فبالرغم من كل نداءات الرئيس السادات بالقومية المصرية ، فهو دون أن يتنبه قد أضعف الروح « القومية » العربية أو المصرية على السواء . وذلك عندما شجع نظامه على انشاء الجماعات السلفية

والدينية لمقاومة اليسار ولكن هذه الجماعات كانت ترى في شمولية الدين المسيحي بديلا عن تخليها عن الهوية القومية .

ومنذ اغتيال الرئيس السادات وتولى الرئيس مبارك الحكم انحسرت الموجة السلفية والثيوقراطية لأسباب عديدة ومنذ نوفمبر ١٩٨١ هنالك هدوء واضح وعودة تدريجية في الحياة المصرية الى الاعتدال والعلمانية . والدين المسيحي قد تراجع بدرجة ملحوظة ، مما يدل ضمنا على أن الدين كان دائما موضع احترام في مصر وأنه يمارس فيها بتفان ولكن بوصفه عقيدة لا بوصفه مرادفا « للهوية القومية » كما كان الثيوقراطيون يتمنون للأمر أن يكون . وفي هذا الصدد ، فإن الرئيس السادات كان قد حاول تحقيق المستحيل : الا وهو التوفيق بين الحق الطبيعي والحق الالهي ، فكانت النتيجة هي الاضطراب الايديولوجي والسياسي والقانوني الذي أدى الى النهاية المأسوية . أما مبارك فقد افتتح عهده بشعار « مصر لكل المصريين » .

وأصالة مصر الفرعونية ، شرط لازم لتصوير مصر المستقلة . فهي القاعدة الاساسية في فكرة الدولة القومية وفي فكرة الدولة العلمانية في مصر الحديثة غير أن النظرية القائلة بأن الهوية المصرية فرعونية خالصة هي اسراف في التبسيط ولم يقل بها أحد الا أعداء « القومية المصرية » ، ليسخروا من هذا المبدأ بالمبالغة الكاريكاتورية . فالواضح من تاريخ مصر بعد العصر الفرعوني أن الحضارة المصرية مكونة من جملة طبقات : اليونانية والرومانية ، والبيزنطية ، والعربية ، والمملوكية ، والتركية ، والأوربية الحديثة . وهذه الطبقات ليست بالضرورة متراكمة تراثا فيها طبقة فوق طبقة وترتاح كلها على البنية التحتية الفرعونية ، ولكن قد تكونت منها سبيكة أو مزيج من عناصر مختلفة أهمها هو ماضي مصر الفرعوني .

وفي بعض الأحيان نجد في الشخصية المصرية مظاهر انعدام في الانسجام ومتناقضات وبقايا ندوب ، ولكن هذا في الأغلب راجع الى سوء هضم هذه العناصر وسوء تمثيلها في الهوية المصرية .

وفي زمننا نجد أن المستشرقين والساسة وشركات السياحة قد ساهموا ، غالبا بسبب التشوه المهني ، في خلق رؤية مضطربة لهوية مصر الحقيقية ، بالاسراف في ابراز أهمية العصور الوسطى . فادارة أوبروي لفندق مينا هاوس قد لفقت عند سفح الأهرام طرازاً معمارياً مغولياً وزخارف من الارايسك من طراز خان الخليلي ، وادارة ماريوت لسراي لطف الله (فندق عمر الخيام سابقا) ، قد أقامت تجاورا ملفقا بين الديكور الشبيه « بمشربية » جسيمة لاتنتهي . والتماثيل الرخامية المنحوتة على غرار تماثيل حديقة لكسمبورج بباريس وعمارة القصر المشيد على طراز الامبراطورية الثانية ، وهو تلفيق خليق بأن يقض مضجع خوفاً وهو يحلم بحياته الأبدية ، وخليق بأن يخذش ذوق الخديو اسماعيل في حرصه على إرضاء الامبراطورة أوجيني ومحاولة اقناعها بأن بلاده قد أصبحت قطعة من أوروبا .

لقد كان من السهل على الانثروبولوجيا الطبيعية أن تثبت التجانس السلالي والاستمرارية السلافية للكثرة الساحقة من المصريين منذ أقدم العصور . أما الروح المصرية فهي بحاجة الى دراسات متواصلة في كافة العلوم الانسانية لتحليل التكوين الحقيقي لهذه الروح البالغة التعقيد ، التي تخفى ، خلف قناع « الكونفورمية » أو روح التطابق مع الجماعة ، ازدواجية مذهلة حيث يتجاوز القلق وسلام النفس

والعدمية وعبادة المطلق ، والتمرد والخضوع والبراجماتية العلمية والمثالية التى توشك أن تكون انفصالا عن الواقع . وحيث يوجد هذا التمزق ، أو على الأصح هذا الفصام ، يمكننا تفسيره بوجود ثقافات لم يتمثلها المصريون تمثيلا صحيحا عبر تاريخهم الطويل .

وحين توفق مصر الى حل متناقضاتها الوجودية هذه وتكتشف أين تكمن حقا هويتها الحقيقية ؟ سوف يتحقق لها — بغير شك — بعثها الموعود فى كتاب الاحياء وليس فى كتاب الموتى .

الفصل السابع

قصة العلمانية في مصر^(١)

منذ انتصار الحزبية التي لاشك أن أكثرنا يرجو أن يكون انتصارا مؤقتا ، غدا السؤال الملح الذي يطرح نفسه هو السؤال الآتي : ترى ما هو مستقبل الدولة الحديثة في الشرق الأوسط ؟ وبهذا السؤال يقترن سؤال آخر أكثر جوهرية لأنه بمثابة الأساس الذي تركز عليه الدولة الحديثة ، ألا وهو : مامستقبل الهيومانزم ، أى الفلسفة الانسانية ، في هذه المنطقة ؟

« الفلسفة الانسانية » هى فلسفة الحياة التي تعترف « بالانسان » بوصفه قيمة جوهرية في ذاته ، اما لأن الله خلقه على صورته واما لأنه أرقى ما في الخليقة من كائنات . وهذا يستتبع ان يكون للانسان حق طبيعي في المعرفة والسلطة والحرية والسعادة في حياته الزمنية أى الدنيوية . وبذلك تكون « الفلسفة الانسانية » هى عكس فلسفة الموت التي تنفى قيمة الوجود الزمني أو الدنيوي تأسيسا على فنائه أو فساد أو زيفه ، بدعوى انه لا فضيلة هناك ولا دوام ولا حقيقة الا لحياة الروح قبل الموت وبعده ، هنا وفي العالم الآخر .

والأمير هاملت (في الفصل الثاني ، المشهد الثاني ، من مأساة « هاملت » يطرح على جليد نسترن الموقف الانساني الذي لا يخرج عن كونه الموقف الفاوستي :

« يا للانسان من تحفة رائعة ! ما انبل عقله ! ما أرحب ملكاته ! ما أبدع صورته وحركته وما أقدرهما على التعبير ! ما أشبهه بالملاك في عمل الخير وبالإله في سعة الادراك ! هو بهاء العالم ! هو أرق الحيوانات ! » .

وفي الوقت نفسه يطرح هاملت ، على وجه المقابلة ، وجهة النظر التشاؤمية المعادية للفلسفة الانسانية بالتفاهة الأصلية والفساد الأصيل الملازمين للانسان وللطبيعة ، في قوله :

(١) « المصور » في ٣٠ سبتمبر ٨٣ ، ٢٣ سبتمبر ٨٣ ، ٧ أكتوبر ١٩٨٣ .

« ومع ذلك فماذا يعينني من الانسان » هذا الذى جوهره من تراب ؟ لا لست أجدر في الرجال مايسرنى ، لا ولا في النساء كذلك ..

« ... بل انه ليثقل فؤادى ، أن الأرض ، هذه الهيئة البهية ، تبدو لي صخرة عقيمة جرداء ، وأن هذه الخيمة البديعة من الهواء ، أجل هذه القبة العظيمة ، قبة الجوزاء المعلقة فوق رعوسنا ، هذا السقف الشاخ المطعم بالنيران الذهبية ، لا يبدو لي الا كاكنداس من الابخرة الموبوءة جالبة الطواعين » .

والقلق المرضى الذى نجده في نفس هاملت ، انما مصدره انه مدرك لصحة الموقفين المتناقضين جميعا . وبوجه عام ، يمكن أن نقول أن كل الأديان والفلسفات التى تنظر للموت على أنه باب الحياة هي أديان وفلسفات انتحارية . ومع ذلك فليس من اللازم أن يخامرها القلق . فهي في حالات معينة تقترب بالاستسلام الهادئ لارادة الموت والرضا في صفاء بتدمير الجسد . وبالمثل ، فان الشعور بلا جدوى المسعى الانسانى ، أو « الصخرة العقيمة الجرداء » ، كما يسمى هاملت الأرض ، لا يبعث بالضرورة من فلسفة ما أو من ارادة الموت ، بل من مجرد نزعة بليدة تؤثر أن يكون المرء كلبا حيا على أن يكون أسدا ميتا . وهذه هي العلامة المميزة لكل فترات التاريخ الانسانى غير الخلاقة ، دون نظر للدين أو للون أو الجنس أو النوع (أى الذكر والأنثى) .

ومن يميلون في الشرق أو في الغرب الى ابراز الفوارق بين ابناء الجنس البشرى أكثر مما يميلون الى ابراز وجوه الشبه ، قد اعتادوا على رؤية خصائص « جوهرية » يختص بها العرب أو الأوروبيون ، الساميون أو الآريون ، الصينيون أو الهنود أو أبناء الهند الصينية ، الخ وكذلك قد اعتادوا على رؤية فوارق « جوهرية » بين المسيحية والاسلام واليهودية ، الخ والخصائص والفوارق موجودة بطبيعة الحال ، ولكن تاريخ البشرية قد أظهر بالأدلة الوافرة أن الناس وعقائدهم وافعالهم وردود أفعالهم متشابهون أساسا ، على الأقل فيما يتصل بالكليات .

ومن المفارقات ان نجد أن كل دين وكل ثقافة وكل حضارة تشتمل على الفلسفتين جميعا ، فلسفة الانسانية والفلسفة المعادية للانسان . فما يشكل الفرق بين دورة تاريخية ودورة تاريخية أخرى ، هو مايفعله الناس بأفكارهم ، سواء على المستوى النظرى أو في التطبيق . والظروف الاجتماعية الاقتصادية ، وكذلك أحداث الكوارث ، لها دخل كبير فيما يطرأ على الناس من تقلبات . والعالم المسيحى والعالم الاسلامى قد تجلت فيهما عبر العصور نفس الظواهر الفكرية والروحية والمادية على وجه التقريب ، وان يكن ذلك قد تم بالتبادل لا بالتزامن . ونقيض الهيومانية أو الفلسفة الانسانية هو الفلسفة الشيوقراطية لأن الفلسفة الهيومانية تعنى حكم الانسان على الأرض . بينما الفلسفة الشيوقراطية تعنى حكم الله على الأرض والمسيحية والاسلام معا قد عرفا دوراتهما الشيوقراطية والهيومانية .

ومع هذا فالاسلام ، على خلاف المسيحية ، دين يقوم في أساسه على الفلسفة الانسانية ، باعتبار أن الله في الاسلام قال أن الانسان هو سيد المخلوقات وجعل له مكانة ممتازة في الكون أعلى من مكانة الملائكة

نفسها . والاسلام في جوهره لا يعرف حكم الكهنوت وليس فيه وسطاء بين الانسان والله . وقد اتخذت المسيحية هذا الموقف من الانسان منذ عصر النهضة الأوربية وحركات الاصلاح الديني ومع ذلك فالملاحظ أنه في جميع الأديان وفي كافة الشعوب يزداد اعتداد الطبقات الجاهلة على الكهنوت . وكلما تفشى الجهل بين الشعوب ازداد الاعتداد على الكهنوت أو الحفظة الوسطاء أيا كانوا وازداد فهم الأديان فهما حرفيا .

وقد أظهرت تجربة العالم المسيحي أنه من الممكن اقامة ثيوقراطية في ظل البروتستانتية من خلال التاجر أو الحرفي أو المهني كما أمكنت اقامتها في ظل الكاثوليكية من خلال القسيس . والثيوقراطية البروتستانتية هي ثيوقراطية الشعب وبالشعب وللشعب ، وفيها يحل التاجر أو الحرفي أو المهني محل القسيس كمصدر لتعليم الدين وتفسيره وتطبيق تعاليمه في المجتمع .

وقد خرجت مصر من عصرها الثيوقراطي الوسيط بالصدمة الثقافية التي جاءت نتيجة لدخولها لأول مرة في علاقات مباشرة مع الغرب في أعقاب الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ولقيامها بأول تجربة في بناء الدولة الحديثة في عهد محمد علي (١٨٠٥ — ١٨٤٠) . وهناك حكاية ذات مغزى تروى عن محمد علي أنه أمر مترجميه أن يترجموا الى التركية كتاب « الأمير » لمكافيلي خلال شهر من الزمن ، فلما سمع بعضهم يطالب بمهلة أطول ، فتع الكتاب على مكتبه وفصله الى قسمين بضربة واحدة من سيفه وهو يكرر : « قلت شهرا واحدا » . فلما جاءوه بالترجمة بعد اتمامها كان تعليقه : « أنا لم أجد في هذا الكتاب شيئا لم أكن أعرفه من قبل » . ويلاحظ أن حجر الزاوية في كتاب « الأمير » لمكافيلي هو فصل السياسة عن الميتافيزيقا واقامة الدولة الحديثة على الحكم الديني .

ومع بونايرت ومحمد علي حلت نظرية « الحق الطبيعي » محل نظرية « الحق الالهي » ، وحلت القوانين التي وضعها الانسان محل القوانين الالهية ، الا فيما يتصل بقوانين الاحوال الشخصية (الزواج والطلاق والميراث) التي رغب المصريون بكافة طوائفهم ان تبقى كما حددها الشرع الديني . وقد امتد الأخذ بالقوانين الوضعية الى ميدان التنظيم السياسي والاجتماعي باستحداث الدساتير والمجالس النيابية ، ثم فيما بعد الحكم النيابي وما شابهه من مؤسسات ديمقراطية . وقد بلغت علمنة القوانين المصرية مداه الكمال عندما أدخل الخديو اسماعيل « قانون نابليون » في الستينيات من القرن التاسع عشر بوصفه النظام القضائي الرسمي في مصر وانشأ لجنة برئاسة رفاعة الطهطاوي ليترجم قانون نابليون الى اللغة العربية . وباستثناء فترة وجيزة من الردة الى العصور الوسطى أيام عباس الأول بين ١٨٤٩ و ١٨٥٤ ، يمكن القول بأن علمنة مصر مضت مضيا مضطردا حتى موت الرئيس عبد الناصر . غير انه بتولى الرئيس السادات الحكم بدأت في مصر من جديد لجان تحت رعاية الحكومة ولجان برلمانية كان عملها هو مراجعة القوانين المصرية لتطهيرها من كل تأثيرات أجنبية ولجعلها مطابقة لأحكام الشريعة الاسلامية .

و « العلمانية » هي الاسم الديني للهيومانية أو « الفلسفة الانسانية » في أوروبا . وقد احتاجت الحضارة الغربية الى ستة قرون على الأقل لكي تسود فيها العلمانية . وقد تميز انتصار العلمانية بفصل الدين عن الدولة ، وبظهور الدولة القومية ، وبفصل السلطات داخل الدولة القومية ، وباحلال القانون الوضعي

وبانحسار الحكم بالحق الالهي وانتشار الحكم بالحق الطبيعي وهو ماميز التقدم من الشيوقراطية الى الديمقراطية ، وبمناهضة الكهنوت وبهجران الرهبان للأديرة ، وبالتحول من حياة التأمل الى حياة العمل ، وبذبول العلوم اللاهوتية وازدهار العلوم الوضعية والعلوم الدقيقة والفنون والآداب الدنيوية ، وبمولد أجهزة الاعلام الجماهيرية والثقافة الجماهيرية باختراع المطبعة في ١٤٤٠ والانتشار التدريجي للتعليم المدنى أو العلمانى وما عقبه من الانتاج الضخم والاستهلاك الضخم للسلع المادية نتيجة للثورة الصناعية ، وبتحرير الرجل ثم بتحرير العبيد ثم بتحرير المرأة ، وبتقدم حقوق الانسان نظريا وفى التطبيق ، كحق الانسان فى اختيار سيده ، وهو مايعرف بالحكم النيابى ، وحق الانسان فى صناعة أغلاله أى قوانينه ، وحق المساواة أمام القانون وتكافؤ الفرص ، وحق حرية العبادة والحق فى الحرية الشخصية والحرية المدنية والأمن وكرامة الانسان وهكذا دواليك .

ولم يكن الانتقال من الدولة الشيوقراطية الى الدولة العلمانية فى العالم الغربى دائما انتقالا سلميا ، بل على العكس من ذلك فقد كانت هناك ستة قرون من الحروب والثورات الدموية ومن المذابح الفردية والجماعية ، ومن الاضطهاد والاستشهاد .

كذلك من المبالغة أن نقول ان انتصار العلمانية فى العالم الغربى انتصار حاسم وكامل . فمن وقت لآخر نجد حركات بعث ثيوقراطى مضادة للعقل كحركة جماعة جيم جونز ، أو نجد دعوات للحياة السلفى كتلك الضغوط المتكررة على نظام التعليم الأمريكى لفرض نظرية الخلق الواردة فى الكتاب المقدس بدلا من نظرية التطور عند داروين وما شابهها من نظريات فلكية وجيولوجية تحدد عمر العالم المادى .

وحتى على مستوى الدولة القومية فالخط مباشر من جان دارك (١٤١٢ — ١٤٣١) الى بوبى ساندز وضحايا المرأة الحديدية ، بغض النظر عن موضوع من المخطيء ومن المصيب .

أما من ناحية المعتقدات فالخط مباشر أيضا بين توركويمادا (١٤٢٤ — ١٤٩٨) ، سفاح محاكم التفتيش ، وفشينسكى الذى أجرى التفتيش العقائدى فى محاكمات موسكو بين ١٩٣٦ و ١٩٣٨ فى أكثر البلاد ايمانا بالعلمانية بين البلاد المؤمنة بالمادية الجدلية وليست هناك فوارق الا فى التكنيك .

وقد عرف الشرق الأدنى ، ولاسيما مصر خلال القرنين الماضيين ، أى منذ الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) وعصر محمد على (١٨٠٥ — ١٨٤٠) ، نفس التطور السلمى أو المتسم بالتشنج من شمولية الدولة الشيوقراطية الى فردية أو انقسامية الدولة القومية . وربما كان من الجائز أيضا أن الامبراطورية الصغيرة الوجيزة العمر التى أسسها على بك الكبير قبل ذلك بخمسين عاما كانت تمثل تجربة سابقة مجهضة فى القومية المصرية . وعلى ذلك تكون هناك فجوة من نحو أربعة قرون تقريبا بين ظهور أوروبا الحديثة وظهور مصر الحديثة ، وهذه الفجوة الزمنية تمثل الفجوة الثقافية والحضارية بينهما .

وليس من الموضوعية ان نعزو الفرق فى مستويات التطور الى أى فرق جوهرى سواء فى السلالة أو الدين أو فى الثقافة القومية ، كما يذهب بعض المفكرين العنصرين أو المتعصبين فى تفسير الفرق الظاهر بين

الشرق والغرب . ولاشك أن العقائد الأساسية والتقاليد الثقافية لها أثر فيما يصيب الأمم المختلفة من تقدم أو انحلال . غير أن تاريخ الفكر يبين لنا بالشواهد الوفيرة أن المعتقدات الأساسية والتقاليد الثقافية تتبع خطوطا متشابهة في التطور في الشعوب المختلفة كلما خضعت لنفس التغيرات الاقتصادية أو المادية . ويكاد يستوى أن يكون العامل المفاعل في التغير أتيا من الخارج أو من الداخل .

وقد وضعت تجربة بطرس الأكبر في روسيا ومحمد علي في مصر أسس الدولة الحديثة في كل من البلدين على التوالي . وفي مصر مهدت الضربات القاضية التي كالمها بونابرت أولا ثم محمد علي ثانيا لنظام الالتزام الاقطاعي التركي المملوكي للعلاقات التي قام عليها هذا النظام ، مهدت الأرض لظهور الدولة الحديثة ولانسلاخها من الشمولية الروحية والسياسية التي بنيت عليها الامبراطورية العثمانية . وقد أدى ظهور الاقتصاد الصناعي الى ظهور الطبقات البورجوازية الجديدة والى ظهور علاقات طبقية جديدة والى ظهور فلسفات ومواقف طبقية جديدة .

وقد تبع انهيار المجتمع التقليدي الوسيط في مصر على وجه التقريب نفس المسارات التي اتخذها انهيار المجتمع التقليدي الوسيط في أوروبا . وفي مصر كان السلك العسكري والسلك الاداري امتيازات وفقا على الطبقة الحاكمة التركية الشركسية وكان الاقتصاد المدني حكرا شبه كامل على التجار والحرفيين الشوام والمغاربة ، وبذلك كانت المهن الرئيسية المفتوحة أمام المصريين حتى نهاية القرن الثامن عشر هي الزراعة والصناعات الريفية والمهن الدينية . وتركزت حياتهم الروحية والفكرية حول الأزهر الذي كان ، ولا يزال الى اليوم ، أهم معهد للدراسات الدينية في العالم الاسلامي .

وهناك عدة وثائق تبين الصراع الخطير في عصر محمد علي بين المصلحين ، يقودهم الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر ، في مواجهة كبار علماء الدين المحافظين بقصد استحداث دراسات الآداب الدينية في برامج تلك الجامعة الدينية ، وتشمل هذه الدراسات الدينية دراسة الشعر العربي والفلسفة والتاريخ والجغرافيا . وهذا يذكرنا بالجدل الذي ثار في أوائل القرن التاسع عشر (عصر النهضة) الأوربية بصدد العلوم الروحية والعلوم الزمنية (الدينية) ، ويذكرنا بالعديد من « الابولوجيات » التي كتبها بترارك وسكاليجر وفيليب سيدني ورونسار الخ .. دفاعا عن الشعر . كذلك كان هناك الجدل حول طبع القرآن ، وهو ما يذكرنا بالجدل الذي ثار حول طبع جوتنبرج وفوست الكتاب المقدس لأول مرة في استراسبورج بعد ١٤٤٥ .

وفي الحالتين انتصر دعاة الفلسفة الانسانية . في عصر محمد علي كانت علمنة التعليم كاملة ، وكان ما ارسي اسس التعليم العلماني الراسخة هو بعثات المائتي طالب الذين أوفدهم محمد علي الى فرنسا وانجلترا وإيطاليا والنمسا لتلقي العلوم والتكنولوجيا الغربية ، وكذلك العديد من المدارس التي انشأها محمد علي في مصر ، سواء للتعليم العام أو لدراسة الطب والهندسة والعلوم العسكرية ، الخ ... ومع هذه وتلك الألف كتاب وكتوبا أوروبا التي ترجمت الى اللغة العربية تحت رعاية محمد علي . وبالمثل رسخت أعمال الجبرتي والطهطاوي في مجال الدراسات الانسانية أسس التفكير العلماني . لقد اجتاحت البلاد منذ أسس بونابرت

المجمع العلمى المصرى روح جديدة ، وكانت مناهضة الطهطاوى للرهبانية ، بل وللكهنوت ، هى المعبر الحقيقى عن روح العصر .

بسقوط محمد على فى ١٨٤٠ كان هناك جزر ملحوظ فى الفلسفة الانسانية فى مصر ، وقد بلغ هذا الجزر اقصى مداه فى عهد عباس الأول (١٨٤٩ — ١٨٥٤) الذى لم يخف أبدا كراهيته للأوربيين وحضارتهم ، ولم يخف أبدا عبوديته للسلطان العثمانى أو سياسته المعلنة القائمة على اقتلاع المبادئ والانجازات المستحدثة ، وعلى الاكتفاء بالقيم الدينية بين رعاياه . وهكذا فك عباس الأول مصانع محمد على وترساناته ، وأغلق مدارس وجرائده ، وشتت أساتذته وكتابه وترجميه ونفى قادتهم الى السودان .

وكان خلفه سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) ، حسن النوايا ولكنه كان ضعيفا فلم يفعل الا القليل لينقذ البلاد من هذه الموجة الرجعية التى استمرت أكثر من عشرين عاما ، أى حتى اعتلى اسماعيل العظيم عرش مصر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) .

وتولى اسماعيل ، الذى كان يؤمن بمصر الأوربية ، بدأت من جديد إعادة بناء الدولة الحديثة العلمانية فى مصر بكل مضامينها : ومنها « الدولة القومية » ، أولا بالتماس الحكم الذاتى القومى بموجب فرمان ١٨٦٦ ، ثم بالمحاولة المجهضة لإعلان استقلال مصر من الامبراطورية العثمانية اثناء احتفال افتتاح قناة السويس ، ومنها استحداث المؤسسات البرلمانية ، ومنها ادخال قانون نابليون فى الستينيات من القرن التاسع عشر بوصفه القانون الرسمى فى مصر ، ومنها اعلان اللغة العربية فى ١٨٧٣ بوصفها اللغة الرسمية للبلاد بدلا من اللغة التركية ، ومنها نشر التعليم على نطاق لم يسبق له مثيل (لم تكن فى مصر فى عهد سعيد الا ١٨٥ مدرسة ، فازداد العدد فى عهد اسماعيل الى ٤٨١٧ مدرسة) . ومنها الاعتماد على المطبعة بدلا من الاعتماد على واعظ القرية لتكوين الرأى العام (كان عند محمد على جريدتان أحدهما عربية والأخرى فرنسية ، ولم تكن عند عباس أو سعيد أية جرائد ، أما فى عصر اسماعيل فقد كان فى مصر أكثر من ثلاثين جريدة) ، ومنها رعاية الفنون والآداب مع الاهتمام الخاص بالمسرح ، وهو أكثر الفنون دنيوية ، ومنها تجدد الحماس لتعليم المرأة الذى بدأ أيام محمد على وانقرض أيام عباس وسعيد ، ولكنه ازدهر ازدهارا كبيرا أيام اسماعيل . لقد رسحت السنوات الست عشرة من حكم اسماعيل اسس العلمانية فى مصر الحديثة .

وكانت ورطة العرايين هى أن العرايين لم يكونوا يعرفون ماذا كانوا يريدون ، أو على الأصح هى أنهم كانوا يريدون أشياء متناقضة . كانوا من جهة يريدون « مصر للمصريين » ، أى يريدون الدولة القومية ، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يقبلون التبعية للثيوقراطية العثمانية . بعبارة أخرى كانوا فى علاقتهم بالخليفة السلطان العثمانى يقبلون الخليفة ولكن يرفضون السلطان . وبالمثل ، فبينما نجد أنهم كانوا يطلبون الحياة الديمقراطية الدستورية ، فقد منعهم تكوينهم النفسى المحافظ من ادراك ان الديمقراطية والدستورية هما فى الأساس منتجات أوروبية مؤسسة على نظرية الحق الطبيعى وليس لها جذور فى التراث الثيوقراطى التقليدى . وحتى لو انتصر العرايون فان حيرتهم كانت كفيلا بتبديد طاقتهم دون جدوى بسبب عدم وضوح ادراكهم

للاتحجاه الصحيح . لقد كانت مشكلتهم الحقيقية ليست موقفهم من الجيوش الغربية ولكن موقفهم من القيم الغربية .

ومع ذلك فقد كانت هذه القضية غر ذات موضوع لأن الاحتلال البريطاني فرض نفسه في ١٨٨٢ ولمدة أربع وسبعين سنة قادمة ، وبذلك صاع مصير البلاد بدرجات متفاوتة . والسنوات الخمس والعشرون التي تمثل الفترة الكروميرية (١٨٨٢ — ١٩٠٧) ، تمثل بوجه عام الحقبة العلمانية الثالثة في مصر ، رغم ان السياسة البريطانية تجاه مصر كانت تخضع لثلاثة مبادئ معطلة للعلمانية :

كان المبدأ الأول هو نظرية كرومر بضرورة التحكم في خطى التنمية ، أو ما وصفه هو نفسه « بالخبب المنتظم وليس الركض » على طريقة محمد على وإسماعيل ، وهو ما عاق أى انتشار مكتسح للحضارة الأوروبية أو للديمقراطية في مصر .

وكان المبدأ الثانى هو قيام لجنة التصفية أيام الخديو توفيق ، في يوليو ١٨٨٠ ، بتخصيص نسبة ٦٦٪ من الإيرادات العامة للدولة لسداد دين مصر عام الذى استدانته مصر في عهد الخديو إسماعيل . ومن الناحية العملية شل قانون التصفية هذا كل مشروعات الدولة للتنمية في التعليم والقضاء والصحة العامة والرى والإشغال العمومية والدفاع ، إلخ ، فهو لم يترك الا ٣٤٪ من الميزانية السوية لنفقات الحكومة الجارية وللجزية التي كانت مصر تدفعها سنويا للباب العالى .

أما المبدأ الثالث فقد كان النظرية السائدة في عصر الملكة فكتوريا ، وهى النظرية التى أسسها السيروولتر بيجوت ، بأن « الديمقراطية » منتج غرى غير قابل للتصدير الى الشرق ، ثم جعلتها نظرية شعبية قصيدة كبلنج الشهيرة « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان حتى تلتقى الأرض والسما في يوم الدينونة تحت عرش الله العظيم » .

ومع ذلك فقد كان هناك مبدأ رابع يتعارض مع هذه المبادئ الثلاثة جميعا ، الا وهو سياسة بريطانيا القاضية بأن تعترف بسيادة تركيا الاسمية ، الأسمية لأكثر من ذلك ، على مصر ، مع الاحتفاظ بالسيطرة الفعلية عليها في أيد بريطانيا . وكان معنى هذا التقويض المنظم من جانب بريطانيا للتأثير العثمانى سواء في العقل المصرى أو في الشئون المصرية ، واضعاف المبدأ الثيوقراطى في مصر . كان هذا بمثابة تثبيت لدعائم العلمانية المصرية . وكانت ثمرته هى مدرسة محمد عبده في الإصلاح الدينى ودعوة قاسم أمين لتحرير المرأة المصرية ، ومدرسة لطفى السيد في التنوير والديمقراطية التدريجية والمقاومة العنيدة للثيوقراطية العثمانية .

غير أن الاحتلال البريطانى قد أجمع أيضا ، — عالما كمجرد رد فعل — الشعور القومى الركانى الذى تميز به الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ، وقد كان متحالفا مع العثمانيين . عبارة أخرى قد أظهر الاحتلال البريطانى على السطح ذلك الاستقطاب الدفين بين العلمانيين والثيوقراطيين في الثورة العراقية ، وهو الاستقطاب الذى أصاب تلك الثورة بالشلل .

وبتمزيق أوصال الامبراطورية العثمانية وذبول دعوة الجامعة الاسلامية ، ثم الغاء الخلافة في تركيا نفسها على يد مصطفى كمال ، غدت عقيدة الجامعة الاسلامية غير ذات موضوع على وجه القطع في مصر وغيرها من ايلات الامبراطورية العثمانية في الشرق الأدنى . وقد أطلق هذا مد القومية المصرية جارفا على الأساس العلماني في ثورة ١٩١٩ بزعماء زغلول والوفد المصري . وبالرغم من أن ثورة ١٩١٩ كانت انفجارا ضد السيطرة البريطانية والاستغلال الأوروي بمصر ، فقد كانت هذه الثورة خالية تماما من روح الكراهية للغرب أو من العودة الى عقلية الصراع بين الهلال والصليب التي تميز بها الحزب الوطنى في بعض تياراته بعد موت مصطفى كامل . بل على العكس من ذلك ، فقد كان المحرك الاساسى لثورة ١٩١٩ هو الايمان الذى لايتزعزع بالحق الطبيعى ، أى بأن مزاولة السلطة لا شرعية لها الا بتفويض من الشعب ، ومبدأ الفصل بين الدين والدولة ، ومبدأ الفصل بين السلطات داخل الدولة ، ومبدأ تقييد سلطات التاج بالدستور الذى يمثل تجسيد الإرادة الشعبية ، وباختصار ، بالايمان بمبادئ الحرية والمساواة والاخاء كما نص عليها اعلان حقوق الانسان في الثورة الفرنسية ، وبأن شعون البشر يجب أن تصرفها القوانين التى يضعها الانسان وليس القوانين الالهية .

ومن الناحية الرسمية امتدت هذه الحقبة من تاريخ مصر ثلاثا وثلاثين سنة ، أى من ثورة ١٩١٩ الى ثورة ١٩٥٢ ، وهى فترة التجربة المصرية في الديمقراطية الليبرالية . غير أن هذه الفترة فقدت الكثير من حيويتها في ١٩٣٦ بتجميد الكفاح الوطنى نتيجة لتوقيع معاهدة الصداقة والتحالف المصرية الانجليزية في ١٩٣٦ . وقد جهز ظهور الفاشية في أوروبا التربة في الثلاثينيات والاربعينيات لظهور عدة تنظيمات شمولية شبه عسكرية ذات قاعدة من البورجوازية الصغيرة لأأس بحجمها كما ساعد على تكاثر هذه التنظيمات ، كالاخوان ، وحزب مصر الفتاة الذى أعيد تشكيله فيما بعد باسم الحزب الاشتراكى من جهة والحزب الوطنى الجديد من جهة أخرى ، وكحزب العمال الذى كان يرأسه النبيل عباس حلمي ، ثم فيما بعد كسيبكة سرية من هذه المجموعات كلها بين الضباط الاحرار كان أبوها الروحي الفريق عزيز المصرى باشا ، وهم الضباط الذين اطاحوا فيما بعد بالعهد البائد في ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة .

ومن الناحية التاريخية كانت كل هذه التنظيمات بقايا من الحزب الوطنى المتوفى الذى كان مصطفى كامل قد أسسه في السنوات الأولى من القرن العشرين . وكان هذا الحزب قد حظر وجوده بقرار من البريطانيين بعد مقتل بطرس باشا غالى عام ١٩١٠ نظرا لميله الى العنف والاعتقالات السياسية ولانحيازه علنا لتركيا وللجامعة الاسلامية ، وظل هذا الحظر قائما حتى اعلان دستور ١٩٢٣ . وكان أكثر زعمائه في المنفى ، فبقيت كوادره كامنة تحت الأرض دون نشاط فعال حتى اكتسحته ثورة ١٩١٩ بقيادة زغلول والوفد .

وقد بدا وكأن الجناحين الرئيسيين في الثورة العراقية ، الجناح العلماني والجناح الشيوعى ، كان في حرب سافرة نشبت بينهما بعد هزيمة عراقى للسيطرة على افئدة الناس وعقولهم .

وفي العقد الأول من القرن العشرين سحر الانفجار البركاني لنشاط الحناح الثيوقراطية ، وقد كانت تؤيده تركيا والخبديو عباس الثاني ، خيال الكثيرين من المصريين ، ولأسيما بين الطبقات ساكنة البنادر في مصر ، غير أن هذا السحر سرعان ما فقد قوته عندما طغى تيار الجامعة العثمانية بتأثير عبد العزيز جاويز على تيار القومية المصرية وعندما غدا التعاطف مع العثمانيين غير ذي موضوع في مصر بصفة متزايدة . وبالرغم من انتصاره قصير الأجل ، كان الحزب الوطني دائما حتى في قمة مجده ، حزب أقلية ، بوصف - انه كان أساسا حزب البورجوازية الصغيرة ولأسيما في المدن ، في حين أن المحرر الرئيسى للحياة المصرية كان معظمه في مصر الزراعية التي كان يسيطر عليها ارستقراط حزب الأمة .

ولان الفلاحين رغم محافظتهم كانوا عمليين ويميلون الى الشرعية والاعتدال فقد ظل يسودهم الفتور بعد فشل أول ثورة مسلحة لهم في العصور الحديثة بقيادة عرابي .

وكان أعيانهم في حزب الأمة بقيادة لطفى السيد وعائلة عبد الرازق يفهمون الثورة العرابية على أنها تعنى مصر للمصريين وليس للأتراك ، وحكم مصر للأعيان المصريين وليس للخبديو أو للطبقة الحاكمة التركية الشرسية . ولم يكونوا يرون أى فرق جوهري بين الاستعمار العثماني والاستعمار البريطانى الا أن الحكم التركى كان يمثل طغيانا جاهلا متخلفا انتهى زمانه بينما الحكم البريطانى كان يمثل طغيانا مستترا متقدما يمكن مع الزمن التغلب عليه بانتشار التعليم والديمقراطية . كان هؤلاء الأعيان طبقة من الصفوة المؤمنين بالتدريجية ، وقد عاشوا بوهم انه يستطيعون أن يتخلصوا من المبدأ الكرومرى ، أو على الأصح الفكتورى ، ألا وهو المبدأ القائل بأن الديمقراطية الغربية والثقافة الغربية والمؤسسات الغربية أشياء غير قابلة للتصدير ، وبالتالي فقد أجلوا الكفاح الوطنى ضد السيطرة البريطانية وبنوا كل آمالهم على الإصلاح الداخلى السلمى . وربما كان أقرب شئ نعرفه فى التاريخ الأوروبى الى تجربة حزب الأمة هو ظاهرة « الفلاسفة » فى حركة التنوير الفرنسية قبيل الثورة الفرنسية . ورغم علمانيتهم ودعوتهم المصرية مائة فى المائة فقد فشل هؤلاء أيضا كما فشل رجال الحزب الوطنى لأنهم توهوا أن الحرية « قابلة للتجزئة » ، وأنه من الممكن للانسان أن يكون حرا فى بلاده وعبدًا للسيطرة الأجنبية فى وقت واحد . باختصار توهوا أن بريطانيا يمكن أن تجلس مرتاحة البال وهى تتأمل مصر تفلت من سيطرتها تدريجيا بعد أن بنت نفسها بنفسها .

كل هذه المتناقضات حلتها ثورة ١٩١٩ التى قادها سعد زغلول آخر العرابيين . وقد كان زغلول فى ٢٨٨٢ ازهريا شابا عمره ٢١ سنة وسجن نحو شهر كأحد مجاهدى ثورة عرابى وتلميذا من تلامذة الأفغانى ومعاوننا لمحمد عبده .

لقنت مرارة فشل الثورة العرابية سعد زغلول جملة دروس هى :
(أ) أن الحكم العسكرى والديمقراطى حدان متناقضان بنص القول : وبالتالي فان الحكم الدستورى لا يمكن بلوغه الا بالكفاح المدنى .

(ب) أن المصريين هزموا وسحقت ثورتهم لا بسبب خيانة الخديو توفيق ولا بسبب سوء نية البريطانيين ولا بسبب نفاق تركيا ذات الوجهين ، رغم أن توفيق بالفعل خائن وبريطانيا كانت بالفعل سيئة النية وتركيا كانت مراية ذات وجهين — وإنما فشلت الثورة العربية أساسا لأن المصريين كانوا غير ناضجين وكانوا يعتمدون على تراث باقى لهم من العصور الوسطى أكثره محض هراء . فشلت الثورة العربية لأن طريق التحرر من الاستبداد الداخلى ومن السيطرة الأجنبية معا هو نفس الطريق الذى سارت فيه شعوب أوروبا منذ الرئيسانس ، الا وهو طريق العلمانية والهيومانزم . وهكذا درس هذا الازهرى الشاب القانون الفرنسى وأصبح محاميا وقاضيا قبل أن يصبح وزيرا ثم زعيما .

(ج) أن الاعتماد على الأرستقراطية لتحقيق الديمقراطية وهم ، كما أنه وهم أيضا الاعتماد على طبقة واحدة ، ولا سيما الطبقة العليا ، للحصول على الاستقلال الوطنى . فالديمقراطية تخص « الديموس » أى الشعب . والاستقلال الوطنى يخص كل المواطنين .

وقد كانت ثمرة ثورة ١٩١٩ هى التصريح البريطانى من جانب واحد فى ١٩٢٢ بأن « مصر دولة مستقلة ذات سيادة » مع التحفظات الأربعة كما كانت ثمرتها دستور ١٩٢٣ الذى أسس نظام الدولة على مبدأ « الحق الطبيعى » المتبلور فى مبدأ أن « الأمة مصدر السلطات » ، وقيد نسبيا سلطات التاج المصرى . وقد كانت هاتان الوثيقتان غير كافيتين ولكنهما أرسنا الأساس الثابت نسبيا لبناء المؤسسات العلمانية فى حقبة مصر الليبرالية . لقد كان انتصار الديمقراطية الليبرالية فى مصر بانتصار ثورة ١٩١٩ هو الانتصار الثالث للعلمانية المصرية الأصيلة .

بالرغم من انتصار العلمانية المصرية للمرة الثالثة منذ محمد على بثورة ١٩١٩ وإرساء قواعد الديمقراطية الليبرالية فى مصر ، فإن الحركة الثيوقراطية ظلت فى حالة كمون ، وأصبح الحزب الذى يعبر عنها ، وهو الحزب الوطنى ، طوال العشرينيات شبعا من أشباح الماضى ، حتى وجدت صبغ جديدة لتجديد شبابه فى الثلاثينيات والاربعينيات تحت أسماء مختلفة . ومن هنا نشأ « الاخوان المسلمون » و « حزب مصر الفتاة » (الحزب الاشتراكى) ، والحزب الوطنى الجديد ، والتنظيم المصرى للضباط الاحرار ، وما استجد من تناسخات لهذه التنظيمات منذ ١٩٥٢ .

وقد حافظ بعض هذه التيارات اكفر من سواه على مدرسة محمد فريد فى القومية داخل الحزب الوطنى ، كما حافظ بعضها الاخر على مدرسة عبد العزيز جاويز فى الوحدة الاسلامية ، بينما جمع بعضها بين المدرستين بطريقة توفيقية على منهج مصطفى كامل . غير أن هذه التيارات الثلاثة كانت بدرجات متفاوتة ترتاب على أقل تقدير فى تقاليد الديمقراطية الليبرالية وكانت جميعها تتفق بدرجات متفاوتة على طائفة من المبادئ الاساسية ، وهى :

(أ) ان التعدد السياسى والثقافى يضعف الأمة ، ولذا فلا بد من وجود ارادة جماعية حديدية لتحقيق الاستقلال القومى وغيره من الأهداف القومية : « وطن واحد ، شعب واحد ، زعيم واحد » . ويستوى أن

تسمى القائد الخديو أو المرشد أو الأمير أو الرئيس . المهم الا توجد صراعات حزبية أو طبقية : « الفرد للجماعة والجماعة للفرد » .

(ب) ان الكفاح السلمى والاخلاق بالوسائل المشروعة لبلوغ الاستقلال الوطنى وغيره من الأهداف الوطنية محض خرافة . فما كان أصلا غير شرعى لا يمكن ازالته بالوسائل الشرعية . « القوة هى الحق » أما قول زغلول : « الحق فوق القوة » فهو شعا "ضعفاء أو أصحاب الحلول الوسط ، وهو يؤدى الى لاشيء وبالتالي فان العنف والمساورة والعمل السرى أح نة لتحقيق الغايات القومية والاجتماعية .

(ج) أن العلمانية وكل شكل من أشكال القيم والمؤسسات المستوردة هى أويعة غريبة تفسد ثقافتنا القومية ونهجننا فى الحياة . فنظام تعدد الاحزاب والديمقراطية والاشتراكية وكل مذهب ينادى بحقوق الانسان هى أفكار مادية دخيلة على تراثنا الأصيل . فهى تسمى الحرية والمساواة والاخاء « حقوق الانسان » فى حين أنها فى ثقافتنا الروحية أوامر الهية . والعدالة والفضيلة والاحسان هى أرادة الله وليست ارادة الانسان ، وهى مقننة ومشرعة فى عقيدتنا السماوية ، والوطنية نفسها الهام من الايمان بالله . ونحن لدينا كل ما نحتاج اليه من القيم الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية ، نجدها فى تراثنا التقليدى الذى هو أرقى من تراث الغرب . وكل ما ينقصنا فى ثقافتنا مما يملكه الغرب هو العلم والتكنولوجيا ، وحين نحصل عليهما سوف نسترد مكاننا تحت الشمس .

وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ كانت أغلبية الضباط الاحرار ومجلس قيادة الثورة ذات ميول للحزب الوطنى أو لمصر الفتاة (الحزب الاشتراكى) أو للاخوان المسلمين . ومع ذلك فلم يكن بينهم الا قليلون من السلفيين المتمسكين بحرف الدين . كان أكثرهم يؤمنون « بالاشتراكية » و « الديمقراطية » وكانت لديهم أفكار غامضة عن العدالة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعى داخل الاطار الدينى ، كما كانوا يؤمنون بأن البلاد لم تكن بحاجة حقيقية للمذاهب المستوردة من سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية .

وقد اختلطت بكل ذلك ذكريات من انهار قديم بالتجربة النازية فى ألمانيا ، وخيط من التحديث على طريقة أتاتورك مع التقاليد المصرية الأصيلة من البراهمانية والاعتدال وقلة الصبر على التفكير النظرى الخ ... وكانت تعاليم الدين بالنسبة لأكثرهم مبادئ عامة للإرشاد وليست تشريعات تفصيلية . وهذا يفسر لماذا رفض عبد الناصر وأكثر الضباط الثوار خلال ثمانية عشر عاما من عهد عبد الناصر ، أن يسيطر عليهم رجال الدين التقليديون أو الاخوان المسلمون أو أية جماعة من جماعات السلفية الأصولية الجديدة التى حاولت ملء الساحة السياسية منذ حسن البنا .

وبالغاء دستور ١٩٢٣ فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، حل مجلس قيادة الثورة كل الاحزاب السياسية باستثناء جماعة الاخوان المسلمين التى أعفيت من قرار الحل تأسيسا على انها مجرد تنظيم دينى يدعو الى التسلح الخلقى . وهذا الاجراء وضع مجلس الثورة نهاية للمرحلة الديمقراطية الليبرالية فى مصر . وأعقب هذا المواجهة الكبرى بين هيئة الضباط الحاكمة وبين الاخوان الذين أحبط مجلس قيادة الثورة أول محاولة لهم

للاستيلاء على الحكم بفصل القائم مقام رشاد مهنا من مجلس الوصاية على العرش بقرار من مجلس قيادة الثورة في ١٤ أكتوبر ١٩٥٣ لاتهامه بتواطؤه مع الإخوان . وفي محاولة الإخوان الثانية للاستيلاء على السلطة بتحريك اضرابات الطلبة في ١٢ يناير ١٩٥٤ حل مجلس قيادة الثورة الإخوان المسلمين فنزلوا تحت الأرض كتنظيم سرى ثم اتهموا بمحاولة اغتيال عبد الناصر في ٢٠ أكتوبر ١٩٥٤ وقلب نظام الحكم بمساعدة جهازهم السرى في الجيش بقيادة البكباشي عبد المنعم عبد الرؤوف . وقد اتهم ٨٧٥ أخا مسلما و ٢٥٠ ضابطا ينتمون الى الإخوان وحوكموا أمام محاكم خاصة ، واعدت ستة أشخاص وتجاوز عدد المسجونين ثلاثة آلاف شخص بين محكوم عليه ومعتقل . وجرت آخر مرة حاول فيها الإخوان المسلمون تدمير عبد الناصر في ١٩٦٥ بقيادة المفكر سيد قطب ، وقد قمعت أيضا هذه المحاولة بغير رحمة .

وبينما حافظ عبد الناصر على الأفكار الرئيسية في رؤيته القومية والاشتراكية ، فقد أصبح عبد الناصر مع كل تحرك جديد ضد الإخوان أكثر علمانية في تفكيره وفي سياساته العملية . وكانت مسيرته الى العلمانية مسيرة شديدة المعاناة غالبية الثمن لأنها لم تكن مستخلصة من الكتب أو من دراسة التاريخ بل من منهج التجربة والخطأ ومن معالجة المشاكل كلما نشأت .

وكلما واجه عبد الناصر مقاومة لاتعرف المهادنة من جانب اليمين الذي كان يسعى لكسبه ، كان يبحث عن امكانيات لتحالفات طبيعية وغير طبيعية مع اليسار ، حتى وجد نفسه بعد باندونج متحالفا مع نهرو وتيتو في قيادة كتلة عدم الانحياز ، وحتى وجد نفسه بعد هرب سوريا من بيت الزوجية في سبتمبر ١٩٦١ يغازل على كرهه السوفييت . وفي أقل من ثماني سنوات تطورت استراتيجية رجل الاقدار كما بلورها في « فلسفة الثورة » (١٩٥٤) فتحولت الى الراديكالية المنضبطة التي نجدها في « الميثاق » (١٩٦٢) . ورغم كل ماكان في الميثاق من ضبط للنفس ، فقد رفضه اليمين المصري المتعنت الذي لاسبيل الى استرضائه ، وسخر منه وعرض به على أنه من عمل مسيلمة الكذاب ، بقوله : « وما فرطنا في الميثاق من شيء » . وقد استغرق عبد الناصر دعوة الوحدة الاسلامية في دعوة الوحدة العربية وفي دعوة الاشتراكية العربية أيا كان مفهومها ، وهما أكثر علمانية . وحتى بعد كارثة الهزيمة في ١٩٦٧ ، تشبث عبد الناصر بأسلحته العلمانية حتى وفاته في ١٩٧٠ . من أجل هذا يجب أن نصف المرحلة الناصرية بأنها الحقبة العلمانية الرابعة في تاريخ مصر . (أنا لا أدخل في احساب فترة الحكم البريطاني المشبوهة) .

ومع ذلك فلا بد أن نضيف أن نظام عبد الناصر المغلق والغاءه للارادات الفردية ، أو على الأصح ادماجه الارادات الفردية في ارادة جماعية باسم تاليه الدولة ، ربما ساعد على تصفية الثيوقراطيين الافراد ولكنه لم يساعد على استئصال الثيوقراطية من مصر . وهذا يفسر التكاثر المتكرر للجماعات الثيوقراطية الجديدة رغم القمع المنظم للتنظيمات الثيوقراطية . فالعلمانية أو الفلسفة الانسانية ليست عملية بوليسية ، بل نهجا في الحياة والفكر ، يسترد بهما الانسان انسانيته وطاقاته ، ولاسيما قدرته على أن يصوغ مصيره بممارسة الحق الطبيعي في مجتمع ديمقراطي .

ومشكلة الأنظمة الشمولية هي أن خير الناس ورخاءهم وسعادتهم وتقدمهم تفرض عليهم بقوانين وقرارات مملأة من أعلى وليست من عمل الناس أنفسهم . وهذا يسبغ على أشد القوانين والحقوق طبيعية ووضعية صبغة الهية . فالتنازل طوعية عن حق المعرفة والتساؤل والاختيار الحر ، والخضوع طوعية لسلطة لاتناقش لها الحق في إدارة شئون البشر ولها القدرة على ذلك ، يمثلان جوهر التفكير الشيوعى ، وليس هناك فرق حقيقى بين أن يكون « الثيوس » ، أى « الاله » ، هو الله أو الانسان المتأله . والترياق الوحيد ضد الشيوعية هو الديمقراطية . و« تأليه » الشعب أو البروليتاريا يقود أيضا الى الشيوعية .

وقد أعادت هزيمة ١٩٦٧ ، مع بعض المساعدة من الخارج ، بسبب محنة مصر الاقتصادية والمعنوية ، الأرض مرة أخرى لبعث الأفكار الشيوعية فى البلاد . وفى مناخ الهزيمة عادت الى الازدهار فلسفة التاريخ التى أرسى أساسها أروسيوس ، الا وهى أن الامبراطوريات ، كالامبراطورية الرومانية ، انما تدمر بالقصاص الالهى عقابا لها على ابتعادها عن طريق الله . وهكذا التمس المصريون كالعادة العزاء عن اليأس القومى والفردى باللجوء الى الدين أو مجرد الهجرة الى الأقطار الأخرى . وقد زاد من تعقيد الأمر اعتقاد مصر المتزايد باطراد على الروس لتحرير وطنهم بل ولجهد البقاء .

وقد كان عبد الناصر قادرا على السيطرة على الموقف ما بقى حيا . فلما تسلم السادات الزمام لجأ للخروج من هذا المأزق بالتراجع عن الناصرية وقد اقتضى ذلك منه البحث عن السلام بدلا من الحرب ، واقتلاع النفوذ الروسى من مصر وتصفية انصاره من الراديكاليين ، وفك الصناعة والتجارة المؤممة والمنفعة من حماية الدولة بالعودة الى سياسة حرية التجارة التى كان معمولا بها قبل ثورة ١٩٥٢ ، وهو ما يعرف « بالانفتاح » أو « بسياسة الباب المفتوح » ، وكذلك انخيازه المعلن لمصر الزراعية بدلا من مصر الصناعية ، ولأمريكا بدلا من كتلة عدم الانحياز .

ولكى يحقق كل ذلك نادى الرئيس السادات بالعودة الى القيم التقليدية وتودد لجماعات السلفيين وللتنظيمات الشيوعية خلال أطول فترة فى عهده ، موجها عنفهم ودعايتهم لاسكات الشيوعيين والاشتراكيين والناصرين ، بل والديمقراطيين الليبراليين ، حتى برز الشيوعيون كأقوى قوة سياسية منفردة فى البلاد ، وكانوا أدق تنظيميا وأشد انصياعا ، بل وأجهر صوتا ، من الحزب الوطنى الديمقراطى الذى أسسه الرئيس السادات نفسه .

ومنذ ١٩٧٧ ، ولأسيما منذ ثورة الخومينى ، أحست الجماعات الشيوعية المصرية أنها على استعداد كاف وعلى قوة كافية لتحدى الرئيس السادات ولحاولة الاستيلاء على السلطة . وبعد أن استبعد الرئيس السادات أو حيد كل القوى السياسية الأخرى فى مصر ، أصبح هو نفسه هدف هذه الجماعات الشيوعية . لقد انتهى شهر العسل . والأرجح ان موقف السادات من ثورة الخومينى والاستقبال الملكى والجنائز الملكى الذى استقبل به شاه ايران وودعه الوداع الأخير ، كلها حملت رسالة أو انذارا الى الجماعات الشيوعية . فعندما تحقق الرئيس السادات من أن هذه الجماعات تتحرك بسرعة للاستيلاء على الحكم ،

كان الوقت قد فات . كان الوقت قد فات عندما أمر بالاعتقالات الجماعية في ٤ سبتمبر ١٩٨١ . لأن هذه الاعتقالات الجماعية لم تؤد الا الى اغتياله في ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

وبتولى الرئيس مبارك خفت حدة الجو المتوتر الذى أشاعته الجماعات الثيوقراطية ، خفت بدرجة كبيرة على الأقل فى الظاهر . ولم يمض الآن الا عامان منذ أن وقفت مصر على شفا فتن دينية من الطراز اللبنانى ، منذ أن كانت الجماعات الدينية ترتكب أعمال الارهاب الجسدى والمعنوى ضد معارضيهما العقائديين ، بل وضد المواطنين العاديين ، منذ أن كانت القاهرة تعج بالدعاة المحمومين الذين كانوا يزعجون ليل نهار فى الميكروفونات ومكبرات الصوت فى الشوارع وفى الحوانيت وفى سيارات التاكسى وفى الشقق الخاصة ، ويستعرضون قوتهم السياسية فى كل مناسبة . ولمدة عشر سنوات كاملة تحولت الصحافة وأجهزة الاعلام نفسها التى تملكها الدولة الى محارب تقام فيها الطقوس وتلى المواعظ الدينية سبعة أيام فى الأسبوع . وهذه الظواهر لم تختلف تماما ، ولكنها خفت بدرجة محسوسة .

ولاشك أن تطبيق قانون الطوارئ له صلة بهذه العودة الى الحالة الطبيعية ، ولكن من المؤكد أيضا أن الحالة المحمومة التى مرت بها مصر فى السنوات القليلة الأخيرة كان مصدرها النشاط المكثف الذى كانت تقوم به اقلية ثيوقراطية قوية التماسك صارمة النظام عالية الضجيج ، كانت تنمو فى جسد أمة علمانية فى أكثريتها نموا سرطانيا تحت حماية النظام نفسه . فما أن رفعت هذه الحماية حتى فرضت مائتا سنة من العلمانية والايمان بالانسان فى تاريخ مصر الحديث نفسها من جديد .

ومع ذلك فقوانين الطوارئء اجراءات مصطنعة قصد بها الحيلولة دون الردة الى الدولة الثيوقراطية أو السعى الى المجتمع الشيوعى . ولاسبيل الى ان تعبر القوى الاجتماعية والاقتصادية عن نفسها الا بالعودة الى الديمقراطية وبممارسة حقوق الانسان بموجب القانون الطبيعى . هذا القول قد يبدو ساذجا فى نظر العقلية الأوربية ولكنى اعتقد أنه ساذج ايضا فى نظر أكثر المصريين الذين كافحوا على مدى قرنين من الزمان فى سبيل الحرية والمساواة وكرامة الانسان ، وبفضل كفاحهم أصبحت مصر ، رغم الكثير من التقلبات المعادية ، أرسخ قاعدة للعلمانية فى الشرق الأوسط .

الفصل الثامن

التاريخ بين الذات والموضوع^(١)

عندما كنا طلابا في جامعة القاهرة في أوائل الثلاثينيات ، غالبا في ١٩٣٣ ، فوجئنا بأستاذ التاريخ ، وكان يومئذ الأستاذ شفيق غربال ، يطلب منا في السنة الاعدادية ان نكتب بحثا في موضوع ، « التاريخ هل هو علم أو فن ؟ » وكانت هذه هي المرة الأولى التي أطرح فيها هذا السؤال المعقد على نفسي وعقلي . وبالفعل تملكنتني حيرة حقيقية وأنا أبحث عن اجابة على هذا السؤال . وأنا الآن لم أعد أطرح على نفسي وعقلي هذا السؤال على هذا النحو المبسط الذى يواجه العلم بالفن فحسب ، لأنى أجد للفلسفة والسياسة والأيدولوجيات وللمسلمات مكانا في رقعة التاريخ .

كنا ندرس التاريخ دراسة مكثفة في مجلدات ضخمة طوال فترة الدراسة الثانوية بين ١٩٢٦ و ١٩٣١ ، وبذلك غطينا تاريخ مصر من عهد مينا الى عهد الملك فؤاد ، وتاريخ بابل وأشور وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ الدولة العربية والامبراطورية العثمانية وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى وتاريخ أوروبا الحديثة منذ عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى . وبالفعل كنا نلاحظ وجود أسلوبين في تناول التاريخ : الأسلوب الغالب هو الأسلوب الذى يجعل من التاريخ سلسلة لاتنتهى من أسماء الملوك والقواد والمعارك والحوادث والتواريخ ، والأسلوب الحى الذى يمزج الاسماء والأحداث بالأوصاف والأحكام وربما بشيء من العاطفة والعرض الدرامى ، وربما بتجاهل الجزئيات الشديدة التفصيل ليركز على الكليات والمسار العام .

(١) « المصور » ١٩٨٥/٥/١١ و ١٩٨٥/٥/١٨ . القيت في مؤتمر غرناطة في ربيع ١٩٨٥ .

وكان من حظى أنى درست تاريخ عصر النهضة « الرينيسانس » والثورات الأوربية الحديثة وى الأسلوب الثانى ، فاشتعل خيالى بالهيومازم وبحب الحرية وحقوق الانسان وأنا لا أزال فى سن اليفاعه وسقطت أمامى الحواجز التى تفصل التاريخ عن الحياة ، وربما تفصل الماضى عن الحاضر والأأم عن الأأم والأفراد عن المجتمعات .

وحين بدأت أفكر فى سؤال الأستاذ شفيق غربال : « التاريخ ! هل هو علم أو فن ؟ » أصبت بانزعاج شديد . لماذا ؟ لانى كنت أسير الى الضوح فبدأت أتنبه الى شىء خطير ، وهو أن بعض كتب التاريخ التى كنا ندرسها كانت مكتوبة بالأسلوب الحى الذى يخلط وقائع التاريخ بالأوصاف والأحكام ، ومع ذلك فقد كانت تتناول بالتجريح بعض ابطالنا الوطنيين مثل عرابى ورفاقه وتثير التحفظات الشديدة ، تحت ستار الموضوعية التاريخية ، حول حركاتنا الدستورية وزعمائنا الدستوريين وتسخو وى تكريم بعض ملوكنا المتأخرين من الخونة أو الطغاة الذين كنا نبغضهم بوصفهم أعداء الشعب ، أو نلتمس لهم المعاذير التاريخية على أقل تقدير .

وهنا بدأت أدرك موطن الخطأ والخطر فيما أسميه هنا « التاريخ الحى » ، وهو التاريخ الذى يمزج الوقائع والأحداث بالأحكام والأوصاف . بدأت أدرك أنه ليس هناك فرق جوهرى بين حماسى للتاريخ المدافع عن حقوق الانسان وحماس المؤرخين للتاريخ المدافع عن حقوق الحكام . وتمثل لى الفرق فى مجرد اختلاف زاوية الرؤية ، أيا كانت أسباب هذا الاختلاف : المصلحة أو الطبقة أو الثقافة الاساسية أو المعتقدات ، الخ .. أو خليط من كل هذه الأشياء أو من بعضها .. المنهج واحد وهو مزج التاريخ بالحياة .

وكان معنى هذا أن التاريخ لا يكون تاريخا الا اذا كان مجرد سرد لاسماء وأحداث وتواريخ صماء دون أوصاف أو أحكام ، ودون تفسير أو تأويل .

وهكذا برزت قضية الذات والموضوع فى كتابة التاريخ ، وكان السؤال الحقيقى فى كل هذا هو : الى أى حد يمكن فصل الذات عن الموضوع فى كتابة التاريخ ؟

نحن فى العادة نرفض النقيضين معا .. نرفض أن يكون التاريخ مجرد اطباءات شخصية وتقييمات ذاتية باسم الوصل بين التاريخ والحياة . ونرفض كذلك أن يكون التاريخ مجرد اسماء وأحداث وتواريخ صماء لانقرأ فيها عصرا ولا اتجاهها ولا غاية ، كل ذلك باسم العلم الموضوعى .

واعتقد ان مؤرخ التاريخ فى عصرنا هذا قد اهتدى الى صيغة مركبة من هذين النقيضين تقوم على ربط التاريخ بالحياة فيما يشبه الفلسفة أو الرؤية المشتركة ولكن بعد استفاد كل معرفة يقينية وموثقة بأحداث التاريخ ورجالاته . وهذا لايعنى استبعاد الذات من كتابة التاريخ ، ولكنه يعنى تحويل « الذات » الى « موضوع » ، أو على الأصح استقاء الذات من الموضوع لا استقاء الموضوع من الذات .

والتنمذج التقليدى للمؤرخ فى اللغة العربية حتى ١٨٠٠ هو النموذج المألوف فى الثقافات الأوربية القديمة والوسيطه كما نلحه فى كتابات مانيتون وهيرودوت وزينوفون وثيوسيديد وبلوتارك وسويتونيوس وتيتوس

ليفوس وديودور الصقلي وجوزيفوس وبوسيبيوس وأورسيوس . وهو يتميز بالاحاطة الشاملة منذ بدء الخليقة حتى عصر المؤرخ والاعتماد الكثير على التناقل والرواية الشفوية واحتلاط الأساطير أو الفولكلور بالوقائع التاريخية والانتفاء أو الانحياز « الملحمي » في وصف الصراعات التاريخية والدينية والمذهبية وفي تدوين سير الملوك والأقوال والأحداث على غرار ما يحدث في كتابة « السير » وليس في كتابة التاريخ ، وكذلك شيوع الرواية المباشرة من المؤرخ كشاهد عيان يدون مذكراته أو يومياته في ذكر ماحرى أو كصحفى يجيد الريبورتاجات الشخصية عن عصره وبلده ورحلاته وهو منهج سليم لايعيبه الا انحاده قاعدة للتعميم رغم جزئية الرؤية الشخصية .

وقد ظلت هذه هي السمات السائدة لكتابة التاريخ في الحضارة الأوربية حتى ساكسو حراماتيكيكسوس وهوليشيد وفرواسار وبس وبنفوتو تشيليني . ولم تبدأ الصورة تتغير الا منذ كتاب أدوارد جيون « تصدع الامبراطورية الرومانية وسقوطها » وكتاب فولتير « تاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد » في القرن الثامن عشر ، حيث تراجع النقل وتعظم العقل وبدأ عصر التوثيق .

وبالمثل نجد هذه الظواهر نفسها بين المؤرخين العرب منذ ابن عبد الحكم وابن تغرى بردى وابن خلدون والمقرئى وابن زنبيل وابن اياس . وكان أقوى مافى نهج المؤرخين القدماء هو شهادتهم على مارأوه في عصرهم كشهود عيان ، فهذه الشهادات يجب أن تعامل معاملة وثائقية الى حد كبير ، وهى بالفعل تعامل هذه المعاملة شأنها شأن كتابات الجغرافيين الأوربيين والعرب في العالم القديم والوسيط والحديث حتى القرن الثامن عشر . فليس هناك فرق جوهري بين ملاحظات استرابو الجغرافى وأقرانه والرحالة ابن بطوطة وأقرانه كالمسعودى والقزوينى ، فهى كلها خامات جغرافية وتاريخية يمكن أن ترقى الى مكانة الوثائق والمصادر الأولية اذا راعينا درجة لأبأس بها من درجات الحذر وحاولنا أن نضبطها بما نجعله من غيرها من المصادر .

هى كذلك لأنها قائمة على أهم منهج من مناهج العلم الذى وضع أساسه الفيلسوف فرانسيس بيكون الا وهو الاستقراء بدلا من الاستنتاج ، والتجربة بدلا من القياس ، والملاحظة والتجربة ، كما هو معروف ، بالاضافة الى المنهج الديكارتي ، هى أساس كافة العلوم الحديثة . أقول أن درجة كافية من الحذر واجبة لاننا الآن نبتسم أحيانا حين نقرأ بعض صفحات هيرودوت عن مصر ، ولاسيما حيث تحتلط « مشاهداته » المباشرة بما نقله بالسمع ، وحيث يطلق الى التعميم عن ملاحظاته الجزئية .

ونحن اد نقرأ تاريخ بلادنا الحديث الذى كتبه الأوربيون نستطيع أن نفرق بين ثلاثة أنواع من مراجع التاريخ :

هناك أولا كتب الرحالة من أمثال فولنى وجيرار دى نرفال وفلوير وإدوارد لين وكنجليك وثاكرى والليدى دف جوردون وتشارلز داوق ولورانس ، الخ .. وهذه بعضها مصادر أولية قائمة على المشاهدة المباشرة ، وبالتالي يجب أن نفترض أن نسبة الذات فيها أكبر من نسبة الموضوع ، ومع ذلك فنحن نكتشف أن أغلبها أكثر موضوعية من أغلب كتابات رجال السياسة والدبلوماسية الموثقة كمؤلفات اللورد كرومر واللورد زيتلاند واللورد لويد واللورد كيلين لأنها بمثابة دراسات فى المسح الاجتماعى المحايد الذى لا يضع النتائج

قبل المقدمات . ومن هذه الفصيلة مذكرات الجيرقي المعروفة « بعجائب الاثار » وكتابات نقولا ترك ومذكرات عراقى ومحمد فريد وأحمد شفيق الخ .. هذه المصادر الأولية بغير ادعاءات لأنها مجرد شهادات شخصية ، وبقليل من الحذر نستطيع أن نفرق الذات فيها عن الموضوع .

وهناك ثانيا مؤلفات السياسيين والدبلوماسيين التى تدعى الموضوعية ، إنها فى العادة تعتمد على الوثائق الرسمية ولكنها تحتاج الى حذر شديد لأنها منذ البداية تمثل الواقع الموثق والتفسير والوصاف والأحكام من زاوية طرف واحد من جملة أطراف ، وهى لازمة لتكوين أية صورة تاريخية لأنها مصادر أولية لكتابة التاريخ . ومن هذا القبيل أكثر مؤلفات أساتذة العلوم السياسية والتاريخ فى الجامعات ومعاهد الأبحاث . هى موضوعية ولكن فى الحدود الجزئية .

وربما كان كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية هو البداية الحقيقية فى العصر الحديث لكتابة تاريخ مصر بالمعنى العلمى الكامل . وربما كانت « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك هى أول محاولة مصرية لاقتفاء اثر علماء الحملة الفرنسية واتباع منهجهم الموضوعى . وهذا يمثل النوع الثالث من كتابة التاريخ . وقد استمرت وتشعبت الدراسات التاريخية المصرية بظهور مدرسة « الأساتذة » ، أو المؤرخين المحترفين ، مثل سليم حسن وشفيق غريال ومحمد رفعت وقاسم وصبرى السوربوى وعبد الحميد العبادى وسوربال عطية وفؤاد شكرى وحسن ابراهيم حسن وعزت عبد الكريم الخ وتلاميذهم .. هذه الدراسات التاريخية الاكاديمية أتسعت فيها دائرة الموضوع وضاعت فيها دائرة الذات الى حد كبير ومع ذلك فلا يمكن فصلها عن التيارات السياسية والاجتماعية الكبرى السائدة فى عصرها أو عند أصحابها ولأن دائرة الموضوع فيها أوسع بكثير من دائرة الذات فهى فى مجموعها غير معروفة الا على مستوى المتخصصين والمتقنين .

ولم ينبج من هذه العزلة الا موسوعة عبد الرحمن الرافعى التاريخية « تاريخ الحركة القومية » الذى بلغ من شعبيته أنه اثر ولا يزال يؤثر فى أجيال متعاقبة من المصريين على كل المستويات منذ الاربعينيات : فنجدته مرجعا ثابتا فى هوامش المتخصصين ونجده فهما وفكرا وسلوكا فى أدمغة العديدين من رجال السياسة والصحافة والتعليم والاجتماع والمشتغلين بالحياة العامة فى مصر ، بل ونجده جزءا لا يتجزأ من الثقافة التاريخية عند شريحة لأبأس بها من الطبقة المتعلمة بصفة عامة منذ الاربعينيات . وقد اقترنت شعبية هذه الموسوعة التاريخية بازدهار التيار الوطنى الشمولى الذى أነع كرد فعل لثورة ١٩١٩ والديمقراطية الليبرالية ، بالعودة الى جذور الحزب الوطنى ، وأنا لا أعرف لهذا الكتاب نظيرا فى التأثير فى الخاص والعام الا كتاب اللورد كرومر « مصر الحديثة » بين الانجليز .

• • •

ومشكلة الموضوعية والذاتية مشكلة عامة تتجلى فى تدوين تاريخ كل أمة من الأمم وكل دولة من الدول ، فهى ليست مقصورة على تاريخ مصر أو العالم العربى ، وهى تتجلى أكثر ماتتجلى كلما وقف المؤرخ

أمام الحروب والثورات والتحولات التاريخية الكبرى ، وهى تتضح أكثر ما تتضح فى الانحياز القومى أو الوطنى أو الطبقي ، بل وفى الانحياز الدينى والطائفى والحزبى والأيدىولوجى بل أننا نجد أحيانا فى الانحياز الوجدانى لأنواع مختلفة من البطولات التى تظهر على مسرح التاريخ .

ففكرة المؤرخ الانجليزى عن سيرة جان دارك ودورها مختلفة عن فكرة المؤرخ الفرنسى ، بل ان فكرة المؤرخ الفرنسى ميشليه عن جان دارك تختلف عن فكرة من سبقوه من المؤرخين الفرنسيين . وحيرة المؤرخين الفرنسيين بين بناء تاريخهم الثورى فى حقبة من الحقب تتجلى فى تعدد مواقفهم من شخصيات مثل نابليون ودانتون وهيبير وروبسبير وما راوسان جوست وباييف على سبيل المثال ، ظهروا كلهم على مسرحها فى دورة تاريخية واحدة . والكلام نفسه ينطبق على تاريخ الثورة البلشفية بين المؤرخين من مختلف الجنسيات والاتجاهات والانتماءات . وقد تجاوز الامر اختلاف المؤرخين وامتد الى الرأى العام . حتى أن باريس كلها ليس فيها بعد مرور قرنين على الثورة الفرنسية شاهد واحد أو تمثال أو شارع أو ميدان يخلد اسم احد من ثوارها فيما خلا ميرابو ودانتون ونابليون وجنرالاته . وبنفس المنطق تنقسم الآراء حول أمجاد هنرى الثامن فى انجلترا وحول مأساة السير توماس مور . حتى من يجدون ابراهيم لنكونل نجدهم أصحاب رؤية مزدوجة ، فمنهم من يجد فيه موحد أمريكا وواضع اساس امبراطوريتها الحالية ، ومنهم من يجد فيه محرر العبيد ..

هذا التعدد ، بل والتناقض ، رغم وجوده فى البلاد المتقدمة ، تضيق فيه دائرة الذات وتتسع فيه دائرة الموضوع تبعا لامكانيات الحوار الديمقراطى فى المجتمع كله . فالحوار الديمقراطى يجعل كل شىء قابلا للبحث والمناقشة ، فتتكمش دائرة المقدسات والمسلمات الغيبية والرموز الأسطورية الى أقصى نطاق ممكن . وتستقر درجة درجة مناهج البحث التاريخية وأدواته وأهمها :

١ — فصل الذات عن الموضوع والتجرد من الآراء والمواقف والعواطف المسبقة تجاه الاشخاص أو الأحداث أو الدوافع أو الغايات .

٢ — النظرة الجدلية لحركة التاريخ فى الزمان والمكان .

٣ — النظرة الجدلية فى الحكم على الاشخاص والأحداث والوسائل والدوافع والغايات .

٤ — التخفف من الايقونات التاريخية والبحث الدائب عن الحقائق بدلا من الحياة العقيمة فى سجن المسلمين أو الحياة المتوهجة بالمجازات والرموز والأساطير .

٥ — الشك فى البديهيات دون وسوسة وامتحان كل شىء بالدليل العقلى لا بالدليل النقلي .

٦ — التوثيق الى أقصى مدى مستطاع .

٧ — الاعتراف بقابلية النفس للحط والاعتراف للغير بحق الخطأ بدلا من تكفير الغير أو اتهامه بالخيانة أو الجهل أو الجنون .

هذه المناهج والأدوات فى البحث التاريخى أسس عامة يجب أن تتوفر فى كتابة التاريخ حيثما كتب . غير أننا نلاحظ أن الفهم التاريخى فى العالم العربى الحديث ، أو على الأقل فى مصر الحديثة ، وبصفة مجسمة منذ ١٩٥٢ يبدو فى الظاهر انه ينفرد بجملة سمات ولكنها فى الحقيقة سمات مشتركة بين جميع الشعوب .

إذا نحن تجاهلنا مناهج البحث التاريخي وتجاهلنا أدواته تركنا الباب واسعا لاختلاط التاريخ بالفولكلور : هناك مثلا ثبات الزمن وثبات الرموز : أذكر أن محمد حسنين هيكل دعا العقيد القذافي الى جريدة الأهرام في أوائل السبعينيات أيام شهر العسل بين مصر وليبيا ، وحين قدمى اليه هيكل في مكتب توفيق الحكيم بدأ الامتناع على وجهه وعلق قائلا : « اسم لويس هذا اسم استعماري » . وصرفنا الامر بابتسامة صفراء على أنه نكتة أو دعابة غريبة بين غرباء ، ولكن كان واضحا عندي أن استجابته المعادية لاسمى كانت لأنه تذكر اسم لويس التاسع والحروب الصليبية . وكان في غير موضعه أن أشرح له كيف أن بعض مسيحيي العالم العربى يتخذون هذا الاسم اعجابا بلويس الرابع عشر أو بلويس باستير أو لمحمد التيمن باسم صديق لهم يحمل اسم « لويس » .

وأقرب شيء لهذا الموقف كان لعبة التداعى الحر التى يقوم بها المحللون النفسيون حين يطرحون كلمات مثل « أبيض » ، فتتداعى في ذهن المستجيب سلسلة من الالفاظ مثل « تلج » و « قطن » ، و « آيس كريم » ، و « ثوب الزفاف » الخ .. أو مثل « أحمر » ، فتتداعى سلسلة أخرى مثل « ورد » ، و « دم » و « توليب » و « شيوعية » ، الخ .. وهذا المنطق فان مجرد سماعه اسم « لويس عوض » جر الى ذاكرته بالتداعى الحر اسم « لويس التاسع » ، وهو بطبيعة الحال لايعرف أن لويس التاسع قديس عند الكاثوليك أما أقباط مصر فأرثوذكس وبالتالي فاسم القديس لويس لايعنى عندهم شيئا .

والعقيد القذافي ليس وحده في هذه الاستجابة ، فقد قرأت اسمى « لويس » واسم « لويس » شيخو اليسوعى في كتابات بنت الشاطىء وعشرات غيرها من نقادى موضوعا بين قوسين في سياق الهجاء أو مكررا تكرارا ملفتا للأذن لتذكير القراء بلويس التاسع .

ومنذ نحو شهرين قرأت للناقدة المصرية المعروفة صافى ناز كاظم في مجلة « المصور » عدد ١٦ مارس ١٩٨٤ ، عبارة نصها : « لم أكن أعرف أن البارون بايرون ، الشاعر الانجليزى الذى اشتهر بقصائد الحب ، كان قد سافر الى اليونان في يوليو ١٨٢٣ لينضم محاربا الى صف المتمردين الصليبيين ضد الخلافة العثمانية » . وهكذا في جملة سطور تحولت حرب تحرير اليونان الى امتداد تاريخى للحروب الصليبية . وقد قرأت نظائر لهذه العبارة بأقلام مؤرخين معروفين في العالم العربى عن فرديناند وايزابيلا وحروب تحرير اسبانيا في القرن الخامس عشر .

وبعض المصريين والعرب حين يتحدثون عن الحملة الفرنسية على مصر والشام يتصورونها ويصورونها على أنها تجديد للحروب الصليبية بعد ستة قرون من انتهائها ، وهو متضمن في كلام الناقدة صافى ناز كاظم عن اللورد بايرون ومثله كثير . ومع ذلك فهم لايجعلون ان فترة الثورة الفرنسية كانت في فرنسا وفى أوروبا كلها فترة انتكاس للمسيحية وللكنيسة الى حد أن الثورة الفرنسية ألغت التقويم المسيحى وصادرت أموال الكنيسة وأعدمت وشدت عديدا من رجال الدين وتوجت الكائن الاسمى في كاتدرائية نوتردام مكان الثالث المسيحى وكانت بعض أجنحتها الهامة تباهى بالالحاد وتدعو له .

وفي الجبرتي ما يوضح أن المصريين المعاصرين للحملة الفرنسية كانوا يرون الفرنسيين فاقدى الايمان بالأديان وأنهم قوم لا يؤمنون الا بالعلم والعقل . وفي الطهطاوى شرح لأن غالبية الفرنسيين في زمنه كانوا جمهوريين وليبراليين وعلمانيين من دعاة فصل الدين عن الدولة ويبغضون الملكية والاستقرائية ورجال الدين جميعا . ومع ذلك فبين المصريين والعرب من يصور التوسع الاستعماري الأوروبي في أفريقيا وآسيا خلال القرن التاسع عشر على أنه توسع صليبي وليس على أنه توسع « قومي » لأمكان فيه للمبشر الا بوصفه أداة من أدوات البنيكير أو رجل الصناعة أو رجل التجارة أو السياسة ، بل توسع قومي كثيرا ما يلجأ الى تغذية التعصب الديني في المستعمرات لاثارة الفتن الطائفية فيها أو يدعم المؤسسات الدينية الرجعية فيها ليديم تخلفها ويؤجل تبلور الشعور القومي فيها .

وهذا التفسير الديني للتاريخ لا تفسير له الا توقف الزمن في وجدان بعض المصريين والعرب عند فترة الحروب الصليبية التي لاشك قد تركت جراحا غائرة وندوبا باقية في نفوس الشرقيين لأنها لم تهدد هويتهم القومية فحسب بل هددت هويتهم الدينية كذلك . وهو أشبه شيء بفقدان الذاكرة التاريخية لمدة ستة قرون أو ثمانية قرون وثبات الزمان والأحداث والوجدان عند أشياء حدثت منذ ١٢٠٠ ميلادية ، وهكذا تحجرت الرمور التاريخية منذ ذلك الزمان البعيد .

هناك مثلا نموذج عبد الناصر في قمة مجده حين خرج كهرقل بهراوته يقاتل الاستعمار شرقا وغربا بنجاح لأبأس به . لقد كان الرمز التاريخي الشائع له في الخمسينيات والستينيات انه كان صلاح الدين الجديد . فهل كان في غايات عبد الناصر ووسائله وشخصيته حقا شيء من صلاح الدين ؟

لا شيء أكثر من أنه كان بطل استقلال قوميا وربما كان في ظروف أفضل من بناء الامبراطوريات مثل محمد على أو رمسيس الثاني أو تحتتمس الثالث . كان عبد الناصر بطل استقلال قوميا . كان داعية عروبة . بل لعل بعض دعاة القومية الاسلامية والوحدة الاسلامية ينظرون الى دعاة القومية العربية والوحدة العربية على أنهم اعداؤهم الايديولوجيون ومع ذلك فقد كان رمز عبد الناصر في زمنه هو صلاح الدين ، لا صلاح الدين رمز الفروسية والشرف كما مجدهته الاداب الأوربية ، ولكن صلاح الدين حامى العالم الاسلامى من غائلة الصليبيين . ما أبعد الرمز عن الحقيقة .

وعندما انتصر مصطفى كمال أتاتورك على اليونان في ١٩٢٣ انشد شوقي يقول :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جد خالد العرب

فاستخدم اسم الفاتح العربي في القرن السابع الميلادى رمزا « للغاوى » كمال أتاتورك الذى لم يبن مجده على الغزو بل بناء على بناء أمته ودولته من جديد . ولو تأنى شوقي شهورا لرأى أن أتاتورك كان على نقيص خالد بن الوليد على خط مستقيم . فعخالد بن الوليد كان أمير جيوش مدت تخوم الدولة العربية حتى كانت منها امبراطورية واسعة الاجزاء . وكال أتاتورك هو الذى صفى الامبراطورية العثمانية واكتفى بتركيا الصغرى قاعدة للقومية التركية أو الطورانية . وخالد بن الوليد كان من الصحابة الذين أعدوا بفتوحاتهم لقيام الدولة

الدينية القائمة على الجامعة الدينية بينا الغى أتاتورك الخلافة في أستانبول ونقل العاصمة الى أنقرة وأقام دعائم تركيا الجديدة على أساس الدولة العلمانية العنصرية . وليس هناك وجه شبه بين خالد وأتاتورك غير أن كلا منهما قاتل « الروم » لغايات تختلف كل الاختلاف . مرة أخرى نجد أن الرمز عير مطابق للحقيقة التاريخية .

خالد وطارق وصلاح الدين هم أشهر جنرالات الدولة الاسلامية منذ تأسيسها ، ولا نقول الدولة العربية لأن طارق كان من البربر وصلاح الدين كان كرديا . هؤلاء الاعلام الثلاثة تحولوا من حقائق تاريخية الى رموز تاريخية . فاذا نحن نظرنا الى الفهم التاريخي الأوروبي لم نجد شيئا يقابل هذه الظاهرة . لم نجد في العالم الحديث من يتخذ من الفاتحين القدماء رموزا للفتح الجديد . لم نجد انجليزيا يباهى خارج السياق التاريخي ، بأحمد الملك الفريد ، أو وليم النورماندى ، أو نلسون أو ولينجتون ولم نجد فرنسيا يباهى ، خارج السياق التاريخي ، بأحمد شريك أو لويس الرابع عشر أو نابليون ويجعل منهم رموزا للصراعات المعاصرة . كذلك لم نجد ايطاليا يباهى بأحمد يوليوس قيصر أو يونانيا يباهى بأحمد فيليب المقدوني أو الاسكندر الاكبر خارج السياق التاريخي .

اما يباهى الأوروبيون بأحمد ابطاهم الفاتحين كما ناهى نحن بأحمد تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث ورمسيس الثانى . هم صحائف ناضرة في « تاريخ » ناضر ولا أحد يجرحهم الى عالم الأحياء .

مرة واحدة فيما اعلم جرب الفرنسيون تجربتنا عندما انهارت فرنسا تحت كعب النازية الالمانية بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ . مثلما نسمى نحن « لواء اليرموك » و « لواء القادسية » و « لواء عين جالوت » عسى أن نبذل بسحر الماضي مرارة الحاضر ، كذلك انشأ الفاشست الفرنسيون « حكومة فيشى » « فرقة شارلمان » في فرنسا لتكون عوناً للجيش الالمانية المحتلة باعتبار أن شارلمان كان رمزا لوحدة فرنسا والمانيا في العصور الوسطى « ٨٠٠ ميلادية » . وقد فشلت التجربة لان الرمز كان ملفقا من جهة ومن جهة أخرى لايطابق الحقيقة بل يسوغ الاحتلال الاجنبى .

كذلك عاشت المانيا النازية في عابة من الرموز أكثر من عشر سنوات . ولم تكن هذه الرموز من صحائف التاريخ ولكنها كانت من صحائف الملاحم الجرمانية الوثنية : عاشت المانيا النازية على أبطال الخيال : تانهاوزر وسيجفريد وبارسيفال ولوهنجرين ، وكأنها تعيش في أوبرات فاجنر . ولكن الألمان حاولوا أن يحولوا الأسطورة الى تاريخ ولم يحولوا التاريخ الى اسطورة .

• • •

فاذا نحن طرحنا هذا السؤال : لماذا يقفز المصريون والعرب الى وراء الف عام لكي يحولوا تاريخهم الى رموز ، فرما وجدنا أكثر من اجابة على هذا السؤال .

فرما كان ذلك من شعور المصريين والعرب بخصوبة ماضيهم ومحدودية حاضريهم . فنحن لم نسمع

فرنسيا يعرفو ايطاليا ويذكر بى وطنه بأنه، مثل يوليوس قيصر، يعبر نهر الروبيكون. ونحى أيام الاحتلال البريطانى كنا نحلم بأن يظهر فينا محرر محارب مثل «أحمس» يخرج من أعماق الصعيد ليظهر البلاد من هكسوس العصر الحديث، رغم بعد الشبه بين الهكسوس والانجليز. أليس هذا نفس ماحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية حين أرادت أن تنشئ مجلس الشيوخ «الساتو» فى واشنطن فسمته الكايتول على غرار ما كان فى روما القديمة.

وربما كان ذلك لأن المصريين والعرب لايزالون يعيشون فى عصر الشعر والسحر حيث الكلمة تعويذة لها قوة الفعل.

ظاهرة أخرى نجدها فى الفهم التاريخي وفى كتابة التاريخ بين عديد من المصريين وابناء البلاد العربية بصفة عامة هى التعامل مع الماضى وكأنه حاضر أو قراءة الحاضر فى أحداث الماضى وأشخاصه. فمن المألوف مثلا أن نقرأ عن كليوباترا أنها كانت ملكة أجنبية فى مصر رغم أن البطلمة حكموا مصر نحو ثلاثمائة عام بين ٣٣٣ ق. م. و ٣٢ ق. م. وكانوا يحكمون مصر وفقا لمراسم العبادات والحكم التى كانت شائعة فى مصر القديمة، ورغم أن الاسكندرية كانت فى زمنهم حاضرة العالم القديم بعد أن رالت أثينا. وبالمثل فمس المألوف أن تصور أسرة محمد على على أنها أسرة تركية أجنبية رغم أنها تمصرت واستعربت، واقتربت أسماء بعض ملوكها بتأسيس امبراطوريات مصرية ولا سيما فى عهد محمد على وإسماعيل

وبالمقارنة هذا نجد أن بريطانيا من ١٧١٤ حتى ١٩١٧ كانت تحكمها أسرة هانوفر الألمانية منذ حورج الأول حتى ادوارد السابع. وكان جورج الخامس أول من لقب اسرته هذه بأسرة وندسور عام ١٩١٧. ومن قبل أسرة هانوفر الألمانية هذه جلست على عرش انجلترا أسرة أورانج وهى من أصل هولندى، ومن قبلها جلست أسرة ستورات وهى من أصل اسكتلندى، ومن قبلها جلست أسرة بلانتاجنيت وانجو الفرنسيين، سليله الكونت أنجو، وقد زودتا انجلترا بملوكها من ١١٥٤ حتى ١٤٨٥، ومن قبل كل ذلك كان وليم الفاتح الذى حكم انجلترا منذ ١٠٦٦ وسلالته من الملوك النورمانديين.

وربما كانت هناك عواطف عنيفة فى انجلترا بالنسبة لمؤسس كل أسرة من هذه الاسر الأجنبية وقت ارتقائه العرش، أى عند تغير الدولة من حال لحال، فهذا شأن السياسة دائما، ولكن من المقطوع به أننا لانجد مواطنا انجليزيا يعيش فى القرن العشرين، مؤرخا كان أو كاتباً أو قارئاً أو مجرد مواطن بسيط، يستشيط غضبا أو يبدى امتعاضه لأن يوليوس قيصر فتح انجلترا، فحكمها الرومان أربعة قرون، أو لأن النورمانديين فتحوا انجلترا عام ١٠٦٦ وحكمها آل بلانتاجنيت وآل انجو الفرنسيين حتى ١٤٨٥.

والبريطانيون اد يستعرضون تاريخهم وما مر بهم من تعاقب الغزوات والسلالات والثقافات: الرومان والانجلو سكسون والدنماركيون والبيكت والجوت والنرويجيون والنورمانديون، كل هذا على بنية أساسية غالية، لا يصيبهم القلق على هويتهم البريطانية بل يأخذون كل ماجرى مأخذاً طبعياً على أنه من سنن التاريخ والحياة. وبعد هذه القرون الطويلة من الانصهار والتكيف والتركيب لانسمع عن بريطاني يزدري بريطانيا لأنه من أصل سكسونى خسيس أو يحس بالزهو لأنه من أصل نورماندى نبيل. وربما كانت هذه المشاعر واردة

أيام وقوع تلك الغزوات التاريخية ولكنها انقضت انقراضا تاما منذ تبلورت الشخصية البريطانية في القرن الرابع عشر ، عصر الشاعر تشوسر « ١٣٤٠ — ١٤٠٠ » ، حين انتصرت اللغة الانجليزية القومية على اللغة اللاتينية . والامر نفسه بالنسبة للفرنسيين والاطاليين والاسبان ولاكثر القوميات الأوربية .

أما في مصر والعالم العربى فالانحيازات العاطفية المسبقة في الحس التاريخى أوضح ماتكون ، ونحن نجدها بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال عند المؤرخين وفي رأى العام وعند صناع الرأى العام وبين المواطنين العاديين الذين لم يتعرضوا لثقافة رسمية واضحة . ومرد هذه الحالة في تقديرى الى ثلاثة أمور :

- ١ — النظرة الفولكلورية الى التاريخ .
- ٢ — رفض الموت وتخيط الماضى .
- ٣ — تخريب السياسة للعلم والعقل .



فلننظر الى ما فعله المصريون بأنفسهم وبباطاهم القوميين في التاريخ الحديث : مصطفى كامل المتوفى عام ١٩٠٨ ، ومحمد فريد المتوفى عام ١٩١٩ وسعد زغلول المتوفى عام ١٩٢٧ هؤلاء أبناء دورة تاريخية واحدة على وجه التقريب : دورة البحث عن الاستقلال الوطنى وعن الديمقراطية الدستورية . ومع ذلك فقد تعرضت سمعتهم التاريخية للتأرجح بين التقيضين .

فأحمد عرابى كان قبل فشل ثورته في ١٨٨٢ ملتقى آمال الكثرة المطلقة من المصريين ، فلما انهزم انقلب عليه الكثيرون كما ذكر جون نينيه المعاصر لأحداث الثورة العرابية ، وظهرت مدرسة سياسية تحمل حماقته مسئولية الاحتلال البريطانى بدلا من تحميلها لخيانة الخديو توفيق وأعوانه ، وكان الحزب الوطنى من أكبر المروجين لهذه النظرية نظرا لصلاته الحميمة بالخديو عباس الثانى . بل ان من الناس من اتهم عرابى بالتواطؤ مع الانجليز لاحتلال مصر .

كل هذه كانت تخريجات سياسية ربما كانت جائزة في عالم السياسة في زمها ، ولكن الغريب أن نجد مؤرخا مثل عبد الرحمن الرافعى لا يكتفى برصد هذا الكلام بعد نصف قرن ولكن يصدر حكم القاضى بأن عرابى جر بجھله وغروره وطموحه نكبة الاحتلال البريطانى على مصر ، لمجرد أن الرافعى كان قطبا من أقطاب الحزب الوطنى في العشرينيات والثلاثينيات والاربعينيات . وهكذا اتفقت كلمة الملكيين الرجعيين والوطنيين المتطرفين قبل ثورة ١٩٥٢ على إدانة عرابى .

ومع ذلك ، فجدير بالذكر أن الضباط الاحرار الذين قاموا بثورة ١٩٥٢ وكانوا مفتونين بموسوعة الرافعى التاريخية « تاريخ الحركة القومية » وتبنوا كل ماورد فيها من أوصاف وأحكام تتصل بشخصيات مصر التاريخية منذ الحملة الفرنسية حتى نهاية عهد الملكية رفضوا تقييم الرافعى لعرابى رغم أن أكثرهم ترى في مدرسة الحزب الوطنى وما نبع منه من حركات شمولية كجماعة مصر الفتاة وجماعة الاخوان المسلمين الخ .. نجدهم قد قبلوا تمجيده لعمر مكرم ولمصطفى كامل ولمحمد فريد ، وقبلوا تنديده بسعد زغلول ومصطفى

النحاس ، أما تنديده بعراى فقد رفضوه .

أذكر ان الدكتور عبد القادر حاتم ، كان وزيرا للثقافة والارشاد القومى أيام عبد الناصر ، وكانت وراثة تعد يومئذ برنامجا مسرحيا استعراضيا عن تاريخ مصر القومى ، فسألنى هذا السؤال : « المخرج يعد الآن مشاهد عراى فى مظاهرة عابدين العسكرية ضد الخديو توفيق وفى كتاب الرافعى ان عراى كان على صهوة حواده وهو يعلن احتجاجات الجيش على الخديو الواقف قبالة ، فأمره الخديو أن يترجل عن حصانه وأن يغمد سيفه قبل البدء فى الكلام فأطاع . ألا ترى أنه يغض من بطولة هذا الناصر أن يطيع هذا الطاغية ، وإن من الانسب فى مشهد المواجهة أن نجعل عراى يخاطب من فوق صهوة حصانه الخديو الواقف على الأرض ؟ » فاجبت : « هذا بغير شك موقف أقوى فى رواية أعظم ، ولكن رأى أن تحترم التاريخ » .

والدرس المستخلص من هذا هو أن عراى كان قد تحول فى وجدان الضباط الثوار الى رمز الوطنية وتحدى الطغيان ، لاشك بسبب أنه قاد ثورة عسكرية ليحقق مطالب وطنية وديمقراطية ، وهذه هى الخطوة الأولى فيما يمكن أن سمي « تحول التاريخ الى فولكلور » وهناك وضع مشابه لهذا فى صورة عمر مكرم ومصطفى كامل ومحمد فريد فى وجدان بعض المصريين ، هى صور أكبر من الحجم الطبيعى ، كلها مستمدة من تاريخ الرافعى . وهذا لا بأس به من الناحية السياسية ولكنه من الناحية التاريخية لايساعد الشعب المصرى كثيرا على معرفة حقائقه .

وفى الطرف الآخر نجد أن صور سعد زغلول النموذج المصرى الرائع للوطنية المعتدلة والكفاح الديمقراطى الدستورى ، كانت فى تاريخ المؤرخين الرسميين والعرفيين ، بورتريهات شه كارىكاتورية فى مرايا لونا باركية ، أكثر خطوطها مستمدة من رأى المعارضة . كيف يكون سعد زغلول وطنيا وهو زوج بنت مصطفى باشا فهمى الذى ظل رئيس وزراء مصر أربعة عشر عاما فى ظل الاحتلال البريطانى ؟ .. كيف يكون سعد زغلول ديمقراطيا وهو زعيم الرعاع الذى لا يخضع أبدا لرأى أغلبية رملاته بل يستعدي عليهم الجماهير كلما اختلفوا معه ؟ كيف يؤمن سعد زغلول وهو مقامر فى السياسة والحياة ؟ لماذا يريد سعد زغلول أن يكون رئيسا للوزراء ولا يكتفى بأنه زعيم الامة ؟ وهكذا .

باحتمار : انتقلت معارك السياسة الى كتب التاريخ ، حتى أساتذة التاريخ اشتروا فى ولائم الاحقاد ، وسادت محاكمة الناس بالنوايا . ووقع الكثيرون ضحية هذه الأوصاف المفرضة والأحكام المتحيزة والشعارات الساذجة والتشهيرات الحزبية .

كل هذا : تقديس الى حد العبادة أو رفض الى حد الكراهية والاحتقار ، سببه الظاهرى خلط التاريخ بالسياسة الحية ، أما سببه الحقيقى فهو أن القضايا والصراعات الفكرية والسياسية والاجتماعية الاساسية فى مصر باقية بغير حل نهائى منذ خرجت مصر نحو ١٨٠٠ من اطار الدولة العثمانية ، وهى آخر وجه من وجوه الدولة الدينية الجامعة : منذ أن بدأ بناء الدولة الحديثة فى مصر ، بانتصار العلمانية والفكرة القومية والفكرة الديمقراطية والفكرة الاشتراكية ، وبترجع كافة قيم العصور الوسطى ومؤسساتها أمام قيم العصر الحديث ومؤسساته ، لاتزال هناك بذور سلفية فى كل وجه من وجوه الحياة نجدها راقدة فى حالة خمول أيام قوة مصر

ومجدها ، ونجدها تتجدد وتزدهر في فترات الهزيمة والضعف . من أجل هذا نجد أكثر مؤرخينا عاجزين عن العبور من الذات الى الموضوع بالدرجة الكافية ، وهم في هذا ليسوا نسيجا وحدهم ، بل هم صور مهذبة من عامة المواطنين العاجزين عن العبور من الذات الى الموضوع .

والنماذج كثيرة لاختلاط التاريخ بالفولكلور ، ومن أبرزها الفولكلور السياسي الذي تجمع حول شخص الخديو اسماعيل ومشروع قناة السويس بتأثير الغضب الانجليزي في القرن التاسع عشر ضد هيمنة الفرنسيين على مشروع القناة والعصب التركي ضد استقلالية الخديو اسماعيل . كذلك تجمع الفولكلور السياسي الديني حول أشخاص جمال الدين الأفغاني وعبد الله نديم في القرن التاسع عشر ، بحيث أصبح من العسير تناول هذه الشخصيات الفكرية بالبحث التاريخي الموضوعي الموثق دون اثاره حساسيات المحافظين . أما في القرن العشرين فنحن نرى الفولكلور السياسي الديني يتجمع الآن حول الشيخ حسن البنا في عهد الملكية وحول المفكر سيد قطب في عهد الجمهورية . لقد كادت دراستهم أن تدخل في باب الهاجيوغرافيا « علم سير القديسين والأولياء » والايكونوجرافيا « علم دراسة الايقونات » لا في باب التاريخ .

ولكن أخطر ما يواجهنا الآن هو تكثيف الفولكلور السياسي والاجتماعي والثقافي حول مايسمونه عصر النهضة المصرية في مصر العثمانية خلال القرن الثامن عشر ، وهو كما يقولون الريسانس القومي داخل الثقافة التقليدية الذي أجهضه دخول مصر في علاقات مباشرة مع أوروبا منذ الحملة الفرنسية ونجمت عنه في تقديرهم حالة « الاغتراب » و « فقدان الهوية » اللذين تعاني مصر منهما منذ أخذت عن الغرب أسس الدولة العلمانية الحديثة .



وربما كان من النافع الان ننسى حقيقة هامة ، وهي أن كتاب التاريخ المصري ظلوا عبر ألف عام أو يزيد ، كلما دونوا تاريخ البلاد بدأوا ببداية الخليقة منذ آدم وحواء حتى نوح والطوفان وقصص الأنبياء حتى عصر الرسول ، وهنا يبدأ التاريخ بظهور الاسلام ، ثم يبدأ تاريخ مصر منذ الفتح العربي حتى عصر المؤلف صاحب المدونة التاريخية ، مع التركيز الشديد على الحقب القريبة منه والتركيز الأشد على أحداث عصره . ومن النافع الان ننسى أن رفاة الطهطاوى كان أول من بدأ تاريخ مصر في « مناهج الالباب » « ١٨٦٩ » بعصرها الفرعوني ، فاقترب بذلك كثيرا من فكرة التاريخ كما يفهمها الأوروبيون في العصر الحديث .

الفصل التاسع

بين السياسة والفن^(١)

في ٢٣ مايو ١٩٨٣ أرسل الى صديقي البروفسور ياروسلاف ستيتيكفيتش ، أستاذ الأدب العربى بجامعة شيكاغو ، نيابة عن هيئة علمية معروفة تسمى « ميسا » خطابا يدعوني فيه الى حضور مؤتمر « ميسا » السنوى المقرر عقده من ٣ الى ٦ نوفمبر ١٩٧٣ بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية .

قالت الدعوة اننى سأكون أحد متكلمين ثلاثة في الجمعية العمومية لمؤتمر « ميسا » هم الأستاذ البرت حوراني أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة أوكسفورد ، وهو بريطانى من أصل لبنانى ، اشتهر بكتابه المعروف عن مصر فى عصرها الليبرالى من رفاة الطهطاوى الى طه حسين ، والأستاذ ماكسيم رودانسون أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة السوربون ، وهو فرنسى يهودى ذو انتماءات ماركسية ومعروف بتعاطفه الشديد مع الاسلام ، ثم شخصى .. وقبلت الدعوة شاكرا .

وفى أكتوبر ١٩٨٣ اتفقت مع الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس دار الهلال على أن تكون مهمتى الثقافية الأوربية لمجلة المصور استكمالا لرحلتى الأمريكية ، ومتزامنة مع رحلتى العلمية لجامعة شيكاغو وهذا أعود للقراء كما عودتهم أيام عملى فى « الأهرام » بصورة حية عن حالة المسرح الأوربى أو الثقافة أو الفكر فى لندن وباريس .

(١) « المصور » ١٢/٢٣/١٩٨٣

واسم « ميسا » مأخوذ من الحروف الأولى لاسم « جمعية دراسات الشرق الأوسط » بالانجليزية ، وتضم هذه الجمعية نحو ألف عضو كلهم من أعضاء هيئة التدريس في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط كله ، وليس العالم العربى وحده . ففهم علماء التركيات وعلماء الايرانيات والعلماء في دراسات باكستان وأفغانستان وجمهوريات روسيا الاسلامية ومجتمعات البربر واريتريا في افريقيا ، الخ ... الى جانب العلماء المختصين في العالم العربى .

ومثل هذا التعدد في الاهتمام الجغرافى نجد تعددا في نوعيات التخصص ، فهناك العلماء المختصون في لغات الشرق الأوسط وآدابها ، وهناك الأساتذة المختصون في تاريخ كل دولة من دول هذه المنطقة . وهنا الأساتذة المختصون في العلوم السياسية أو الاقتصادية أو الشؤون الدولية المتصلة بها ، وهكذا .

وفى كل عام تتبنى جامعة من جامعات أمريكا هذا المؤتمر السنوى وتشرف على الاعداد له وتنظيمه بل وتمويله الى حد ما . وقد وقع ذلك العبء في هذا العام على جامعة شيكاغو وتقرر أن يقع العبء في العام القادم (١٩٨٤) على جامعة كاليفورنيا حيث ينعقد المؤتمر في سان فرانسيسكو .

وقد اشترك في المؤتمر هذا العام نحو سبعمائة مشترك ، اقاموا خلال الأيام الأربعة سبعين ندوة علمية في مختلف التخصصات بمتوسط أربعة متكلمين في كل ندوة . أما عدد الحاضرين في كل ندوة فكان لاضابط له لانه كان يتراوح بين عشرين مشتركا ومائة مشترك . وكانت ندوات السياسة الحية أكثر اجتذابا للمشاركين من ندوات اللغويات والتاريخ الوسيط . فمثلا كان في الندوة التى ادارها صديقى ستينكيفتش ، وقرأ فيها بحثا عن « الناقه والجمال في القصيدة العربية الكلاسيكية » نحو عشرين مشتركا بينما اجتذبت الندوة التى ادارها الدكتور حميد الانصارى (جامعة جونز هوبكنز) وقرأ فيها بحثا عن « الزاوية الحمراء بين الفتنة الطائفية والانتهازية السياسية » أكثر من مائة مستمع .

وقد كان نصيب مصر من مداولات المؤتمر كبيرا وبعض موضوعاته حساسة ، ولذا فقد حزننا لأنى لم أجد بين المشاركين المصريين في المؤتمر ، ولو بصفة مراقبين ، غير الأستاذ السيد ياسين من الأهرام . وقد كنت اتمنى أن توفد بعض جامعاتنا على نفقتها نفرا من علمائنا ، ليس بالضرورة لقراءة السحوث ، فهذه فيما لاحظت كانت وفقا على اعضاء « ميسا » من أساتذة الجامعات الأمريكية ، وانما بصفة مراقبين أو مشاركين من الخارج لهم حق المناقشة وهو ما لابد من ترتيبه سلفا ومنذ الآن مع رئاسة « ميسا » ، وهو أمر ممكن مادام المبعوث أستاذ في جامعة معتمدة أو كاتبا أو مفكرا كبيرا تعترف به جامعات الخارج . وقد حضر الأستاذ عزيز ابراهيم قنصل مصر العام في شيكاغو بعض جلسات المؤتمر ، وقد سعدت أن أجده موضع احترام خاص من أساتذة جامعة شيكاغو .

كان نصيب مصر في بحوث المؤتمر كبيرا . فقد قرأت في الندوات الدكتور منى ميخائيل (جامعة نيويورك) بحثا عن « الكوميديا الاجتماعية عند أحمد شوقي : الست هدى » . وقرأ الدكتور كمال عبد الملك (جامعة كولومبيا البريطانية) بحثا عن « أحمد فؤاد نجم : شاعر مصر الشعبى » . وقرأ الدكتور كنيث

كونو (جامعة كاليفورنيا) بحثا عن « نخبة العائلات في المنصورة بين ١٧٤٠ و ١٨٤٥ : دراسة في
الاوليجاركية الاقليمية » . وقرأ الدكتور جيمس توت (جامعة نيويورك فرع بنجهامتون) بحثا عن « تعدد
المهن والصنائع والتكوين الطبقي في الريف المصري » . وقرأ الدكتور خوان كامبو (جامعة ميشيجان) بحثا
عن « الأضرحة والتمايم : تحولات رمزية في تصاوير الحجاج المصريين » . وقرأت الدكتورة فدوى الجندى
(جامعة ولاية كاليفورنيا) بحثا عن « النشاط الاسلامي المعاصر والجدل الحالي في مصر » . وقرأ الدكتور
جاك كرابس (جامعة ولاية كاليفورنيا) بحثا عن « الحزب الوطني المصري والجامعة الاسلامية » . وقرأ
الدكتور دانييل بروميرج (جامعة شيكاغو) بحثا عن « الوحدة والاختلاف في دراسة البعث الاسلامي :
الدروس المستفادة من مقارنة جماعات الاخوان المسلمين في مصر وسوريا » . وقرأ الدكتور باتريك جافنى
(جامعة نوتردام) بحثا عن « الوعظ والوعاظ في مصر المعاصرة » . وقرأ الدكتور مارفين واينبام (جامعة
اللينوى) بحثا عن « دور السياسة الداخلية والخارجية في سياسات الاصلاح الاقتصادي بمصر » . وقرأت
الدكتورة باربرا لارسون (جامعة نيوهامشاير) بحثا عن « مشاركة الرجال والنساء في أسواق الريف
المصري » . وقرأ الدكتور جون مريام (جامعة بولينج جرين) بحثا عن « سياسات الطاقة الزراعية المصرية :
امكانيات التنمية » . وقرأ الأستاذ السيد ياسين (مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام) بحثا عن
« السلوك البيروقراطي في مصر » . وقرأت الدكتورة ليلي العماد (جامعة نيويورك) بحثا عن « النساء
والدين في الخلافة الفاطمية » . وقرأ الدكتور جوناثان بيتس (جامعة هارفارد) بحثا عن « النقوش الفاطمية
في الجامع الأزهر » . وقرأت الدكتورة كارولين وليامز (الجامعة الأمريكية بالقاهرة) بحثا عن « النقوش
القرآنية على تابوت الحسين » . وقرأ الدكتور مايكل بيتس (جمعية النقود الأمريكية بالقاهرة) بحثا عن
العملات الفاطمية وعملات بنى بويه » . وقرأ الدكتور مارك داي (جامعة انديانا) بحثا عن « موازنة بين
زقاق المدق لنجيب محفوظ ومدام بوفاري لفلوير » . وقرأت الدكتورة أريكا دود (الجامعة الأمريكية ببيروت)
بحثا عن « دور النقوش في الفنون الفاطمية الصغرى » . وقرأ الدكتور أثر جولدشميث (جامعة ولاية
بنسلفانيا) بحثا في « مذكرات محمد فريد كمصدر من مصادر التاريخ المصري الحديث » وقرأ الدكتور
ريموند هينبوس (كلية سانت كاترين) بحثا في موضوع « النشاط الحزبي في سوريا ومصر : المشاركة
السياسية في الدول السلطوية الساعية الى الحداثة » . وقرأ الدكتور ايرل سوليفان (الجامعة الأمريكية
بالقاهرة) بحثا عن « النساء في البرلمان المصري » . وقرأ الدكتور روبرت بيانكى (الجامعة الأمريكية
بالقاهرة) بحثا عن « تمثيل المصالح في مصر الحديثة وانماطه المتغيرة » . وقرأت الدكتورة نانسي جالاجر
(جامعة كاليفورنيا) بحثا عن « الحرب والمرض : مصر في الاربعينيات » . وقرأ الدكتور هانى فاحورى
(جامعة ميشيجان) بحثا عن « آثار النمو السكاني على التنمية الاقتصادية والاجتماعية في مصر » . وقرأ
الدكتور تيموثى ميتشل (جامعة برنستون) بحثا عن « الخوف من 'الجمهور وجهله : جوانب في تكوين
الفكر السياسي المصري الحديث » . وقرأ الدكتور زكريا لوكان (جامعة نيويورك) بحثا عن « العمر
المصريين كما يراهم غيرهم » . وقرأ الدكتور ديلويرث باركسون (جامعة بريجهام يونج) بحثا عن
« مصطلحات التخاصب في اللغة العربية المصرية » . وقرأت الدكتورة آن رويال (جامعة تكساس) بحثا

عن « العوامل المؤثرة في اللهجة العربية القاهرية » ، وقرأت الدكتورة عليه رشدى (جامعة وين) بحثا عن « اللغة والقومية : العربية والنوبية » وقرأ الدكتور ايفريت روسون (جامعة هارفارد بحثا عن « اللهجات الشعبية المصرية وتطورها التاريخي » . وقرأ الدكتور دونالد ريد (جامعة جورجيا) بحثا عن « علم المصريات للعلماء المصريين : بين الاستعمار والتحرير من الاستعمار » .

ومن هذا نرى أن مصر خصصها نحو ٣٥ بحثا من نحو ٣٠٠ بحث أى أكثر من ١٠٪ من بحوث المؤتمر الى جانب نصيبها طبعاً في الدراسات المشتركة عن الأدب العربى وعن السياسة الجارية في الشرق الأوسط . وقد لاحظت أن المؤتمر ركز هذا العام على بؤرتين هما بالترتيب أو ربما بالتساوى ايران وتركيا . فخصص لكل منهما نحو ٢٠٪ من بحوث المؤتمر . ثم نسبة لا بأس بها من البحوث عن أفغانستان وقليل من البحوث عن المغرب العربى وعن الاسلام في افريقيا السوداء وعن السعودية . لاشئ عن دول الخليج . لاشئ عن العراق الا مشكلة الاشوريين . وكانت الظاهرة اللافتة للنظر هى خلو المؤتمر تقريبا من البحوث عن المشكلة الفلسطينية وكأنها قضية وضعت على الرف يأسا أو عمدا . كذلك عجبت لان لبنان الذى نظنه بؤرة الأحداث لم يحظ بأكثر من بحث أو بحثين ، أما لأن الأمريكيين يعدون مشكلته مجرد وحه من المشكلة الفلسطينية أو أصبحوا يعدون أهله مجرد قتلة بالأجر . كذلك يجب أن نلاحظ أن البحوث عن مصر في حلقات المؤتمر كان أكثرها هامشيا .

ومن هذا التحليل الاحصائى نجد أن المؤتمر وجه اهتمامه الأول لدراسة ايران وتركيا وأفغانستان وهى تمثل البطن الرخوة للاتحاد السوفيتى كما يقولون في الانجليزية . دائما الاعتبارات الاستراتيجية . دائما . أو على الأقل هذه كانت اهتمامات « الأساتذة » منذ عام ، فالمؤتمر عادة يتم الاعداد له قبل انعقاده بعام . ومع ذلك فهذه النظرة فيما يبدو غير دقيقة لأن من يتأمل موضوع البحث المحدد للمؤتمر المتعقد « بكامل هيئته » وليس في صورة لجان فرعية ، يجد أنه « الشرق الأوسط العربى بعد العصر الليبرالى » . وهذا مادعا الضيوف الثلاثة : حورانى ورودانسون وشخصى للحديث فيه أمام نحو سبعمائة عضو في المؤتمر .

ومن هذه الصياغة نستطيع أن نستخلص ثلاثة أمور : أولا أن مشكلة الديمقراطية في العالم العربى موضوع الساعة عندهم وهى أهم مايشغل علماء السياسة والتاريخ الحديث والشئون الدولية في جامعات أمريكا ، وربما مراكز السلطة منها ، وثانيا أن هؤلاء الأساتذة متفقون على أن العصر الليبرالى في العالم العربى قد اندثر (في مصر منذ ثورة ١٩٥٢ وفى سوريا منذ حسنى الزعيم والحناوى والشيشكى وفى السودان منذ عبود ، الخ ... وفى غيرها لم يندثر لانه لم يولد بعد) ، وثالثها انهم في حالة حيرة ولذا فهم يطلبون رأى المفكرين من خارج أمريكا ليمتحنوا آراءهم بأراء الغير .

ومصدر هذه الحيرة في اعتقادى هو تصورهم ان الديمقراطية قد جريت في العالم العربى وفشلت ، وان الشمولية قد جريت فيه وفشلت ، والسؤال هو : وماذا بعد ؟ وقد كان واضحا من اتجاه البحوث انشغال العلماء بأثر الثورة الايرانية على مستقبل الديمقراطية في العالم العربى . وكان صديقى رودانسون مشغولا بأثر

ليبيا أكثر من اللازم . وبين الانشغال بايران ولبيا ضاع الفاعل الأصلي .

على كل فقد كنت أول المتكلمين الثلاثة في الهيئة الكاملة للمؤتمر وأثبت احتجاجي على صياغة عنوان موضوع البحث ، لأن قولنا « الشرق العربي بعد عصره الليبرالي » هو بمثابة شاهد على قبر الديمقراطية ، وأسست احتجاجي على أن الروح الديمقراطية لم تمت في مصر على المستوى الشعبي بدليل فشل كل التجارب الشمولية ، حتى الباهرة منها ، في اقناع المواطنين بالتنازل عن حرياتهم وحقوقهم باختيارهم . وسوف يجد القارئ كلمتي في المؤتمر مترجمة في مقالتي التالية .

وجائني دعوة من جامعة جورجتاون واشنطن ان القى محاضرة في موضوع « الوضع الراهن للثقافة المصرية » ، ودعوة من جامعة جونز هوبكنز ان القى محاضرة في تاريخ الديمقراطية المصرية . وهكذا قضيت في واشنطن ثلاثة أيام لم أر فيها أحدا الا أساتذة الجامعات وطلابها ، ثم شددت الرحال الى نيويورك .

وكنت أزمع أن أبدأ جولتي المسرحية في نيويورك . وبالفعل وحدث فيها اهتماما خاصا بمسرح صمويل بكيت واللا معقول ، ومسرح تشيخوف (« النورس » و « بستان الكرز » و « الشقيقات الثلاث » و « الخال فانيا ») كلها معروضة في موسم واحد وكانت هناك بعض الشكسيبيات كالعادة . وكنت أود أن أشاهد بعض المسرحيات ربما للمرة الرابعة ، ولكني كنت أعد نقودي فقررت الا أرى الا مسرحيات جديدة .

وفرحت حين قرأت عن تجربة جديدة من اخراج المخرج الانجليزى بيتر بروك لاوبرا « كارمن » سبق أن أخرجها في السينا ، وسماها « مأساة كارمن » ، ثم عن مسرحية جديدة للكاتب الأمريكى ادوارد ألبى . ولكن فرحتي زالت عندما اكتشفت أن مسرحية اليبى قد انتهى عرضها منذ يومين وأن « كارمن » لن تفتتح الا بعد أسبوع ، ولاشك أن مقاعدها كانت محجوزة كالعادة لشهور قادمة . وفي نيويورك تفضل الأستاذ حسان العبادى فنصل مصر العام ، مشكورا بدعوتي لمشاهدة « بستان الكرز » لتشخوف ، ولكني قررت أن أشاهدها في لندن .

وهكذا شددت الرحال الى القارة الأوربية ، فقضيت أسبوعا في لندن ثم أسبوعا في باريس حيث تعلمت شيئا كثيرا .

شاهدت في لندن خمس مسرحيات هي « بستان الكرز » لتشخوف و « سيرانو دى برجرانك » لادمون رويستان و « القطط » ، وهي مسرحية مقتبسة عن مجموعة قصائد لالبيوت ، و « عادة البلاد » وهي مسرحية جديدة ، و « زكام الصيف » لنويل كوارد . أما في باريس فقد شاهدت أربع مسرحيات هي « البنت الطيبة من سيتشوان » لبيوت ، و « لكل حقيقته » لبيرانديلو ، و « موت دانتون » لبوخنر ، و « فاصل موسيقى » (انترمتزو) لجان جيروود . وقد سعدت بصحبة الشاعر أحمد حجازي في مشاهدة بيرانديلو وبوخنر .

وفي وقت زيارتي للندن كان يعرض على مسارحها نحو سبعين مسرحية نحو ثلثها من المسرحيات

الجادة . وكانت نسبة المسرحيات الموسيقية منها كبيرة لأنها تعد استثمارا ناجحا . وعرفت من ندوة تليفزيونية حول حالة المسرح البريطاني ان عدد رواده في العام الماضي بلغ تسعة ملايين شخص وأن دخل الشباك عن هذه الفترة بلغ ستين مليون جنيه استرليني ، وهذا خلاف عشرات الملايين التي يقدمها مجلس الفنون البريطاني كدعم للمسرح الجاد . وهناك لا يحسبون في احصاءات الرواد عدد الملايين الذين شاهدوا المسرحيات في التليفزيون كما نفعل نحن للمغالطة ، وإنما يحسبون فقط التذاكر المباعة .

أما في باريس فلم أقف فيها على احصاءات عن رواد المسرح أو دخله ، وإن كان مارأيته من تخمة فنية يوحى بنفس النتائج . فقد كان عدد المسرحيات المعروضة وقت اقامتي بها نحو مائة وأربعين وثلاثها أيضا من المسرح الجاد .

وقد تأكدت لي ملاحظاتي في الأعوام السابقة على أن المسؤولين عن المسرح يركزون كل موسم مسرحي على مؤلف مسرحي أو مؤلفين من التراث . ففي موسم ما يتجه الاهتمام الى كلوديل ، وفي موسم آخر الى فولتير وفي موسم ثالث الى بريخت وفي موسم رابع الى اليونان وفي موسم خامس الى صمويل بيكيت وفي موسم سادس الى لوركا أو أرابال وهكذا ، هذا عدا مسرحيات الريبرتوار (الذخيرة) المألوفة التي يملكها كل مسرح جاد ويعيد تمثيلها سنويا في أيام محددة كل أسبوع مع مراعاة قيامه بتقديم نص جديد أو أكثر كل موسم .

وقد كان التركيز هذا العام في باريس على أحياء مسرحيات جان جيرودو وأدمون رويستان . أما مسارح لندن فقد كان التركيز فيها هذا العام على أحياء مسرحيات تشيخوف ومسرحيات أدمون رويستان . كذلك من الظواهر هذا العام عودة سارتر الوجودي وبيكيت اللامعقول واختفاء بريخت الشيوعي تقريبا من العواصم الثلاث .

وفي أثناء وجودي في لندن اجتاحت انجلترا المظاهرات السياسية : هذه ضد نقل الصواريخ النووية الى انجلترا (كروز وير شنج) ، وهذه ضد أصحاب مطابع الصحف ، ورأيت في ريجنت ستريت وبيكاديلي مظاهرة طولها كيلومتر تسير تحت المطر في حراسة البوليس وتهتف ضد اعلان استقلال اترك قبرص من جانب واحد . حدثني صديق لي في وزارة الخارجية البريطانية قائلا (« هذا ليس غريبا . ففي لندن ١٥٠ ألف قبرصي مهاجر » . قلت : « تقصد يوناني ؟ » قال : لا . بل أقصد قبرصي ، من قبرص » .

هذه مناظر مألوفة في أوروبا . المظاهرات تسير سلمية وتنتهي سلمية ، والاحتجاج يرتفع بلا تدمير أو حرائق الا فيما ندر . وسألت نفسي : ولماذا في بلادنا ينتهي كثير من المظاهرات بالتدمير والتخريب وأحيانا بالنهب والسلب ؟

كان من الناس من يجيب دائما : هو الكبت السياسي والاجتماعي المختزن . ربما . ولكن بصرى كان يتجه دائما الى قاع المدينة . لا أقصد « الفقراء » ، ولكن أقصد « الصعيح » والعاطلين بالارادة . ففي المدينة المصرية عدد من الزعر والحرافيش والجعيدية ، كما كان الجبرقي يسميهم ، أكثر مما تحتمله أية مدينة ،

وكان المماليك يستخدمونهم في خلافاتهم كما يستخدمون « الالضاشات » وينمون فيهم روح الفتوة الزائفة لاثارة الفتن عند الاقتضاء . وهم الآن على حالهم الأولى ، لم تستوعبهم حضارتنا الحديثة (فرسان بلا قضية .

وحين ترى رجالا في شرح الشباب وتقام العافية يتحنجل بين السيارات في وسط العاصمة ليبيع الفوط الصفراء أو عقود الريحان أو مناديل كارمن ، وهو عمل بنت صغيرة أو غلام ، فمدق فيه جيذا وستفهم مأقصد اليه . حدق أيضا في آلاف الرجال الأشداء المتلطفين في أوقات العمل حول البوتيكات والورش والحراجات واكشاك السجائر والحرائد والجمعيات الاستهلاكية وفي نواصى الشوارع وحول المحطات والفنادق والمحآكم ، بلا عمل يدوى أو عقلى أو فنى ، وستفهم مأقصد اليه .

ومادمنا نتحدث عن احياء الديمقراطية فلندكر من يرون ضرورة الاستعداد لممارسة حق التظاهر السلمى كما يحدث في البلاد الديمقراطية . ولكن لامناص أيضا من الالتفات الى قاع المدينة الذى أحرق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ وأفسد ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ وأدخل الزاوية الحمراء في سجلات تاريخنا الحزينة .

الفصل العاشر

الأيديولوجيا والحريات^(١)

« كلمة القيت بالانجليزية في مؤتمر جمعية دراسات الشرق الأوسط (ميسا) بمدينة شيكاغو في ٥ نوفمبر ١٩٨٢ »

من أصعب الأمور متابعة فكرة الحرية أو تحليل مضمونها النظري عبر التاريخ المصرى حتى عام ١٧٩٨ ، وهو تاريخ حملة بونابرت على مصر . وبغض النظر عن تاريخ مصر الفرعونية ومعتقداتها شبه الأسطورية التي تركها لنا المؤرخون والجغرافيون ومدونو الأساطير اليونانية والرومانية ، يمكننا أن نطمئن الى صدق حقيقة واحدة ، وهى أن المصريين عرفوا الحكم البرلماني على الأقل منذ البطلمة . فمجلس « البولا » الأشهر في الاسكندرية ، الذي كان يعطله بعض الأباطرة الرومان من حين الى حين ، كان يعاد الى الحياة بناء على اصرار الأعيان المصريين خشية اشتعال الفتنة في البلاد . وقد كان مجلس « البولا » يشار اليه في الوثائق على أنه « تراثنا التقليدي الذي تركه لنا أسلافنا » . وربما كان أحد المؤسسات الموروثة عن مصر الفرعونية ثم أخذ اسم « البولا » اليوناني في عهد البطلمة . وقد نشبت في مصر الرومانية في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ثلاث أو أربع ثورات من أجل الاستقلال السياسى ، واخر هذه الثورات كانت الثورة التي اقمدها دقلديانوس (٢٤٥ — ٣١٣) عام ٢٩٦ ميلادية بوحشية لانظير لها .

(١) « المصور » ١٩٨٣/١٢/٣٠ و ١٩٨٤/١/٦ .

ويبدو أن مصر البيزنطية كان يديرها ، من دست الحاكم أو نائب الامبراطور ، عاهل مصرى مدنى يسمى المقوقس ، ومعناها غالبا « النجاشى » . وقل ما نعرفه عن التنظيم السياسى والاجتماعى فى ظل تلك الدولة الثيوقراطية المعروفة باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية المقدسة . فقد كان عهدها زائرا بالمجالس الروحية والجماع اللاهوتية ولكن الايديولوجيات السياسية فى تلك الأيام كانت تلبس أقنعة المذاهب اللاهوتية .

وبعد الفتح العربى بقليل ، نسمع عن الخليفة عمر بن الخطاب ينزل العقاب بابن عمرو بن العاص لأنه ضرب فتى مصرى ، وكانت حيثيات العقاب قولة عمر المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . وفى زمن اليونان والرومان اكتسبت فكرة « اليفثيا » أو « ليرتاس » (الحرية) ، وهى أصلا فكرة قانونية ، مضمونها السياسى والمدنى .

وفى العصر الحديث ادخلت بيانات بونايرت للشعب المصرى شعارات « الحرية والمساواة والائحاء » . كذلك تجددت فكرة الدولة القومية عمليا عن طريق اثارة بونايرت المحسوبة للمصريين أن يحرروا أنفسهم من نير الممالك والأتراك ، ومصادراته بالجملة لاملاك الممالك والأتراك فى مصر أو فرض الحراسة عليها ، وقيامه بتطهير الحكومة المصرية والحياة العامة فى مصر من العناصر التركية المملوكية تطهيرا شاملا . كذلك استحدثت بونايرت مبدأ الحياة النيابية عندما أسس أول مجلس وزراء مصرى وأول برلمان مصرى فى العصور الحديثة منتخب بالاقتراع السرى . وقد حلت الجريدة الرسمية محل منادى القرية لاعلان القوانين . كذلك ترك استحداث النظام القضائى المتقدم والشهر العقارى وتوثيق الملكية وعرض تجارب العلوم الوضعية ونتائجها فى المجتمع العلمى المصرى اثرا عميقا فى العقل المصرى نحو ١٨٠٠ بحسب مايقول الجبْرِقى . وهو نفس ما فعله تحرير المرأة . ولاشك فى أنها كانت تجربة مذهلة للمصريين فى ذلك العصر ، وفى مقدمتهم علماء الدين ، أن يخاطبوا يوميا عددا عظيما من الرجال العقلانيين المعلنين عن عدم إيمانهم بالأديان وهم من نتاج عصر الثورة الفرنسية .

وقد رسخ محمد على بين ١٨٠٥ و ١٨٤٠ كل القواعد الاساسية فى بناء مصر الحديثة التى أرساها بونايرت . وكانت اضافة محمد على هى أنه جعل مصر الحديثة مسئولة مصرية من خلال عشرات الشبان الذين أوفدهم الى الخارج لاكتساب العلوم الحديثة والتكنولوجيا ، ومن خلال العشرات من المدارس الفنية والمتخصصة التى أسسها فى مصر أيام حكمه ، ومن خلال حركة الترجمة المكثفة التى رعاها محمد على وأشرف عليها وحققها الطهطاوى وتلاميذه فى مدرسة الألسن ، ومن خلال مطبعة بولاق التى انشأها محمد على والجريدة العربية الأولى التى أصدرها . وقد أعطى حكم محمد على معنى حقيقيا للسيادة القومية كما أن حركة التصنيع الواسعة النطاق التى تبناها أعطت معنى حقيقيا للاستقلال الاقتصادى .

وعلى المستوى الايديولوجى كانت أبرز تطورات فى عهد محمد على هى :
(١) نشر القيم العلمانية والفكر الديمقراطى الليبرالى داخل تقاليد حركة التنوير والفكر الثورى الفرنسى الشائع فى ١٨٣٠ بمجهود رفاة الطهطاوى وتلاميذه .

(٢) نشر المذهب الراديكالى بتأثير اتباع سان سيمون الذين كان يستخدمهم محمد على . بل ان هناك دلالات تدل على نقطة الطهطاوى فى فترة نضوجه الى الاتجاهات الراديكالية عند فلاسفة مذهب المنفعة . وعلى كل فقد نفس الطهطاوى فى تاريخ باكر هو ١٨٣١ مبدأ حق الملوك الالهى والعلاقات والامتيازات الاقطاعية وبشر بين المصريين بمبادئ الحرية والمساواة لا كمجرد أفكار قانونية ، ولكن بوصفها مبادئ سياسية . وفى ١٨٦٩ كان الطهطاوى أشد اهتماما بعلاقات رأس المال والعمال ، ولاسيما فى الاقتصاد الزراعى .

والأرجح أنه ليس من المحتمل أن يكون الخديو اسماعيل قد اشأ البرلمان المصرى الأول فى ١٨٦٦ لمجرد اعجابه بالممارسات الديمقراطية الأوربية ، كما نوهت بذلك خطبة العرش الأولى . الأرجح أن الاختيار الاجتماعى والفكرى الذى خلقه نصف قرن من التربية العلمانية ، ومن التغيرات الاقتصادية العميقة ومن التكوينات والعلاقات الطبقيّة الجديدة ، أرغم اسماعيل على الاعتراف بمبدأ الحكومة النيابية . وعلى كل فمن الصعب علينا مع ذلك ان نتحدث عن الديمقراطية فى عصر اسماعيل رغم أن البرلمانات الثلاثة فى عهده كانت منتخبة بأصوات عمد الريف وبورجوازية المدينة . فنحن لانزال داخل نظام « الشورى » الذى جعل من برلمانات اسماعيل مجرد هيئات « استشارية » ، تمثل مجرد ثقل معنوى فى السياسة والتشريع . وكانت هذه البرلمانات تملك اصدار القوانين فى المسائل الداخلية الثانوية ولكنه كان محظورا عليها « بحكم القانون » ان تناقش السياسة الخارجية أو المسائل الكبرى المتعلقة بسيادة الدولة . وقد استمر الوضع على هذا المنوال طوال عهد توفيق وعباس الثانى والسلطان حسين والسلطان فؤاد .

ومنذ اعلان دستور ١٩٢٣ حتى الغائه فى العاشر من ديسمبر ١٩٥٢ بقرار من ثورة عبد الناصر ، غدت البرلمانات المصرية « بحكم القانون » و « بحكم الواقع » هيئات نيابية وتشريعية بالمعنى الكامل . وبطبيعة الحال عكست هذه البرلمانات كل خصائص الضعف وخصائص القوة فى الشعب المصرى .

كانت هناك ذروتان للكفاح من أجل الديمقراطية الليبرالية فى مصر ، وهما ثورة عرابى فى ١٨٨٢ وثورة سعد زغلول فى ١٩١٩ . وقد بدأت الأولى يتدفق تيارها فى أواخر أيام اسماعيل وتبلورت فى دستور العراقيين الصادر فى ٨ فبراير ١٨٨٢ ، أما الثانية فقد بدأ تيارها يتدفق باعلان الهدنة بعد الحرب العالمية الأولى فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ ، وتبلورت فى دستور ١٥ مارس ١٩٢٣ . وقد وصفت كل من الثورتين فى الوثائق البريطانية المعاصرة لها بأنها « قومية » وبأنها « ليبرالية » . وبين ١٨٩٢ و ١٩١٩ قام محمد عبده ولطفى السيد وقاسم أمين ، كل فى ميدانه بالكثير لنشر الايديولوجية العلمانية والديمقراطية الليبرالية . غير أن ديمقراطيتهم كانت ديمقراطية مقيدة ، ديمقراطية يحكمها القانون ، باحتصار ديمقراطية ارسطاطاليسية .

وكانت اضافة سعد زغلول ومصطفى النحاس والوفد بعامة الى السياسة المصرية بقيام ثورة ١٩١٩ هى مبدأ أن الأمة مصدر السلطات وان سلطة الأمة غير قابلة للتجزئة وغير قابلة للانتهاك وغير قابلة للتصرف فيها أو التنازل عنها ، وأن هذه السلطة تمارس بالتفويض لممثل الأمة المنتخبين بالانتخاب العام الحر السرى المباشر . وقد تبلورت فى هذا خلاصة التقاليد الديمقراطية الليبرالية . لقد مر قرن كامل منذ أن سمع المصريون

لأول مرة كلمة « الحريين » بمعنى « الليبراليين » من أحد أبناء جلدتهم ، وهو رفاعة الطهطاوى فى « تخلص الأبريز » (١٨٣١) ، يتلوها فصل فى مدح الحرية محوره أن الحرية فضيلة عربية أصلية .

وبين ثورق ١٩١٩ و ١٩٥٢ كان كل كبار الكتاب والدعاة يدافعون عن مبدأ الديمقراطية الليبرالية وعن الفلسفة العلمانية فى الحياة . كان منهم العقلانيون والرومانسيون . أما المدرسة العقلانية فكان فيها طه حسين وحسين هيكل وعلى عبد الرازق وعبد العزيز فهمى ومحمود عزمى من الأحرار الدستوريين ، وأما المدرسة الرومانسية فكان فيها عباس العقاد وعبد القادر حمزة وتوفيق دياب ومحمد مندور وعزيز فهمى من الوفديين . وكان من الاشتراكيين سلامة موسى الشديد المراس .

هذا التيار المتصل من الأفكار العلمانية والديمقراطية الذى كان يصب فى مصر طوال قرنين تقريبا ، ولاسيما فى عصور قوتها السياسية ، يفسر سيطرة العلمانية والديمقراطية على العقل المصرى سيطرة مستمرة حتى يومنا هذا رغم تكرار الانتكاسات والردة من حين لآخر لشكل أو آخر من أشكال الشمولية . وفى الفترة السابقة على الثورة كان من السهل ملاحظة كيف أن أكثر من عشرين عاما من الحكم الديكتاتورى من ثلاثين عاما هى عمر دستور ١٩٢٣ (١٩٢٣ — ١٩٥٢) ، لم تقلل من شعبية حزب الوفد الذى كان يعود من جديد بأغلبية ساحقة فى كل انتخابات كانت تجربها حكومة محايدة . وبعد ثلاثين سنة من الاضطهاد منذ ثورة ١٩٥٢ ، من اليسير أيضا أن نلاحظ ان الوفد الذى كان يمثل العلمانية والديمقراطية الليبرالية ، لا يزال قوة معنوية ووضعها نفسيا لايسع أى مراقب للسياسة المصرية أن يتجاهلها .

وقد بدأت أزمة العلمانية والديمقراطية الليبرالية تنكشف نتيجة للاحباط الاقتصادية بين الطبقات المتوسطة الصغيرة . والذى أنقذ مصر حقا من الفاشية والنازية فى الثلاثينيات كان أن القوام الأكبر من طبقاتها المتوسطة الصغيرة كان مؤلفا من صغار البيروقراطيين وموظفى الحكومة من أصحاب الدخول الثابتة ممن لم يتأثروا بالازمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠ وما بعدها ، بل على العكس من ذلك كانوا فى موقف ممتاز بالقياس الى نظرائهم من أبناء الطبقات المماثلة فى القطاع الخاص بحكم أنهم كانوا مؤمنين ضد البطالة ويتمتعون بقوة شرائية أكبر لدخولهم المحدودة وسط الكساد العالمى . وكانت البروليتاريا الريفية (أى الفلاحون) يحكمها الجهل والفقر وانعدام التنظيم بما حال دون بحثها عن حلول سياسية من أى نوع لمشاكلها . أما البروليتاريا الصناعية ، فرغم أن الازمة العالمية أرهقتها ارهاقا شديدا ، فقد كانت ضعيلة الحجم بما لم يسمح لها بانشاء تنظيمات شيوعية أو اشتراكية لها أى وزن سياسى .

ومع كل هذا فقد شاع بين الطبقات المتوسطة الصغيرة من فئات التجار والحرفيين وأرباب المهن الحرة من القلق مايكفى لتشجيع ظهور تنظيمات شمولية شبه عسكرية مثل الإخوان المسلمين وجماعة مصر الفتاة وحزب العمال الذى أسسه النبيل عباس حليم . ولم تكن هذه الا مجرد تنظيمات محدودة الحجم فى الثلاثينيات تعمل على اقتلاع جذور الديمقراطية الليبرالية ولكن دون أن تكون لها قوة ذاتية ذات شأن ، بل كانت تتقايس التأييد مع الأقليات السياسية القريبة من مركز السلطة ، ولاسيما السراى .

غير أن النظام العلماني والديمقراطي الليبرالي الذي جاء به دستور ١٩٢٣ أصبح بعد الحرب العالمية الثانية محرد واجهة لاحتوى على مضمون حقيقي كبير . فمن جهة كان هناك عجز العهد البائد عن حل المسألة الوطنية المزمنة ، مسألة الاحتلال البريطاني لمصر ، أو أن يجد حلا ناححا لمشكلة اسرائيل . ومن جهة أخرى فان الانقسامات المتواصلة داخل الوفد ، الذي كان أكثر الاحزاب القائمة ليبرالية وديمقراطية منذ بداية تجربة مصر الليبرالية في ١٩٢٣ ، قد أضعفت الوفد كثيرا .

وفي أوج الكفاح الوطني والدستوري كان هناك زمان يستطيع فيه سعد زغلول أن يقصى كل معارضيه ومع ذلك يخرج من المارك كما كان معبودا للجماهير . والكلام نفسه يصدق على مصطفى الحاس حتى ١٩٣٦ ، تاريخ توقيع معاهدة الصداقة والتحالف المصرية الانجليزية التي ، نص اسمها ، جمدت الكفاح الوطني تجميدا تاما خلال السنوات العشر التالية وجعلت النحاس من وجهة النظر الوطنية قابلا للاستغناء عنه كأي باشا من الباشوات المعتدلين من معارضيه السابقين . بل أن تلك الفترة لم تكن بالذات مناسبة حتى لتجديد الكفاح ضد الملكية المطلقة وسلطات التاج المستبد . فمناخ الحرب العالمية الثانية لم يترك مجالا للخلافات الداخلية .

وبطرد أقطاب الوفد الثانية في ١٩٣٠ ، المؤيدين لاشتراك الوفد في حكومة ائتلافية (السبعة ونص) ، وبطرد ماهر والنقراشي في ١٩٣٨ ، وقد كانا من أشد أعضاء الوفد ديناميكية ، وبطرد مكرم عبيد الواسع الشعبية في ١٩٤٣ ، خرج من الوفد آخر المحاربين القدماء من ثوار ١٩١٩ . وكان كل رعييل يخرج تحل محله عاصر محافظة وأوليغاركيون (صفوة السراة) ممن شاركوا في الكفاح الوطني في زمن متأخر ولم تكن لديهم تجربة مباشرة مع « الثورة » . وهؤلاء عمقوا في الوفد تيار التدرجية والتحرك داخل الاطار القانوني ، وهادأوا من عداائه للملك وحولوا الكفاح ضد الانجليز الى معركة قانونية . ولكن بالرغم من كل هذه التحولات فقد ظل الوفد حتى ثورة ١٩٥٢ أكثر الاحزاب المتخلفة عن ثورة ١٩١٩ تقدمية وأكثرها ليبرالية وأكثرها ديمقراطية ، بل وأكثرها شعبية .

وقد أدى فشل العهد البائد في طرد البريطانيين وفي حماية فلسطين العربية وفي كبح جماح الرأسمالية وكبار الملاك وفي الحد من سلطات الملك والحد من الجشع الملكي ، كما أدت خيبة الأمل العامة في الحريات الأربع التي جمعت بها الدول الغربية أثناء الحرب الى القاء ظلال كثيفة على النظام الديمقراطي الليبرالي برمته من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ونجم عن خلخلة الثقة في هذا النظام ريادة الاستقطاب نحو اليمين المتطرف أو اليسار المتطرف ، فغدا الناس أكثر محافظة أو أكثر راديكالية حسب ثقافتهم ووضعهم في الحياة ، كما ازداد عجز الوسط بأطراف .

بالفراغ الذي نشأ عن تجميد الكفاح الوطني والكفاح الدستوري والاصلاح الاجتماعي نتيجة للحرب العالمية الثانية وقفت مصر بعد انتهاء الحرب على شفا ثورة شعبية حتى منذ عام ١٩٤٦ تماما كما حدث في ثورة ١٩١٩ بعد الحرب العالمية الأولى . كانت الثورة الشعبية مناخا عاما . فقد قام كل رئيس وزارة بعد الآخر ، صدق باشا ثم النقراشي باشا ثم عبد الهادي باشا بحملات الاعتقال بالجملة للشيوخيين وللأخوان

المسلمين ، أنا بالتبادل وأنا في وقت واحد . واغتنم حزب الملك الفرصة أيضا ليصطاد في الماء العكر ، وانضم الى الساخطين على الديمقراطية الليبرالية فاطلق الحرس الحديدي ليغتال أمين عثمان ويحاول اغتيال النحاس مرتين . وفي دور السينما انفجرت القنابل واغتال اليمين المتطرف اثنين من رؤساء الوزارات واحد القضاة وحكمدار البوليس ، كما اغتيل زعيم ديني أخذنا بالتأثر .

ووسط كل هذه الفوضى أصبح النحاس ضرورة سياسية . ولما تولى الحكم من يناير ١٩٥٠ الى فبراير ١٩٥٢ أعاد الأمن الى نصابه مؤقتا بمجلة تشريعات هامة ولكن جزئية ، ولاسيما في مجال التعليم . وبعلان حياد مصر في الصراعات الدولية في الحرب الكورية ، وبالغاء المعاهدة المصرية الانجليزية ، معاهدة ١٩٣٦ ، من جانب واحد ، وبذلك اسقط الشرعية عن الوجود البريطاني في مصر .

وجاء الانفجار في حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وكان ذلك امتحانا لقوة النظام الديمقراطي الليبرالي في مصر اثبت الى أى مدى غدا ذلك النظام هشاً .

وتتعاقد الوزارات المترنحة ، كانت الثورة الشعبية مجازفة كبرى ، وهكذا تدخل الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لاحتواء الثورة ومنعها من أن تشتت الى اليسار أو الى اليمين أكثر من اللازم ، ولتحقيق التغييرات المطلوبة العاجلة ، كالاصلاح الزراعى ، وتصفية الطبقة شبه الاقطاعية ، والغاء الملكية ، والوصول بالمفاوضة الى حل وسط لحلاء القوات البريطانية عن مصر .

كانت العلة التى أصابت فكرة « الحرية » قبل ٥٢ هى أن الهيكل السياسى للنظام الليبرالى غدا مفرغا من مضمونه الاجتماعى . فعندما يصبح المجتمع مجرد مجتمع بلوتوقراطى (أى مجتمع أثرياء) تتسع الهوة بين الطبقات بحيث لايمكن عبورها ، وتصبح مشكلة البؤس الاقتصادى مشكلة لا تحل بالتشريعات ولا بالمؤسسات الاجتماعية ، ولكن تحل بالاحسان الفردى اكتفاء بالوازع الدينى أو الوازع الانسانى ، ونموذحه حفلات العدس التى كانت تقيمها عائلة دوس فى الاربعينيات لاغائة معدى القاهرة ، أو حفلات بيع الورد التى كانت تقيمها حرم النحاس باشا لاغائة ضحايا الملايا الخبيثة اثناء الحرب العالمية الثانية ، أو حتى حفلات عرض الأزياء التى كانت تقيمها حرم الرئيس السادات فى السبعينيات لمساعدة معوقى حرب أكتوبر . ويصبح التأمين الاجتماعى شيئا شبيها بدية الضمير التى يدفعها الموسرون أراحة لضمائرهم ، أو — على أحسن الفروض — ينظر اليها البلوتوقراط من أصحاب الوعى السياسى نظريهم الى مانعة صواعق غير مكلفة لتفريغ غضب الجماهير . وافحش من كل هذا هو موقف اللامبالاة المتعالى بين الملوك والباشوات المنتشين بغطرسة الشعور برفعة مولدهم أو بحقهم فى الامتيازات أو الفوارق الطبقيه بغير سند الا قوة ما يملكون من مال . ففى أمثال هذه المجتمعات يبدأ المواطنون يتهمسون عن « المساواة الزائفة » وعن « حرية اسبون » بوصفهما ميراثهم المشترك من حقوق الانسان كذلك كانت « الخيانة بلا عقاب » هى احدى الخريبات التى كان يتمتع بها بعض أعمدة المجتمع فى علاقاتهم بالاحتلال البريطانى أو بحرب فلسطين فى ١٩٤٨ .

ورغم كل ذلك فما يستوقف النظر أن قوام الشعب المصرى لم يفقد إيمانه بمبادئ الحرية والمساواة التى ورثها عن ثورة ١٩١٩ . ولا شك أنه كانت هناك دائما فى مصر اقلية سياسية من مختلف الاتجاهات . اما تحتقر التقاليد الديمقراطية أو مصابة باليأس منها . ولكن لم يحدث أبدا ، حتى فى أوج الاختيار الشمولى قبل ثورة ١٩٥٢ أن تجاوزت نسبة هذه الأقلية ، سواء كانت من اليمين المتطرف أو من اليسار المتطرف . ١٠٪ من جماهير الشعب أو من المثقفين . وهذا يفسر لنا كيف أن أعداء الحرية العقائديين لم ينجحوا قط فى أية انتخابات عامة فى الحصول على مقعد واحد فى البرلمان .

ولم تكن الاعتراضات على التقاليد الديمقراطية الليبرالية فى العهد البائد مبنية على رفضها بوصفها ايدىولوجيا خاطئة ولكنها كانت بمثابة اتهامات بأن الديمقراطية لم تطبق أو ادعاءات بأنه لم يكن عند المصريين القدر الكافى منها . وقد أصبحت كلمة ، « الدستور » عند المصريين كلمة مقدسة منذ ثورة عرابى . ورغم أن دستور ١٩٢٣ كان فى البداية مرفوضا من سعد زغلول بوصفه دستورا غير ديمقراطى لأنه أعطى الملك سلطات أكثر مما ينبغى ، إلا أن الوفد فيما بعد قبل هذا الدستور كحد أدنى من تأمين الديمقراطية ، أملا أن ينتهى استعراض القوة الشعبية تحت قيادة قوية الى الحد من سلطة الملك ، اقتفاء للتقاليد الانجليزية غير المكتوبة على عكس التقاليد الفرنسية المعمول بها فى مصر حيث كل شىء مدون ومبوب . وبالفعل نجح هذا المنهج فى زمن سعد زغلول . ففى أقل من عام من تولى الوزارة الدستورية الأولى فى ١٩٢٤ انتهت المواجهات مع الملك فؤاد بأن استطاع سعد زغلول أن ينتزع من يد الملك فى حادث فان دن بوش حق رئيس الوزراء فى تعيين خمسى أعضاء مجلس الشيوخ ثم حق تعيين أعضاء السلك السياسى وحق ترشيح الحائزين للرتب والالقب وكانت كل هذه التعيينات والتشريفات تتم بمراسيم ملكية ، رأى الملك الانفراد بها ولكن سعد زغلول انتزعها منه استنادا الى نص الدستور بأن — الملك يحكم بواسطة وزرائه .

وتحت قيادة النحاس سالت الدماء غزارا بين ١٩٢٨ و ١٩٣٥ لاسترداد دستور ١٩٢٣ ودفاعا عن الديمقراطية الليبرالية ضد اعتداءات الملك فؤاد الاوتوقراطى . وعند جلوس الملك فاروق على عرش مصر عام ١٩٣٦ هدد النحاس بخلع الملك الشاب لو انه رفض أن يحلف اليمين الدستورية أمام البرلمان ، اتباعا لنصائح رجال بلاطه ، ولا سيما على ماهر وأحمد حسنين ، بأن يتم تنويجه فى القلعة بيد شيخ الأزهر الذى يقدم للملك الشاب سيف جده محمد على . وأعلن النحاس أن فى ذلك عودة لحق الملوك الالهى وتهديدا بالنجوى الى استعمال القوة فى كل مواجهة بين الشعب والعرش . وقد انتصر النحاس فى هذه المعركة .

أن سجل البرلمانين العظام فى مصر منذ الثورة العرابية مدعاة فخر حقيقى للتاريخ المصرى . فعبارات التنديد بالطغيان التى كانت تقصف كهزيم الرعد فى خطب سعد زغلول أو مصطفى النحاس أو ويصا واصف أو مكرم عبيد أو العقاد أو عزيز فهم لا تقل شموخا عن كلمات بيم وهامبدن بين الانجليز فى ثورة كرومويل ، أو عن كلمات ميرابو وسيزيز بين الفرنسيين فى الثورة الفرنسية . كان لدينا نواب تحدوا اسير ريفرز ويلسون ودى بلنير ، ونواب تحدوا شريف باشا والخديو توفيق ، وكان لدينا نواب رفضوا حل البرلمان بوصفه عملا غير دستورى وعقدوا اجتماعهم على ضوء الشموع أو كسروا عنوة بوابة البرلمان ليعقدوا

جلستهم . هكذا كانت الروح الديمقراطية متأصلة في الضمير العام المصري الى حد أن عبد الناصر نفسه ، بكل تاليه للدولة ، أعلن أنه ما جاء ليحطم الديمقراطية بل ليصححها ، وأنه لم يكن يستمد قوته من دباباته بل من ثقة الشعب فيه . لقد كان لفلسفة الحكم بالقوة الغاشمة أو بالحق الالهي في مصر دعاة صرحاء قليلو العدد في تاريخ مصر . حتى تقليد تأليه الفرعون ، كان دائما من طقوس الدولة النابعة من الشعب . وأكثر طغائنا المفحشين في الديكتاتورية كانوا يحرقون البخور للديمقراطية ، لا من باب النفاق المؤصل ولكن لرهبتهم العميقة من قوة الجماهير أو مجرد خداع النفس ، اعتقادا منهم بأنهم يحكمون بمشيئة الشعب أو لصالح الشعب .

وفي عهد الرئيس عبد الناصر لم يفرط المصريون في حرياتهم أو في حقوقهم المدنية بسهولة ، وإنما نزلوا عنها بعد معارك عديدة ، وفي مقابل أمنهم الاقتصادي والاجتماعي ، ونظير الغاء الامتيازات الطبقية ، وثمنا لاسترداد كبريائهم القومي . وعندما تبينوا أن الثمن الذي دفعوه كان فادحا دعا القلق العام الى اعادة النظر في العقد الاجتماعي . غير أنه في عهد الرئيس السادات ، لم يحدث حقا أى تغيير سياسى جوهري ، رغم الاحياء الكامل للنظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية .

فما كان « هيئة التحرير » في أوائل عهد عبد الناصر تناسخ في « الاتحاد القومي » في الخمسينيات ، ثم في « الاتحاد الاشتراكي » في الستينيات ، ثم في « حزب مصر » في أوائل عهد السادات ثم في « الحزب الوطنى الديمقراطى » في أواخر عهد السادات .

هذه التجمعات تمثل على وجه التقريب نفس الصفوة المشتغلة بالسلطة والمال من النواب والتكنوقراطيين والاداريين المحترفين اللامنتمين سياسيا الذين كثيرا ما حكمت عائلاتهم مصر لأكثر من مائة عام ، وقد نجت من مهالك الرمال المتحركة التي تأتى بها الثورات والكوارث القومية والاجتماعية . ورغم أن الرئيس السادات ألغى رسميا حزب الدولة والتزم رسميا بالتعدد السياسى ، إلا أن استفتاءاته وقوانينه سيئة السمعة قد حددت في أضيق نطاق حق التنظيم والنشاط السياسى . كذلك فإن سيطرته شبه التامة على أجهزة الاعلام قد جددت فرض صيغة نظام الحزب الواحد الناصرى سواء أراد الرئيس السادات ذلك أم لم يرد .

وصورة مصر الايديولوجية أو العقائدية صورة خداعة . فالتكاثف السريع الذى نشأ بين الجماعات الشيوعية في عهد الرئيس السادات قد جعل الكثيرين من المراقبين يبدؤون في التشكك في أن مصر قد مرت في أى عهد مضى بالتجربة العلمانية أو بالتجربة الديمقراطية الليبرالية سواء في الفكر أو في الممارسة العملية . وهذا يتناقض مع الأدلة التاريخية ، كما أنه ليست هناك بحوث تاريخية موضوعية كافية أجريت حول هذا الموضوع . وكثيرا مايساق نموذج ايران للتدليل على صحة الافتراض القائل بأن الفلسفة العلمانية ومبدأ الدولة القومية والتقاليد الديمقراطية هي أفكار غريبة عن العالم الاسلامى ولا أمل في ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها .. غير أن بعض الباحثين ينزعون الى نسيان حقيقة هامة ، وهى أنه ، حتى في ايران ، لم تكن الشيوعية الا وظيفة من وظائف الفراغ السياسى .

فمنذ محنة مصدق ، كان الشاه يعمل بانتظام على تكميم كل دعاة الاصلاح العلمانيين الذين كانوا يسمون الاشياء بأسمائها : سواء أكانوا من الشيوعيين أو من الاشتراكيين أو من الديمقراطيين الليبراليين . ولم يترك حرية الدعوة الايديولوجية أو التنظيم الا لآيات الله وطائفة الملا ، من جهة لأن منبرهم ، وهو المسجد ، مكان مقدس ، ومن جهة أخرى لأنه كان يجد فيهم أدوات نافعة لاحتباط خصومه السياسيين ، ومن جهة ثالثة لأن قاموسهم السياسى الاجتماعى الغامض كان أقرب الى مبدأ التسلح الخلقى منه الى القاموس السياسى ومن جهة رابعة لأن مطالبهم كانت تركز أساسا على العالم الآخر ، أو ما كان الدكتور حسين فوزى يسميه القيراط الخامس والعشرين وليس على المطامع الدنيوية .

وقد ظلت دعوتهم الايديولوجية هى الدعوة الوحيدة المسموعة بوضوح لأكثر من ثلاثين عاما . واستطاعت أن تملأ الفراغ الفكرى والروحى الذى دأب الشاه على خلقه . والناس ينسون عادة أن ايران كمصر كانت ذات يوم فخورة بدولتها الحديثة وبمثقفيها العلمانيين وبتجربتها الليبرالية الوليدة . وحتى هذه اللحظة ، أنا لازلت واحدا ممن يميلون الى الاعتقاد بأن ايران ليست لخمينى وبأن الخمينى ليس ايران . والأغلبية الصامتة قد تكون صامتة ، لا علامة على الرضا ، ولكن مخافة الارهاب أو فى مواجهة الخطر الخارجى أو لأى سبب آخر من الاسباب .

شيء من هذا القبيل حدث فى مصر .. فعندما تصبح كل المعتقدات همسات بقوة القهر ، يملأ الفراغ أعلى صوت من أصوات المعارضة . وفى عهد الرئيس عبد الناصر لم يكن للدولة انحياز لأى مذهب اجتماعى أو اقتصادى أو ثقافى الا مذهبا ، وكان هذا المذهب على وجه الاجمال فكرة غامضة عن مذهب غامض يسمى « الاشتراكية العربية » . وكان للدولة من القوة مايمكنها من سحق الديمقراطية والثيوقراطية والليبرالية والشيوعية وأى مذهب آخر كان يمكن أن يعوق مسارها . ولكن فى عهد الرئيس السادات تحسنت المخاوف من الشيوعية ومن الديمقراطية الليبرالية الى حد جعل نظام الرئيس السادات يطلق التنظيمات الثيوقراطية لتدمر أعداءه وأعداءها ، وبهذا أعطى الشرعية لنشاطها بوصفها فرق العاصفة المدافعة عن نظامه . وكانت مخاوفه محسوبة ، ولكن الأحداث أثبتت أن حساباته كانت خاطئة .

ورغم أن هذه التنظيمات بدت فى وقت من الأوقات وكأنها تملأ الساحة السياسية ، فان عامين من الاعتدال والصحة العقلية تحت حكم الرئيس مبارك قد تركا أثرهما فى الحياة السياسية المصرية . فالجماعات الثيوقراطية الآن اخفت صوتا وأقل عدوانية مما كانت منذ عامين والدين المسيس فيما يبدو قد انحسر الى مجراه الطبيعى ، وهو أن يكون مجرد رافد من الروافد التى تغذى الحياة العامة المصرية . وهذا قد يكون انحسارا حقيقيا ، ولكنه قد يكون ايضا نتيجة لاعمال قانون الطوارئ . والحك الحقيقى لمعرفة حقيقة العودة الراحنة الى الحالة الطبيعية هو الغاء قانون الطوارئ والغاء كافة القوانين السيئة السمعة التى سنت فى عهد الرئيس السادات ، فالنظام الاجتماعى لايمكن أن يستمر الى الابد مسئولية الأمن ومقتضياته .

والقطاع الوحيد من قطاعات الرأى العام السياسى فى مصر الذى استفاد من الفراغ الايديولوجى الذى خلقته ثورة ١٩٥٢ كان قطاع الجماعات الدينية . ولهذا فهى تبدو لأصحاب النظرة العابرة القوة الوحيدة

التي تطرح نفسها على الساحة ، تأسيسا على ما حدث في ايران . ولكن مصر لم يكن ولن يكون فيها أبدا « شاه » . فباستثناء نموذج عباس الأول والخديو توفيق والملك فاروق . فالطغاة أنفسهم منذ محمد علي كانت لهم دائما في مصر وظيفة عامة . ثم أن الديمقراطية كأسطورة سياسية قد رسخت بعمق في العقل المصري العام خلال القرن الأخير حتى لقد أصبحت لاغناء عنها ايديولوجيا للمواطن العادي ، ولو بوصفها حلما لا بد منه . وحتى تلك القلة من الناس التي تمقت الديمقراطية بوصفها مصطلحا أجنبيا ، تقبل مضمونها ولكن تسميه « الشورى » . واني أشك في أنهم يكتفون بالنموذج التقليدي للشورى بوصفها مجرد « الحكم الاستشاري » . ومع ذلك فلا داعي لان نخوض في مناقشة عقيمة لدلالات الالفاظ .

وفي اعتقادي أنه ، متى أعيدت الحرية لجميع المواطنين أو لمجموعات المواطنين الملتزمين علنا بالمنهج الديمقراطي كسبيلهم الوحيد للعمل السياسي ، فالأرجح أن الحياة السياسية المصرية ، تحت قيادة ربان معتدل ومبجل وغير منحاز كالرئيس مبارك ، سوف تعرف مرة أخرى الصراع السلمى الصحى بين الايديولوجيات المعبرة عن المصالح والأمانى المادية والثقافية للشعب المصرى .. ولكى يتحقق ذلك يصبح ضروريا اعلان بطلان كافة الاستفتاءات سيئة السمعة وكافة القوانين الصادرة في الفترة ما بين ١٩٧٧ و ١٩٨١ .

ومهما يكن من شئ ، فلما كانت مصر مركز الثقل الذى يحفظ توازن العالم العربى ، فان استقرارها الاقتصادى والسياسى والمدنى كان دائما أمرا جوهريا بالنسبة للمنطقة كلها . وهذا الاستقرار لايعنى استقرار الخمول الذى تتميز به النظم والتقاليد والمعتقدات الخاملة التي لا تريد أن تموت ، بل الاستقرار العضوى الذى يتمثل في دورة الميلاد والنمو وتجدد الأحياء من عالم الأموات .

الفصل الحادى عشر

نحن والغرب « ١ » الناصرية الجديدة^(١)

•• ربما كان من النافع أن أعرض للقراء مضمون بعض البحوث التى ألفت فى مؤتمر الأندلس أو ملتقى الأندلس أو ندوة الأندلس ، سمها كما تحب (٧ — ١٢ مايو ١٩٨٤) ، فقد وجدت فى كثير من هذه البحوث أشياء نافعة ، أو تستحق التأمل والمناقشة على أقل تقدير .

هناك مثلاً بحث الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك وعنوانه « الوجهة الحضارية للفكر السياسى العربى المعاصر » . وهو يبدأ استقصاءه حيث ينبغى أن يبدأه كل باحث ، بالصدمة الحضارية التى زلزلت العالم العربى والاسلامى ، صدمة الحملة الفرنسية على مصر ، فاخرجت المنطقة من عزلتها منذ ١٥١٧ تحت هيمنة الخلافة العثمانية « العقيمة » ، وأرغمتها على التعامل مع حضارة أخرى تموج بالفكر والسلاح والعلم والتكنولوجيا ومبادئ الثورة البورجوازية القائمة على العلمانية والمذاهب التقدمية ، وكل مايسميه الدكتور أنور عبد الملك « المشروع الحضارى الغربى فى أوج تأججه » .

وأمام هذه بدأ التساؤل عن أسباب تخلف مصر والعالم العربى والاسلامى ، فظهر بيننا اتجاهان :

١ — « التحديث الليبرالى » الذى وضع أساسه رفاة الطهطاوى وتلامذته وهو أن مفتاح النهضة هو أن نعيش هذا العصر بكل معطياته ، ولكن معايشة نقدية انتقائية بحيث نقبل مايتفق مع شخصيتنا وخصوصيتنا المصرية العربية الاسلامية ونرفض مايتعارض معها . وقد ازدهر هذا الاتجاه أيام قوة مصر فى عهد محمد على .

(١) « المصور » ١٩٨٤/٦/٢٩ .

٢ — اتجاه « الأصولية الإسلامية » ، الذى أسسه الأفغانى ومحمد عبده ، وقد ازدهر أيام ضعف مصر تحت ضربات العصابات المالية الأوربية التى بدأت فى عهد سعيد وتعاضمت حتى صرعت الخديو اسماعيل بعزله فى ١٨٧٩ وانتهت بالاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ . وقد فسر اتجاه « الأصولية الإسلامية » انحطاط العالم العربى والإسلامى « بابتعاده عن الأصول التكوينية لتراثه القومى الثقافى ، أى الإسلام الحنيف » ، ومفتاح النهضة عند أصحاب هذا الاتجاه هو فى العودة الى أصول الإسلام الحنيف « روحا قبل أن يكون ذلك نصا » .

وفى نصف القرن التالى حدث الانحراف فى كل من هذين المجرىين الاصلاحيين الثوريين فقاده المحافظون فى كل اتجاه :

قادت اتجاه « التحديث الليبرالى » أحزاب البورجوازيات والرأسمالية فى مصر والعالم العربى فعبزت عن مواجهة مرحلة التحرر والديمقراطية بالمعنى الحقيقى ، وعملت على تصفية الطلائع الوطنية التقدمية من راديكالية واشتراكية أو محاصرتها على أقل تقدير ، ولأسيما بعد أن سيطر فؤاد سراج الدين واليمين المصرى على حزب الوفد . كذلك خربت الصهيونية العالمية اليسار المصرى بنشر الدعوة الأُمّية فى داخله منذ وقت مبكر .

أما اتجاه « الأصولية الإسلامية » فقاده المحافظون نحو السلفية ، وتبلور هذا الاتجاه فى « الاخوان المسلمين » . ومع ذلك فقد تجددت دعوة « الإسلام السياسى » فى صورتها الراديكالية فى مصر الفتاة والحزب الوطنى الجديد وفى فلسفة الضباط الاحرار وماشابه ذلك من الدعوات القومية الشمولية الثورية . وكان دور فؤاد سراج الدين هو دور حسن البنا فى محاصرة القوى الثورية الوطنية التقدمية فى المجتمع المصرى .

وفى رأى أنور عبد الملك أن القوى التقدمية الاشتراكية من جهة وقيادة ثورة الضباط الاحرار من جهة أخرى هما التياران اللذان اختارا الثورة طريقا للنهضة . « واستطاعت قوى الظلام ، فى الخارج والداخل معا ، أن تقيم الخلاف بينهما وتقيم تلك الحرب التى استنزفت طاقة مصر فى الداخل والخارج معا عبر ثلاثين عاما الى درجة هزت أركان العالم العربى والإسلامى ، بل ونهضة شعوب الشرق رغم باندونج » .

كان المعبر عن اندحار القوى الثورية التقدمية فى مصر والعالم العربى هو « انكسار » ١٩٦٧ (أنا هنا استعمل مصطلح الدكتور أنور عبد الملك ، وهى كلمة مخففة فى مرحلة وسط بين « النكسة » و « الهزيمة ») . حتى انتصار أكتوبر ١٩٧٣ سعت الى اجهاضه قوى التخلف والصهيونية .

« وقد ترتب على هذا التوغل الصهيونى أن قامت ثورة ايران الوطنية الشائخة بقيادة الإسلام السياسى الشيعى حول الامام الخمينى وصحبه ، لتفكيك أقوى دولة تمثل الموجة الغربية على أرض الشرق الإسلامى آنذاك . أى أن الثورة الإسلامية فى ايران جاءت ، موضوعيا ، ردا على التخاذل العربى فى مصر ، وكأئما الهدف هو محاصرة التوغل الغربى — الصهيونى ، ووقف الموجة الغربية ، والعودة الى الأصول » .

هكذا فى بادىء الأمر . ولكن سرعان ماتغير الموقف فتحوّلت الثورة الإسلامية فى ايران الى دولة قومية

وانتقلت في تعحل من الأصولية الاسلامية الى الممارسات السلفية في كافة وجوه الحياة .

وهكذا بدأت « المحمة الحضارية المضادة الشاملة للغرب والصهيونية ضد الامة العربية والعالم الاسلامي » لتفكيك شملهما باثارة الحروب والحروب الأهلية في المنطقة وتمزيق الشعب الفلسطيني والسعى الى عزل مصر نهائيا .



وقد اقترن هذا التراجع الثوري الوجدوى العربى الى ظهور ظاهرة جديدة في الفكر العربى منذ كامب ديفيد هى الانتقال من « الايديولوجية الثورية » الى « الواقعية النقدية » . أولا كتر الحديث عن « الامة » في كل وجه من وجوه الحياة حتى أصبح للأزمة ايديولوجية واشكالية ، رغم أن الاحصاءات تدل على أن « كافة قطاعات الحياة الاجتماعية ، دون استثناء ، في عموم الأمة العربية ، على تنوع أقطارها وأنظمتها ، في تصاعد مطرد ، بل أن معدل هذا التصاعد المطرد أعلى منه في أية منطقة أخرى ، اللهم الا في شرق آسيا » . وكانت هناك مرحلة من لطم الحدود وشق الجيوب والتنكر لكل ما نجزته الأمة العربية قبل الثورة وبعدها . ثم اعتدل الميزان فاتجه النقد الدائق الى « الواقعية النقدية » . كذلك بدأت تنحسر موجة التبعية للغرب حتى بين المحافظين بسبب العجز الأمريكي عن حل المشكلة اللبنانية وبسبب السلوك الاستفزازي الأمريكي في قضية التسليح النووي وقضية تايوان وفي غزو جرينادا وفي العدوانية على الحركات الاستقلالية في أمريكا اللاتينية .

كذلك تأثرت الجغرافيا السياسية بالاتجاه نحو الواقعية النقدية . كان الأصل في النظام الليبرالى قيام الكيان السياسى على مبدأ الدولة الوطنية . وفي قمة الغليان الثورى الناصرى تحول الى مبدأ الدولة القومية الشاملة « دولة الوحدة الكبرى من الخليج الى المحيط » ، متجاهلا الخصوصيات القومية والوطنية لشعوب الأمة العربية . وبحلول الواقعية النقدية محل الثورية الشمولية ظهر مبدأ الأمة ذات المستويين : المستوى القومى العربى الواحد والمستوى الوطنى المختلف ، وظهرت أربعة تجمعات كل منها متجانس في التاريخ والجغرافيا ، هى مجموعة وادى النيل ومجموعة المغرب ومجموعة الجزيرة العربية ومجموعة الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى .

أما فيما يتعلق بنظم الحكم فقد عرفت بلادنا في مرحلة التحديث الليبرالى ممارسة السلطة عن طريق الاحزاب جريا على تجربة الديمقراطيات العربية ، وهى في ذاتها تجربة حديثة .

ومنذ ثورة ١٩٥٢ زالت في مصر هذه الحتمية بين السلطة والاحزاب في التنظيم السياسى ، وكانت هناك بدائل عديدة في ممارسات بعض البلاد الأخرى ، فكان مصدر السلطة أحيانا الحزب الثورى أو جيش التحرير أو طبقة من الطبقات أو تحالفا بين عدة طبقات أو أحيانا « نوعا من الرباط بين الشارع وزعيم ملهم » . وأصبح مفهوم « الديمقراطية » ليس النمط الغربى الليبرالى القائم على اتخاذ القرارات بموجب أغلبية الأصوات في مجالس تسيطر عليها الرأسمالية أو الاقطاع ، وإنما مشاركة قوى الشعب العامل صاحب المصلحة في اتخاذ القرارات وتنفيذها ، قوى الشعب مجتمعة في جبهة وطنية متحدة سياسية واجتماعية تمثل كافة

التنظيمات السياسية والاجتماعية ، وحضارية تمثل مختلف مدارس « التحديث الليبرالى » و « الاصولية الاسلامية » ، مع عدم استبعاد تجربة الكفاح الشعبى المسلح فى مواجهة الاستعمار ، سواء كما مارسناها نحن أو كما مارسها دول العالم الثالث .

نجم عن هذا الدعوة الى « الاعتماد على الذات » بدلا من اقتباس حضارة الغير ، وحلت بعد حرب أكتوبر فكرة « الابداع الذاتى » بدلا من فكرة « التجديد » أو « التطوير » أو « التحديث » ، وفى الفكر السياسى حلت « الأصولية » بالمعنى الفلسفى محل الفكر السياسى التقليدى ، « فالأصولية تعنى ، أول ماتعنى ، العود الى الأصول التكوينية للخصوصية القومية — الثقافية — الحضارية لكل من المجتمعات التى تتكون منها أمتنا العربية ، وكذا لأمتنا فى عمومها . والأصولية لاتعنى ، كما يريد لها دعاة الردة والعمالة ، أبواق الغرب الاستعماري العنصرى ، السلفية أو الرجعية ، أو الانقطاع عن المعاصرة أو غير ذلك من المعانى البالية . ولكن الأصولية هى المنبع الذى منه تتقوم المعاصرة ، أى حدثنا القومية الحقيقية الفعالة : التراث الحى بوصفه مجموعة حركات الابداع والريادات التى تجمعت عبر العصور ونجحت فى التجربة القاسية عبر تقلبات التاريخ وظلت وجدانا حيا بين جماهير شعوبنا .

« فاعلية العمل السياسى اذن ، مرهونة بالاعتماد على الذات ، بوضع الأصولية السياسية فى قلب عملية تحقيق المعاصرة » .



هذا عرض ضاف كاف لأهم ماجاء فى بحث الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك فى مؤتمر الأندلس . وقد حرصت فى هذا العرض الا ألونه بأرائى الخاصة أو باعتراضاتى على بعض ماجاء فيه .

وقد كنت دائما — ولا أزال — من أشد المعجبين بالدكتور أنور عبد الملك متابعا لاهم مايكتبه بالفرنسية منذ رحيله عنا الى باريس فى أوائل ١٩٦٠ ، لا أقول فرارا من عبد الناصر ولكن فرارا من دولة الخابرات التى كانت تطارده لتضعه مع المعتقلين اليساريين فى الفيوم أو القناطر أو أبى زعبل أو الواحات . ويكفى شرفا له أنه رغم غربته الاجبارية أول الامر على الأقل ، استطاع أن يتجاوز ذاته وآلامه واحباطاته المصرية وكتب فى فرنسا بحثا للدكتوراه عن مصر الناصرية ، عنوانه « مصر : مجتمع عسكري » خال من التحامل وفيه محاولة لتفهم التجربة الناصرية تفهما موضوعيا داخل حدود فلسفته الاجتماعية وفهمه التاريخى .

ومع ذلك تبقى هناك بعض المشكلات فى هذا البحث الساخن المسبب للارتباك .

فمن الواضح أن لهذا البحث محورين رئيسيين :

الأول : هو رفض نمط الحضارة الغربية وقيمها كنموذج يحتذى فى بناء الدولة العصرية ، والثانى : هو الدعوة للأصولية القومية والحضارية كمنبع للابداع وللتنجيد . كل ذلك محمول فى لغة حارة تهتم بالعمالة للاستعمار وللصهيونية دعاة الفكر المخالف ، لغة مبهمة تجهيلا تاما بحيث لاتعرف منها هوية هؤلاء العملاء الا من باب الحدس كلما اشار الى دعاة الحضارة الغربية وهو من عرائب الكلم عن عجائب المخلوقات .

وقد خرجت بنتيجة واحدة ، وهى أن الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك لا يزال واقعا تحت تأثير الخرافة التى نشرها المستشرق الكبير جاك بيرك بين تلاميذه ومريديه منذ عهد عبد الناصر : خرافة التناقض بين « الأصالة » و « المعاصرة » .

والدكتور عبد الملك فى رفضه بناء الدولة الحديثة أو الدولة العصرية فى بلادنا على أساس الحضارة الغربية واضح قاطع فيما يتصل برفض النظام الديمقراطى الليبرالى طريقا للتنظيم السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، وهو لا يقف وحده فى هذا الصدد ، فهناك فلسفات عديدة فى مقدمتها الماركسية والاشتراكية الوطنية ومدارس عديدة فى الاشتراكية ، وعديد من الفلسفات المثالية الخ ... ، وهناك كتل بشرية ضخمة فى مقدمتها الكتلة الشرقية والصين الشعبية وأمريكا اللاتينية ، الخ ... ، كلها تدعم وجهة نظره ، كذلك تدعم وجهة نظره عصور الثورات والتحولات الكبرى ، وبعض حركات الاصلاح الكبرى التى لا يؤخذ فيها رأى الجماهير كعهد لويس الرابع عشر وعهد فردريك الاكر ، وعهد بطرس الاكبر وعهد محمد على وعهد كمال أتاتورك . بل لعل من النافع أن نتذكر أن الحضارة الغربية ذاتها صاحبة تقاليد معادية للديمقراطية الليبرالية بالمعنى الإيجابى كما أنها صاحبة تقاليد متمسكة بالديمقراطية الليبرالية بالمعنى الإيجابى .

ومع ذلك فهل الحضارة الغربية التى يرفضها الدكتور أنور عبد الملك كطريق لبناء الدولة العصرية فى بلادنا هى مجرد الديمقراطية الليبرالية أم أنها مجموعة متكاملة من القيم المادية والفكرية المؤسس عليها السلوك الفردى والاجتماعى .

وهبنا تخيلنا عن الاحزاب والبرلمانات وحكم الأغلبية البرلمانية ، فهل نتخلى أيضا عن مبدأ الحوار بدلا من القهر والعنف كسبيل لتطور المجتمعات أو لتحقيق المصالح والغايات ؟ وهل نتخلى عن مبادئ حقوق الانسان كما ورثناها من الثورات الانسانية الكبرى كالثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ وما بعدها والثورة الروسية فى ١٩١٧ وما بعدها وكما هى مبلورة على وجه تقريبي فى « الاعلان العالمى لحقوق الانسان » ؟

ان الحضارة الغربية حضارة أقنعة فهى تتحدث عن السلام وتشعل الحروب باستمرار ، وهى تتحدث كثيرا عن الحرية والمساواة والاخاء ، ولكنها تسترق الشعوب والطبقات والأفراد ، وهى تناهض التمييز العنصرى نظريا ولكنها تزاوله فى التطبيق . ولكن أليست هذه أزمة الحضارة الغربية التى يحاول كثير من الغربيين أنفسهم أن يجدوا لها حلا فى حوارهم مع النفس ومع الغير ؟ ثم ما الجديد فى هذه الأزمة ؟ أليست هذه أزمة كل المثل العليا منذ فجر التاريخ ؟ أليست هذه أزمة الأديان نفسها وكل مظاهر فى العالم من دعوات اجتماعية أو فلسفية وهل نتخلى عن الدين لأن سلوك المتدينين كثيرا ما ينافى معتقداتهم ودعواهم ؟ وهل نتخلى عن الاشتراكية لأن ممارسات الاشتراكيين كثيرا ماتتضمن الخيانة لمبادئهم ؟

كان بريكليز عاهل اليونان الشهير يقول لزوجته : أنا أحكم الاثينيين ، وأنت تحكمينى ، وابنتك يحكمك ، اذن فابنتك هو الذى يحكم الاثينيين . وهذا على وجه كاريكاتورى هو تعريف الديمقراطية بأنها « حكم الشعب » . الزعيم الديمقراطى يحكم الشعب ، وحزبه يحكمه ، والطبقة الرأسمالية تحكم الحزب ،

فالطبقة الرأسمالية هي التي تحكم الشعب . أليس هذا ما يريد الدكتور أنور عبد الملك أن يقوله ؟
والدكتور أنور عبد الملك يعلم أنى أتفق معه في أدراك هذا التزييف السياسى والاجتماعى الذى تعلمناه من الغرب منذ أن دخلنا معه نحو ١٨٠٠ فى علاقات مباشرة ، أى منذ أن تسللت إلينا مبادئ الديمقراطية . ولكن ماهو الحل ؟ انتخلى عن الديمقراطية جملة أم نحاول تضيق هامش الزيف فى التنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى بحيث تضيق الفجوة بين المثل الأعلى والممارسة وذلك بربط الفلسفة الديمقراطية بغايات اشتراكية ؟

فى تصورى أن أساس المحنة التى تمر بها الحضارة الغربية هي اللبس الناشئ من تحول الديمقراطية من منهج لتحقيق شئ أرقى الى غاية تطلب لذاتها . والكلام نفسه يقال عن « الحرية » . الحرية « ظرف » ، الحرية « حالة » ، الحرية سبيل لتحقيق حقوق الانسان ورفيه وسعادته . فاذا تحولت الحرية الى غاية فى ذاتها أمكن استخدامها فى المباح وغير المباح . وحين نقول حقوق الانسان انما نقصد حقوق الانسانية لا مجرد حقوق الأفراد مهما كانت صيانة حقوق الأفراد سبيلا لصيانة حقوق الجماعة . والكلام نفسه يصدق عن الدين وعن الفن وعن العلم ، الخ .. الدين من حيث هو رياضة روحية فردية تيسر لصاحبها دخول الجنة ، مسألة شخصية بحثت بين الانسان وخالفه لاتعنى المجتمع فى شئ ، أما من حيث هو مدرسة لترقية الأخلاق الانسانية وترقية السلوك الاجتماعى فهي قضية تهم الدولة والمجتمع وتهم كل الناس .

الديمقراطية منهج ، والحرية منهج ، والحوار منهج . وهذه المناهج أو الطرق أو الدروب لابد أن تلتمس الغايات . ومن يطلب الحرية دون أن يعرف ماذا يفعل بها اذا حصل عليها ينتقل من رق العبودية الى ضياع الفوضى والعدمية .

وحضارة الغرب ، وليأذن لى الدكتور أنور عبد الملك أن أضيف ، والشرق الراقى أيضا الذى يحدثنا عنه ، ولاسيما الصين ، هو فى وجهه المضى امتداد لحضارة الغرب ، حضارة الغرب هذه قد اكتشفت بفضل مافيه من حوار ديمقراطى وجدلية بين العقل والعاطفة وبين المثاليات والماديات وبين الفرد والجماعة وبين مختلف الطبقات ، أن الديمقراطية تصبح كذبة كبيرة مالم تكن طريقا الى غاية راقية . والتخزقات الحالية التى تعاني منها الحضارة الانسانية اليوم بما فيها من صراعات بين الشرق والغرب هي وجه من وجوه الازمة التى تعاني منها الحضارة الغربية نفسها .

ومن هنا اكتشفت الحضارة الغربية ضرورة تصحيح مسارها بالنقد الذاتى وينقد الديمقراطية الليبرالية ، تماما كما يفعل الدكتور عبد الملك ، فما هو الانتاج لحضارة الغرب منذ أن كان يدرس الفلسفة فى جامعاتنا حتى آخر يوم فى منفاه الاختيارى . وماقلقه الشديد على الخصوصية العربية أو المصرية أو الاسلامية الا من حنين الاغتراب الطويل .

كذلك فان الدكتور أنور عبد الملك ليس وحده فى هذا الرفض للحضارة الغربية ، فقد لاحظت أن أكثر المثقفين فى العالم العربى قد شاعت بينهم منذ هزيمة ١٩٦٧ وتوالى الاحباطات العربية أمام الاستعمار

والصهيونية رغم انتصار ١٩٧٣ المجيد ، فلسفة رفض الحضارة الغربية والدعوة للعودة للأصول والاختباء وراء وهم هو مقولة العصر الذهبي وتوكيد التناقض بين « الأصالة والمعاصرة » على أساس احتذاء أنماط الحضارة الغربية . ولكن الدكتور أنور عبد الملك لا يتركنا معلقين في الهواء ، بل يعطينا حلا للتوفيق بين « الأصولية » و « المعاصرة » وهو « الابداع الخاص بنا ، لا الابداع على الطريقة الغربية ، بل الابداع المؤسس على تراثنا في الدين والسياسة والاقتصاد والآداب والفنون والقيم الاجتماعية والأخلاقية والجمالية . ولم يبين لنا الدكتور عبد الملك ان كان من المؤمنين بأن « العلم لا وطن له » ، أم أنه ينظر الى الابداع العلمى أيضا نظره الى بقية وجوه النشاط الانساني .

أما ملاحظتي على كل هذه « الواقعية النقدية » كما يسميها فهي أنها توحى بأن عملية الابداع عملية ارادية ويكفي للمجتمع ولل فرد شاعرا أو فنانا أو مفكرا ، الخ ... أن يقول لنفسه « أنا أبداع » فيبدع أو أن يصبح على الملأ « أنا مبدع » فيبدع . ثم ما الضمان أن يكون ابداعنا الفردي أو الجماعي شيئا راقيا وليس مسخا شائها اذا كان أكثر الباحثين عن « الأصول » أو « الجذور » أو « الذات » من دعاة الردة والسلفية الحرفية العقيمة والعودة موضوعيا الى أحط مافى تاريخنا وتقاليدنا وتراثنا بعد أن زال عنا المجد العظيم ، وهم الذين أدانهم الدكتور أنور عبد الملك واتهمهم بأنهم اعداء النهضة الحديثة وأنهم يمثلون الانحراف في مسار هذه النهضة ؟

فقد قامت ثورة ١٩٥٢ لتجديد الحياة على أرض مصر على أساس أن اشتراكيتنا وقيمنا وتقاليدنا ونظامنا السياسي والاجتماعي يجب أن « تنبع من واقعنا » . ولأشك أن ثورة ١٩٥٢ قد حققت نجاحات عظيمة في بعض الوجوه ، ولكن عجزها عن تحديد ماهية « واقعنا » قد عرضها للتورط في أخطر الحماقات .

وربما كان الدكتور أنور عبد الملك يفضل أن يعزو محاولات ضرب ثورة ٢٣ يوليو لسطوة الصهيونية والاستعمار ، وهي حقيقة ، ولكنه ينسى أن بعض أجنحة ثورة ١٩٥٢ الفعالة كانت كآلهة اليونان كل منها يأكل ولده ، أورانوس يبتلع ولده كرونوس ، وكرونوس يبتلع ولده زيوس ، حتى لا يبتقل ملك السموات والأرض الى الجيل الجديد ، ونحن لم نستورد من أوروبا كل هؤلاء السلفيين الذين خربوا أهم إنجازات عبد الناصر ورفاقه التقدميين ولا يزالون يخربون . وأنا لا اتهمهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية ولكني أزعجهم أن جمودهم وتحلفهم في فهم « الاصل » قد جعلهم موضوعيا يخدمون أغراض الاستعمار والصهيونية .

الابداع نعم ، ولكن الابداع الراق لا الابداع الشائه المنحط .

كذلك ألاحظ أن الدكتور أنور عبد الملك كانت لديه أوهام عظيمة عن الأصولية الخمينية ، ويبدو أنه فجع في أوهامه أو غرض منها لأسباب لم يهتم بأن يبينها لنا . وهو ليس وحده في هذا فقد التقت بعدد من كبار المثقفين الشرفاء الذين تجاوزوا بهذا الوهم العظيم مع الثورة الإيرانية . ومنهم من أفاق ومنهم من لم يفق بعد . كلنا مع الشعب الإيراني اعداء الشاه ، ولكن في تقديري أن اقتلاع الشاه بالخميني كان اجهاضا لثورة إيرانية حقيقية . وقد ساعد على انتصار الخمينية ، على الأقل مؤقتا يأس انتصار الأصولية الماركسية الذين

توهوا في الأصولية الدينية بديلا جماهيريا يمكن أن تركب موجته ولو الى حين .

وقد لاحظت أيضا أن للدكتور أنور عبد الملك قاموسه السياسي الخاص . فهو في ختام بحثه يحدثنا أكثر من مرة عن « العروة الوثقى » ونحسب أولا أن يحدثنا عن العروة الوثقى التي ورثناها عن الأفغانى ومحمد عبده كتعبير عن التجمع الدينى لمقاومة الاستعمار الأوروبى ، فاذا بنا نفاجأ بأنه يحدثنا عن شمولية من نوع جديد أساسا للفكر السياسى العربى ، شمولية أفلاطونية « تحت لواء القيم الروحية ، فى اطار العروة الوثقى بين مختلف مدارس الفكر والعمل ، بين رجال الفكر والسلاح ، نصادق من يصادقنا ، نعادى من يعادينا » ، شمولية قائمة « على فكرة الوحدة الوطنية والجهة الوطنية بدلا من تقنين الحرب الأهلية تحت ستار الصراع الداخلى والحزبية ، وإعادة فكرة التعالى والفلسفة والابماية الى قلب الانسان » .

هذا اذن احتجاج صريح على العمل بنظام الاحزاب فى مصر ، ودعوة صريحة الى العودة الى صيغة « تحالف قوى الشعب العامل » ، بل وتأكيد على أن الجيش هو الطرف الخامس الأصيل فى هذا التحالف المكون كما ورد فى الميثاق من العمال والفلاحين والمتقنين والرأسمالية الوطنية ، مع القوات المسلحة .

فلنقل اذن أن الدكتور أنور عبد الملك هو واضع أساس الناصرية الجديدة وهذا حقه : حقه أن يرفض الديمقراطية الغربية القائمة على مبدأ أن الأمة مصدر السلطات ، ولو على طريقة بريكلليس ، وأن يكتفى بصيغة « المشاركة » التى تجعل الشعب شريكا فى الحكم ولا تنقل اليه سلطة السيادة تماما ، حقه أن يرفض التعدد الحزبى وأن يكتفى بصيغة الجهة الوطنية . كل هذا من حقه اذا كان يرى أن الديمقراطية الليبرالية دخيلة علينا ولا أمل فى توطنها بيننا وأن صيغة « المشاركة الشعبية » وليس السيادة الشعبية هى الصيغة النابعة من تراثنا .



ولكنى أحرار وسط كل هذه الدعوة الى الناصرية الجديدة كيف يتعاطف الدكتور أنور عبد الملك مع الثورة الأصولية الخمينية ويعلن أنها كانت « موضوعيا ، ردا على التخاذل العربى فى مصر » ، وكأنما الهدف هو محاصرة التوغل الغربى — الصهيونى ، ووقف الموجة الغربية ، والعودة الى الأصول . أترأه لا يعلم أن إسرائيل هى أحد موردى السلاح لنظام الخمينى سواء فى تكنولوجيا العبوات الناسفة أو فى حربه مع العراق وقلاقله التى يحاول أن يثيرها بين الشيعة داخل العالم العربى ؟

الفصل الثاني عشر

نحن والغرب في انتظار معجزة^(١)

وهذا بحث آخر قدمه الدكتور محمد عابد الجابري ، الأستاذ بكلية الآداب ، جامعة الرباط الى مؤتمر الاندلس في مايو ١٩٨٤ وموضوع هذا البحث هو « العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي » وهو بحث يثير القلق لأنه مليء بالتساؤلات ولا يقدم حلاً جاهزاً أو غير جاهزاً .

واذا كان بحث الدكتور أنور عبد الملك بحثاً تفاؤلياً يمكن أن يجدد في المثقفين العرب الأمل في حلول الرومانسية المثابرة ، فبحث الدكتور عابد الجابري يتصف بانفصالية الطبيب المتأمل للمرض والمريض .

أما المريض فهو عمده « الأمة العربية » أو « الأمة الإسلامية » ، وأما المرض فهو « التخلف » . والدكتور الجابري يذكرنا بندوة الكويت التي انعقدت منذ عشر سنوات بين ٧ و ١٢ أبريل ١٩٧٤ ، لبحث موضوع « أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي » .

فحديث الأزمة اذن قديم وهو في رأيه نتيجة لنكسة ١٩٦٧ ، فمنذ نكسة ١٩٦٧ بدأ المثقفون العرب يحسون بأن نهضتهم قد اجهضت منذ هزيمة ١٩٦٧ أو أن هزيمة ١٩٦٧ كانت التعبير التاريخي عن اجهاضها . والدكتور الجابري يذكرنا بعدد من الرسائل والبحوث التي ظهرت منذ ١٩٦٧ ، ولاسيما بعد وفاة عبد الناصر لتتحدث عن أزمة الفكر العربي وأزمة الابداع العربي وأزمة الاقتصاد العربي وهكذا دواليك ، وهو ما وصفه الدكتور أنور عبد الملك بمرحلة لطم الخدود وشق الجيوب واستنكره استنكاراً . حتى الشعر شارك في هذا البكاء النبيل « بمرثية العمر الجميل » لاحمد عبد المعطي حجازي و « بالبكاء بين يدي زرقاء اليمامة » لامل دنقل .

(١) « المصور » ٦/٧/١٩٨٤ .

وعند الدكتور عابد الجابري أن العالم العربى منذ افاق من سياته بصدمة الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) كان دائب التفتيش فى أعماق النفس عن اجابة على هذا السؤال : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وقد حاول المفكرون منذ الأفغانى ومحمد عبده أن يجدوا الاجابة على هذا السؤال . وهذا مايسميه الدكتور عابد الجابري « الوعى النهضوى » .. فلما كان احباط ١٩٦٧ تجدد طرح ذات السؤال القديم ولكن بصورة أقسى وهى بلغة الدكتور الجابري : « لماذا فشلنا فى تحقيق نهضتنا بعد أكثر من قرن من وعينا بضرورتها وعملنا من أجلها ؟ » .

والدكتور عابد الجابري يستعيد قول د. شاكى مصطفى فى ندوة الكويت (أبريل ١٩٧٤) ، حيث يقول : « لماذا تطلب وفاق العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل ، ودون جدوى ؟ ان كتلة الأقاليم العربية مضت عليها الفترة الزمنية الكافية لتكون فى مستوى العصر وتكنولوجياه وفيضه الحضارى . معظمها على الأقل انطلق قبل الصين التى بدأت منذ ربيع قرن ، بعضها قبل روسيا التى بدأت منذ سبعين سنة ، وبعضها قبل اليابان التى بدأت منذ مائة سنة . ومع ذلك فهذه الأمم وصلت . كلها وصلت . بينما لم يصل أى اقليم عربى طليعى الى شىء بعد » (بعض هذا الكلام غير دقيق فروسيا مثلاً بدأت تأخذ بمحضارة غرب أوروبا منذ بطرس الاكبر ١٦٧٢ — ١٧٢٥ ، ولكنه فى مجمله صحيح بالنسبة للصين واليابان) .

ومن الكتاب العرب من ينتقل من مرارة الاحباط الناشئ من تواتر الانتكاس بعد كل ازدهار الى سوداوية التشاؤم ، مثل الدكتور محيى الدين صبحى الذى يقول فى مجلة « شئون عربية » ص ٢٥٦ ، ابريل ١٩٨١ : « كان الغرب فى عصر النهضة الصناعية الأولى ، عصر البخار ، فاجتاز تلك النهضة ودخل عصر الطاقة والكهرباء ، ثم الثورة الالكترونية ، كما حدثت ثورات اجتماعية كثيرة أيضا ، بدأت بالثورة البلشفية وتلتها الثورة الصينية ، ومؤخرا الثورة الفيتنامية » ولم يستطع العرب ان ينجزوا أى نوع من أنواع الثورتين ، العلمية أو الاجتماعية السياسية ، ولم يستطيعوا أن يقيموا دولتهم القومية ، أو أن يقدموا الضمانات القانونية الضرورية لنشوء العمران . بل أكثر من ذلك : « فى القرن التاسع عشر كانت المسافة بسيطة نسبيا بين المجتمع المصرى والشامى وبين المجتمعات الغربية الصناعية ... كان العرب الى حد ما على اطلاع بما يجرى فى العالم ، وكانوا أكثر قدرة على محاكاته . اما الآن فالمسافة تتسع وتنظيم المجتمع يتعقد ومعطيات السياسة العالمية تتشابك ويضيق على العرب شيئا فشيئا بحكم تصارع القوى » .

(هذه مقولة تتردد كثيرا بين مفكرى العالم العربى ، ولكنى ، دون اسراف فى التفاؤل على طريقة الدكتور أنور عبد الملك ، لست مطمئنا تماما الى صحة هذه المقولة ، واعتقد أنها بحاجة الى مزيد من الاثبات . لست متأكدا من أن كوادى مصر والشام فى القرن التاسع عشر كانت اقرب الى المستوى الأوروبى من كوادرها ومتوسطاتها فى عالم اليوم ، وبالتالي فلست متأكدا من أن هوة التخلف بين العالم العربى والعالم الغربى تتسع . وأنا هنا لا أصدر حكما ولكنى أطلب المزيد من الاثبات لهذه النظريات الخطيرة لو كانت صادقة لأنها توصل باب الأمل أمام الأجيال الجديدة على أقل تقدير) .

والدكتور عابد الجابري يتجاهل موضوع اقتباس النظم والمبادئ والقيم الغربية ويركز على موضوع

نقل التكنولوجيا وعلى التنمية الاقتصادية ، فيسجل لنا أن هذا الشعور بازدياد التخلف العلمي والتكنولوجي ومعدلات التنمية بيننا وبين الغرب قد انعكس في تكاثر المؤتمرات والندوات العربية التي اقيمت حول هذا الموضوع مثل مؤتمر الرباط عام ١٩٧٦ وندوات مراكش (٢٤ — ٢٩ أبريل ١٩٧٩) ، والبحرين (١٤ — ١٥ نوفمبر ١٩٨١) وعمان (٢٢ — ٢٤ مايو ١٩٨٢) والدار البيضاء (٣ — ٥ ديسمبر ١٩٨٢) ، ودمشق (١٤ — ١٥ ديسمبر ١٩٨٢) ، وطرابلس ليبيا (٢٣ — ٢٤ يناير ١٩٨٣) ، بالإضافة الى المؤتمرات الدورية التي يعقدها اتحاد المهندسين العرب واتحاد الاقتصاديين العرب سنويا أو مرة كل سنتين وكل هذه المؤتمرات تدور حول موضوعات التنمية والطاقة والتكنولوجيا والانشاءات الهندسية ... الخ . وقد كانت أهم القضايا التي تناولتها هذه المؤتمرات والندوات : (١) الهوة التكنولوجية (٢) نقل التكنولوجيا (٣) التكنولوجيا الملائمة (٤) التنمية والوحدة العربية .

ويلاحظ الدكتور عابد الخابري أن معظم الدراسات ، أو مايسميه بالأدبيات ، المتصلة بموضوع التنمية والتكنولوجيا سواء منها ما أثمره اجتهاد خبراء الأمم المتحدة والخبراء الغربيين بعامة ، وما أثمره اجتهاد الخبراء من أبناء العالم العربى ، تركز على « الهوة » الحضارية المتعاطمة والهوة التكنولوجية المتعاطمة بين الدول الصناعية ودول العالم الثالث بما فيه العالم العربى ، بل وبين الدول الصناعية ودول العالم العربى بصفة خاصة .

والتفسير المألوف لاتساع هذه الهوة التكنولوجية هو أنه بينما نجد الغرب قد مر بأطوار حضارية مختلفة سمتها التقدم من المجتمع الزراعى الى المجتمع الصناعى الى المجتمع التكنولوجى ، نجد أن المجتمعات العربية لاتزال تعيش فى طور الحضارة الزراعية القديمة أو البداوة مع كل ماتميزان به من ثقافة وقيم أساسية مختلفة عن أسس المجتمعات الغربية .

ومن هنا ظهرت عدة اتجاهات فى الفكر العربى الحديث : اتجاه يدعو الى ثورة فكرية ثقافية شاملة تتناول القيم الأساسية التى شلت قدرات العالم العربى على الابتكار « منذ القرن الحادى عشر الميلادى » كما يقول انطونيوس كرم فى بحثه « العرب امام تحديات التكنولوجيا » سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٤ و ٢١٠) ، وهذا الاتجاه يضع المسؤولية عن التخلف التكنولوجى على كاهل ابناء العالم العربى ، واتجاه يضع المسؤولية عن التخلف التكنولوجى على كاهل الدول المتقدمة أو الاستعمار أو الشركات المتعددة الجنسية مع الاهتمام بابرار العقبات التى يضعها العرب أمام الدول النامية حتى يعطل جهودها لنقل التكنولوجيا فهو لا يصدر اليها الا التكنولوجيا المتخلفة نسبيا وتكنولوجيا السلع الاستهلاكية ، وهو يحجب عن طلابها التخصصات العلمية الهامة ، وهو يغرى علماءها بالهجرة ليستنزف رصيدها من الخبرة ، وهو يصدر اليه ما لديه من فائض الخبرة المتوسطة بتكاليف عالية . ويتخذ الاحتياطات الكافية حتى يضمن أن نقل التكنولوجيا الى البلاد النامية لاينتهى باستقلالها الاقتصادى ، وهو يشكل أذواق الناس وعاداتهم الاستهلاكية بالحملات الاعلامية الضخمة حتى تتجاوز شهيتها الاستهلاكية قدرتها على الانتاج وبذلك تتفاقم مشاكلها الاقتصادية .

هذا هو دور الغرب الاستعمارى وشركاته المتعددة الجنسية فى عرقلة عملية النقل « النزبه »

للتكنولوجيا الى البلاد النامية ، ولكنهم في الوقت نفسه يعددون العوامل الداخلية المساعدة على هذه العقلة ، كانتشار الأمية وقلة الكوادر الفنية وهجرة الخبرات العلمية الى الغرب واستنزاف جزء كبير من الدخل القومي في شراء السلع الاستهلاكية والمواد الغذائية ودعم السلع الاساسية .

ومن هنا اتجه تفكير الخبراء في دول الغرب وفي الدول النامية الى مايسمونه « التكنولوجيا الملائمة » أهى التكنولوجيا التى تقوم على استخدام العمالة الضخمة والأيدى أو العقول نصف المدربة فتحل بذلك مشكلة البطالة الكثيفة ولكنها تعمق « الهوة التكنولوجية » أم هى التكنولوجيا المتقدمة التى تقفز من فوق هذه الهوة ؟ أهى تكنولوجيا « الاكتفاء الذاتى » من الابرأ الى الصاروخ « أم التكنولوجيا المكتملة للصناعة فى العالم المتقدم ؟ وقد تعددت الاجتهادات فى هذا الموضوع .

وقد وجد بعض الباحثين فى العالم العربى ، كاللكتور أسامة الخولى ان المفهوم الصحيح للاختيار التكنولوجى « يأخذ بالتكنولوجيا المتطورة كما يأخذ بالتكنولوجيا الوسيطة والتقليدية » ، وهو « منبثق من استراتيجية محددة للتنمية الصناعية ترتبط بدورها بمفهوم معين للتنمية يهدف الى تحقيق الحاجيات الاساسية للجماهير » (« شؤون عربية » عدد نوفمبر ١٩٨٢) . ويشترك معه الدكتور ناصر حصى فى هذه النظرة التوفيقية .

وهناك فريق من الباحثين يرى أنه لامناص ، لتجاوز الهوة التكنولوجية ، ولدفع التنمية ، من نقل التكنولوجيا وغرسها على مستوى « الوطن العربى » بأكمله لاعلى المستوى « القطرى » فحسب ونموذج هؤلاء الدكتور انطون زحلان فى بحثه « البعد التكنولوجى للوحدة العربية » (« المستقبل العربى » عدد ديسمبر ١٩٨٠) . عند هؤلاء الوحدة العربية أو على الأقل التكامل العربى شرط من شروط التقدم التكنولوجى والتنمية ، وليس هناك خطر من احتكار الشركات الأجنبية للتكنولوجيا بسبب المنافسة بين الشركات الأجنبية ، وانما المشكلة هى فى تفكك الدول العربية الذى يحول دون تكاملها الاقتصادى ووقوفها صفا واحدا فى مواجهة السوق الدولية . التى تبتلعها فرادى ولكن بوحدتها يمكن أن تكسر احتكار التكنولوجيا الذى تمارسها عليها الدول الأجنبية .

وفى رأى الدكتور عابد الجابرى ان جوهر مشكلة النهضة فى العالم العربى هو « التناقض الذى يميز الوضع العربى الراهن : التناقض بين مظاهر الحضارة الحديثة كما يعيشونها على مستوى الاستهلاك وبين مظاهر التخلف كما يعانون منها على مستوى الانتاج والسلوك والفكر ، والتناقض بين ضرورة الوحدة أو على الأقل التكامل والتنسيق على مستوى استراتيجية التنمية والايفاء بشروطها ومواجهة عراقيلها الداخلية والخارجية ، وبين انقسام الوطن العربى الى دول قطرية متنافسة متصادمة ، تابعة كل بمفرده ، وبصورة من الصور ، لمراكز الهيمنة العالمية . ومن هنا يبدو الحل واضحا كالشمس : ان دخول العرب عصر التكنولوجيا ، بكل ماتعنيه هنا كلمة (دخول) من القدرة على الاستيعاب والمساهمة فى الانتاج والتجديد ، يتوقف على عمليتين متكاملتين : قيام نوع حقيقى من الوحدة العربية (تنسيق فعلى ، اتحاد فيدرالى ، الخ ...) وانجاز نوع حقيقى كذلك من الثورة الثقافية تستهدف نحو الامية ونشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق وغرس اسس

العقلانية في التفكير والسلوك وجميع مرافق الحياة .

هذه هي الخلاصة التي وصل اليها الدكتور عابد الجابري ، وهو يلوم العالم العربي بقدر ما يلوم الغرب على هوة التخلف في التكنولوجيا والاقتصاد ، ويجد مصدر التخلف هو تناقض موقف العرب من الغرب ، فهو موقف الاعجاب والكرهية في وقت واحد ، الاعجاب بتقدم الغرب في الحرية والديمقراطية والتمسك بحقوق الانسان فكرا وفعلا ، وكرهية استعمارية الغرب واهدائه لكل هذه القيم في سبيل نهب ثروات الدول النامية .

فهو اذن تناقض له أسباب موضوعية .

وعند الدكتور عابد الجابري أن حل مشكلة النهضة العربية يتوقف على حل هذا التناقض في الغرب نفسه حتى تزول دواعيه بين الأمم النامية . وحل هذا التناقض في الحضارة الغربية لا يكون عند الدكتور عابد الجابري الا بنوع من « التوبة » توبة الاستعمار والرأسمالية العالمية عن نهب ثروات الشعوب واحتكار التكنولوجيا المتقدمة وحجبها عن الدول النامية ، أو باستغناء الغرب عن البترول العربي وعن خامات الدول النامية بفضل الثورة التكنولوجية ، أو بنشوب حرب عالمية ثالثة أو بهجرة استعمارية الى الفضاء الخارجي للسيطرة عليه بدلا من السيطرة على الدول النامية .

بعبارة أخرى فالدكتور عابد الجابري في انتظار حدوث معجزة تمكن الشرق من اللحاق بالغرب تكنولوجيا وحضاريا . هذه المعجزة هي « هزة عنيفة » في العرب أو في العالم العربي أو هزة من نوع آخر تكتسح أمامها كافة العراقيل أمام النهضة العربية ، وهو لا يعرف أن كانت ستكون هزة سلمية أم هزة دموية .

وهكذا عاد مفكرو العالم العربي الى أحلام اليقظة مرة أخرى والى بناء المدن الفاضلة في الاحلام التي يعرفون أحيانا ، كما يعترف الدكتور عابد الجابري ، انها مجرد حدس و « تخمين » .

فهو أولا يعود الى رؤيا الوحدة الكبرى كشرط أساسي لمسايرة أحدث ماف العصر من تكنولوجيا متقدمة ، وليس الى خطط التكامل العمل المدروس . رغم كل مايراه حوله من تمزق عربي في اليمن وفي لبنان وبين المغرب والجزائر وبين البعث السوري والبعث العراقي وبين ليبيا ومصر والسودان وبين كافة الدول العربية منذ كامب ديفيد مما أفضى الى خروج مصر من الجامعة العربية ونقل مقر الجامعة العربية الى تونس الخضراء ، وقبل هذا وذاك من تمزق فلسطيني ، ثم تلك القنبلة الزمنية الشيعية الهائلة المزروعة في قلب العراق ودول الخليج والسعودية ولبنان وكانت ايران الخمينية تزودها بجهاز التفجير ، فما هجوم العراق على ايران الا مبادرة لنزع ذلك الجهاز .

وهو ثانيا يحلم بيوم يستغنى فيه الغرب الاستعماري عن بترول العالم العربي وخاماته ليكف عن استغلاله اياه والسعى الى ابقائه على تخلفه ، وهو ينسى انه لو حدث هذا لانتقل اقتصاد الدول البترولية رأسا على عقب وتدهورت من التخلف الى الانحطاط ومن الغراء الفاحش المفتعل الى الفقر المتأصل والبدائية في عالم قاس لا مكان فيه للمتخلفين ، بل ولتدهور معها كل من تعنيه اليوم من الدول بالهبات أو

الاستثمارات أو القروض أو الودائع من فيض مالها ، ولن يفيق من هذه الصدمة أو الهزة الا الدول الاستعمارية وكل من له قدرة على الانتاج الراقى دون اعتماد على الدول البترولية .

فاذا كانت المعجزة التى ينتظرها الدكتور عابد الجابرى هى نشوب حرب نووية لكى يلحق العرب بالغرب ، فوأسفاه علينا وعلى الغرب من هذا الحلم الفاجع الذى يذكرنا بكابوس الطوفان أو باختفاء قارة أطلنطيس وراء أعمدة هرقل فى قاع المحيط . وهو يذكرنا بذلك الوهم الغريب الذى كان يداعب خيال بعض السذج من المصريين والعرب قبل ١٩٦٧ ، كلما اقتربت الحرب الباردة درجات من السخونة ، وهو أن تقتتل الكتلة الغربية والكتلة الشرقية فى حرب نووية شاملة فتمحو كل منهما الأخرى من الوجود ، وهنا يرث العرب الأرض وما عليها .

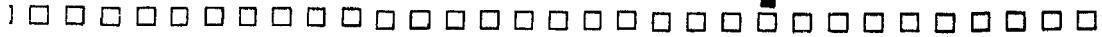
وقد بلغ من سذاجة هؤلاء أنه شبه لهم ان العالم العربى سيكون بمنأى عن هذا الدمار النووى ونسوا ان العالم العربى نفسه ، حتى لو لزمننا الحيات ، سوف يكون هدفا من أهداف كل صراع قادم بين القوتين العظيمين اكثر مما كان ابان الحرب العالمية الثانية حين كانت بلادنا مسرحا لتحركات ملايين الجنود الانجليز والألمان والإيطاليين والفرنسيين والبولنديين والأمريكان والهنود . والأرجح أن « الرجل الأبيض » سيحرب أسلحته أولا فى الرجل الأسمر والرجل الأصفر والرجل القمحي والرجل الأسود قبل أن يجربها فى البيض وحضارتهم . فان لم يفعل ذلك فعلته اسرائيل .

كان اينشتاين وبرتراند راسل وأوبنهايمر يقولون أنه لن يبقى بعد الحرب العالمية الثالثة الا بعض الزنوج والقرود المختبئة فى الغابات الاستوائية ممن لا يمثلون هدفا نوويا ولايستحقون اضاعة القنابل الذرية عليهم وأن أسلحة « الانسان الجديدة » سوف تكون من الحجارة وجوز الهند فاذا نجا العرب حقا من هذه الكارثة كما يأمل الدكتور عابد الجابرى فلن تكون هناك تكنولوجيا ولا غرب ولا استعمار ولا شركات متعددة الجنسية ، ولن يجدوا من يؤنس وحشتهم غير قبائل البوشمان والهوتنتوت وبعض القرود العليا المختبئة بي أشجار الكاكاو وجوز الهند والمطاط .

وبعد ، أفلم يكن أجدر بالمفكرين العرب ، بعد كل ما مر بهم من تجارب مريرة ، ان يمشوا قليلا على الأرض بدلا من كل هذا التحليق فوق السحاب ، وأن يفكروا فى أمر نهضتهم بمنطق الواقع وبمنهج العقل ، فيدرسوا فى موضوعية بعيدة عن عقد الماضى وانفعالات الحاضر أسباب تفوق الغرب عليهم اجتماعيا وفرديا ، ماديا وفكريا ، علميا وادبيا وفنيا ؟

فاذا ما اهتموا الى هذه الأسباب اخذوا بها دون سفسطة بيزنطية أو تحفظات ميتافيزيقية أو جزع من ضياع هويتهم وأصالتهم وتراثهم الثقافى . فمن خاف من لفحة برد أن تودى بحياته لن يفتح نافذة ، ومن بالغ فى الانتقائية نشودا للكمال سيخرج من معرض الحياة صفر اليدين ، ومن توهم الكمال فى نفسه عاش فى جنة المجانين .

الفصل الثالث عشر



الثقافة و .. البترول^(١)

في ديسمبر ١٩٧٢ شاركت مع فئة من مثقفي اليسار المصري في مؤتمر بمدينة فلورنسا نظمته هيئة « ايبالو » الإيطالية لمناقشة موضوع ثقافة البحر الأبيض المتوسط وكان موضوع البحث الذي قدمته هو وحدة ثقافة البحر المتوسط . وكان مدخلى الى هذا الموضوع هو أن اديان التوحيد الثلاثة قد ظهرت جميعا في منطقة البحر المتوسط ، وان هذه الأديان الثلاثة بينها وحدة أساسية في كيائها الميتافيزيقي ووحدة أساسية في تعبيرها الرمزي ، وبعد عودتي أسقطت عنى عضوية الاتحاد الاشتراكي مكافأة لى على أنى اكتشفت وحدة الأديان السماوية الثلاثة ، وكذلك اسقطت عنى عضوية المجلس الأعلى للفنون والآداب !

وهيئة « ايبالو » هيئة ثقافية ايطالية ، اسمها مكون من الحروف الأولى الدالة على أنها معهد أو منظمة لدراسات العالم الثالث [دول البحر المتوسط وأمريكا اللاتينية وافريقيا] .. وقد فهمت يومئذ ان هذه الهيئة الثقافية هيئة لا سياسية ولا حكومية بالمعنى الضيق أو بالمعنى الحزبى ، بل هيئة محايدة تنفق عليها كل الأحزاب السياسية الإيطالية مجتمعة وبعض المؤسسات الثقافية لتخدم السياسة طبعاً — ولكن عن طريق الدراسة العلمية . هكذا يدرسون السياسة فى البلاد المتقدمة على طريقة اعرف نفسك ، واعرف صديقك ، وأعرف عدوك .

(١) « الأهرام » ١٩/١٢/١٩٧٥ .

وفي أواخر نوفمبر ١٩٧٥ [من ٢٣ نوفمبر الى ٣٠ نوفمبر] اشتركت مع الدكتورة عفاف لطفي السيد والدكتور فؤاد زكريا [مصر] والدكتور وليد قزيه [لبنان] والدكتور محمد جسوس [المغرب] وعضو عن ايران وآخر عن تركيا ، في مؤتمر مماثل نظمته هيئة أمريكية تعمل في روما واسمها « مركز دراسات البحر المتوسط » ، بالاتفاق مع هيئة أمريكية أخرى اسمها « هيئة الباحثين الميدانيين بالجامعات الأمريكية » وكان موضوع هذا المؤتمر هو « المواجهة الثقافية والحضارية بين الدول المنتجة والدول المستهلكة للبتروك » بقصد البحث عن « الجذور الخفية للشخصيات القومية والمفاهيم وللمواقف الثقافية » . وقد كان متفقاً أن ألقى كلمة موضوعها « الشرق يواجه الغرب » ، وإن يرد على أستاذ اسمه هارلاند كليفلاند ، مدير جامعة هاواي ، بكلمة موضوعها « الغرب يواجه الشرق » . وغير الأساتذة الحاضرين عن الشرق الأوسط كان هناك عشرون أستاذاً من جامعات أمريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية وهولندا . وكلهم متخصصون اما في التاريخ أو في علم الاجتماع أو في الاقتصاد والعلوم السياسية أو في الانثروبولوجيا .

وقد لمت نظري أن رئيس الحلقة الدراسة أو المؤتمر كان السفير فيليب تالبوت ، سفير أمريكا السابق في اليونان ، ومساعد وزير الخارجية الأمريكية السابق وحالياً رئيس الجمعية الآسيوية . كذلك لفت نظري اشتراك السفير هارلاند كليفلاند ، الذي كان سفيراً لأمريكا في منظمة حلف الأطلسي ، مما أسبغ على المؤتمر طابعاً شبه سياسي ، رغم أن أحداً لم يتكلم في السياسة ، وإنما كان كل الكلام مقصوراً على التحليلات التاريخية والاجتماعية والفلسفية والثقافية بصفة عامة . وبالإضافة إليهما كان هناك جوزيف جونسون مدير مؤسسة كارنيجي وجيرت برانت ، مدير مؤسسة تيسن في المانيا الغربية .

ولذا فقد كنت أتمنى أن تتنبه وزارة الخارجية المصرية الى أهمية مثل هذا المؤتمر وإن تحاول إفقاد مراقبين فيه عن طريق أساتذة الجامعات المصرية . لا أقصد مراقبين لما يقوله الأعضاء المصريون في المؤتمر ، ولكن مراقبين لما يقوله الخواجات عنا . وعلى كل فالفرصة لا تزال سانحة ، لأن هذه الحلقة الدراسية كما هو معلن ، سوف تنعقد في روما أيضاً بين ٣٠ مايو و ٥ يونيو ١٩٧٦ . ولأعلم لي بمن سيدعى إليها من الخبراء ولا يجادل أعمالها .

وبالنسبة لنا ، نحن أبناء الشرق الأوسط ، كانت هناك ثلاثة أسئلة حائرة :
أولاً : اننا جميعاً باستثناء الأستاذ الأيراني ، لانتمى الى دول بتروكية ، فإذا كان المراد تبادل الآراء أو تناجزها في مواجهة بتروكية ، فقد كان الأجدر بأصحاب المؤتمر أن يدعوا مثقفين من السعودية وليبيا والعراق والكويت وامارات الخليج . أما دعوة مثقفين من مصر والمغرب ولبنان وتركيا ، وهي دول غير بتروكية ، فما جدواه ؟ وحين طرحت هذا السؤال بصراحة ، جاءتني الاجابة بصراحة : نحن نعرف أفكار أصحاب البترول ، ونحن لم نجتمع معكم لتكلم في أسعار البترول وإنما جئنا وجئتم لندرس معا ما هي الاسباب الثقافية والحضارية التي تحول دون تفاهم الشرق والغرب ، وهل هناك أرض مشتركة في الثقافة والحضارة تمكن من التفاهم في المستقبل ؟

أما السؤال الثانى الذى طرحته فهو : ما سر اختيارنا نحن بالذات : عفاف لطفى السيد وفؤاد زكريا وشخصى ، رغم اننا لانزعم أننا نمثل رأى التقليدى بين المثقفين فى مصر [نفس الامر بالنسبة للأستاذ اللبنانى وللاستاذ المغربى] . أجبناى السفير تالوت بصراحة : نحن نعرف رأى التقليدى فى العالم العربى من السفراء العرب ، ولكننا نحب أن نعرف رأى المثقفين العرب فى أسس اللقاء أو المواجهة بين الشرق والغرب كما نحب أن نعرض عليهم آراءنا .

وسألت السؤال الثالث : وما العلاقة بين الثقافة والبتروى ؟ فجاءتنى الاجابة : لا علاقة ، ولكننا نريد أن ندرس أن كانت الحوازل دون تفاهم الشرق والغرب هى مجرد عوائق اقتصادية أم ان هناك اختلافا عميقا فى العقلية والثقافية يحول دون أى لقاء حقيقى بينهما .



والمسألة ببساطة هى أن نسبة عظيمة من احتياطات البترول فى العالم تقع فيما يسمى بالشرق الأوسط أو العالم العربى أو العالم الاسلامى أو العالم الثالث اذا ادخلنا فى الحساب أمريكا اللاتينية ، وهى اسماء تقريبية ولكنها تؤدى المعنى المطلوب . والانتاج الصناعى والزراعى ، وأكبره الى ، وعديد من الخدمات الأساسية كالنقل ، يقوم أساسا على الطاقة البترولية بعد أن حل البترول محل الفحم وحلت الكهرباء محل البخار . ومنذ ارتفعت صيحة « بترول العرب للعرب » ، وهناك اتجاه متزايد فى الدول منتجة البترول للسيطرة على مواردها البترولية وبيع بترولها أو حجبها مما يتفق مع مصلحتها الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية . ومن يتأمل ماجرى فى العالم العربى فى السنوات الأخيرة يجد أن مشكلة البترول العربى بدأت منذ اقتربت مصر جمال عبد الناصر فى ١٩٦٢ بحرب اليمن من بترول الخليج وبترول السعودية وبلغت الذروة عندما استخدمت مصر السادات سلاح البترول فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . بل وإذا شئنا الدقة بدأت مشكلة البترول العربى عندما حال عبد الناصر دون استيلاء العراق على بترول الكويت فى ١٩٦١ . وبين هذين التاريخين كثرت التأميمات العربية للبترول وكثر التلويح به كسلاح اقتصادى وسياسى الخ .. وبين هذين التاريخين أيضا أحدث ارتفاع أسعار الطاقة البترولية فى الغرب بصفة خاصة وفى توابعه كاليابان ارتباطات اقتصادية كثيرة منشؤها ارتفاع أسعار الطاقة البترولية الذى ارتفعت بسببه تكاليف الانتاج الصناعى والزراعى الآلى وتكاليف النقل . ولأشك أن المستهلك فى جميع انحاء العالم قد دفع ثمن هذا الارتفاع بارتفاع أسعار المنتجات ، ولكن دورات التضخم والكساد أو الضيق الاقتصادى التى مر بها الانتاج الآلى فى السنوات العشر الأخيرة ، وأكبره مركز فى الدول الغربية خلخل القاعدة الاقتصادية التى يقوم عليها الانتاج فى الدول الرأسمالية بحيث غدا خطرا يهدد الانتاج الصناعى والزراعى وخدمات النقل فيها ويحول المشكلة من مشكلة اقتصادية الى مشكلة اجتماعية باغلاق المصانع موسميا أو باستمرار وافلاس الشركات وتفشى البطالة والشلل العام وانتشار الدعوات الراديكالية والاشتراكية والشيوعية التى تقوض دعائم النظام الرأسمالى الذى تقوم عليه أكثر دول الغرب .

هذه باختصار هي مشاكل الدول الغربية وقد حاولت الدول الغربية احباط هذه التطورات قدر الاستطاعة بطرق شتى كان أهمها :

(١) اجهاض الثورة اليمنية والوجود الناصري في اليمن حتى لا تقترب يد التغيير الشامل من بترول السعودية والكويت وامارات الخليج . وقد نجحت الى حد كبير في هذا المسعى فكان الاستنزاف على حساب مصر ولم يكن على حساب الدول البترولية ، وجاء التغيير على حساب الناصرية وليس على حساب النظم المتعاونة .

(٢) ابتلاع قسم كبير من حصيلة البترول العربي في الاستثمار في الاقتصاد الغربى بدلا من الاستثمار في الاقتصاد العربى . وحتى العام الفائت ١٩٧٤ كان في أمريكا وحدها من الودائع البترولية العربية ما قيمته ستون بليون دولار ، وهو نوع من نقل الذهب الأسود والأصفر من خزائن الدول البترولية العربية الى خزائن أمريكا وأوروبا وتجميده بالنسبة لأصحابه أو جعله ينفق على تنمية الدول الغربية لا على تنمية الدول العربية . ولقد كان لهذا الاجراء بعض الآثار الضارة على أمريكا وأوروبا ، ولكنها كانت أهون ضررا من استثمار البترول العربى في تنمية الانتاج العربى .

(٣) استنزاف بلايين الدولارات البترولية العربية في تسليح جيوش وجماعات عربية لن تستعمل هذه الأسلحة .. فان هي استعملتها فهى لن تستعملها ضد أمريكا أو أوروبا أو إسرائيل ولكن بعضها ضد بعضها الآخر . اما دول المواجهة مع إسرائيل فلا نصيب يذكر لها من هذه الترسنة العربية . بعبارة أخرى استنزاف بلايين الدولارات البترولية العربية على صفح اسم طائرات وحديد اسمه دبابات .

(٤) استنزاف بلايين الدولارات البترولية العربية على خدمات الحضارة كالتطبيقات العصرية وناطحات السحاب وتكييف الهواء في بلاد لاتزال في مرحلة البداوة ، وعلى لعب الحضارة كالسيارات والتلفزيون الملون وموائد القمار وغيره في لاس فيجاس ومونت كارلو ونواذى البلايوى ، بدلا من انفاقها على التعليم والتنمية الانتاجية . [لاحظ أن مصر مرت في هذه المرحلة منذ مائة عام بالضبط أيام الخديو اسماعيل كما نعرف من كتابات الأفغانى ويعقوب صنوع وعبد الله النديم حين كان القطن هو بترول مصر ، مع فرق واحد وهو ان اسماعيل كان شديد الحرص على نشر التعليم المصرى على أوسع نطاق وترقية قوانين البلاد وتقاليدها ونظمها وأفكارها ، للخروج بها من ظلمات العصور الوسطى الى العصر الحديث] .

(٥) التلويح موسميا باستيلاء الغرب بالغزو العسكرى [أمريكا بصفة اساسية] على منابع الطاقة البترولية العربية اذا استمر العرب في التجمع البترولى أى في اقامة « كارتيلة البترول » لاملأ اسعارهم على الدول المستهلكة للبترول .

• • •

والتلويح باستعمال القوة للاستيلاء على منابع البترول العربى ، ان دل على شئ ، فهو أن كل اساليب استنزاف الأرصدة البترولية العربية التى ابتكرها الغرب لاتزال عاجزة عن قمع هذه القوة الاقتصادية الرهيبة

التي يملكها العرب أو الحد من تأثيرها على الاقتصاد العالمي . ومع ذلك فالامر ليس على هذه الدرجة من البساطة لأن له وجهها استراتيجيا قد يكون أكثر أهمية من وجهه الاقتصادى . ذلك أن العرب يرى أن تأمين احتياطات البترول العربى من الوقوع فى أى صراع مقبل فى أيد معادية أو غير حليفة ، جزء لايتجزأ من استعداداته الاستراتيجية فى الصراع الدولى . فهو من هذه الجهة بالنسبة لأمريكا ليس نظير القطن المصرى بالنسبة ل إنجلترا ولكن نظير قناة السويس بالنسبة للامبراطورية البريطانية حتى عهد انتونى ايدن وجى موليه . وهناك فرق طبعا بين التهديد والتنفيذ ، فعبرة العدوان الثلاثى على قناة السويس لاتزال ماثلة فى أذهان الأصدقاء والاعداء على السواء .

ونحن حين نتحدث عن العالم العربى فى سياق البترول اما نستخدم الاجمال المخل ، فالعالم العربى به دول غير بترولية مثل مصر ، محدودة الانتاج كثيفة السكان ، بغض النظر عن خسائرها بسبب حروب اسرائيل ، وحتى فى ظل استقرار الأمن والسلام فى المنطقة ، تزداد خسائرها كلما ازدادت ارباح الدول العربية البترولية من رفع أسعار بترولها أو حجبه عن العالم ، بسبب تضاعف ثمن وارداتها الصناعية والاستهلاكية المستوردة من الدول الغربية وتوابعها ، ذلك التضاعف الناجم عن تضاعف تكاليف الانتاج والنقل .. وهذا الازدياد فى خسائر مصر يظهر فى ازدياد اختلال ميزان مدفوعاتها مع الدول الغربية فى السنوات الأخيرة ، أى منذ ارتفاع أسعار البترول . ويمكن لأى خبير اقتصادى أن يدرس هذه الظاهرة بمقارنة الزيادة فى أسعار ما استوردناه خلال السنوات العشر الأخيرة من القمح والورق وخامات الانتاج الصناعى والزراعى والآلات والمعدات الصناعية والزراعية ومختلف السلع الاستهلاكية السريعة والمعمرة ، ليس فقط بالنسبة لمصر ولكن أيضا بالنسبة للدول التى تصدرها لنا .



كذلك فنحن حين نتحدث عن الغرب فى سياق البترول ، انما نجمل اجمالا مخلا : ذلك لان اعتماد أمريكا على بترول الشرق الأوسط يتراوح بين ٦٪ و ١٣٪ من مجموع استهلاكها البترولى [نقرأ فى التحليلات تقديرات مختلفة] ، بينما نجد أن اعتماد الصناعة والنقل فى أوروبا على بترول الشرق الأوسط اعتماد اساسى يمكن أن يقصم ظهر الاقتصاد الاوروبى ، وهو ما كاد أن يحدث لأوروبا المزدهرة قبل حرب اكتوبر .

وقد كانت الاضرار التى انزلها حظر تصدير البترول وارتفاع اسعاره اثناء حرب أكتوبر ابلغ اىذاء للاقتصاد الأوروبى منها للاقتصاد الأمريكى . بل لقد أصبح من المعروف ان أمريكا استفادت من الاضطراب الاقتصادى فى أوروبا الناجم عن استعمال سلاح البترول فى حرب ١٩٧٣ لتدعيم قيمة الدولار الأمريكى المتدهور يومئذ فى السوق الأوروبية وفى السوق العالمية .



هذه كانت النتائج المباشرة لقرار الاوبك فى ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ ولقرار ايران فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ برفع ثمن البترول الى أربعة أمثال ثمنه الأصيلى ولكى تقدر جسامته أثر بترول الشرق الأوسط على الاقتصاد

العالمى يكفى أن نذكر ان حجم صافى حصيلة دول الأوبك الفائضة لها من بيع بترولها بعد دفع قيمة كل ما استورده من الخارج كان فى سنة واحدة ، وهى سنة ١٩٧٤ — ٧٠ بليون دولار . وان هذا الفائض فى المدخرات البترولية سوف يبلغ ٦٥٠ بليون دولار عام ١٩٨٠ و ١٢٠٠ بليون دولار عام ١٩٨٥ . فاذا نظرنا الى هذا الفائض على أنه استثمارات أوبىكية خارج بلاد الاوبك ، واكثرها بلاد عربية ، وجب أن نقارن حجم هذه الاستثمارات الرهيب بالرقم المتواضع الذى يمثل مجموع الاستثمارات الأمريكية اليوم خارج أمريكا وهو ٩٠ بليون دولار .

ووسط هذه الأرقام الفلكية من الرصيد البترولى النقدى الذى يملكه العالم العربى مضافا اليه ايران ونيجيريا واندونيسيا وفينزويلا [وهى مجموع دول الاوبك] ، ما جدوى الحديث عن الثقافات والحضارات ؟

ومع ذلك فالدول المستهلكة للبترول كانت حريصة على مناقشة الثقافات والحضارات . وظل هذا الحرص سائدا طوال ثلاثة أيام من اللف والدوران حول المشكلة باسم الثقافة والحضارة ، وبعد أن اتعبنهم واتعبونا خلال هذه الأيام الثلاثة دخلنا فى الموضوع الحقيقى وهو الحوار البترولى أو المواجهة البترولية بين منتجى البترول ومستهلكيه .



وسأل السفير هارلاند كليفلاند السؤال التالى : فى الخلاف بين الدول المنتجة والدول المستهلكة للبترول ، كيف يمكن التوصل الى قرارات دون اللجوء الى حرب ؟ [لاحظ أن فكرة الغزو مطروحة ضمنا فى كلامه] . انه يرى أن الحل اقتصادى سياسى وليس ثقافيا ، رغم أهمية الثقافة فى التفاهم والتلا تفاهم بين الشعوب . ولكن رغم أن الاتجاه العام فى المؤتمر كان الى الأخذ بهذا الرأى كان علينا أن نقضى ثلاثة أيام فى جدال مع عديد من أساتذة الغرب لنثبت لهم أن موقف الدول العربية من البترول ومستهلكيه فى الغرب لا علاقة له بموقف الاسلام والعالم الاسلامى من المسيحية والعالم المسيحى : فعلى هذا المستوى طرحت ، أول ماطرحت ، قضية البترول العربى فى مؤتمر روما لدراسات البحر المتوسط .

قلنا : وما الداعى أصلا لافتراض ان اختلاف الأديان له علاقة بالصراعات الاقتصادية والسياسية بين الشرق والغرب ، بترولية أو غير بترولية ، قالوا : كلما حدث صدام بيننا وبينكم سمعنا أصواتا تتعالى بينكم منادية بالجهاد الدينى ، وهكذا صور لنا البعض ان الشرق الأوسط لاشخصية له خارج معتقداته الدينية . وفكرة الجهاد الدينى تجعل الحوار مستحيلا بين الدول والجماعات والثقافات المختلفة ، وبالتالي تجعل الغرب مرفوضا عندهم من حيث المبدأ وتقفل باب كل محاولة حقيقية لتفاهم دائم أو لسلام دائم .

وطرح القضية على هذا المستوى هو مافعله الأستاذ برنارد لويس ، وهو عالم جليل فى الاسلاميات ، ولكنه للأسف صهيونى النزعة ، وهو لهذا يعمق فى تحليلاته ما بين الغرب والشرق من تناقضات على أساس انها تناقضات بغير حل ، لأن جوهرها هو المواجهة الدينية بين الاسلام والمسيحية وبين العالم الاسلامى والعالم

المسيحي ، وبهذا يسد الطريق على كل لقاء ممكن . وقد بلغ من مغالاته في تصوير ذلك انه زعم ان شعوب العالم العربي شعوب تعيش حتى اليوم بلا هوية قومية لأن القومية عندها مرادفة للدين .

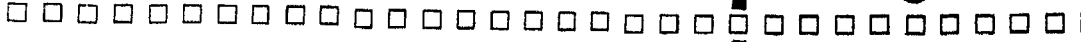


وهذا ظلم ظالم للعالم العربي الذي بعثت فيه قومياته الأصيلة منذ أكثر من قرنين ، وتجلى ذلك في محاولات انسلاخها المتعاقبة من سلطان الخلافة العثمانية منذ على بك الكبير عبر محمد علي وسعيد واسماعيل وعراي وسعد زغلول . هو ظلم ظالم لانه يفترض اننا نعيش في القرن العشرين بعقلية العصور الوسطى حين كان العالم يقسم الى عالمين : عالم اسلامي وعالم مسيحي . وهو ظلم ظالم لأن الأستاذ برنارد لويس ، وهو أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعة لندن وبرنستون ، يعرف قبل سواه أن إنجلترا هي التي كانت وحدها تتصدى لتطبيب الرجل المريض [الامبراطورية العثمانية] على الأقل منذ بونابرت ، ولولاها لقضى نحبه منذ ١٨٠٠ ، ويعرف قبل سواه ان إنجلترا هي التي كانت تؤازر تركيا في قمع كافة الحركات القومية الاستقلالية في العالم العربي الثائرة على الامبراطورية العثمانية فهي التي قضت على محمد علي ثم على اسماعيل ثم على عراي وهي التي كانت تؤازر كل الطبقات والتيارات الرجعية في العالم العربي : باسم « الاصلالة » لاجهاض نهضته الحديثة حتى يبقى مطموس القومية سادرا في جهالات العصور الوسطى ، هذه التي يشكو منها الأستاذ برنارد لويس ومدرسته .

وقد ترسنت امريكا منذ بزوغها الامبراطورية خطى إنجلترا ، فعسى أن تكون قد اتعظت بكارثة فيتنام .

الفصل

الرابع عشر



ترتيب العالم^(١)

ومن يتأمل القضيتين المطروحتين يجد أن كلا منهما تناقض الأخرى على خط مستقيم ، إذ كيف تكون كرة الأرض وحدة واحدة ومع ذلك توجد فيها نواد غير مفتوحة للجميع وبعد أن استقر الرأي بين المختمين على أن المشكلة بين الشرق والغرب مشكلة اقتصادية وسياسية قبل أن تكون ثقافية ، طرح السؤال التالى : كيف يمكن تكوين القرارات دون احتكام الى الحرب [نظريا هذا ينطبق على طرفى النزاع] ؟ وكانت الاجابة هى التالية : المهم أن تتفق اطراف النزاع لا على الموضوع ولكن على المنهج ، وهو طبعا منهج الحوار الذى به وحدة يمكن التوصل الى حل الموضوع . وفى موضوع التوتر القائم بين الدول النامية ودول الغرب لخص ما تنتظره الدول النامية من دول الغرب بثلاثة أمور هى :

- (١) على المستوى الداخلى : ضبط النفس [أى الاحجام عن دق طبول الحرب أو دعوات العدوان على الدول النامية فى السياسة الداخلية] .
- (٢) على المستوى الدولى : العدل [فى التعامل مع الدول النامية] .
- (٣) على مستوى المؤسسات : المشاركة . اما ما ينتظره الغرب من الدول النامية فقد لخصه كليفلاند أيضا بثلاثة أمور هى :
- (١) على المستوى الداخلى : الاعتماد على النفس .
- (٢) على المستوى الدولى : التنبؤية [فى القرارات والأفعال وردود الأفعال] ، يقصد أن الدول المتقدمة حائرة مع الدول النامية لأن سياساتها كثيرا ما تكون مفاجآت غير منتظرة . أو غير متوقعة .

(١) « الأهرام » ١٩٧٥/١٢/٢٦ .

(٣) على مستوى المؤسسات : الفاعلية . فادا استمر الحال على هذا المنوال من تكتل دول العالم الثالث فمن الطبيعي ان يحمى الغرب نفسه بالتفكير فى اقامة أمم متحدة صغيرة لاتشتمل الا على الدول العظمى . وقد توصلت الدول الكبرى اقتصاديا ، امريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية وايطاليا واليابان وبلجيكا وهولندا [الى تكوين مايشبه النقابة المصرفية من بنوكها المركزية لضمان حد أدنى وحد أقصى لقيمة النقد فيما بينها بحيث تتكافل فى تجنب الزعازع التى يمكن أن تدمر عملة هذه البلاد فى سوق النقد الدولية فتجلب الخراب على أى من هذه البلاد . وربما كان من الأفضل أن نسميها « نقابة الأغنياء » ، أو « نادى الأغنياء » .

وكل هذا فى نظرى كلام عام لأنه حمل مؤشرات ذات مغزى للطريقة التى تفكر وتعمل بها دول الغرب رغم ماينها من تناقضات فى مواجهة دول العالم الثالث ولاسيما الدول البترولية . وخطورة هذا الكلام بالنسبة لنا هى أنه يفسر لماذا كثر استعمال عبارة « العالم الرابع » فى الفترة الأخيرة . فقد غدا واضحا فى أذهان الكثيرين من خبراء السياسة والاقتصاد أن هناك فى العالم 'يوم اربع مجموعات من الدول .

- (١) العالم الأول وهو الكتلة الغربية الرأسمالية .
- (٢) العالم الثانى وهو الكتلة الشرقية الاشتراكية .
- (٣) العالم الثالث وهو الدول النامية ذات الموارد وفى مقدمتها الكتلة البترولية المتمثلة فى الأوليك .
- (٤) العالم الرابع وهو الدول النامية الفقيرة التى لاتملك موارد .

وواضح أن الكتلة الغربية [الرأسمالية] قد نجحت فى أو هى فى طريقها الى ، [بعد اختفاء ديوجول ونظرائه والديجولية وما يماثلها] تكوين نقابة من الأغنياء المتقدمين . وبالمثل فالكتلة الشرقية [الاشتراكية] كذلك تؤلف نقابة من ميسورى الحال المتقدمين . ويتكوين كتلة الاوليك ، تكتل الدول البترولية والفت نقابة من الاعنياء المتخلفين ، وبذلك انسلخت مما كان يسمى أيام عبد الناصر بالعالم الثالث ، وكونت عالما جديدا أصبح هو العالم الثالث ، تاركة الدول المتخلفة الفقيرة فى عزلة تواجه مشاكلها الكبرى وحدها ، وهى باختصار مشاكل الفقر والتخلف ، ومثلها الكلاسيكى البنجلاديش وبعض دول أفريقيا السوداء وأمريكا اللاتينية وحنوب شرق آسيا .

وحين تسمع هذا الكلام لايسعك الا أن تطرح على نفسك وعلى الغير السؤال التالى :

ومصر ؟

مصر التى كانت قائدة العالم الثالث داخل المجموعة العربية والمجموعة الأفريقية ، أين مكانها الآن ؟

هل هى لاتزال فى العالم الثالث أم انها تزحزحت الى دائرة العالم الرابع بسبب فقرها ؟ نحن طبعاً لاتتكلم عن الغد ولكننا نتكلم عن اليوم ، فربما كانت بعض الدول البترولية المتخلفة من أغنياء اليوم ولكنها ستصبح من فقراء الغد اذا نضب بترولها قبل أن تبني لنفسها قاعدة اقتصادية راقية لاتتوقف على سخاء ضرع الأرض ، وربما كانت مصر وهى من فقراء اليوم ستصبح من أعنياء الغد اذا عرفت كيف تستثمر ثرواتها الطبيعية المحدودة وثرواتها البشرية المتزايدة . نحن نتكلم عن اليوم لا عن الغد ، فما نفعه اليوم هو الذى

سيشكل الغد أيا كان مكانا أو اسما .

هذه هي مشكلة مصر الحقيقية وكل ما عدا ذلك تفاصيل . وأنا شحصيا اسمع ناقوس الخطر ، بعيدا خافتا ، ولكن رنينه تميزه الأذن بين الأصوات المختلطة الكثيرة . فهل يسمعه أحد معي ؟

ومع ذلك فليس هـا مدعاة لفقدان الثقة في النفس ، فحتى العرب لا يجرؤ اليوم على تبويسا في العالم الرابع ، رغم أننا بحسب تعريفهم الجديد لم بعد في العالم الثالث . ثم ان كل هذه التبويسات هي مجرد طرق في التعبير لا ينبغي أن نحملها أكثر مما تحتمل . نحن الآن لانزال في العالم الثالث ، رغم كثرة ديوننا ورغم قلة مواردنا الطبيعية بالنسبة لعدد السكان ، لسبب بسيط وهو ان رصيدنا من الخيرات العقلية والتكنولوجية ورصيدنا من قدرات العمل والبناء ، أو باختصار رصيدنا من « الانسان » يعوضنا بعض الشيء عن نقص رصيدنا من « الموارد الطبيعية » ، فنحن لانزال الى اليوم عقل العالم العربي وعضله معا وأهم مخزن شرى له من حيرة الخدمات . وهذه هي المشكلة لانها مصدر قوتنا بمتل ماهى مصدر ضعفنا . فالخشية كل الخشية أن نتحول بسبب فقرنا وضعفنا السياسى والاجتماعى الى بروليتاريا حقيقية للعالم العربى على كل مستوى بعد أن كما في وضع « القادة والخبراء » .

وأنا أرى بداية ذلك فيما يجرى الآن من تصدير الالاف المؤلفة من الفلاحين المصريين الى البلاد العربية لا كحبراء زراعيين ولكن لرفع الأثقال ومختلف الاعمال العصبية في مشروعات البناء ومد الطرق والكابلات الخ ... والفلاح المصرى ، مهما قيل في بساطة خبرته ، يعرف مند نعومة أظفاره ما يزرع في أمشير وما يحمصد في برمهات وما يروى وما يصوم من الزراعات . وتحويله الى مجرد « فاعل » أو « نفر » يؤخر قوته العضلية سوف ينتهى بفقدانه خبرته الأولى دون أن يكتسب خبرة جديدة أو دون أن يتحول من أحرير يخدم الغير الى منتج يضيف الى ثروة بلاده .

كذلك اراه في استئثار الدول العربية وغيرها « بالفرزة الأولى » من خيراتنا العقلية والتكنولوجية والحرفية ، تاركة لنا بقية العزرات في التعليم والطب والهندسة والفنون والصناعات الخ ... مما نجم عنه انخفاض مستوى الانتاج والخدمات في مصر كما وكيفا .

كذلك أراه في انخفاض قيمة العمل المصرى في بورصة العمل خارج مصر ، سواء لزيادة العرض على الطلب أو لتكون كوادر من الخيرات في البلاد العربية ذاتها من بين ابنائها نتيجة لعشرات السنين في التدريب المستمر . وكما ان بعض البلاد العربية البترولية مهددة بنضوب احتياطياتها من البترول بعد عشرات السنين ، فمصر أيضا مهددة بفقدان اهميتها كمركز لتصدير الخيرات الى البلاد العربية في فترة مماثلة ، حين يتعلم أبناء البلاد العربية أنفسهم مبادئ العمل الحضارى كما تعلمنا نحن من الأوربيين عبر عشرات السنين من الاختلاط الحضارى .

في مؤتمر روما الذى نظمته في نوفمبر ١٩٧٥ هيئة « السائحين الميدانيين في الجامعات الأمريكية » بالتعاون بالمركز الأمريكى لدراسات الشرق الأوسط بروما طرحت قضيتان حضاريتان على غاية مايكون من

الخطورة : طرح بعض الأساتذة قضية الشرق والغرب على أساس أن هناك « ناد غربي » عضويته غير مفتوحة للجميع ، أى عبارة أخرى أن « نادى الدول المتقدمة » غير مفتوح للدول المتخلفة أو النامية وفى الوقت نفسه طرح مشروع اسمه « صفقة الكرة الأرضية » مؤسس على مبدأ ترتيب العالم بتخطيط التنمية الاقتصادية وترشيد الموارد الطبيعية على مستوى الكرة الأرضية كلها وكأنها دولة واحدة وقد يسمى المشروع « صفقة » باعتبار أن التفاهم فيها بين العالم المتقدم والعالم النامى أو المتخلف لن يقوم على استخدام السلاح ولكن على المفاوضات والمفاصلات كما يحدث فى الأسواق .

فمصر الآن اذن فى معترق طريقين : طريق يمكن أن يؤدى بها الى أن تكون عضوا فى العالم الثانى ، عالم الدول الميسورة الحال المتقدمة حضاريا ، وطريق يمكن أن يؤدى بها الى أن تكون عضوا فى العالم الرابع أو مجموعة الدول التى جمعت بين التخلف وقلة الموارد الطبيعية . والامر فى الحالين بيدها ، وكل خطوة تخطوها الآن محسوبة عليها فى هذا الطريق أو ذاك . وفى اعتقادى أن الطريق الذى اشار اليه جيسكار ديستان فى نهاية خطابه بجامعة القاهرة ، طريق النظر الى الامام ، والى الامام فقط ، كأبى الهول فى انتظار اشراق الشمس الأكيد ، هو الطريق الوحيد الى النجاة من جحيم العالم الرابع والتقدم الى مكان مصر الطبيعى بين الامم المزدهرة من أبناء العالم الثانى ، وذلك برفع انتاجية البلاد وخدماتها على كل مستوى وفى كل مجال ، كما وكيف ، أولا وقبل كل شئ ببناء الانسان المتمدد على أرض مصر ، لان الانسان هو أس كل انتاج وأس كل خدمات .

ولنعد الى حلقة روما الدراسية التى بدأت بحديث الثقافة وانتهت بحديث التخطيط الاقتصادى للعالم . وقد طرح السفير هارلان د كليفلاند على المجتمعين تصور بعض الخبراء فى معهد اسبين الأمريكى لترتيب العالم لوقيته من الاضطرابات الاقتصادية ، وهو يقوم على ثمانى نقط أهمها ست هى :

(١) انشاء بنك الطعام ومهمته تنمية وتنسيق موارد العالم من الغذاء عن طريق مجلس الغذاء العالمى لتوفير الطعام لكل فم ، بحيث تزيد احتياجات العالم من الطعام ولاسيما من الحبوب ، وذلك لمواجهة السنين العجاف بصفة عامة ، مع اعطاء أولوية خاصة فى معونات الغذاء للبلاد المتعرضة للمجاعات ولاسيما الهند وبنجلاديش ودول افريقيا جنوب الحزام الصحراوى . وكذلك تحديد حد أقصى وحد أدنى لأسعار الأغذية الاساسية فى السوق الدولية .

وهذا بالطبع كلام جميل ولكنه يفجر مشاكل كثيرة خطيرة . ذلك لأن سلاح القمح أو الحبوب بصفة عامة الذى تملكه بعض الدول العظمى وفى مقدمتها امريكا يمكن أن يكون سلاحا أفعل فى الضغط على الشعوب الفقيرة من سلاح البترول فى الضغط على الشعوب الغنية . ولهذا فالسيطرة على بنك الطعام ، أى هذا المخزن العالمى أو هذه المخازن العالمية للأغذية الاساسية قد تترتب عليها أخطر النتائج . ثم أن اشتراط توجيه التنمية الزراعية فى البلاد المتخلفة والنامية لتغطية حاجاتها من الطعام ، رغم أنه يصون استقلال هذه البلاد بضمن الكفاف فى الداخل ، الا انه كفىل بأن يجعل البلاد المتخلفة والنامية عاجزة عن دخول عصر الصناعة لتكريزها على الزراعة .

(٢) انشاء بنك البترول والمواد الخام ، ومهمته تثبيت اسعار المواد الخام بوضع حد أقصى وحد أدنى لهذه الأسعار بالاتفاق الدولي ، مع مراجعة هذه الأسعار بانتظام لتتماشى مع الحالة الحقيقية للعرض والطلب في العالم . ومع ضغط الأسعار يكون ايضا ضمان حصول الدول الصناعية عليها من الدول النامية بعقود طويلة الأجل بين الطرفين . ومن هذه الجهة يمكن اعتبار البترول احد المواد الخام الداخلة في هذه الصفقة . وانشاء بنك البترول والمواد الخام يعمل على تخزين رصيد دولي من البترول والمواد الخام لطرحه في السوق الدولية كلما نقص العرض عن الطلب .

ومعنى هذا ، انه لو طبق هذا الكلام ، فانه يجرد الدول البترولية من أقوى سلاح تملكه في وجه الدول القوية ، كما انه يضمن منع حظر تصدير البترول من الدول النامية الى الدول الصناعية كما حدث في حرب أكتوبر . ولما كانت البلاد النامية أو المتخلفة هي مصدرة المواد الخام للدول المتقدمة ، فان نظرية العقود الطويلة الأجل مهما كانت مرنة سوف تكبل الفقراء الضعفاء لحساب الأغنياء الأقوياء لعدم تكافؤ الطرفين في القدرة على المساومة . كذلك فان هذا النظام سوف يكسر نهائيا فاعلية منظمة أوبك ويضع حدا لاحتكار الطاقة .

(٣) انشاء هيئة مفوضة من الامم المتحدة لمراقبة نشاط الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات التي استفحلت منذ الحرب العالمية الثانية حتى ان نشاطها يمثل الان خمس تجارة العالم . هذه الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسية في الصناعة وغيرها ، واكثرها مقره في البلاد المتقدمة ، قد بلغ بعضها من الجسامة انها أصبحت أكبر حجما وأكبر قوة من كثير من البلاد النامية التي غدت تتحرج من التعامل معها والانفتاح لها خوفا من ثقلها السياسى الذى يمكن أن يغير أو يحدد مجرى الأمور ونظم الحكم في الدول الصغيرة ، وكذلك لقدرتها على التهرب من الضرائب وعدم الانصياع لقوانين البلاد التي تعمل فيها . وقد كثرت الشكوى فعلا من تدخلها السياسى في بلاد العالم الثالث وتبنيها انقلابات كانقلاب شيلي الخ .. كما شاع أمر الرشى التي تدفعها لكبار رجال الدولة في البلاد النامية لتيسير أمورهما . هذه الشركات المتعددة الجنسية قادرة على الاستثمار الصناعى ونقل التكنولوجيا الى البلاد النامية ولكن ضخامة حجمها وسوء سمعتها يخيف كثيرا من البلاد النامية منها . وفي رأى تقرير معهد أسين الأمريكى أنه من الممكن انشاء هيئة لمراقبتها مراقبة فعالة وفضحها اذا ساء سلوكها والاستماع الى الشكوى منها الخ ..

الشركات المتعددة الجنسية ؟ لا . فلنسمها الاحتكارات المتعددة الجنسية . هذا الوباء الذى استفحل في نصف القرن الأخير ، وهو الذى يحمر قمر الديمقراطية الليبرالية في العالم اليوم . وحتى أيام الحرب العالمية الثانية لعنا نذكر أن الأسطول البريطانى لم يعرق بعض السفن التجارية الألمانية لأن رأسمالها كان محلياً أو لأنه كان مؤمناً عليها في شركة اللويدز الانجليزية . وقد كانت الطائرات الأمريكية تدمر كل شيء في برين ومع ذلك كانت تتجنب اسقاط قنبلة واحدة على مصانع تليفونكن لأنها كانت استثمارا أمريكياً . متعدد الجنسية ، ومن بعد ذلك السوق الأوروبية المشتركة والاستثمارات الأمريكية في كل ركن من أركان أوروبا وفي عديد من دول العالم النامى . وهل تحدى مع هذا الاحطوط الاحتكارى سلطة أدبية مثل اقامة محكمة عدل دولية حديثة ؟

وماذا يحىى الدول النامية من أن تسلم مصيرها لاستثمارات أجنبية ميزانية كل منها أكبر من ميزانية كثير من دول العالم النامى ؟ لقد كان الحل فى الماضى القريب هو أن يؤلف فقراء الأرض وضعفاؤها ، أو مانسميه العالم الثالث ، نقابة للفقراء والضعفاء يقاومون بها نقابة الأغنياء الأقوياء . واليوم بخروج الدول البترولية من نقابة العالم الثالث وتأليفها نقابة الأوبك تحول العالم الثالث الى شراذم متفرقة ضعيفة أقل قدرة على المقاومة . واكتفى بهذا القدر من الكلام .

(٤) انشاء صندوق دولى للمعونات يمول من فرض رسوم وضرائب دولية على استثمار له طابع دولى مثل استغلال قاع البحار ومرور السفن فى المياه الدولية [أى خارج المياه الإقليمية] والطيران المدنى فى المجال الجوى الدولى وعلى مصايد المحيطات وعلى المواصلات السلكية واللاسلكية الدولية الخ .. والغرض من صندوق المعونات الدولى هو تعزيز قرار الأمم المتحدة ان تخصص الدول الصناعية ١٪ من اجمالي دخلها القومى لمشروعات التنمية فى الدول النامية .. عن طريق المعونات والقروض الطويلة الاجل ، لم يعد هذا القرار ينفذ الا فى حدود ثلث الواحد فى المائة ، بسبب اقتناع الدول الواهبة أو المقرضة بأن هذه المعونات لاينتفع منها فى البلاد النامية من يجب أن ينتفعوا منها . وهذا الصندوق يقوم جنبا الى جنب مع البنك الدولى وبرنامج التنمية التابع للأمم المتحدة وليس بديلا عنهما ، ومهمته معاونة الدول النامية على تمويل مشروعات التنمية « الاساسية » فيها لسد حاجاتها « الحيوية » .

(٥) إعادة التوزيع الجغرافى للصناعة : فالصناعة حتى الآن مركزة فى الدول المتقدمة ، وقد كانت الدول المتقدمة تقليديا تحاول احباط التنمية الصناعية فى الدول المتخلفة . والحل الآن هو أن تغير الدول المتقدمة هذه السياسة وتبدأ فى تشجيع تصنيع الدول النامية والاستثمار فيها بشرط اطمئنانها على أموالها وأرباحها ، وبذلك تتفرغ الدول المتقدمة لدخول عصر ما بعد الصناعة وهو عصر العقل الالكترونى وصناعات المعلومات . وبذلك تنتقل الصناعات والتكنولوجيا التقليدية الى البلاد النامية فتثمر البلاد النامية فى نفس الثورة الصناعية التى مرت فيها من قبل الدول الصناعية .

وهذا التصور لاعتبار الكرة الأرضية كلها مجالا لاستثمارات الدول المتقدمة فى الصناعة تصور خطير ففيه يتمثل حلول الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم ، واعتبار مواطنى العالم النامى ببوليتاريا عالمية لمواطنى الدول المتقدمة ، الأولون يدربون على الانتاج الآلى والآخرون ، وهم مالكو رأس المال ، يجنون فوائد القيمة من هذه البروليتاريا العالمية . ومثل هذا التصور يكون مقبولا لو أن هناك تكافؤا فى القوة بين البلدين المتقدم والمتخلف بما يخص رءوس الأموال الأجنبية لسيادة الدول النامية ، اما والحال عكس ذلك فالأرجح أن رأس المال الأجنبى كفىل بأن يشكل دولة داخل الدولة فى كل بلد نام ، لم تعد هناك حاجة فى هذا التخطيط لكرة الأرض لجلب العبيد من افريقيا للعمل فى مزارع فرجينيا أو مصانع ديترويت ، اذ الأرخص الآن اقامة المصانع لهم فى محال اقامتهم مادامت هذه المصانع فى حراسة عواصم الدول المتقدمة . والحل الأمثل هو ان تبنى الدول النامية صناعاتها بأموالها ويعمل ابنائها وأن تقتصر معاونة الدول المتقدمة على تقديم آلاتها وخبراتها التكنولوجية بالأسعار التى لا تشل النمو الصناعى فى بلاد العالم الثالث .

(٦) التعاون الدول للاستثمار في المجال المشترك بين جميع الدول وهو المحيطات وقاع البحار للانتفاع المشترك من موارده الطبيعية . ولكي يتم ذلك لابد من الاتفاق على قانون البحار الجديد الذي يمكن من هذا الاستثمار المشترك . فحتى الآن تفضل كل دولة المحافظة على قانون البحار الذي يحمي مياهها الإقليمية رغم أن أمريكا تقدمت في ١٩٧٠ بمشروع معاهدة دولية تفتح الباب لهذا الاستثمار المشترك في البحار والمحيطات ، ولكنه لم يصادف قبولا . وقد نشأت مؤخرا احتكاكات بين الولايات المتحدة وبعض جمهوريات أمريكا اللاتينية وبين إنجلترا وإيسلندا بسبب أعمال القرصنة في الصيد في المياه الإقليمية . وتقرير معهد أسبين يرى الحل في إقامة هذه الشركة الضيبي بين الأقوياء والضعفاء . بل أخطر من ذلك ، فبظهور هذه الشركات « الدولية » لن تصبح الشواطئ الإقليمية لأية دولة صغيرة آمنة من العمل العسكري المقع بقناع التعاون الاقتصادي .

من كل هذا نرى أن « صفقة الكرة الأرضية » كما يسمونها ليست صفقة بالمعنى الصحيح فالفكرة السائدة فيها هي حماية نقابة الأغنياء [الدول المتقدمة] من تجمع الفقراء تجمعا سياسيا واقتصاديا يمكنهم من تكوين ارادة مستقلة واستغلال مواردهم لحسابهم لا لحساب الغير . وعقيلة النادي المغلق لاتزال تسيطر على الفكر الغربي ، وكل ماحدث من تغيير هو ان المثقف الغربي اليوم يطرح اسلوب المفاوضات والمساومة بدلا لاسلوب الغزو العسكري الذي كان سائدا حتى الحرب العالمية الثانية .

والسؤال الذي يحتاج الى تأمل بعد كل هذا هو ماذا يمكن ان يفعل « النادي الغربي » لو انه استنفد مع العالم الثالث كل اساليب المفاوضات والمساومة ولم يصل الى اغراضه لأن مايعرضه من فتات غير مقبول عند الدول النامية ؟

الفصل الخامس عشر

دورات النهضة والاضمحلال^(١)

هذا الموضوع باختصار شديد هو : لقد لوحظ في تاريخ مصر الحديث عبر القرنين الأخيرين ، أى منذ سنة ١٨٠٠ على وجه التحديد ، أن الدولة في عصور القوة والازدهار تنحاز دائما للجديد وفي عصور الضعف والانسحاق تنحاز دائما للقديم ، وبالدولة هنا أقصد السلطة ومراكزها المختلفة وأدواتها المختلفة . كانت « السلطة » في عصر محمد على وفي عصر اسماعيل وفي عصر سعد زغلول [الذى بدأ في حقيقته بثورة ١٩١٩ وانتهى في حقيقته بالمعاهدة المصرية الانجليزية عام ١٩٣٦] وفي عصر عبد الناصر [بين ١٩٥٢ و ١٩٦٧] منحازة للجديد على قدر تصورها وفي حدود فهمها لمعنى الجديد ، هذا الذى نسميه المجتمع العصري . وكانت « السلطة » في عصر عباس الأول وفي عصر توفيق وفي عصر عباس حلمي وفي عصر فاروق وبعد هزيمة ١٩٦٧ منحازة للقديم . والمقصود بالقديم هنا هو قيم المجتمع التقليدي في الانتاج وفي المعتقدات والأحكام وفي السلوك الفردي والاجتماعي ، والمقصود بالجديد هنا هو قيم المجتمع العصري في كل هذه الأشياء .

كانت السلطة في عصر محمد على منحازة للصناعة حيث كانت القيم التقليدية تقوم على الزراعة ، ومنحازة لمصر الموحدة ذات الحكومة والادارة المركزية القوية ، حيث كانت القيم التقليدية تقوم على نظام مصر المفككة فيما يشبه الولايات شبه المستقلة أوامارات الاقطاع الموزعة على الممالك والسناجق ، كذلك كانت السلطة في عصر محمد على منحازة لمبدأ القومية المصرية المستقلة (يحميها جيش وطني قوى) حيث كانت القيم التقليدية

(١) « الأهرام » ١١/١٠/١٩٧٤ .

قائمة على مبدأ التبعية سياسيا وعسكرية للخلافة العثمانية . كذلك كانت السلطة في عصر محمد علي منحازة لتجديد مصر بالخبرة الأجنبية في التكنولوجيا ، يكتسبها المصريون بالانتقال الى أوروبا أو ينقلها الأوروبيون الى مصر بمجيئهم اليها ، بعد قرون من عزلة مصر الكاملة الشاملة عن المجتمع الأوروى التى نجم عنها ان مصر لم تعرف الكتاب المطبوع طوال ثلاثة قرون بين مطبعة جوتنبرج ومطبعة بونابرت . وكانت السلطة في عصر محمد علي منحازة للتعليم العصرى ولا سيما التكنولوجيا منه ، بعد أن كان العلم في مصر مقصورا على علوم الدين فيما قبل ذلك من العصور .

وبانهيار محمد علي في ١٨٤٠ عادت مصر تدريجيا الى كافة القيم التقليدية وبلغت الرجعية قمته في عصر عباس الأول : درست الصناعة ، وضعفت الحكومة المركزية وانحسرت القومية المصرية ، وصفت العسكرية المصرية لحساب التبعية العثمانية ، وصفت الخبرة الأجنبية والخبرة المصرية . وصفى التعليم المدنى وعاد كل شئ سيرته الأولى ، وعادت مصر الى العصور الوسطى . ولم تكن تلك الردة من ارادة الشعب ولكنها كانت من ارادة السلطة .

هكذا كان الامر بالنسبة لعصر اسماعيل . كانت الدولة منحازة لتجديد مصر على أسس المدنية العصرية وجعل مصر قطعة من أوروبا كما كان اسماعيل يقول : والمقصود طبعاً أن الحضارة المصرية جزء من حضارة البحر الأبيض المتوسط . وكانت فلسفة المعاصرة عند اسماعيل تقوم لا على نقل وجوه الحضارة الأوروبية المادية ، ولكن على نقل قيم الحضارة الأوروبية الفكرية والاجتماعية والسياسية كما كانت سائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومن هنا فقد كانت الدولة منحازة في عصر اسماعيل الى تحرير العبيد والى تحرير المرأة والى تحرير المواطن سواء بممارسة الحياة النيابية أو بتطبيق أرقى نظام قانونى عرف يومئذ وهو قانون نابليون بعد أن كان القانون مجرد تجسيد لارادة الحاكم خارج مانتصت عليه أحكام الشريعة في تنظيم الأحوال الشخصية . كذلك كانت الدولة أيام اسماعيل منحازة للتعليم العام حتى أن اسماعيل وجد في مصر عن سلفه ١٨٥ مدرسة فأشـئـى في عهده ٤٨١٧ مدرسة خلال ١٦ سنة . وكانت الدولة منحازة للفنون الرفيعة والآداب الرفيعة وللثقافة الرفيعة بوجه عام . ولم يكن هناك فرق بين محمد على العظيم واسماعيل العظيم الا أن محمد على كان قائد البورجوازية المصرية ولذا فقد اندفع وراء التنمية الصناعية واتجه الى انشاء امبراطورية عربية مترامية الأطراف ، اما اسماعيل فقد كان قائدا الارستقراطية المصرية فاندفع وراء التنمية الزراعية واتجه الى انشاء امبراطورية افريقية أو نيلية مترامية الأطراف .

فلما حطم التحالف الاستعماري البريطانى — العثمانى اسماعيل في ١٨٧٩ كما حطم محمد علي من قبل في ١٨٤٠ ، وفرض على مصر الخديو توفيق انحازت السلطة منذ الاحتلال البريطانى في ١٨٨٢ الى كافة قيم التخلف التى حاول اسماعيل اقتلاعها وانحازت ضد كافة قيم التقدم التى حاول اسماعيل بثها ونشرها : فصفت جيش مصر الوطنى وصفت حياة مصر البرلمانية وصفت امبراطورية مصر الأفريقية وتقلصت القومية المصرية التى ازدهرت في عصر محمد على وعصر اسماعيل وتفجرت في الثورة العربية عام ١٨٨٢ ، وانكمش التعليم المصرى وتقلص الاهتمام بالفنون والآداب والثقافة بوجه عام ، ولولا وجود عشر السكان من الأجانب لتقلص ايضا القانون المدنى والجنائى النابوليونى ، وثبت الاستعمار نظرية أن الشرق شرق والغرب

غرب لكى يحول دون تطلع مصر من جديد الى اسباب الحضارة العصرية .

وظل الحال على هذا المنوال حتى كانت ثورة ١٩١٩ ، حين تجمعت كافة تيارات التقدم المختمة في المجتمع المصرى لتجديد مصر بمقومات الحضارة الحديثة: الاستقلال الوطنى والديمقراطية الليبرالية وبناء مؤسسات المجتمع العصرية وقيمه، على طراز الديمقراطيات الأوربية. وقد كانت الدولة بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ منحازة في كافة عهود الحكومات الدستورية لقيم المجتمع الجديد وفي كافة عهود الحكومات الانقلاية لقيم المجتمع التقليدى القديم. كانت الدولة في عهود الحكومات الدستورية منحازة لمبدأ أن الامة مصدر السلطات (الحق الطبيعى) ولمبدأ فصل السلطات ولمبدأ فصل الدين عن الدولة ولمبدأ تعميم التعليم بجميع درجاته وأنواعه ولمبدأ تكافؤ الفرص على أساس الحرية والمساواة والانتخاب الطبيعى، ولمبدأ حرية العمل وحرية المرور (حرية الصناعة والتجارة) وحرية الفكر وحرية التعبير وحرية التنظيم وحرية الاجتماع وكافة الحريات العامة والخاصة وحقوق الانسان التى قتها دستور ١٩٢٣ ، وتعرف في الفقه السياسى باسم أركان الديمقراطية الليبرالية ، وهو ما نعبر عنه اليوم في لغة مخففة بعبارة « المجتمع المفتوح » أو « الانفتاح الاجتماعى والاقتصادى » أما عهد الحكومات الانقلاية فقد كانت منحازة لمبدأ أن العرش مصدر السلطات (الحق الالهى) ، أو أن مصدر السلطات هم الصفوة وأصحاب المصالح الحقيقية ، ولمبدأ ادماج السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في دولة شمولية فيها يذوب الأفراد والطبقات في الجماعة (الدكتاتورية التى هى في أرقى صورها حكم المستبد العادل وفي أحط صورها حكم القلة المالكة لوسائل الانتاج بالحديد والنار) ، ولمبدأ ادماج الدين والدولة ، ولمبدأ تحديد التعليم كما وكيفا ، ولمبدأ الانتخاب الصناعى على أساس الامتيازات الطبقيه وانعدام المساواة بين المواطنين ، ولمبدأ تقييد العمل والمرور والفكر والتعبير والتنظيم والاجتماع وكافة الحريات العامة والخاصة باسم الحماية والتوجيه وتوكيد « واجبات الانسان » بدلا من توكيد « حقوق الانسان » .

ولاشك ان أزمة الديمقراطية الليبرالية في مصر حاءت من أن بناء الاستقلال السياسى (الملاك الزراعيين) كانوا بمعزل عن بناء الاستقلال الاقتصادى (رجال الصناعة) وبهذا عجز الاستقلال السياسى عن حماية الاستقلال الاقتصادى أمام قوى الاستعمار العالمى وأدواته في الداخل ، بما فرغ الاستقلال السياسى من كثير من مضمونه الاجتماعى . ففي بلد تدخل في مقدراته جيش احتلال بريطانى ونحو مليون من الأجانب المستوطنين كان مبدأ حرية التجارة (دعه يعمل ، دعه يمر) عقبة في سبيل نمو الصناعة المصرية الوليدة التى كانت بحاجة الى حماية جمركية ونتاجية لتثبت أقدامها ازاء المنافسة الأجنبية من جهة ، وازاء التطلعات العمالية من جهة أخرى ، والحماية لاتكون الا بفرض القيود . ومن هنا اقترن نمو الصناعة المصرية بنمو الدعوة للحكم المطلق في مختلف الأرياء . وعرفت مصر بعد دكتاتورية الاقطاع دكتاتورية الرأسمالية خلال عهدهى فؤاد وفاروق ، وفقد الشعب جزءا كبيرا من حرية الحركة السياسية والفكرية . ولكن أيا كانت الأرياء التى اتخذها الحكم المطلق في مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، فقد كانت جميعها تتسم بسمات مشتركة أهمها الانحياز الى كل مايجرد الجماهير فرادى أو جماعات من الإرادة الحرة أو القدرة على التمييز في ثقافتنا القومية أو في تقاليدنا القومية غيبية أو وضعية ، ويقربها من مجتمع الثمل والنحل ،

والانحياز الى كل ما يجرد الانسان من الاحساس بحقوق الانسان ، وأولها الحق في التعليم وفي تقرير المصير .

وقد كانت لثورة ١٩٥٢ وهى ثورتنا الصناعية ، ايجابيات كثيرة : منها انها خلخلت العلاقات التقليدية بين طبقات المجتمع ، ومنها أنها استخدمت القهر السياسى والاجتماعى لتنمية الاقتصاد القومى ، ولاسيما الصناعة الوطنية ، بدلا من استخدامه لتنمية رأسمالية الوسطاء التى كانت ممثلة فى « الاتحاد المصرى (١) للصناعات » ومنها قدرتها النسبية على استيعاب بعض ضمانات التحول من رأسمالية الدولة الى الاشتراكية ، وعلى استيعاب بعض مقومات الدولة العصرية .

غير أن طبيعة ثورة ١٩٥٢ ، أو خوفها من نفسها قد احبط كثيرا من غاياتها المعلنة . فهى قد ارادت تحرير الفلاح بالقضاء على الملكيات الكبيرة ولكنها حين اعلنت ان الفلاح في قاموسها السياسى هو من يملك عشرين فدانا فأقل سلمت قيادة الريف المصرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا لا للفلاحين ولكن للبيروقراطية الحكومية ولطبقة (صغار كبار الملاك أو كبار صغار الملاك) وهم لا يقولون عنتا بالفلاحين وحرصا على تجريدهم من أسلحة المقاومة من الباشوات والبكوات وأقل منهم ثقافة واستقلالاً وأهلية للقيادة العامة . والدليل على ذلك هو اننا لم نسمع لممثل الفلاحين والعمال في التنظيمات الشعبية أو النيابية صوتا جهيرا في ضرورة تعليم ابناء الفلاحين والعمال بما جعل عشرين عاما من الثورة تنتهى بمصر تعليميا حيث انتهى العهد البائد .

أو ليس نشر التعليم ، العام منه والمتخصص ، على أوسع قاعدة ممكنة وبأرق مستوى ممكن ، هو أول شروط التقدم الحضارى في مصر وفي غير مصر من بلاد الله ؟ فما الذى افضى بنا بعد عشرين عاما من الثورة ان نتوقف تعليميا عند حالنا الزرية في أواخر عهد فاروق ؟ الاجابة في نظرى هى أن الثورة لم تمر من هنا ، وانما الذى مر من هنا هو الثورة المضادة . أردنا تعليم الشعب ثم سلمنا قيادات التعليم وخزائنه ومفاتيحه لمن يعارضون أو يكفرون من التحفظ على تعليم الشعب حجما ونوعا اتقاء للقلق الاقتصادى والقلق الاجتماعى ، وحينما لم يكن مناص من تعليم الشعب مسحوا نظام التعليم وبرأجه فحولوا التعليم الى تربية ، وبعد أن كان الناس يربون ابناءهم والدولة تعلمهم ، أصبحت الدولة ترى أبناء الناس والناس يعلمون ابناءهم . وبإلها من تربية ، وبإله من تعليم .

ولست أشك في أن الدولة قد نجحت نجاحا لا بأس به في ثورتها الصناعية خلال السنوات العشرين الأخيرة بفضل عرق العامل المصرى وخبرة التكنولوجيا المصرية وتأميم وسائل الانتاج وتعاون الدول الصديقة ، ولكنها بعد أن أعلنت في الميثاق أنها تبنى القطاع العام في سبيل الاشتراكية وليس في سبيل رأسمالية الدولة ، سلمت بعض أجنحة الادارة والصناعة لقيادات رأسمالية العقلية رأسمالية التكوين وربما رأسمالية الأهداف والمصالح . فمن ذا الذى يعقل ان أمة تسير الى الاشتراكية أو تقول أنها تسير اليها تستورد بالنقد الأجنبى أو تنتج السيارة الشخصية المعانة من مال الدولة قبل أن تستورد أو تنتج الأوتوبيس العام ولوريات النقل العام ، فتزحم شوارع العاصمة بمائة ألف مركبة نصفها لا يحتاج اليه أصحابه حاجة حقيقية ، وتخلق لنفسها مشاكل الانفاق والكبارى واختناقات المرور ؟ وقس على هذا كثيرا . لست أظن ان مشهد

البشر يساقون كالانعام في أوتوبيسات القاهرة يقرينا كثيرا من مفهوم التقدم الحضارى بأى مقياس من المقاييس ، مهما بدا لنا أننا نوفر الراحة للطبقات الميسورة .

بل أخطر من ذلك : من ذا الذى يعقل أن أمة ترهن حاضرها ومستقبلها على الانتاج الصناعى والزراعى تبنى المجتمع الاستهلاكى بمقدار ما تبنى المجتمع الانتاجى وربما بأكثر مما تبنى المجتمع الانتاجى ، فتحبط الادخار وتراكم رأس المال وهما عماد الاستثمار الانتاجى ، ولا يزدهر فيها خارج القطاع العام الا الاستثمار التجارى والطفيلى أو استثمار الوسطاء الذين لا يضيفون للثروة القومية شيئا وإنما ينقلون مال الأمة من جيوب الى جيوب ، بل ومنهم من ينقل مال الأمة من جيوب مصرية الى جيوب غير مصرية بسلع الترف التى يستوردونها بالمشروع وبغير المشروع . ولست أظن انه يقربا كثيرا من مفهوم التقدم الحضارى أن نرى قصور سادتنا ، وما أكثرها ، تزرع بكل كمال مستورد من ثمن التحف والسجاجيد الشنوا الى عطور فرنسا وخمور إنجلترا وثلاجات امريكا ، أو أن نرى مئات الالاف من بسطاء أهل المدينة رجالا ونساء يتساقون وراء الملبس والمأكّل الوارد من الخارج بالحلال أو بالحرام . لست أظن ذلك لاننا جميعا نعلم أن كل زجاجة ويسكى تشرب فى مصر تساوى عرق فلاح مصرى لمدة شهرين ، أو نفقات تعليم ابنه سنة كاملة ، واصغر زجاجة عطر مستورد تساوى قطعة غيار لتاكسى معطل أو لالة معطلة وكل علية سجاثر كنت تساوى أجر عامل فنى فى يوم كامل . وأنا لا أقصد بهذا الكلام انى عدو للمتعة أو للسعادة أو للفن أو للجمال فليشرب من يريد أن يشرب وليلبس من يريد أن يلبس وليأكل من يريد أن يأكل وليتزين من يريد أن يتزين ولكن من انتاج بلاده ، وإنما اقصد أن تكون هناك أولويات ليس فقط للاستيراد والتصدير ولكن أيضا للانتاج والاستهلاك وللتبادل التجارى أساسها أن نتحمل اليوم لنتراخ غدا ، وان يستهلك — المصريون قبل سواهم — ما انتجوا من خيرات قبل أن يستهلكه غيرهم من الامم بعد أن تستوفى مصر حاجتها من أدوات الانتاج الأجنبية والخبرة الأجنبية المتقدمة فما عرفنا للأمم الفقيرة طريقا للخروج من فقرها الا بالتقشف المؤقت وزيادة الانتاج ولكن بشرط أن يعود على الناس فائض ما انتجوا فلا يتحولون الى ثيران السواقي الدائرة ابدا فى فراغ . وفى مجتمع نصف اقتصاده حر ونصف اقتصاده موجه لن تجدى زيادة الحواجز الجمركية أو زيادة الضرائب الا زيادة الوسطاء والمضاربين وزيادة السوق السوداء ، وإنما الحل هو منع التداول جملة وفعلا — لا على الورق فقط — لكل ما يستنزف مال الامة فيما لايزيد الانتاج أو يرقيه وفيما لايزيد الخدمات العامة أو يرقىها .

والا فسوف نبلغ أواخر عهد اسماعيل حين استنفد اسماعيل قدرته على عقد قروض الدولة لشق الترع وحفر قناة السويس ومد السكك الحديدية الخ .. حتى اضطر أن يرهن أملاك الدومين للبيوت المالية الأجنبية ثم يبيع حصّة مصر فى مشروع قناة السويس وهى نحو ٥٠ فى المائة ، ثم يرهن أملاك الأسرة الخديوية وقد كانت خمس المساحة المنزرعة ثم يرهن إيرادات الجمارك والسكك الحديدية ، ثم يفتح البلاد لشذاذ الافاق .

كان هذا الفخ الذى نصبته الثورة المضادة لثورة ١٩٥٢ : فاذا كانت ثورة ١٩١٩ قد جاءت لتحقيق استقلال مصر السياسى فثورة ١٩٥٢ جاءت قبل كل شىء لتحقيق استقلال مصر الاقتصادى بزيادة انتاجها الصناعى والزراعى ، ويجب أن تقاس انجازاتها بهذا المقياس قبل سواه بالنسبة للأمة فى مجموعها

وبالسببة للطبقات والأفراد داخل الأمة .

لاشك أن هناك وضعاً اقتصادياً عاماً يدعو للبحث العميق عن حلول جذرية ، فأى ارتحال فى هذا الاتجاه أو ذاك قد يجلب على مصر الكوارث . وأنا شخصياً لست حريصاً حرصاً خاصاً على بقاء نظام الملكية العامة أو نظام الملكية الخاصة : فهذه كلها أنظمة من اختراع المجتمعات عبر الأجيال لتسيير أمورهم . وإنما المهم هو مصر نفسها تكون أو لا تكون . المهم هم المصريون انفسهم يكونون أو لا يكونون . وهذا الوضع الاقتصادى العام الذى يدعو الى التأمل العميق قد نجم عن خطأين تورطت فيهما ثورة ١٩٥٢ كلها ، ولأقول جمال عبد الناصر وحده ، فكلنا مسئولون معه ، هذان الخطأان هما استنزاف المجتمع الاستهلاكى واستنزاف الحروب الكثيرة .

ومادمننا نبدأ صفحة جديدة فلا داعى ان ننشئ فى الماضى لتبادل الاتهامات ، وإنما ينبغي أن نركز على الحاضر ، على ما نحن فيه الآن ، وقبل أن نفكر فى الاستشارات العربية أو الاجنبية : أليس من حقنا أن نقول لاجوانا العرب : لقد كانت خسائر الوحدة مع سوريا وخسائر حرب اليمن وخسائر حرب ١٩٥٦ اخطاءً مصرية أو ضرورات مصرية محتة يجب أن تتحمل مصر وحدها أوارها — ولكن فيم كانت حروب ١٩٤٨ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ؟ ألم تكن من أجل فلسطين ومن أجل أمن المنطقة العربية ؟ ثم أليست فلسطين صليبين الذى نحملة جميعاً الى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً ؟ فما بال مصر تحمل عبئه الأكبر فى المال والرجال ، وهى افقر عضو فى المجموعة العربية بحساب الدخل القومى للفرد الواحد ؟ أو ليس من العدل أن تشارك مصر بقية الدول العربية فى دفع فاتورة حروب فلسطين من ١٩٤٨ الى ١٩٧٣ وما بعدها اذا لم يحل السلام ، كل منها بحسب دخلها القومى بحساب الفرد الواحد ، أى بحساب أن المصرى والليبي والسعودى والكويتى والعراقى واللبنانى والجزائرى الخ .. متساوون فى حق الحياة ؟ وقبل أن نتحدث عن الاستشارات العربية فى مصر المرهقة المستنزفة فى سبيل العرب أليس من الشرف أن نرد أولاً الى مصر مانزفت من أموال وتعويضات دماء ، لعلها بحيويتها الجديدة تستطيع أن تصون حيوية العرب ؟

نفس الكلام يوجه الى أصدقائنا السوفيت : لقد غمرتمونا بالسلاح لنقاتل حروبنا الفلسطينية والاستقلالية ، ولكم الشكر الجميل . ولكن ألم يكن دفاعنا عن الأمن العربى واستبسالنا على مدى عشرين عاماً حتى لاتقع مصر فريسة لحلف الأطلنطى أو أى حلف استعمارى آخر : عاملاً أساسياً فى حماية الأمن السوفيتى ؟ نحن نعتز باننا لم نشتر منكم الأسلحة ببلايين الجنيهات لدفاع عن أمنكم ، وإنما فعلنا كل ذلك دفاعاً عن أمننا ، ولكن مادام أمنكم يتوقف على أمننا فقد وجب أن تتقاسموا معنا نفقات الدفاع عن الأمن المصرى والأمن العربى ماصفة وأن تعطونا مخالصة بنصف ما علينا من كمبيالات السلاح — أو أن تشحنوا لنا بقيمتها المصانع والالات .

أما فاتورة أمريكا فلن نقدمها الآن لأنها فاتورة طويلة ، ولايكفى فيها رصيد القمح الأمريكى ، وأقل بند فى هذه الفاتورة هو نصف ماتكبدناه من خسائر حتى لاتقع مصر فى قبضة السوفيت . ثم تعويضاتنا لدى اسرائيل ! ، ألسنا بحاجة بعد مؤتمر حنيف الى مؤتمر من نوع آخر تحدد فيه مديونية مصر وأنواعها وتوزع فيه المسئولية عنها ؟

أن للمصريين زمامات طائلة ينبغي أن يحصلها المصريون قبل أن يرهنوا أرضهم وعملهم ومراقبتهم ومكاسبهم لرأس المال الوافد من الخارج .

وفي نهاية الأمر لست أظن أن هجرة رؤوس الأموال الأجنبية لإنشاء الفنادق أو أعمال السياحة أو المتاجر أو المطاعم أو الملاهي أو وسائل النقل أو التوكيلات سيؤدي الى تعمير مصر حضاريا ، فهذه كلها خدمات استهلاكية لا تزيد انتاجية البلاد في شيء كثير ، ثم انها لن تعجز عشرات الالاف من الممولين المصريين الذين يكتزون عشرات الملايين من الجنيهات أو مئاتها في صورة سائلة أو تحت البلاط خشية وقوعها في يد الدولة . أما وقد انتهى عهد المصادرات والحراسات فلم يعد هناك مبرر للجزع القديم . فاذا دأبوا على الاكتناز وجب التفكير في تغيير العملة قبل فتح البلاد لرؤوس الأموال الاجنبية .

وليس معنى هذا الاعتراض على وفود رؤوس الأموال العربية أو الاجنبية الى مصر بصفة قاطعة . فلو اننا أردنا أن نستكمل ونبثنا الانتاجية التي بدأتها ثورة ١٩٥٢ في الصناعة والزراعة فسوف نحتاج الى استثمارات انتاج ضخمة ، أضخم من حجم مدخراتنا ، بالعملات الأجنبية نستقدم بها الآلات والخبرات .

وفي تقديري أن أنسب صورة للاستفادة من الأرصدة العربية الضخمة المعطلة عن الاستثمار هي استقدامها كقروض للدولة طويلة الأجل بسعر فائدة منخفض ولكنه مضمون بنجاح الاستثمارات نفسها ، وبهذا توجه الدولة هذه القروض الاستثمارية وفقا لخطتها في الانتاج فنحن لانريد قدوم رأس المال الطفيلي ورأس المال الخفاف ورأس المال السريع الدورة والعائد هذا النوع من رأس المال الذي لا يبنى المجتمع الانتاجي ولكن يبنى المجتمع الاستهلاكي ويدخلنا أكثر وأكثر فيما يسمى بدورة التضخم الحلزونية .

هذا ما فعل أصحاب الاقتصاد التقليدي باقتصاد ثورة ١٩٥٢ ، التفوا حول الثورة حتى أقنعوها بأن مجتمع التقشف قاس على الناس ولا لزوم له وأن نمو المجتمع الاستهلاكي يحفز نمو المجتمع الانتاجي ، وهو رأى صحيح ولكن بعد أن يكسب الاستثمار العام والخاص شعما كافيا كسنام الجمل يواجه به السنين العجاف . فرفعوا شعار اننا لن نشقى لتسعد الأجيال القادمة . وهو منطق لو أخذ به أبطالنا في سيناء لما شربوا كأس المنية راضين ليؤمنوا لبنينا حرية الوطن وشرف الاحرار . وآخرون ارهقوا الناس بالمصادرات والحراسات والاعتقالات خارج مارسم القانون حتى جعلوا الناس يقبلون على تبديد أموالهم فيما لا يجدي من الكماليات ، أو يخفون كنوزهم ، أو لا يستثمرونها في شيء ثابت يمكن أن تقع عليه اليد العادية ، فلم يجدوا غير استثمار الوسطاء والمضاربين وتجار الخلسة في سوق الاستهلاك مجالا لاموالهم ومن الناس من تيسره أموره للاشتغال بالسياسة أو بالسلطة ومنهم من اشتغل بالسياسة أو بالسلطة ليسيّر أموره . ولم يدرك هؤلاء السادة وأولئك أن تحويل المجتمع المصري الى مجتمع استهلاكي أكثر مما كان في العهد البائد ، وأن اصطياد قروش الملايين من أبناء الطبقات الجديدة الزاحفة من الريف الى المدينة ، أولا بأول في لعب الحضارة وملذاتها قبل أن تصل الى جيوبهم يهدم أسس المجتمع الانتاجي الذي جاءت الثورة لتبنيه وبالتالي يطيح باستقلال مصر الاقتصادي .

هذا كان عمل أصحاب الاقتصاد القديم الذين تسلموا ادارة الاقتصاد الجديد . وهذا كان عمل

الطبقة المحدثة التي خلقتها الثورة عبر عشرين عاما . أكلت شحم مصر القليل أولا بأول ، فلما نفذ الشحم أخذت تأكل اللحم . هذا ما فعلته بالانتاج ، أما ما فعلته بالميثاق والاشتراكية فاني امسك عن الكلام فيه الآن .

والآن هل هناك فارق بين هؤلاء السادة وبين اولئك الذين كلما سمعوا الثوار العقلاء يقولون : حاذروا من الانفجار السكاني ! نادوا : بل حاذروا أن تحدوا النسل لتسلموا من غضب الله ؟ النتيجة : « غدونا ٣٦ مليونا بعد أن كنا ٢٠ مليونا منذ عشرين عاما ، وعلى الحاكم أن يدبر الغذاء والكساء والمسكن والتعليم والصحة والمواصلات الخ .. لكل هذه الملايين الزائدة ، مرة أخرى شحم مصر يؤكل أولا بأول . وحين ينفذ الشحم نأكل اللحم . هباء كل ما قبل من أن ثلاثة أو أربعة أطفال تحسن تغذيتهم وتربيتهم وتعليمهم الخ .. أترك من عشرة يأكل كل من منهم خبز أخيه ويقطعون طريق الحياة من الميلاد الى الموت حفاة عراة أميين مرضى مجردين من الإرادة تائهين في بحار الخرافات . حتى ميكنة الزراعة غدت غير ممكنة ولا عملية لرخص الأيدي الأدمية المكدسة في الريف المصرى . والمدينة تزخر بالصائعين .

لقد قصدت بكل هذا الكلام ان اعرض قضيتين على غاية مايكون من الخطورة في تاريخ التقدم الحضارى في تجربة مصر العزيزة : الأولى هي انه في كل ثوراتنا المتعاقبة للتقدم الحضارى بالقيم الجديدة نجد أن القديم يقوم بحركة التفاف حول الجديد ليخنقه كما يخنق الافعوان ضحيته . وهذه المحاولة أمر مألوف في جميع ثورات العالم وفي كل صراع بين القدماء والمحدثين . ولكن ما تنفرد به ثوراتنا عن ثورات العالم هو هذه الظاهرة الثانية ، وهو أن ثوراتنا فيما يبدو تخاف من نفسها فتسلم لأهل القديم مراكز السلطة لتستحدث بهم القيم الجديدة وبذلك تعرض نفسها للاجهاض المستمر الذى يحفظ للقديم نضارته وسيادته . أو لعل ثوراتنا ، رغم أنها صادقة في الثورية ، ناقصة في الوعي فهي لاتدرك أن القديم عندنا لا يواجه الجديد مواجهة الرجال كما يحدث في البلاد الأخرى ولكنه يلتف حوله في وداعة ودهاء ، حتى يجرده من شعر شمشون ثم يبطش به ببطشا ذريعا ، ويعود كل شيء سيرته الأولى وهذا هو الخطر الذى أردت أن أحذر منه .

الفصل السادس عشر

الشرق يواجه الغرب (١)

من الناحية التاريخية تتحدد المواجهة بين الشرق والغرب في نصف الكرة الغربى بست أو سبع مراحل .

ففى الألف الثانية قبل الميلاد : ترك نشاط التجار والبحارة الفينيقيين ، كنقلة للثقافة ، أثرا عميقا فى الثقافة الأغريقية تجلى فى الملاحم الهومرية وفى الديانة الأغريقية نحو ١٠٠٠ ق . م . كما أوضح فيكتور بيرار Victor Bérard فى كتابه « الفينيقيون والأوديسا » Les Phéniciens et l'odyssée .

وينتمى لنفس الفترة أول صد عسكري مسجل قام به المصريون لغزوات أقوام بحرية تسمى « الأكواواشي » Aqua-Washi ، وقد عينهم البحث التاريخى « بالاخائيين » Achaeans ، ثم فيما بعد « بالطرشو » Trshu فى سيناء ، وهم الأترو سكيون Etruscans .

ولكن كل خطوط التماس هذه كانت هامشية اذا هى قورنت ببؤرة الصراع الأكبر وهو هروب طروادة ذاتها ، تلك الحروب التى وصفها علماء الآثار مثل نيلسون Nielssen بأنها محاولات للتوسع الاغريقى أو الهيللادى فى أسيا الصغرى نحو ١٢٠٠ ق . م . وبحسب ما روى الاغريق فأن هذه المحاولات انتهت بخراب بيت بريام Priam فى طروادة Troy وبيت أتريوس Atreus فى أرجوس Argos

(١) محاضرة أُلقيت بالانجليزية فى مؤتمر الجامعات الأمريكية المنعقد فى روما عام ١٩٧٥ (أوفستاف)

ومن سخرية القدر ان خطف باريس لهيلانة قد تكرر مؤخرا بعد ٣٠٠٠ سنة لا في ارجوس فيلاوس وأجاممنون ، ولكن في قبرص كبير الاساقفة مكاربيوس ، وهى بيت افروديت القبرصية ذاتها . عسى أن تكون النتيجة مختلفة هذه المرة .

أما حضارة كنوسوس Knossos في جزيرة كريت وحضارة ميكيناي Mycenae اللتان تحمل آثارهما الفخارية وشعائر الدفن فيهما بقايا من مصر القديمة ، فهما تنتميان الى تاريخ اقدم يمتد الى اوائل الالف الثانية ق . م . وربما الى الألف الثالثة ق . م .

(٢) وكانت المرحلة الثانية هى قيام الاسكندر الأكبر واخلافه من البطالمة والسلوقيين Seleucids بتولين جنوب البحر الابيض المتوسط وشرقة وقد نجح هذا التلحين الى حد أن الاسكندرية جعلت أثينا زائدة عن الحاجة ثم ما لبثت ان حلت محلها كعاصمة للعالم . ولا مناص من النظر الى فتوحات الاسكندر على انها قمة ذلك الصراع التاريخي بين الاغريق والفرس للسيطرة على شرق البحر المتوسط . وقد حدد انتصار اليونان بصورة نهائية ما اذا كان شرق البحر المتوسط ، الشبيه بجانوس Janus ذى الوجهين في الاساطير اليونانية ، سوف يتطلع نحو اوربا القريبة أو نحو آسيا الأقرب .

وقد بلغ من سباح تولين جنوب البحر المتوسط وشرقه ان اربعة قرون من الاحتلال الرومانى للمنطقة لم تكن الا حلقة سطحية الأثر في تاريخ المنطقة . وقد مثلت بيزنطة التوفيق التوحيدي وكانت الثورة على بيزنطة من تدمير ثم من مكة ثم من دمشق . وقد استمرت كيمياء الفعل ورد الفعل حتى سقوط العباسيين ومجيء الاسر التركية المملوكية ابتداء من ٩٠٠ ميلادية .

ولكن ذبول التأثير البيزنطى تم درجة درجة نتيجة لظهور الاسلام فى ٦٢٢ ميلادية ، وهو تاريخ يحدد بداية المرحلة الثالثة من المواجهة بين الشرق والغرب . ومع ذلك فيمكننا أن نعد الألف سنة الممتدة بين تنويع الاسكندر الاكبر فى معبد امون بسبوة عام ٣٣٣ ق . م . وسقوط مصر فى يد عمرو بن العاص فى ٦٤٠ ميلادية على انها مرحلة تاريخية مستمرة واحدة من الاندماج الثقافى الهللىنى رغم ما فيه من تنويعات محلية ثانوية .

ويتجلى هذا الاختلاف فى ان ميراث اثينا انتقل الى الاسكندرية أو انطاكية ، وفى ان افلاطون قد اعيدت صياغته على يد أفلوطين ، وفى ان المسيحية حلت محل الوثنية ، ولكننا لا نزال داخل نفس الاطار الثقافى الذى مكن هيرودوت حتى منذ نحو ٤٥٠ ق . م . من أن يعلم ابناء بلاده ان البانيون المصرى ، أى أسرة الآلهة المصرية ، مرادفة لأسرة الآلهة اليونانية . نفس الاطار الثقافى الذى مكن فيثاغورس وافلاطون رغم خلفيتهما الفكرية المصرية منذ دراستهما فى جامعة أون أن يكون لهما وجود بل وسطوة فى بلاد أرسطو .

فلنقل اذن ان مصر تهلنت بتأثير يونان متمصرة ، فبالرغم من ان ارسطو كان استاذ الاسكندر

فان اليونان لم يصعدوا الى مصر الارسطاطالسية بل صعدوا اليها الأفلاطونية . وبالتالي فقد كان الأمر بالنسبة لمصر أمر إعادة استيراد بضائعها التي سبق أن أرسلتها للخارج في صورة خامات ثم استردتها في صورة مصنعة ومصفاة ومغلقة تغلفا جيدا بفضل الحنكة اليونانية . وحتى يومنا هذا فالعالم لا يعرف موقفا ثالثا في الدين أو الفلسفة أو السياسة ، بل وفي الاقتصاد ، غير الموقف الارسطاطاليسى والموقف الافلاطونى ، في التحليل الأخير . العالم لا يعرف موقفا ثالثا لا يقوم إما على نشأة الفكر من المادة أو نشأة المادة من الفكر .

ولنحجم عن تسمية هذين الموقفين موقفا يونانى الجوهر وموقفا مصرى الجوهر لأن أمثال هذه المواقف انسانية وليست قومية . وكل منهما يزدهر في أى مجتمع تحت ظروف معينة ويكون الاساس الذى تنبنى عليه دورة محددة من دورات الحضارة . وهما بمثابة قولنا واقعى أو رومانسى ، علمى أو شاعرى ، عقلى أو روحى ، الخ ...

(٣) وقد كانت مرحلة المواجهة الثالثة بين الشرق والغرب هي مرحلة « العاصفة والاندفاع » تحت لواء الإسلام ، وقد امتدت هذه المواجهة الثالثة حتى آخر الأضلاء من العباسيين العرب في بغداد عام ٨٦١ ميلادية في المشرق وحتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ في المغرب . وكانت جبال القوقاز في الشمال الشرق وجبال البرانس في الشمال الغربى والبحر المتوسط فيما بينهما هي الحواجز الجغرافية الطبيعية التي احتجزت العرب وراء المدارات الجنوبية وحالت دون تعريب أوروبا أو دخولها في الاسلام .

وفي تلك الايام كان العرب والمسلمون بعامة يعرفون اكثر ما يعرفون في أوروبا باسم « السراسنة » Saracens بالانجليزية و Sarrazins بالفرنسية و Sarakenoi باليونانية و Sarraceni باللاتينية . وكان هذا الاسم شائعا في الادبيات اليونانية في زمن باكر هو القرن الأول الميلادى ، أى خمسة قرون على الأقل قبل ظهور الإسلام .

وكان « العرب » بالذات معروفين عند اليونان باسم « العرب » وكانوا موضوع حديث مستفيض في هيروdot نحو ٥٠٠ ق . م . واسم « سراكينوى » ، Sarakenoi في اليونانية و « سراكينى » Sarraceni في اللاتينية يفسر احيانا بأنه مشتق من كلمة « الشرق » العربية أى انهم سكان المشرق ، ولكن هذا الاسم يفسر احيانا بأنه مشتق من جذر غامض هو « شاركو » Sharko الوارد في الوثائق في عهد سارجون ملك اكاد Sargon of Akkad ، ومعناه « سكان الصحراء » . وهذا قد يكون اكثر احتمالا ، اذا ذكرنا أن الفلاحين المصريين يستعملون عادة اصطلاح الارض « الشراق » بمعنى الارض اليباب أو الارض العطشى الى الماء ، ويستعملون الصيغة « الحامية » ، أى المنطوقة بالحاء بدلا من الشين أو السين ، صيغة منها هي « التحاريق » بمعنى « الجفاف » عندما يبلغ النيل ادنى منسوب له ، وهى عكس « الفيضان » .

وايا كان الأمر ، فان انتصار جيوش « السراسنة » أو « السراقنة » كان كاملا في الحزام الجنوبي من البحر المتوسط لأن بيزنطة وروما لم تعودا امبراطوريتين في ٦٢٢ ميلادية بسبب القوط الشرقيين والقوط الغربيين الذين دمروا أوروبا منذ القرن الرابع الميلادي . ومع ذلك فقد بقيت كل من بيزنطة وروما قوتين ثقافيتين رغم أنهما تخصصتا مثل السراسنة في الدين والثقافة الدينية .

كانت القرون الأولى للميلاد هي قرون التوحيد الثقافي العظيم الذي تجاوز في مداه قرون التهليل في الشرق والترويم في الغرب . وبعد أن كان التهليل والترويم يمثل ايام قوة اليونان والرومان ايدولوجيات تغلغت في كل طبقات المجتمع ، ولكن مع الطغيان والانحلال الامبراطوري البيزنطي والرومانى اصبحت الثقافة البيزنطية والثقافية الرومانية ثقافات للصفوة لا تعنى شيئا كثيرا بالنسبة للجماهير . وبدا وكأن بيزنطة وروما تحاولان بعد اخفاق القومية التقليدية بين اليونان والرومان أن تجددا شأهما بايدولوجيات جديدة عظيمة يمكن أن تستوعب روح الانسان من قمة السلم الاجتماعي حتى اسفله .

وقد وجدت بيزنطة وروما الحل في المسيحية التي كانت في الأصل دين العبيد المسحوقين القلقين والمتمردين داخل الامبراطورية الرومانية في الشرق وفي الغرب على السواء ، ووجدت الحل في الانحاء امام الجماهير ، بعد ثلاثة قرون من الاضطهاد الفظيع ، باعتناق عقيدة الجماهير وقاموس افكارها الخاصة بوصفهما عقيدة الدولة وقاموسها الفكري الخاص . وبهذا حولت كل من بيزنطة وروما المسيحية تدريجيا الى قوة توحيدية جديدة الى اساس سياسى ، كاف اولاً للدفاع عن النفس ، ثم دافع بعد ذلك للتوسع الامبراطوري في زمن الحروب الصليبية ، وبهذا جندت العالم المسيحي ليواجه العالم الاسلامى .

ومن الصعب ان نحدد أيهما كان الفعل وإيهما كان رد الفعل . فانتشار المسيحية في أوروبا ، ولاسيما بعد تحول قسطنطين في بيزنطة وانتصار كنيسة القديس بطرس في روما ، ومائلا ذلك من اعتناق برابرة الشمال للمسيحية ، لا ريب أنه كان يمثل اشارات مخيفة للولايات البيزنطية والرومانية بأن جنوب أوروبا يحدد حيويته استعدادا لعصر امبراطورى جديد ، هذه المرة في ظل ايدولوجيا أشد بأسا من القومية العلمانية الهومانية التي كانت تؤمن بها النخبة في العصر الكلاسيكي ، اشد بأسا لأنها اكثر روحانية واوسع شيوعا بين الجماهير . وبالإضافة الى ذلك فان توحيد أوروبا كلها برباط روحى عقائدى واحد جعل الخطر المحدق بالأمصار أشد تهديدا، ولذا فقد استدعى ظهور حركة التوحيد روحا مضادة في جنوب البحر المتوسط وشرقه لمواجهة تجدد سيطرة شمال البحر المتوسط .

كانت « الزندقة » القبطية المونوفيزية القائمة على الايمان بطبيعة المسيح الواحدة هي المعبر عن القومية المصرية واللواء المرفوع لاستقلال مصر عن بيزنطة . وهو ما يمكن أن يقال ايضا عن الشيعة السريانية وانواع المسيحية الأخرى . ولكن هذه الانقسامات كانت اشبه بالتشققات الاصلاحية داخل الحزب الواحد منها بأحزاب المعارضة المبنية على اسس مناقضة لتضمن الحركة الجدلية داخل التاريخ الانساني .

ومن هنا فإن التحولات الى الاسلام في الفترة الباكورة من انتشار الدين الجديد كانت تحمل في طياتها درجة من درجات التعبئة في حركة تحريرية سواء بالتطوع الاختياري أو بالتجنيد الاجباري . الى يومنا هذا نحن لا نزال فيما يتصل بالدفاع القومي نبدي قلة الصبر مع المنشقين ومعتزلي الضمير . وهذا الموقف رغم انه لا يتفق مع حرية الضمير في الايمان الديني وحرية العقيدة بصفة عامة ، الا أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالوجه السياسي من الأديان والمعتقدات .

والمأساة في الوضع الانساني هي ان كل جانب بما في ذلك المعتدى يؤمن بصدق انه في حالة دفاع شرعي عن النفس ، وان الله « معه » ، وانه يحتكر العقيدة الصائبة والاتجاه الصائب والمصالح المشروعة .

والاقلية الدينية ليست عادة من معتزلي الضمير بمثل ما هي طوائف من الشكاك السياسيين الذين يؤرقهم موضوع كيف يتحررون من محرمهم . ففي ظل القومية الدينية أو العقائدية بوجه عام ، أى حيثما تصبح الديانة أو الايديولوجيا هي القومية ، يستوى أن يحكم المرء من استانبول أو من دمشق أو من بغداد ، من القسطنطينية أو من روما أو من أفنيون أو من كانتربري ، من موسكو أو من بكين أو من هانوى .

واولئك الذين يسوؤهم ان يحكموا من الخارج ، أى أولئك الذين يقدسون الوطن والشعب والتراث أكثر مما يقدسون العقيدة ، يسوؤهم ان يفقدوا هويتهم القومية وذاتيتهم واستقلالهم وان يبددوها بالحياة في فردون من النكرات .

هؤلاء هم القوميون المحافظون الذين يرون ان الله نفسه منحاز لقوميتهم وقضاياهم : انهم اتباع آمون الذين اجهضوا عبادة أتون والوحدانية القديمة . وقد انتهى امر الأديان القومية بالعدم والذبول في مواجهة عالمية المسيحية الكاثوليكية والاسلام السننى . هذا كان مآل الاديان القومية كالمسيحية القبطية والاسلام الشيعى وربما الكنيسة المارونية والدروز ، لأنها كانت مذاهب استيعادية طاردة تغار من المشاركة الانسانية وتحتكر القرب من الله .

فلما فقدت المسيحية والاسلام دعوتها العالمية وتحولتا بدورهما الى قوميات تاريخية تنمرغ في مباحج السلطان الزمنى صارتا الى عقائد قومية عقيمة استيعادية طاردة تغار من المشاركة الانسانية وتحتكر القرب من الله . وقد كانت هذه محنة اليهودية قبل المسيحية والاسلام ، أنها تحولت من رسالة عالمية ثورية إلى ديانة قومية لشعب مختار .

وبالمثل ، فعندما اكتسب الاسلام هويته العربية تحول الى أداة في يد العرب استخدموها لحكم الشعوب الأخرى . وبهذا المعنى ساعد الاسلام العربى في تحرير الولايات الرومية والرومانية في نير الروم والرومان ، ولكنه فجر سلسلة من ردود الأفعال بين الهويات القومية التى حررها العرب ليحكموها ، وبذلك بذروا بذور تفككهم بالهاب القوميات « الشعبوية » . وهذا فى ظنى مصير

الشيوعية عندما تصبح « روسية » أو « صينية » ، ومصير الديمقراطية عندما تصبح « غربية » أو « أمريكية » ، الخ .. وهذه مأساة أخرى من مأسى الوضع الانساني ، أن ديالكتيك التحرير هو بداته ديالكتيك السيطرة والاستعمار ، وأن عظمة الانسان الفطرية وانخطاطه الفطري مرتبطان معا بقانون واحد لا يرحم : إنه « الهوبريس » داخل كل بطل كما في مأسى اليونان .

ومهما يكن من شيء ، فعندما تمت المواجهة التاريخية بين الشرق والغرب ابان القرنين السابع والثامن للميلاد ، كان واضحا من التجارب السابقة ان القوميات الاقليمية لم تكن كافية بتاتا كقوى تحريرية في مواجهة بيزنطة وروما منذ القرن الثالث الميلادي . فالمقاومة السورية بقيادة زنوبيا (الزباء) ملكة تدمر والمقاومة المصرية بقيادة فيرموس Firmus ودوميتيوس دوميتانوس Domitius Domitianus كانا قد فشلا فشلا ذريعا . وانتهى الامر بزنوبيا انها اقتيدت في الأصفاد في شوارع روما في عهد أوريليانوس Aurelianus ، كما انتهى الأمر بدقلديانوس انه خاض بشخصه في بحار الدم في الاسكندرية عام ٢٩٦ ميلادية الذي اعتبره المصريون عام الشهداء وجعلوه بداية التقويم القبطي .

كان الامر بحاجة الى شيء اكثر قوة من القومية الاقليمية لتحرير جنوب البحر المتوسط من قبضة شماله ولتجديد الحيوية في المنطقة التي اخضعها روما وبيزنطة .

وكانت بلاد العرب الصحراوية ، أو Arabia Deserta ، كما كان الرومان يسمونها ، هي اضعف حلقة في سلسلة الممتلكات الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تتمتع بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي تحت ملوك ورؤساء عرب منذ عهد امرىء القيس العظيم الذى توفى عام ٣٢٠ ميلادية وكان نائب قيصر في الجزيرة العربية أو « ملوك العرب كلهم » ، كما يصفه شاهد قبره الموجود حتى الآن .

وكان بعد الجزيرة العربية نسبيا عن سلطان الحكومة المركزية في بيزنطة مدعاة لأن تكون انسب مكان لحدوث هذا الاختار الروحي الذى كان الزم ما يكون لحرب التحرير من الامبراطورية الرومانية الشرقية . وفي غرب فارس كان الساسانيون مصدر ازعاج مماثل . وقد احتاج الاختار الى ثلاثة قرون لكى يبلغ اقصى مداه ، فلما سطع الاسلام شحب الصليب وشحبت المانوية . وتجمع المستضعفون من أبناء الامبراطورية الرومانية حول العقيدة الجديدة بمبادئها ورموزها التي واجهت التثليث بالتوحيد ، وواجهت الوهية المسيح ببشرية المسيح . كانت الدعوة دعوة مونوفيزية ، أى دعوة الطبيعة الواحدة ، سواء بالنسبة لله أو لابن الانسان . اما الاختار اللاهوتي فكان يجرى منذ أريوس الاسكندري في القرن الرابع الميلادي ، وهو يمثل الانسلاخ اللاهوتي الكامل عن الأرثوذكسية البيزنطية .

(٤) وكانت مرحلة المواجهة الرابعة بين الشرق والغرب هي مرحلة الحروب الصليبية . فانتصار السلاح « السراسيني » وتوحيد جنوب البحر المتوسط تحت سيطرة هائلة مركزها الخلافة

في دمشق ثم الخلافة في بغداد أشاع الذعر في شمال البحر المتوسط .

فبعد ضياع اسبانيا ثم صقلية من العالم المسيحي كان الرد على ذلك هو بناء « الامبراطورية الرومانية المقدسة » تحت شرلمان (٧٤٢ — ٨١٤) . وكان هذا تناقضا في المصطلح بالمقاييس المسيحية التي تفصل الدين عن الدولة . وكان في هذا شيء من التراجع عن المسيحية ، فقد كان فيه اعتراف من اوروبا انه لكي ترد اوروبا غزو السراسنة لابد من مزج الدين بالدولة في اوروبا على عرار ما كان قائما في الخلافة الاسلامية ، فلا يفل الثيوقراطية الا الثيوقراطية . وكان نفس هذا المبدأ معمولاً به في بيزنطة . وحين بدأت الحروب الصليبية في القرن العاشر بقيادة نسيفور فوكاس Neciphore Phocas ، وفي القرن الحادى عشر بقيادة البابا أوربان Urban كان معنى ذلك أن العالم المسيحي يتراجع عن مسيحيته لسبب آخر هو اختيار طريق الهجوم بدلا من طريق الدفاع .

(٥) وكانت مرحلة المواجهة الخامسة بين الشرق والغرب في القرن السادس عشر ، حين تراجعت الثقافة المسيحية امام الثقافة الاسلامية تراجعا مبدئيا . وبالرغم من أن المبادرة في هذه المرحلة كانت من العالم المسيحي الا أن القيم الجديدة في اوروبا كانت من وحي الاسلام .

فالتشقق العظيم الذى قسم العالم المسيحي إلى كاثوليك وبروتستانت ، وتأسيس مارتن لوتر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) الدعوة الانجيلية ، وقوامها العودة الى الإنجيل ورفض الخضوع للكهنة وتأسيس سرفيتوس Servetus الدعوة الى التوحيد Unitarianism ، وقد اعدم حرقا عام ١٥٥٣ بتحريض من المصلح الدينى كالفن Calvin ، وتأسيس كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) الكنيسة المشيخية ، وكل تلك المبادئ لحركة الاصلاح الدينى في ذلك القرن الذى تأججت فيه الثورة الثقافية فى اوروبا ، كانت تمثل مؤثرات اسلامية خامرت الدين المسيحي بطريق أو بآخر . كانت التجديدات الكبرى في تفسير العقيدة المسيحية ابان حركة الاصلاح الدينى تدور حول ثلاث نقاط : (١) طبيعية الثالوث ومكانته ، (٢) مشكلة الجبر والاختيار ، (٣) سلطة الكهنة وسلطة الضمير الفردى . وفي اكثر الأحوال كانت المسيحية تتخذ الموقف الاسلامى معدلا بما يتفق مع المسيحية ، بالتأكيد على « ابن الانسان » اكثر من التأكيد على « ابن الله » ، وبالتأكيد على الجبر ، وبتمجيد الضمير الفردى ومعاداة الكهنة وفي بعض التخريجات وضعت مريم العذراء في موضع أدنى من موضعها في الاسلام الارثوذكسى (أى الصحيح) . اما التفاعل فقد جرى في جامعات الأندلس العربية ، ولا سيما بعد قيام محررى اسبانيا بطرد الاساتذة اليهود وتشيت هؤلاء الأساتذة في مختلف ارجاء أوربا ، ولا سيما في سويسرا وهولندا والحدود الفرنسية الألمانية .

كذلك هناك مبدأ رابع اخذته الثقافة المسيحية من الثقافة الاسلامية مترامنا مع حركة الاصلاح الدينى ، وهذا هو نشأة الهيومانزم أو الفلسفة الانسانية ، وجوهرها هو الايمان بكرامة الانسان وبأن للانسان قيمة في ذاته وبأن الامور الدنيوية والنشاط الدنيوى والعلوم الدنيوية لا دنس فيها ولا خطيئة ولا انصراف عن الله ، وبأن الحياة الدنيا ليست مجرد معبر الى العالم الآخر ، بل هى

هبة إلهية أو طبيعية وهبها الله لبنى آدم وهى تستحق أن يحرص عليها ويعتز بها ويبريها ويتمتع بها . ومعاداة الرهبانية من المبادئ الأساسية فى الاسلام التى أخذها العالم المسيحى فى عصر النهضة الأوروبية عن طريق ايطاليا وأسبانيا ، وبالمثل التوفيق بين الحياة الزمنية والحياة الروحية وأخيرا فمن المعروف أن العالم الاسلامى اعاد تصدير التراث اليونانى القديم إلى العالم المسيحى . باختصار : بكل هذه الدروس فى الهيومانزم وفى الاصلاح الدينى استطاعت أوروبا أن تبنى نهضتها الجديدة فى القرن السادس عشر وأن تضح أسس ما نسميه الحضارة الحديثة .

وفى ١٢٥٨ أحرقت هولاءكو ومغوليه بغداد . وفى ١٤٠٠ حاصر تيمولنك وتتره دمشق . وفى ١٥١٧ فتح السلطان سليم واتراكه مصر . واعقب ذلك ثلاثة قرون من الحاق الكلى ، الى أن كانت يقظة العالم الاسلامى الجديد ، أو على الأصح العالم الناطق بالعربية ، نحو عام ١٨٠٠ — وكان من سخرية التاريخ أن العالم المسيحى والعالم الاسلامى تبادلوا الادوار منذ عصر النهضة الأوروبية .

وبعد حقبة طويلة من المرض سددت الامبراطورية العثمانية الضربة القاضية لنظام الحكم الاسلامى وللتقاليد والاعراف وبعض وجوه الثقافة الاسلامية بتصفية الامبراطورية والغاء الخلافة عام ١٩٢٤ واقامة الدولة العلمانية بفصل الدين عن الدولة والاعتماد على عصبية الجنس بدلا من عصبية الدين . وبين قسطنطين والسلطان عبد الحميد نحو الفى عام من الثيوقراطية المسيحية والثيوقراطية الاسلامية .

وقد فقدت بيزنطة نفسها بالعقم نحو الف عام فى محاولتها الانقاذ الامبراطورية الرومانية الشرقية بتجربة الدولة الثيوقراطية . وهذا على وجه التقريب ما حدث للامبراطورية الرومانية الغربية : فقد فقدت روما نفسها كذلك نحو الف عام بالعقم الثيوقراطى وهى تحاول أن تحل مدينة الله محل مدينة الانسان .

ومن يتأمل تاريخ الامبراطورية الاسلامية بدقة يجد انها لم تكن قوية حقا الا حين كانت للقومية العربية رسالة عالمية ، اى الا حين جاء الاندفاع الحيوى فى العالم الاسلامى من موقف هيومانى أراد العرب أن يشاركهم فيه غيرهم من الشعوب . وفى الواقع كان تاريخ التفكك فى الامبراطورية الاسلامية هو تاريخ ثورات الشعوب الداخلة فى الاسلام عندما استعمل العرب الاسلام ليحكموا بدلا من أن يستعمل الاسلام العرب لينتشر . وعند نهاية القرن العاشر كان هناك ثلاثة خلفاء : خليفة فى القاهرة وخليفة فى بغداد وخليفة فى غرناطة . ومن يتأمل الملاحم العربية الشعبية ، وهى ملاحم نظمت بعد أن تصدعت الامبراطورية العربية ، يجد أن الفتوحات العربية تمت باسم العروبة وليس باسم الاسلام . هكذا كان مجد الهلالية أو مجد « الهلايل » كما ينشد الشاعر فى « التفرية » ، وليس مجد الاسلام أو نشر رسالته العالمية . وكانت عوامل الهزيمة اقوى من العرب : كان هناك الفرس والمغول والتتار والترك الذين اكتسحوا المنطقة وورثوا دولة العرب ، ولم يبق من الصرح العظيم الاقوميات متناحرة بغير رسالة عالمية .

فلما تعلمت أوروبا الدرس وأحييت في شعوبها الروح القومية ، استخدمت القومية كسلاح ثقافي لتعطي للهيومانزم ولدعوة الإصلاح الديني طابعا عالميا . كانت فلسفة «مدينة الانسان» ثورة على فلسفة «مدينة الله» كما نجد في تصورات المدن الفاضلة التي كتبت ابا ان الرينسانس وحين تنازل الانسان في العالم الاسلامي خلال العصور الوسطى عن مكانه الممتاز في الخليقة ، ملأ هذا الفراغ الانسان في العالم المسيحي . ولم يكن في استطاعته ان يفعل ذلك الا ببعض التراجع عن المسيحية . وتاريخ نصف الكرة الغربي منذ الكواتروتشنتو quattrocento ، أى منذ احياء الفنون والآداب الدنيوية حتى اليوم ، إن هو الا محاولة الانسان في الغرب ان يكون سيد مصيره وان يكون سيدا على مصير الآخرين : أنها التجربة الفاستية .

(٦) ومن هنا بدأت المرحلة السادسة في المواجهة بين الشرق والغرب ، وهي تمثل محاولة الغرب السيطرة على الشرق مستخدما نفس الاسلحة التي أخذها الغرب جزئيا من الشرق . وفي ملاحظة ساذجة للأفغانى نجده يبدى عجبه لاستبعاد الغرب للشرق ويحاول أن يفسره بقوله أنه يبدو أن العالم المسيحي قد أصبح مسلما بينما أصبح العالم الاسلامي مسيحيا . وفي الجوهر كان الأفغانى على صواب . فما أراد أن بقوله حقيقة هو أن الغرب أضحي هيومانيا بينما أضحي الشرق ثيوقراطيا . وبهذا المعنى تبادل الشرق والغرب مواقفهما التاريخية . لقد انتهى الاسلام الامبراطورى بعد العباسيين عندما فقد العالم الاسلامي ايمانه «بالانسان» . وهنا تحول العالم الاسلامي الى «قومية» بغير رسالة عالمية .

وفي زمن باكر هو القرن الثاني عشر كانت أوروبا تبحث عن احياء الفكرة القومية ولكن داخل اطار الثيوقراطية المسيحية . وفشلت التجربة بفشل الحروب الصليبية ، لأن القومية بغير الهيومانزم لا معنى لها . وحين فشلت التجربة او لم تثمر نتائج سريعة اخذ العالم المسيحي ينسلخ تماما من الثيوقراطية ، وصنعت أوروبا لنفسها فلسفة هي الهيومانزم ، أو على الاصح اعادت اكتشاف فلسفة الهيومانزم . وهكذا حين عجز اكثر ابناء العالم المسيحي عن مواجهة الاختيار الفاستي بين الله والانسان ، وجدوا مخرجا في العلمانية القائمة على فصل الدين عن الدولة . وقد نجح بعضهم مع ذلك في تصور المسيحية تصورا هيومانيا على غرار ما فعل ارازموس ، Erasmus والسيرتوماس مور Sir Thomas More . اما اولئك الذين احسوا بأن الخطر الحقيقي على مبدأ القومية كان يكمن في المؤسسة الدينية فقد عملوا على رفض المؤسسة الدينية في ثوراتهم الروحية المختلفة التي شكلت حركة الإصلاح الديني ، ومنهم من رفض الدين جملة كمؤسسة .

وفي الحالين كنا بازاء ثورة ثقافية هائلة بلغت قمته في القرن السادس عشر وآتت ثمارها في القرون التالية . وكان جوهر هذه الثورة الثقافية هو اعادة اكتشاف الانسان . ومنذ الرينسانس حتى الثورة الفرنسية جمعت أوروبا بين القومية والايديولوجيا التي حاول الأوروبيون بحماس تصديرها للعالم ، أو على الأقل إلى أوروبا وأمريكا وكانوا احيانا يسمونها الهيومانية وأحيانا البروتستانتية وأحيانا

العقلانية أو الديزم Deism ، وأحيانا الإمبريرية Empiricism أو المنهج العلمى التجريبي ، أو روح البحث العلمى ، وأحيانا الديمقراطية المؤسسة على الحرية والمساواة وحقوق الانسان ، وأحيانا الرومانسية المؤسسة على الفردية والذاتية وأحيانا يسمونها المادية أو الطبيعية أو الوضعية، وأحيانا الجدلية ، وأحيانا الليبرالية ، بل وأحيانا الاشتراكية . حتى « التقدم » وعلوم المدنية وادابها اصبحت رسالات اشتهرت فى إنجلترا باسم « عبء الرجل الابيض » White Man's Burden واشتهرت فى فرنسا باسم « رسالة التمدن » mission civilisatrice . ولكن ايا كان أو يكون الاسم فالغاية كانت دائما مجد الانسان ، وحتى حين كانت الغاية مجد الله ، انما كان مجد الله من خلال مجد الانسان .

وقد اخترت الفترة من الرينسانس إلى الثورة الفرنسية ، أو على وجه الدقة فترة الرينسانس وفترة الثورة الفرنسية ، لكى أوضح ماكان من احياء عظيم فى أوروبا الحديثة لتلك الحرارة الروحية التى مكنت المسيحية فى شبابها ان تخصب أوروبا بثقافة إيجابية جديدة أكثر خصوبة من ثقافتها أيام شفق الوثنية اليونانية والرومانية ووثنية برايرة الشمال ، كما مكنت الاسلام فى شبابه أن ينفذ شرق البحر المتوسط وجنوبه من عقم بيزنطة وروما الذى تعاظم بعد مجمع نيقية .

ففى فترة الرينسانس كانت هذه الحرارة الروحية هى التى دفعت المفكر والشاعر والفنان والسياسى والمعلم والباحث الخ ... ان يبشر بفلسفة الهيومانزم المكتشفة حديثا ، وأن يحمل عقيدته البروتستانتية أو قيمة الدينية الجديدة الى اركان المعمورة الأربعة ، بل وان يضحي بحياته ذاتها ليدافع عن معتقداته وليذيعها بين الملأ . هذه الروح نفسها سيطرت إبان الثورة الفرنسية عندما كانت « حقوق الانسان » هى الرسالة العالمية التى اتخذت كل ابعاد وأعماق الدين الجديد . وفى كل حالة من هاتين الحالتين كانت للقومية ايدولوجيا عالمية تبررها ، وتقويها ، وتجعلها نافعة للمنتصر وللمهزوم . نعم ، لقد كانت أوروبا امبريالية ، ولكنها كانت امبريالية ذات رسالة انسانية . ومع ذلك فقد بدأت تخامرها الظلال منذ أن أصبح بونابرت نابليون وتوج نفسه امبراطورا عام ١٨٠٤ . فقد بقيت الامبريالية أما الرسالة العالمية فقد شحبت وشحبت بإطراد .

ومنذ عصر الملكة فيكتوريا فى إنجلترا وعصر نابليون الثالث فى فرنسا كف العالم الغربى تماما عن تصدير الديمقراطية والهيومانية والثورة الثقافية للشعوب التى كان يحكمها . فعندما تتحول الثورة إلى نظام أو الى مؤسسة ، تصبح محافظة ، بل وتصبح رجعية وتبدأ فى خيانة نفسها وخيانة الآخرين ممن علقوا عليها الآمال . فبدلا من أن يشارك العالم الغربى قيمه العليا مع بقية شعوب البشرية ، نجده قد أعلن ان قيمه العليا ليست للتصدير وان لها خصوصية غريبة . بل لقد ذهب الغرب الى مدى مقاومة انتشار قيمه ومؤسساته ذاتها بين الشعوب التى حكمها فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى . وفعل نفس الشئ فى افريقيا وفى الأمريكتين . بل وفى تاريخ باكر هو القرن الثامن عشر تنكرت أوروبا لأبنائها فى الأمريكتين وحاولت أن تجردهم من ميراثهم ، فاحتاج الأمر الى

حروب استقلال ليحرر الابناء انفسهم من نير الآباء . وربما كان ابراهام لينكولن آخر الامبرياليين الثوريين في الحضارة الغربية .

ولم يكن هناك شئ جديد في هذا التطور . فمئذ امبراطورية بنى أمية كتب الوالى على مصر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز في دمشق يشكو من تحول اعداد غفيرة من المصريين الى الاسلام ليتجنبوا دفع الجزية ، وهو ما أفقر الخزانة المصرية ، وطلب من الخليفة ان يصدر أمرا فحواه أن الاسلام دين عربى مقصور على العرب ، ويحظر على غير العرب من ابناء الدول المفتوحة المشاركة في هذا الدين . غير أن ذلك الخليفة العظيم ، عمر بن العزيز ، أجاب مؤنبا الوالى وأمره بألا يمنع احدا من الدخول في دين الاسلام ، قائلا : « ان الله أرسل محمدا هاديا لا جابيا » ومن هذا نعرف أن الامبراطورية الاسلامية كانت على الأقل حتى عمر بن العزيز قوة ثورية . فلم تكن فيها مقاييس مزدوجة للعرب ولغير العرب .

وعندما اكتشفت الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر أن مبادئها وقيمها ومؤسساتها وكل ما هو نتاج ثقافتها ومدنيتها ليست للتصدير الى مستعمراتها ، فقدت امبراطوريات الغرب مبرر وجودها . وبدأ أبناء الغرب يؤكدون الفوارق بين البشر بدلا من أن يؤكدوا التشابه بين البشر . وحين كتب وولتر باجوت Walter Bagehot يقول في كتابه « الدستور الانجليزى » The English Constitution انه من الأسهل على الفرس ان يدخلوا السكك الحديدية في فارس من أن يدخلوا الدستور البريطانى ، كان بطبيعة الحال يقرر مقولة بديهية ، ولكنه كان في الوقت نفسه يعبر عن رفض الغربيين أن يشاركوا الدول المتخلفة في قيمهم العليا .

وبالطبع كان أشد التعبيرات غطرسة عن هذا الموقف هو القول الشهير في شعر كيبلنج Kipling « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقى الاثنان حتى تلتقى الأرض والسماء عند عرش الله ، عرش الدينونة العظيم » . وهذه هى الامبراطورية بغير رسالة عالمية . انها الاضطلاع بالسلطة دون الاضطلاع بالمسئولية . وفي مصر كان كيبلنج هو اللورد كرومر . انه وضع أوروبا في آسيا وافريقيا : قرون من السيطرة بلا مشاركة . والقليل من التقدم الذى استطاعت آسيا وافريقيا ان تحققه في القرنين الماضيين جاء برغم الغربيين الذين كانوا يقاومون بانتظام انتشار ثقافتهم وحضارتهم في مستعمراتهم ، فيما خلا انتشار السلع الاستهلاكية المربحة ، وفيما خلا التدريب المحدود المحسوب لكوادر الادارة والكوادر الفنية الصغرى لتكون بمثابة همزة وصل بينهم وبين السكان الأصليين ، وفيما خلا المشروعات الصحية ومشروعات الاسكان المحدودة لوقاية « الرجل الابيض » وتدير راحته .

وقد ربط الرجل الغربى نفسه حيثما ذهب منذ العصر الفيكتورى في انجلترا والامبراطورية الثانية في فرنسا ، بالعناصر المحافظة في مستعمراته لأنهم حراس « الوضع القائم » ، واشتغل بهمة للحفاظ فيها على القيم التقليدية ، وهى ذات القيم التى جلبت التعفن الفكرى والاجتماعى أو جلبت

الخمول في البلاد التي حكمها الغريون . وفي أحسن الفروض كان المثقفون الغريون الحسنو النية لا يرون في المجتمعات المتحجرة التي حكمها الغرب إلا نماذج باقية من « الهمجي النبيل » فأحاطوها بجو من التعاطف الرومانسي واطبوا في وصف فضائلها الفطرية وقربها من الطبيعة .

أما أولئك الذين حاولوا أن يستوعبوا الثقافة الغربية لينقلوا بلادهم من جحيم التخلف ومن جحيم الاستعمار في آن واحد فقد كانوا وجهودهم موضع قمع واضطهاد بالقوة العاشمة وبقوة حراس التقاليد وعبداء السلف الذين كانوا يخدمون مخططات الامبريالية الغربية والاستعمار الغربي أنا عن وعي وأنا بغير وعي . وكان المنطق الجهنمي الذي يستخدمه الغرب دائما هو أن « ما هو دسم للبعض هو سم للغير » ، وان الثقافة الهومانية ليست ميراثا مستحقا لكل البشر بل هو الامتياز الخاص الذي ينفرد به المواطن الغربي دون سواه ، وان الديمقراطية أو الاشتراكية أو أى شكل من أشكال التنظيم السياسى والاجتماعى الراقى هى نظم لا تصلح للشعوب المعتادة على الطغيان الشرقى ، كأنما الاستبداد ليس مرحلة من مراحل الوجود الاجتماعى ولكن خاصة وراثية تنتقل في الشرق من جيل الى جيل عن طريق جينات ملازمة لتكوين الإنسان .

وفي هذا السياق نجد أن الغريين يتناسون عمدا كم خلعوا أو اعدموا من ملوك مستبدين ، وكم دمروا من ارسقراط أو بلوتوقراط مستبدين ، وكم طاردوا من رجال الدين المستبدين ، وكم مزقوا من فلسفات استبدادية قبل أن يعيدوا اقرار الحرية والمساواة والاخاء كأسس للحياة الانسانية أو على كل حال قبل أن يحققوا درجة كافية من كرامة الانسان .

أما المنطق الجهنمي الذى استخدمه الرجعيون في البلاد المتخلفة فهو ان احترام الانسان فيه اغتراب عن الله ، أو أن وضع الانسان ومصيره فرديا واجتماعيا قد كتبهما الله عليه بمشيئة لا تتبدل ، وان الهيومانزم الغربى هو سقوط من النعمة الالهية وهو فساد احلاقى وهو الضمان المحقق للموت الروحى .

والتركيبة الرخيصة التي اهتدى اليها دعاة الشيوعية هي ان كل ما يحتاجه الشرق من الغرب هو استيراد ما لديه من علوم وتكنولوجيا متقدمة وليس استيراد قيمه ، لأن قيم الشرق ارقى من قيم الغرب . وفي هذا تصور أن حضارة الانسان ليست كلا عضويا متكاملا في الفكر والمادة ، وفي الشكل والمضمون ، بل شئ قابل للتجزئة نأخذ منه ما نريد وننبذ ما نريد . وهو بمثابة التطلع الى التصنيع دون ان نقبل نتائج التصنيع بمنافعه وامراضه ، وهو شبيه بالتطلع الى حياة المدينة مع المحافظة في نفس الوقت على الروابط الأسرية الريفية والأبنية الأسرية الريفية . وهو مثل التطلع الى تعليم المرأة أو الى تشغيل المرأة دون تحرير المرأة . وهو مثل محاولة الطيران بالميج أو الميراج دون أن نحس بالقلق في الزمان والمكان الذى دفع الرجل الغربى الى اختراع الطيران . انه مثل الاضطلاع بالمسئولية عن حضارة « لاشخصية » مع الاحتفاظ بالنظرة الشخصية والأدوات الشخصية والمواقف الشخصية .

وحين شارك الغرب في مغالطة ان الثقافة والحضارة قابلة للتجزئة ، دخل في تحالف طبيعى مع

القوى الرجعية والمحافظة في الشرق الراضة للغرب دون أن تكون بالضرورة معادية له . بل إن الغرب الآن متهم ، منذ العصر الفيكتوري والامبراطورية الثانية ، أى لأكثر من قرن ، بأنه الموعز بهذه المواقف المبادر الى هذه المحالفات . وهو اذ فعل ذلك انما أصبح امبراطوريات بلا عقيدة وقوميات بلا رسالة تبرر بها فتوحاتها . فهو قد فقد عالمية الهيلينية والمسيحية والاسلام خلال فتراتهما الخلاقة التوسعية حين خرجت لتهلين العالم أو لتنصيره أو لنشر الاسلام فيه . وهو قد فقد الفضيلة الانسانية ، فضيلة المشاركة مع الغير . ومن هنا نشأ التساؤل : لماذا يحظى الغرب بوجود في الشرق أو لماذا يسعى ليحظى بهذا الوجود ، ما دام يرفض ان يشرك الشرق في ايمانه بحقوق الانسان وبكرامة الانسان ، بل ومادام يرفض ان نشاطه منافع التقدم المادية ؟ ماذا يتبقى بعد هذا غير النهب والسلب ؟

لقد كنت اتحدث بصفة أساسية عن أثر أوروبا في الشرق . ولكن بظهور الامبراطورية الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، حلت امريكا باختصار محل أوروبا : لا محل أوروبا الثورية الفتية التي نعرفها في الرئيسان وفي الثورة الفرنسية ، ولكن محل أوروبا المسنة المتخمة بالراحة وبالرضا عن النفس ، أوروبا انجلترا الامبراطورية وفرنسا الامبراطورية والمانيا الامبراطورية .

وامريكا الآن تكرر تجربة أوروبا في القرن التاسع عشر . وليس غريبا أن مستر كيسنجر يجب أن يشبه نفسه بميتريخ ، مطلق النار على كل القوى التقدمية الراديكالية في أوروبا الثورية : مترنيخ الذي كانت اولى امجاده تسريب الامبراطورة ماري لويز الى البلاط الفرنسي ، كحصان طروادة الذي كان يأمل به إن ينفخ في نابوليون روحا بوروبونية ، وكان ثانياً امجاده تصفية نابليون نفسه وإعادة البوروبون الى عرش فرنسا . والغرب الآن بقيادة امريكا لا يزال يطبق مقاييسه المزدوجة في تعامله مع الشرق لأنه لم يتعظ بدروس الحريين العالميتين : فهو يسبغ كرامة الدولة القومية على الاسرائيليين وهو يعطى للعرب مصير الهنود الحمر . وقد كانت آخر مكتشفاته انه في امكانك أن تزاو « الاستعمار الحر » و « حرية التجارة » في الشرق من كوريا وفييتنام الى الشرق الاوسط دون ان تمارس « حرية التفكير » و « حرية التعبير » و « حرية التنظيم الاجتماعى » وبقية الحريات وحقوق الانسان الملازمة للديمقراطية الليبرالية . انه نوع جديد من الديمقراطية : « ديمقراطية من غير ديموس » .

ولكن ربما كنت ظالما للامريكيين ، بل وللاروبيين ايضا ، عندما أقول أنهم يستخدمون المقاييس المزدوجة في التعامل مع شعوب الشرق . فعندما نسلم بعضهم يقول : « إن ما يصلح لجنرال موتوز يصلح لأمريكا » ، نحس بأن المقاييس المزدوجة تبدأ في الوطن الامريكي نفسه . والأغلب أن ارامكو تستطيع ان تدعى ما تدعيه جنرال موتوز . بل ان ما بدأ منذ حين قريب من حركة قوية لتشجيع الهويات الثقافية والعنصرية في الولايات المتحدة ، هو السم اللذيذ الذى تتناوله الأقليات المسحوقة أو المهضومة الحقوق لأنه يملؤها باعتزاز زائف بتقاليد هي نفسها قد أولتها ظهرها ،

فتجعل ابناء هذه الاقليات يفاخرون بأنهم امريكان سود أو امريكان تشيكانو أو امريكان ارمن أو امريكان عرب أو امريكان يهود . وهذا لا يؤدي الا الى نتيجة واحدة ، وهى انه ليس فى أمريكا « امريكان امريكان » الا المواطنون « الواسب » WASP ، أى « البيض » White ، « الانجلوسكسون » Anglo- Saxon ، « البروتستانت » Protestant .

ومن جهة أخرى لابد من القول بكل أمانة أن أمريكا ، بل وأوروبا ذاتها ، لم تسقطا بعد كفلاع للديمقراطية . فطالما ان هناك قضاة يحاولون فرض التكامل الثقافى بارغام التلاميذ البيض على زمالة التلاميذ السود . فى المدارس ، وطالما كان من الممكن ابعاد امثال نيكسون وما كارثى من الحياة العامة بسبب سوء سلوكهما السياسى والمدنى فلا يزال هناك امل فى أن يعيد الشعب الامريكى الى الديمقراطية قيمتها العالمية الأصيلة .

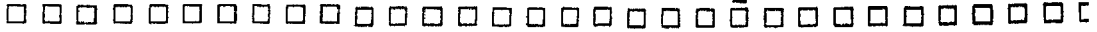
هذه اذن فى تقديرى هى أزمة العرب والشرق الحقيقية : انها خيانة النفس .

فعندما توفقت المسيحية فى القرن الرابع وتوقف الاسلام فى القرن التاسع الميلادى عن ان يكونا قوى لتحرير الجماهير . لم يبق فى رسالتهما العالمية الا الهيكل الخارجى . وقد اضطرت روما إلى استدعاء حاميتها فى لندن لتدافع عن اسوارها ضد غزوات برايرة الشمال ثم قبعث داخل الأديرة . وبعد المأمون بفترة وجيزة سقطت بغداد فى ايدى الفرس والتركمان ، وكان يقابل هؤلاء فى القاهرة الطولونيون والاخشيديون فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد . وعندما توقفت الأديان الراقية عن تحرير الجماهير فى الدنيا اكتفت بتحريرهم فى الآخرة .

هذا فى العالم الوسيط . أما فى العالم الحديث . فعندما توقف الهيومانزم بعد الثورة الفرنسية عن تحرير الانسان من اغلاله ثم من نفسه فى كل مكان من العالم اصبح الهيومانزم سلاحا تحتكره الدول المتقدمة وتحظر تصديره الى الدول المتخلفة .

وكان اعظم انتصار للاستعمار هو تعاظم السلفية الحديثة أو ما يسمى « بالأصولية » ، فى العالم المتخلف ، بما يتضمنه هذا من تنازل اختياري عن حقوق الانسان تأسيسا على أن كل حق هو حق الله وحده .

الفصل السابع عشر



اليونسكو وثقيف العالم

في ١٩٨٢ عقد في مدينة مكسيكو سيتي مؤتمر من أهم مؤتمرات اليونسكو عرف باسم « المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية » ، شاركت في هذا المؤتمر الدول الأعضاء في اليونسكو ، ومنها مصر . وقاد وفد مصر في هذا المؤتمر المرحوم محمد عبد الحميد رضوان ، وزير الثقافة الأسبق . أما نجم المؤتمر فكان جاك لانج وزير ثقافة فرنسا السابق ، الذي بدا وكأنه قائد المثقفين في العالم أجمع . هكذا جاءتنا الأخبار .

وقد توصل هذا المؤتمر الى جملة توصيات هامة مالبثت أن تحولت بعد سنوات الى قرارات اتخذتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٨ ديسمبر ١٩٨٦ ، وكان محور هذه القرارات اعلان مايسمى بلغة الأمم المتحدة الفضيعة « العقد العالمي للتنمية الثقافية » ، على أن يبدأ هذا العقد في ١٩٨٨ وينتهي في ١٩٩٧ ، والعالم على مشارف القرن الحادى والعشرين .

فاذا أردت ان تعرف معنى هذا الكلام الغريب ، أى معنى عبارة « العقد العالمي للتنمية الثقافية » ، فتذكر أن الناس قد ألفت أن تتحدث عن « الخطة الخمسية » كلما تكلمت عن « التنمية الاقتصادية » . فنحن اذن نتحدث هنا عن « الخطة العشرية العالمية للتنمية الثقافية » .

غير أن الكلام عن « الخطة » و « الخطط » ينصرف فى العادة الى برامج واجراءات مادية تنفيذية ، ولكن قرار الأمم المتحدة لايشمل برامج أو

اجراءات محددة بالذات ، وانما ينصرف الى مبادئ عامة يمكن أن نسميها « استراتيجية » عالمية للتنمية الثقافية و « الاستراتيجية » ايضا كلمة بغیضة امتهنها السياسيون والصحفيون بسوء الاستعمال ، فلنقل بايجاز أن الأمم المتحدة قد قررت ان تخصص السنوات العشر القادمة (١٩٨٨ — ١٩٩٧) للتنمية الثقافية عن طريق اليونسكو وحكومات الدول الأعضاء فيها وعن طريق الهيئات الرسمية وغير الرسمية .

وهل في هذا جديد ؟ نعم ، فيه جديد : أولاً لأن الأمم المتحدة منذ انشائها كانت تهتم بالبرامج ذات الصلة المادية ، كالنمية الاقتصادية والاجتماعية من خلال منظمة الأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية ، اما منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ، فقد كان جل اهتمامها بمشاكل التربية والتعليم ، ولم يكن لها اهتمام واضح بالثقافة إلا فيما ندر . وهذا الاتجاه الأخير للاهتمام بالثقافة اتجاه جديد .

ولكن أهم من هذا هو النظرة الجديدة في الأمم المتحدة الى الثقافة . فقد كان مفهوم الثقافة في الماضي هو أنها متصلة بالفنون والآداب كالتصوير والعمارة والموسيقى والأدب والفكر الفلسفي والتاريخ ، ثم امتد الى المسرح وطرق التعبير السمعية والبصرية كالسينما والاذاعة والتليفزيون .

ثم اكتشف « المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية » في مكسيكو سيتي عام ١٩٨٢ أن « الثقافة يمكن أن تعرف الآن بأنها مجموع السمات المركبة التي يتميز بها مجتمع من المجتمعات أو أية مجموعة اجتماعية روحيا وماديا وفكريا وعاطفيا . وهي لا تشمل الفنون والآداب وحدها ، ولكن تشمل أيضا أساليب الحياة ، وحقوق البشر الأساسية ، وموازن القيم ، والتقاليد ، والمعتقدات . ومادنا نتحدث عن السمات أو الملامح المميزة فنحن بالضرورة نبرز أهمية « الهوية » أو « الذاتية » أو « الشخصية » كما يسميها صاحبنا جمال حمدان لأي شعب من الشعوب ولأية مجموعة بشرية .

ومن يتأمل هذا « الاكتشاف » تأملاً صادقا يجد أنه مجرد أحياء للتعريف العلمي للثقافة الذي ساد منذ مولد علم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية : نجده تصورا أساسيا في دراسات جهايزة العلماء مثل تيلور ومورجان ومونتاجيو سمرز وراي كليف براون وايفانز بريتشارد ومالينوفسكى وفستر مارك وعامة من تخصصوا في دراسة أحوال الشعوب البدائية ومعتقداتها ونزاهة كالهنود والشمون والشولوك والدينكا والنوير والطوارق وبعض سكان جنوب شرق آسيا ، ولم اذكر الا من كتبوا بالانجليزية وقرأت لهم .

فهناك اذن تعريفان للثقافة : التعريف « العلمي » الاجتماعي الذي نجده في دراسات علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية . وهو مجرد تعريف وصفى للثقافة لامكان فيه للأحكام أو للتقييم ، ثم هناك التعريف « الانساني » وهو التعريف الشائع القائم على تصور الثقافة مرادفة للمعرفة الواسعة للفنون الراقية والآداب الراقية والفكر الراق والدق الراق والوجدان الراق ، وهذا التعريف ليس وصفيا

بحسبنا ولكنه قائم على نظرة معيارية لكل هذه الأشياء ، وهو يتضمن معنى اختيار الأفضل والتصنيف من الأوشاب أو «تخليص» الإبريز كما كان الطهطاوى يقول ، أى تخليص التبر في كل شيء من خبث الأرض وخبث الجهل وخبث السذاجة وخبث السوقية وخبث الذوق الغليظ وخبث التعصب والعاطفة العمياء وخبث السلوك الفجح .. حتى الخيال فيه خبث وترهات وفيه سامى الأحلام وجميل الأطياف . وكذلك اللغة والفكاهة والحب والشهوة والطعام والشراب ، الخ ... حتى العلم والدين فيهما ماهو راق للصفوة أو للحكماء وماهو ساذج أو مدمر للجهال أو للبسطاء المتخلفين .

هذا التعريف الانساني المعيارى للثقافة هو التعريف الشائع ، وهو فى ظنى تعريف صحيح ولكن مشكلته أنه قائم على درجة ملحوظة من الطبقة ، لأنه غالبا ما يقرن الجهل والسذاجة والفجاجة والغلظة والسوقية والتعصب الخ .. بالشعبية والجماهيرية واقتراب الانسان من حياة الفطرة قبل أن تصقله المعرفة والمدنية وتخلصه حياة الرخاء من ضرورات العوز التى تشكل الجزء الأكبر من رذائل الفقراء .

فهذا المقياس انت مثقف اذا أنصت الى موسيقى باخ وفيفالدى وبيتهوفن وشوبان وأوبرات موزار وفيردى وانت غير مثقف اذا كانت اذنك لاتتجاوب الا مع ساذج الألحان والأغاني التى يسعد بها الدهماء . وأنت مثقف اذا احسست بحمال معمار البارثينون وسمو معمار الكرنك والكاتدرائيات أو المساجد العظام وأنت غير مثقف اذا لم يחדش بصرك معمار حضارة المساكن المعلقة سواء أكنت فى مانهاتان أم كنت فى الزمالك أو كورنيش النيل أو شارع الهرم . (ومن المتشددىين فى الثقافة من يقول أنت غير مثقف اذا لم تسجد أمام معمار حسن فتحى) .

وقد تشتد الطبقة فى الثقافة الى درجة مرعبة ، فحين كانت أدرس فى جامعة كامبريدج بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠ كان لى بعض الأصدقاء من الطلبة الأرستقراط الذين كانوا ينادون بأن كل موسيقى انشئت بعد باخ وهاندل وهایدن وموزار عفن فى عفن ، وأنه لايتذوق بيتهوفن الا المتبريرون من البورجوازيين محدثى النعمة (فما بالك بشوبان وتشايكوفسكى والسوقة العاطفيين) ؟

وهكذا دواليك فى كل الفنون وكل الآداب وكل آثار الفكر الانسانى ، بل وفى السياسة والاقتصاد وفى الخبرة بالأنبذة وبالجن الفرنسى وبالطور الخ ... وكان لى منهم صديق له مودة خاصة فى قلب يدعى ريتشارد مورلى من نسب نورماندى عريق يحسب أن أجداده الفرسان جاءوا الى انجلترا مع وليم الفاتح فى ١٠٦٦ . فكان يتفكه فى تعال بمنظر الانجليز وهم يصخبون فى «البارات» حول أكواب البيرة ويصف ذلك الصخب الغليظ « بالمرح الانجلوسكسونى » ، زراية منه بالبيرة وبالانجلوسكسون . وكيف لا وهو خبير بأنبذة الراين وأعراقه من سلالة الفرسان الفاتحين ؟ (بهذه المناسبة فقد شكسبير اعتباره فى بلاده أكثر من قرنين لأنه « كان يعرف لاتينية قليلة ويونانية أقل » ، وكان اللورد بيكون يكتب باللاتينية وترجمه الى الانجليزية بن جونسون) .

هذه النظرة المتعالية الى الثقافة جاءت بنتائج عكسية للمفهوم الانسانى التقليدى للثقافة ، وهو المفهوم المعيارى الذى يمكن ، فى اطار التسليم بالتعريف الانثروبولوجى الاجتماعى ، أن يهدينا الى التمييز

بين الثقافات الراقية والثقافات المنحطة وبين الثقافات المتقدمة والثقافات المتخلفة .

فهذا التعالي الثقافى والاعتداد المطلق بثقافة الصفوة قد انتهى فى كثير من الأحيان ، بسبب اسراف السادة وكهنتهم فى احتقار الشعوب والجماهير والفقراء والبسطاء بصفة عامة ، الى الاستراية المسرفة فى الفطرة الانسانية وقدرتها على الخلق والابداع ، الى التخوف على التراث الانسانى وكأنه كنز مرصود ، الى تحنيطه وحفظه داخل توابيت وكأنه مومياء مقدسة ، الى تعميق الهوة الى درجة اللاتفاهم بين الثقافة الرسمية والثقافة الشعبية وبين ثقافة السادة وثقافة العبيد .

وقد ظهرت آثار ذلك على صعيدين : الصعيد القومى والصعيد الطبقي .

فعلى الصعيد القومى ظهرت أولا أكذوبة « عبء الرجل الأبيض » فى العلاقة بين الدول الاستعمارية والشعوب المستعمرة ، فكان التعبير الرمزي عن ذلك هو العلاقة الغريبة بين روبنسون كروزو وخادمه الأسود فرايداي . وهى علاقة من طرف واحد نجد فيها الرجل الأبيض يعطى الفكر والخبرة والقيم للرجل الأسود دون أن يحاول أن يستلهم من الرجل الأسود شيئا ذا معنى لذاته ، ونجد فرايداي فى المقابل يتعلم الدين واللغة من الرجل الأبيض ومعها يتعلم عمل الحطاب والبناء والصيد والسماك والطاهى والنساج لكى يقوم على خدمة سيده ومنقذه من أكل لحوم البشر . هذه كانت فكرة الاستعمار الأوروبى عن علاقة الرجل الأبيض فى القرن الثامن عشر بالرجل الأسود والرجل الأصفر والرجل الأحمر ، هذا أو الابداء .

وفى القرن التاسع عشر ازداد الاستعمار عنجهية فوضع نظرية الشاعر كيلنج المشهورة القائلة بأن « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقى الاثنان حتى تلتقى الأرض والسماء يوم الدينونة عند عرش الله العظيم » .

لماذا قيل هذا الكلام ؟

لأن الاستعمار لاحظ أن أبناء الشعوب المفتوحة يحاولون أن يتعلموا علوم الغرب وفنونه وآدابه وصناعاته وسلوكياته وأساليبه فى الزراعة والتجارة والخدمات ، ويوفدون البعثات الى أوروبا وأمريكا ليقتفوا على مصادر قوة « الرجل الأبيض » ماديا ومعنويا بأمل أن تغنيهم نهضتهم عن المستعمر الذى ينهب بلادهم ويعصف بسيادتهم على أنفسهم .

وهنا أجاب الاستعمار : اياكم أن تحاولوا التشبه بنا ، فأنتم من طينة ونحن من طينة أخرى ، ومهما حاولتم فلن تصيبوا شيئا كثيرا . فالشرق شرق والغرب غرب ، والشمال شمال والجنوب جنوب ، ولن تلتقى هذه الجهات الأصلية الأربع .

أما أصحاب العنجهية العنصرية فقد دأبوا منذ فيخته وماكس مولر ورينان وماكس نورداو ونيتشه وتريتشكه وهوستون تشيمبرلين وجوينو وغيرهم من دعاة سيادة الجنس الآرى أو الجنس النوردي على بقية الأجناس بحكم تكوينه الخلقى (الجسمانى والعقلى والنفسى) ، وأخذوا يتكلمون عن

المراتب والدرجات في الرق الفطرى والانحطاط الفطرى في تصنيف البشر . أما أصحاب العنجهية الحضارية فقد اكتفوا بنسبة الرق والانحطاط بين البشر الى أثر البيئة وأثر التراث في حياة الأمم والشعوب ، ولكنهم بالغوا في ذلك حتى جعلوا بين حضارات الشعوب حوائل منيعة تحول دون اجتياز الغرباء لها واستيعابهم لمقوماتها .

وفي الحالين كان دعاة العنجهية القومية ، عنصرية كانت أم حضارية — ثقافية ، يبنون نظريتهم على تجسيم الفوارق بين البشر بدلا من تحسيم التشابه بين البشر . وبدأوا يطلقون التعميمات المطلقة على بنى الانسان : فهذه أمة روحانية وتلك أمة مادية ، وهذا شعب محارب وذاك شعب مسالم ، وهذا شعب فنان وذاك شعب عملي ، وهذا شعب قدرى أن يستسلم للجبر وذاك شعب محب للحرية سيد على مصيره ، وهذا شعب شجاع مغامر وذاك شعب قعيد خامل ، الخ .. وجعلوا من هذه الصفات أو الفضائل والذائل سجايا فطرية يتوارثها الانسان كما يتوارث لون عينيه وبشرته وطول أنفه . وكانت بداية الحديث دائما هي « الهوية » ، هوية أى شعب وكل شعب . وكان الشعار المرفوع دائما هو شعار « الأصالة » : الأصالة في الأعراق أو الأصالة في التراث .

بهذه الدعوة حاول الاستعمار أن يشيع اليأس في نفوس أبناء الشعوب المستعمرة من أن يحاولوا اللحاق بأبناء الشعوب المتقدمة . وقد نحح الاستعمار في ذلك في مرحلة ما ، ولكن هذا لم يمنع العقلاء من أبناء الأمم المحكومة من أن يقودوا أممهم اشواطاً في سبيل التحرر الوطنى والتحرر الاقتصادى والتحرر الفكرى بالثورة على « أصالتهم » المريضة التى جعلتهم فريسة للطامعين ، وباستيعاب أسباب التقدم لدى الدول الاستعمارية في العلوم والفنون والآداب والصناعات والخدمات وفي كافة وجوه الحضارة والثقافة والتنظيم السياسى والاجتماعى الغربية عن تراث الدول النامية التى نجحت نسبيا في استخلاص استقلالها من الاستعمار الغربى .

ولقد كان رد الفعل عنيفا في الدول النامية المستقلة حديثا بعد كل ماذقته من هوان ومرارة قبل الاستقلال ، فذهبت من النقيض الى النقيض . تعلمت الدول النامية من الدول الاستعمارية الكبرياء القومى ثم تعلمت منها الغطرسة القومية ، فظهرت فيها أنواع من المباهاة بل المباهلة بالعنصرية السوداء وبالحصارة السوداء نجدها كثيرا في كتابات ليوبولد سنجور التى يسميها NEGRITUDE وبين زنوج أمريكا شاعت مصطلحات مثل : BLACK POWER وتعبيرات مثل BLACK IS BEAUTIFUL ، وفي العالم العربى ازدهرت بعض الدعوات إلى العنجهية ، أنا على المستوى العنصرى وأنا آخر على المستوى الحضارى — الثقافى . وكثر الحديث عن الهوية القومية إلى درجة مرضية يمكن أن يغتفرها في رجل مجهول النسب ولكننا نعجب لها اذا جاءت من رجل كريم المتمدن . وافعل تعارض ملفق عاصف بين « الأصالة » و « المعاصرة » ، كانت أولى ضحاياها نساؤنا المتخفيات في أزياء الراهبات وشباب بيننا في عمر الزهور يطلقون لحنى الرهبان في الصحراء .

وكان هذا معنى الثورة الثقافية التى قام بها العالم الثالث في مؤتمر اليونسكو في مكسيكو سيتي عام

١٩٨٢ وباركها الأمم المتحدة عام ١٩٨٦ . فقد أسفر ذلك المؤتمر عن طائفة من القرارات كان أهمها تحقيق الغايات الأربع التالية :

- ١ — مراعاة البعد الثقافى للتنمية .
- ٢ — تأكيد الذاتيات (أى الهويات) الثقافية .
- ٣ — زيادة المشاركة فى الحياة الثقافية .
- ٤ — النهوض بالتعاون الثقافى الدولى .

هذه هى الاستراتيجية التى رسمها اليونسكو للسنوات العشر القادمة ، ونحن نسنشر فى القرن الحادى والعشرين .

ولن يختلف اثنان حول الغايات الأولى والثالثة والرابعة ، وأن كان ينبغي الحذر فى فهم بعض هذه الغايات المعلنة فى دبلوماسية حاذقة .

خذ مثلاً الغاية الأولى وهى « مراعاة البعد الثقافى للتنمية » . اذا كان المقصود منها مجرد تحذير من أن التنمية قد تعترض طريقها بعض المواقف الثقافية الاقليمية ، فهذا تشخيص صادق لفهم بعض مشاكل التنمية . ففى مجتمعات تقاوم دعوة تحديد النسل بوصفه تعطيلاً للارادة الالهية يمكن أن نفهم تحريب برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية الخ .. بسبب أمثال هذه المعتقدات أو بسبب هذا « البعد الثقافى » ، وفى مجتمعات تؤمن بأن الانسان مسير لا مخير فى كل صغيرة وكبيرة يمكن أن نفهم التسليم بالأمر الواقع فى الاقتصاد والسياسة والأوضاع الاجتماعية . أما إذا كانت « المراعاة » تعنى « القبول » وليس مجرد « الفهم » . فان هذه الدعوة تكون دعوة للتعايش مع الشر أو لليأس من الاصلاح .

وقد كنت أؤثر أن اقرأ فى بيان اليونسكو عبارة « مراعاة الذاتيات الثقافية » بمعنى « احترامها » ، بدلا من عبارة « تأكيد الذاتيات الثقافية » ، لأن كلمة « تأكيد » كلمة عدوانية تتضمن معنى المباهاة والتشاخى المفتعل . والحق أن الكلمة الأجنبية الواردة فى بيان اليونسكو ، وهى Affirmation ، لاتعنى « التأكيد » على وجه الدقة ، وإنما تعنى شيئا قريبا من « التثبيت » أو « الايجاب » أو « الاقرار » ، ولكن لأن الكلمة تتضمن أيضا « التأكيد » ، فقد اضاف البيان عبارة « بالاختيار الحر » ، لأن التاريخ البشرى عرف فترات من أكره الأفراد والجماعات على قبول هوية بعينها ، دينية كانت أو سياسية أو ثقافية .

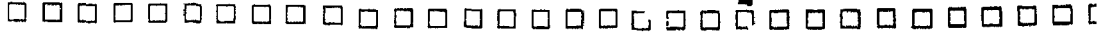
وتأكيد الهوية الثقافية فيه مشكلة كبرى وهو أنه يعمق الفوارق بين البشر ولا يعمق التشابه بينهم ، أو بلغة فريدريك ماير المدير العام لليونسكو « وهذا يعنى أنه لزام علينا أن نفعل كل مانستطيع لكى نضمن انتصار الاختلاف الخلاق على النمطية القاتلة » وهو كلام جميل ولكن باطنه سياسى موجه الى الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية والدول الاشتراكية بعامة ، على طريقة « دع مائة زهرة تتفتح » كما كان يقول ماوتسى تونج .

والمشكلة الحقيقية في هذا الكلام هي أن كل شعب يتصور أن تراثه أعظم تراث وأن هويته الثقافية والقومية هي أعظم هوية وأن دينه ولغته وعاداته وتقاليدته هي أعظم دين وأعظم لغة وأعظم عادات وأعظم تقاليد . بل وفي داخل المجتمع الواحد نجد أن الريف يستنكر ثقافة الحضر والحضر يزدرى ثقافة الريف والأغنياء يتأففون من ثقافة الفقراء والفقراء يمتنون ثقافة الأغنياء . وهكذا الحال بين المتعلمين والجهال ، والناس دائما اعداء ماجهلوا .

ومن هذا المنطلق سوف تحتل موازين القيم وتنعدم مقاييس الرقي والانحطاط ، والتقدم والتخلف ، ونساق باختيارنا الى الفخ الذى نصبه الاستعمار للشعوب النامية منذ كبلنج وهو أن حضارة الرجل الأبيض للرجل الأبيض ، أو كما كان الانجليز يعلموننا أيام الاحتلال : « ماهو دسم لرجل هو سم لرجل آخر ، فلا تحاولوا أن تكونوا مثلنا » .

من أجل هذا تجدى انظر بتحفظ واضح لتوصيات اليونسكو وقرارات الأمم المتحدة التى رسمت للعالم سياسته الثقافية فى السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين ، وأرجو أن يتبعها مزيد من المداولات لانارة ماغضى فى هذا الموضوع المعقد ولتبع اساءة استعمال هذه القرارات .

الفصل الثامن عشر



الثقافة والتنمية

عندما تفضل محمد بن عيسى وزير الشؤون الثقافية بالمملكة المغربية وأبرق لى بالدعوة للمشاركة في ندوة « أصيلة » حول موضوع « الثقافة والتنمية » تملكى شعور غريب لغرابة الطريقة التي طرحت بها قضية الثقافة والتنمية فقد افترض عنوان الندوة وجود تعارض أصيل بين الثقافة والتنمية ، وكأنما هما خصمان يتواجهان في ساحة محكمة فهذا مفهوم عبارة Culture Versus Development .

ثم تلقيت « تليكس » يطرح القضية نفسها بطريقة أشد غرابة تحت عنوان : « أية ثقافة ؟ أية تنمية ؟ وكأنما هناك بدائل عديدة من الثقافة وبدائل عديدة من التنمية يمكن أن يغى بعضها عن بعضها الآخر بدائل لو فرتها وصدقها تجعلنا نحار أمام مشكلة الاختيار .

وبهذا نكون قد قفزنا مباشرة من الأسراف في الاستبعاد الحضارى الى الأسراف في الاستبعاد الثقافى ولكننا في الحالين نجد أنفسنا بازاء تساؤلات جماعة من الباحثين عن طريق المستقبل لامهم ولاوطنهم .

وبشئ من التأمل اهتديت الى الآتى : ان من يضع الثقافة فى مواجهة التنمية انما يطرح قضية الأصالة والمعاصرة فى ثوب جديد ويطالب باعادة فتح باب الاجتهاد فيها ، إمالأن الموضوع غدا مستهلكا ، وإمالنقص الاقتناع بنتائج الحوار فيه واللجاج حوله رغم أنه كان الشغل الشاغل لمفكرى العالم العربى منذ بداية عصر النهضة فى كل بلد عربى .

وافترض التعارض بين الثقافة والتنمية قائم على تصور أن التنمية تعنى التطور والتغيير وربما اختلاف المسار كما أو كيفا معا ، وهو تصور صحيح .. والتطور والتغيير واختلاف المسار تتضمن معنى تهديد الهوية الأصلية وزعزعة مقومات الذاتية ومن هنا يبدأ الجزع والاحساس بأن كل تنمية تتضمن بالضرورة درجة من درجات هدم الذات وبالتالي فهى تتعارض مع الأصالة . وهذا تصور صورى أرسطاطاليسى لفكرة الأصالة ينقصه البعد الجدلى ، وهو مؤسس على ما يسميه المناطقة القوانين الأولية للفكر ، وهى قانون الذاتية « أى ان الشئ هو هو » وقانون عدم التناقض « أى أن الشئ لا يمكن ان يكون نفسه ونقيضه فى نفس الوقت » وقانون الوسط الممتنع « أى أن الشئ لا يمكن ان يخلو من نفسه ومن نقيضه فى نفس الوقت » وربما أضيف الى هذه القوانين الأولية قانون رابع هو قانون السببية « أى نفس السبب نفس النتيجة » .

وهذه القوانين الأولية هى قوانين الثبات النافى لكل حركة ، قوانين الخمول النافى لكل تغيير ، وهى صحيحة فى عالم مستحيل ليس فيه الا زمان واحد ومكان واحد ، عالم خال من الصيرورة عالم خال من الفعل والانفعال ، بل عالم كل ما فيه من حدود التعريف المنطقى « أى الجوهر والجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ثابت لا يتحول ولا يقبل النمو ولا التنمية .

هذا التصور لهوية المجتمع العربى أو المجتمعات العربية أن لها جوهرها واحدا ثابتا تناله عوامل الصيرورة بالتغيير أو التطور ، أو النمو أو التنمية ، أو الهدم أو البناء ، أو الحياة أو الموت ، أو التجدد أو الفناء ، هو وراء هذا التصور للتعارض بين الثقافة والتنمية . وهو ناشئ من الايمان بكمال الوجود الأول والحالة الأولى واشتمالها على كل ماتحتاج اليه الانسانية فى وجودها ومسعاها : أى الايمان بعصر ذهيبى اجتمعت فيه كل الفضائل فى السلم والحرب ، وفى الفكر والفعل ، وفى الشعر والنثر وفى الوسائل والغايات وفى العادات والتقاليد ، الخ .. وهو نوع من عبادة السلف التى تتخذ من التراث صحيحة حرب وتعد كل خروج على التراث زندقة موجبة للموت ولعل عبادة الأسلام هى أقوى عبادة بين العبادات التى عرفها تاريخ البشرية .

فطرح قضية التعارض بين الثقافة والتنمية هو فى الواقع اعادة طرح لقضية التعارض بين الأصالة والمعاصرة وهى قضية مموجة مستهلكة تتخذ منها الرجعية فى كل بلاد العالم سبيلا للبطش بالقيم الجديدة واقتلاع عوامل التحول فى المجتمع التقليدى ، وأسوأ ما فيها هو التوفيقية والتلفيقية اليسيرة التى يلجأ اليها حواة الفكر من المحافظين المستنيرين ليمسكوا العصا من وسطها فيرضوا جميع الأطراف وهم بهذا يعطلون تطور المجتمعات والثقافات لأنهم يؤجلون طرح الأسئلة الخطيرة التى يمكن أن تشعل النار فى قممات الماضى .

والمشكلة الحقيقية في المنظور الأرسطاطاليسي للكون والحياة والحقيقة أنه ليس زيفاً صراحياً رغم أنه لا ثبات بالمعنى المطلق في الكون والحياة والحقيقة . بل أن للمنظور الأرسطاطاليسي صدقه شبه التام حيث التغيير والحركة والضرورة لا متناهية في الصغر Infinitesimal بحيث لا يحسب لها حساب ، فان حسبنا لها حساباً أوقعنا في المحذور الآخر وهو تمزيق الهوية حيث الهوية متماسكة بكل معنى عملي في حدود ادراكنا الواقعي للأشياء . المحذور الآخر هو اقحام الفوضى الهيولية على قوانين التغيير المنظم .

وانما يبدأ المنظور الأرسطاطاليسي في التصدع حين تفعل ابعاد الزمان والمكان والحركة فعلها في الأشياء والأحياء فيتغير المتى والأين والكم والكيف والحال والملك والفعل والانفعال والضرورة ، حتى تتغير القاطيعوريات العشر التي قال بها أرسطو وعندئذ نحتاج الى منظور آخر لنفهم به ماطر أو يطرأ على الأشياء والأحياء من تغيير .. وهذا هو المنظور الجدلي الأفلاطوني أو الهيجلي ، أو الماركسي وهو منطق الحركة لا منطق الثبات ، منطق الضرورة لا منطق الخمول ، منطق المضمون لا منطق الشكل والصورة .

هنا يبدأ التعارض بين التنمية والثقافة التقليدية أو ما يسمى عادة بالتراث . هنا يبدأ التعارض بين الأصالة والمعاصرة ، بين القديم الميث أو الذي لا يريد أن يموت والحديد الذي يطالب بحقه الشرعي في الحياة . وحين يبلغ هذا التعارض نقطة اللا تفاهم تكون الثورات .

وفي طرح قضية التعارض أو التواجه بين الثقافة والتنمية اعتراف ضمنى بأن الثقافة عند بعض المثقفين العرب مرادفة للتراث وللثقافة التقليدية ولما يسمونه الأصالة ولكل ما تتكون منه الهوية أو الشخصية القومية ، كما أن فيه اعترافاً بالجزع من النمو والتنمية والحركة والضرورة بوصفها اعاصير يمكن أن تطيح بهذه الهوية القومية . وهذا نوع من اليأس لا يتولد الا في مجتمعات تحس بزلزال التغيير لأن التغيير فيها عاجز عن أن يعم بطريقة سلمية : شيء قريب من حال أوروبا في عصر النهضة الأوروبية أو في عصر الثورة الفرنسية وفي تقديرى أنه ليس فالا حسناً أن يطول البحث عن الذات أو عن صيغة غير ملفقة للتوفيق بين الأصالة والمعاصرة أو بين الثقافة الموروثة وثقافة العصر ، وهى شرط التنمية ولتكن لنا عظة بالهة الاولمب قبل استيلاء زيوس على عرش السماء والأرض . لقد كانوا أحد نموذجين : إما آباء يبتلعون أبناءهم ، وإما أبناء يخلصون آباءهم .

أما الطريقة الأخرى التي تطرح بها هذه القضية في هذه الندوة وهى التساؤل الكبير : « أية ثقافة ؟ أية تنمية ؟ » فهى اشد غرابة لأنها أشد ايها بوجود بدائل متعددة . هى طبعاً تطرح قضية الأصالة والمعاصرة في ثوب جديد والسؤال : « أية ثقافة ؟ » يخرج منه « أهى ثقافة الشرق ؟ » « أهى ثقافة الغرب ؟ » « أهى الثقافة القومية ؟ » « أهى الثقافة الانسانية ؟ » « أهى ثقافة الآباء ؟ » « أهى ثقافة الأبناء ؟ » « أهى ثقافة الريف ؟ » « أهى ثقافة الحضر ؟ » ونظراً لتعدد الهويات الاثنية في هذه الندوة ، فاعذرونى اذا أنا تساءلت : « أهى الثقافة العربية ؟ » « أهى الثقافة النيجرية » « أهى ثقافة أفريقيا السوداء ؟ » « أهى ثقافة البربر ؟ أهى ثقافة الشولوك والدنكا والنوير ؟ أهى ثقافة الاشانتى ؟ أهى

الثقافة السواحلية ؟ بل أستاذكم في أن أسأل : أهى الثقافة الدينية ؟ أهى الثقافة العلمانية ؟ وبعد سطوع نجم آيات الله ، من حقنا أن نسأل : أهى الثقافة السنية ؟ أهى الثقافة الشيعية ؟

وبالمثل حين نتحدث عن التنمية تكثر البدائل أيضا ، ونحن بالفعل نتساءل أين طريق السلامة ؟ أهو في التنمية الصناعية أم في التنمية الزراعية ؟ أهو في التنمية الصناعية أم في التنمية الزراعية ؟ أهو في التنمية الميكانيكية أم في تنمية الصناعات اليدوية كما يوصينا بعض الخراء الأجانب ؟ ولو استمعنا الى نفر منا لتوقفنا عن كل تنمية انتاجية وفتحنا بلادنا بازارا للسياح وعشنا على التجارة وأعمال الوساطة والفندقة وعلى الآثار والمصطافين وطلاب المتعة. والمعجبون بيننا باليابان يرون أن طريق التنمية الذى لا طريق سواه هو الدربة التكنولوجية دون أن يتأكدوا من أن معتقداتنا مشابهة لمعتقدات اليابان . وأيا كان الأمر فهناك فريق منا قد عاد يذكرنا بأن سقوطنا لم يكن الا من انحرفنا عن تراث الاسلاف أو من ابتعادنا عن الله ، وهو يرى أن التنمية الروحية وحدها هى السبيل الى انقاذنا من جحيم مأدبة الغرب ، وبالصحوة الدينية تحل كل مشاكل التنمية وقد انتهى الأمر بعد عشرات السنين من رفض نموذج الحضارة الغربية أن الفجوة بيننا وبين البلاد المتقدمة قد ازدادت جيلا بعد جيل بحيث أصبح ملؤها يمثل عبئا حقيقيا على البلاد المتخلفة والبلاد النامية .

كل هذا أت من تفتيت معنى الحضارة وتصور أن الحضارة سلة من الفاكهة عند فكهاى غشاش ننتقى منها ما نريد ونترك ما نريد. وفي تقديرى أن الحضارة، أية حضارة، كل لن يتحرأ فليست هناك صناعة من غير أمراض الصناعة وليس هناك تحرير للمرأة بدون السلبات المترتبة على تحرير المرأة ، وليست هناك ديمقراطية بدون السلبات المترتبة على الديمقراطية ، بل وفي تقديرى أن أرقى نوع من الحضارة فى أى عصر من العصور يستوعب كل ما هو ايجابى فى الحضارات السابقة ، وأنه ليس هناك شىء اسمه حضارة شرقية وحضارة غربية الا بالمعنى الاثنولوجى وانما هناك فقط حضارة أو حضارات راقية وحضارة أو حضارات متخلفة وحين تزول عقدنا نحو الغرب فنحس بأننا نحن واضعوا أساس حضارته وأهم ايجابياتها يزول هذا الرفض المدمر الذى يجعلنا نعرف كل شىء عندنا بأنه مالمس عند الآخرين .

وحدة الحضارة الانسانية لاتتفتت وتفتيتها مظهر من مظاهر الانحطاط . وحدة الحياة لاتتفتت الى روح ومادة ، فائما هما وجهان لشيء واحد . فكما أن للأرض روحا وللبحر روحا وللصحراء روحا فكذلك للاله روح. وقد كانت هذه الازدواجية سبب التمزق فى كل المجتمعات عبر التاريخ، عندنا وعندهم على حد سواء. ونحن الآن ندخل على حضارة الصناعة بمنطق المجتمع الزراعى أو مجتمع البداوة .

وفي تقديرى أن أهم ماتتميز به الحضارة منذ عصر النهضة الأوروبية الحديثة، هو تعميق الزمان والمكان وتعميق المسافات بين البشر وبين المجتمعات وبين الطبقات وبين الأوطان. فإن كانت كلمة «تعميق» الزمان والمكان والعلاقات البشرية والجغرافية .

اقصد بتعميق الزمان والمكان أو تعميقهما ان الانسان الذى عجز عن اطالة عمره أو تخليد حياته أو تجديد شبابه على الأرض عن طريق حجر الفلاسفة كما كان يحلم علماء العصور الوسطى بحسب ما تقول

التحربة الفاوستية أطال عمره ، لا بحساب السنوات ، ولكن بحساب الاعمال أو الانجازات أو الأفعال التي يحققها خلال سنوات حياته وذلك عن طريق اختراع وسائل الانتقال والنقل السريع من الدرجة الى القطار الى الباخرة الى السيارة الى الطائرة الى مكوك الفضاء . ونحن الآن نفطر في القاهرة ونتعدى في باريس أو لندن وقد كان المرء من قبل يحتاج الى ستة شهور ليقطع نفس هذه المسافة أو بتعبير آخر كان خلال ستة شهور لا يستطيع أن ينجز الا عملا واحدا ، أما الآن فهو يستطيع أن ينجز مئات الأعمال وأن يرى مئات المدن وأن يقرأ مئات الصفحات .

كذلك كان الناسخ القديم لا يستطيع أن ينسخ الا كتابا واحدا كل ستة شهور ليقراه قارىء واحد أما الآن ومنذ جوتنبرج فالمطبعة تستطيع أن تطبع في ستة شهور عشرات الكتب ، كل كتاب منها من آلاف النسخ ليقراها آلاف القراء .

كل الانسان قبل اختراع التلغراف والتليفون والصحافة والراديو والتلفزيون لا يستطيع أن يتفاهم الا مع المحيطين به ، وكان الخبر أو القرار أو الرأي يحتاج الى أيام أو أسابيع أو شهور ليصل الى دائرة واسعة ، أما اليوم فلو قتل رئيس في أمريكا أو سقطت وزارة في فرنسا أو نشبت حرب أو انتشر وباء في أقصى المعمورة عرف الناس الأمر فور وقوعه ، كذلك كان الخطيب لا يستطيع أن يخاطب الا المئات في وقت واحد ، أما الآن فقد تسمع الملايين خطابه في نفس الوقت .

كذلك قصرت المسافات بين الناس والطبقات والمجتمعات والأوطان الى حد يهدد بانتلاع الانا في الغير ، ومع ذلك فقد كانت ايجابيات هذا الابتلاع أو الغزو تتجاوز سلبياته ، لأنها عمقت معنى المجتمع المدني ثم معنى المجتمع الانساني وعمقت معهما حقوق الانسان والمؤسسات الاجتماعية التي تشرك المجتمع كله في كفالة الضمان الاجتماعي وحقوق الانسان وفي احلال الضمير الاجتماعي محل الضمير الفردي .

ومع ذلك فتعميق معنى الزمان وازالة حواجز المكان وتوطيد الروابط بين البشر هي مجرد أشكال الحضارة الانسانية الحديثة أما مضمونها فهي هذه الغايات التي تحدثنا عنها ، وأخذ الشكل لا يغني عن أخذ المضمون .

فما جدوى أن نأخذ مثلا بوسائل الاتصال الحديثة كالمطبعة والصحافة والاذاعة والتلفزيون وكل ما هو سلبي ولا سلبي اذا كنا نستخدم المطبعة لنشر الجهل بدلا من نشر العلم ونستخدم الصحافة لنشر الأكاذيب بدلا من نشر الحقائق ونستخدم الاذاعة والتلفزيون لتثبيت القيم المتخلفة وخزعبلات الماضي في عقول الجماهير وأذواقهم بدلا من تثقيفها بالقيم الراقية في الآداب والفنون والعلوم الانسانية .

ولست اقصد بهذا أن ممارساتنا الثقافية كلها شر في شر ، وانما اقصد أن من يتأملها يجد أن هامش التخلف والرجعية فيها أكبر من صلب التقدم والتنمية ويجاد أننا نأخذ الشكل أو الأداة ونهمل المضمون أو الغاية التي اخترعت الأداة الحديثة لتحقيقه . وهذا معنى فصل التكنولوجيا عن القيم .

بل نحن نباهي أحيانا بهذه الازدواجية الضارة فنعلن أن موقفنا من الحضارة الحديثة هو أن نأخذ .

ما فيها من تكنولوجيا وأن نمهل ، بل أن نقاوم ما فيها من قيم مستوردة بوصفه غزوا ثقافيا يمكن أن يزعزع قيمنا الأصيلة . نأخذ كل ما فيه راحتنا ومتعتنا المادية ونرفض كل ما يشيع فينا وفي مجتمعاتنا القلق الحضارى اللازم لتغيير المعتقدات التقليدية والأفكار البالية . نقبل السيارة والطيارة ونرفض الغاية من اختراعها . نمد يدنا للغير كل عام طلبا للمعونة ونرفض تحديد النسل بدعوى أنه مؤامرة استعمارية لاهدتنا . نتحدث كثيرا عن الدساتير وحقوق الانسان ونرفض الديمقراطية المستوردة بدعوى ان الشورى في مجتمعنا التقليدى غير ملزمة للحاكم . نؤمن بالجبر المطلق في عالم يعتز بحرية الاختيار وهكذا دواليك . هذا إذن جوهر مشكلة الثقافة والتنمية التى يكتر المثقفون من الحديث عنها فى الأيام الأخيرة سواء باسمها أو بأسماء مستعارة عديدة .

إن هذه الازدواجية فى النظر الى الفكر والحياة — هذه الازدواجية — هى التى جعلت ثقافتنا التقليدية فى كثير من الأحوال تقف حائلا بيننا وبين كل انتفاع حقيقى بالحضارة المعاصرة بل وتمثل حجر عثرة فى سبيل التنمية العلمية والتكنولوجية والمادية ذاتها . وأبسط أية على ذلك أن احساسنا بالزمن لم يتغير كثيرا عما كان عليه منذ قرون .

ليست هناك أمة يعيش نصف ابنائها القادرين نصف العام فيما يشبه الاجازة المتصلة ، ثم تأمل أن تدخل القرن الحادى والعشرين فى زمرة الانسانية المنتجة الراقية القادرة على الأخذ والعطاء .



الباب الرابع

المحاورات الناقصة

الفصل الأول

المحاورات الجديدة^(١)

مرت الآن أكثر من عشر سنوات ، على ندوة المنصورة التي انعقدت في الثالث من يونيو ١٩٦٥ لمناقشة موضوع « لقاء الثقافات » ، وعلى المؤتمر الوهمي للأدباء والفنانين الذي أسفرت عنه هذه الندوة في ردهات فندق سميراميس ، وكان جدول أعماله يدور حول قضية تحرير المرأة ، وقد كانت يومئذ موضوع الساعة : أولاً لأن المرأة نصف المجتمع الذي لا يمكن حتى لأعدائه التخلص منه مهما حاولوا والا وجدوا أنفسهم يركبون مركبا خشناً ، وثانياً لأن أحكام السيدات كانت يومئذ موضوع اهتمام الرأي العام منذ اعلان الميثاق . وكان المعلم العاشر مقرر المؤتمر ينشر مداولاته في حينها في كتابه « المحاورات الجديدة » ، أو دليل الرجل الذكي الى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الاجتماعية .

وكنا على موعد أن نلتقى في العام التالى في الدورة الثانية لنناقش موضوع « نظم الحكم » ، ولكن كبار الحوادث في وادى النيل صرفتنا عن هذا الاجتماع .

و سنة بعد سنة كانت تأتى رسائل من أدباء مصر وفنانها يطالبون فيها بعقد الدورة الثانية لمؤتمر ادباء مصر وفنانها لمناقشة موضوع نظم الحكم فكنت أحيلها الى مقرر المؤتمر وهو « المعلم العاشر » ، فيحيلها « المعلم العاشر » بدوره الى رئيس المؤتمر ، أو على الأصح نائب رئيسه وهو « صانع الأقنعة » ، وفي كل مرة كان « صانع الأقنعة » يطوى هذه

الرسائل في جيبه ويلوذ بالصمت العميق . حتى بعد ١٥ مايو وعلان الانفتاح ظل « صانع الأقنعة » يتردد ويتردد أكثر من عام حتى أحسست بالخرج من كثرة سؤال السائلين .

وأخيرا قصدت الى مكتبه في جريدة الأهرام ، ووجدت عنده كالعادة « المعلم العاشر » و « السندباد الجديد » و « الحرفوش بلا حرفشة » ثم انضم اليها « ذو الأقنعة السبعة » و « الذائق الموضوعي » ، وتداولنا طويلا فيما ينبغي عمله لاسكات الأدباء والفنانين .

قلت : يا « صانع الأقنعة » ، أنت وحدك تستطيع أن تريح أدباء مصر وفنانها من هذا القلق الذى ينهشهم . الكل يطالب منذ ١٥ مايو بعقد الدورة الثانية لمؤتمر الأدباء والفنانين وأنت تسوف وتسوف . والكل يطالب بأن يكون جدول أعمال المؤتمر موضوع « نظام الحكم » ، فلماذا لا تدعوهم لعقد هذا المؤتمر وتدخل السكنية الى نفوسهم !

قال « صانع الأقنعة » وهو يعبث بعصاه وأنا ويعوج البيريه على رأسه أنا آخر ! هل تظن حقاً أن الوقت مناسب !

وفى الواقع لم يكن « صانع الأقنعة » يوجه الى بالذات هذا السؤال الموجه الى جميع الحاضرين . وارتفعت الصيحات من كل جانب : الوقت مناسب ! الوقت مناسب ! وخيل الى أنى سمعت أصداً تتجاوب لهذه العبارة من كل مكان : من نقابة الصحفيين ومن جمعية الأدباء ومن قهوة ريش ومن قهوة لابس ومن نادى الاتيليه . حتى نادى السيارات ونادى سليمان باشا ونادى الجزيرة والبيرة والأهلى والسهلى والزمالك والشفالك والشمس والأمس والصيد والبيض والمعادى والزبادى والثقافى والعوافى والتجديف والتصنيف ، كلها جاءت منها الأصداً بعيدة ولكنها واضحة تقول : الوقت مناسب ! الوقت المناسب ! ثم خيل الى أن الأصداً تأتى أيضا من المصانع والجوامع ومن المدارس والكنائس ومن الشوارع والمزارع ، حتى امتلأ رأسى بلفظ هائج مائج ، وأمسكت برأسى حتى لا ينفجر .

قلت : هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

أجاب « صانع الاقنعة » وقد مسه بعض ما مسنى : نعم أسمع . حتى الحمير تنهق فى الطريق : الوقت مناسب ! الوقت مناسب !

قال السندباد الجديد : الان وقد مات الفوهرر فلا رقيب ، لا رقيب .

وأمن الحرفوش بلا حرفشة على كلامه بقوله : الان وبعد ١٥ مايو كل شئ ممكن

وارد ذو الاقنعة السبعة : نعم ، نعم ، هذه فرصة العمر . لم تعد هناك شرائط . هيا ، هيا ، فلندع الى عقد المؤتمر ليناقد نظم الحكم ، أما الذائق الموضوعي ، وقد كان قليل الكلام ، فقد أطرق مليا ومليا .

الوحيد الذى بدت عليه الكآبة كان « المعلم العاشر » .

قال « المعلم العاشر » : مهلا أيها السادة لن يكون جدول أعمال المؤتمر هو البحث في نظام الحكم ، وإنما البحث في نظم الحكم .

قلت : ولماذا ؟

قال : قبل البحث في نظام الحكم يجب أولاً أن نعرف شيئاً عن نظم الحكم ، وبعد أن نعرف ما هي نظم الحكم يمكن بعدئذ أن تبحث في نظام الحكم القائم عندنا : ما هو وماذا ينبغي أن يكون .

قلت : اليس هذا تفلسفا بلا داع ، أى ولا مؤاخذه ، سفسطة ؟

وتدخل الذائق في الموضوع قائلاً : كلا . « المعلم العاشر » على حق . المنهج يقضى بأن نبداً بالعام ثم ندخل في الخاص ، أن نبداً بالكليات ثم ندخل في الجزئيات . أنتم نسيم أننا منذ عشرين سنة ، أى منذ ثورة ١٩٥٢ لم نتعلم الا نظاماً واحداً حتى نسينا بقية النظم ، بل حتى نسينا أن في العالم نظاماً أخرى . ثم كيف نستطيع توصيف نظام الحكم وتعريفه والحكم عليه قبل أن نعرف غيره من النظم ؟ نحن نعرف أن الابيض أبيض فقط اذا عرفنا الاسود ، ولا نعرف أن الخير خير الا اذا عرفنا الشر ، ولا نعرف ان اللذة لذة الا اذا ذقنا الالم . فما بالنا والالوان كثيرة منها الابيض والاسود والاحمر والاصفر والازرق والاخضر والبنى وبقية الوان الطيف وما تتركب من ألوان الطيف مثل البننى والبنى والاشهب والرمادى والفيروزى والزمردى والقرمزى والياقوتى والعقيقى والبنفسجى والوردى والبرتقالى والقمحي والذهبي والفضي والماسى والرصاصى الخ .

ونحن منذ ١٩٥٢ قد تعودنا أن نرى كل شىء إما ابيض وإما أسود ، ولا نرى من الاتجاهات الا اليمين واليسار ولا نرى من الحركات الا الرجعية والتقدمية .

أضاف الذائق الموضوعى : ثم لا تنسوا أيها السادة مشكلة المصطلحات ، أى معانى الكلمات ، ففي السودان مثلاً يسمون الاسود أزرق ، وحين يقولون النيل الأزرق انما يقصدون الاسود ، اى الحمل بالطمى الاسود ، وبهذا يميزونه عن النيل الابيض الخالى من الطمى . والفلاحون في مصر عندما يقولون : نهارك أزرق ، وهى شتمة ، انما يقصدون : نهارك أسود ! وقد سمعتم في السودان يقسمون الوان البشر الى « أزرق » ، وهو ما نسميه في مصر الاسود الغطيس مثل قبائل الدنكا والشولوك والنوير في أعلى النيل ، والى « أخضر » ، وهو ما نسميه نحن « أسمر » كلون النوبيين ، والى « أصفر » ، وهو الاسمر الفاتح أو ما نسميه نحن « قمحى » ، والى « أحمر » وهو لون الانسان الابيض كالخواجات . وهكذا نحن نسمى الاوروبى « الرجل الابيض » بينما السودانيون يسمونه « الرجل الاحمر » ، كالانجليز مثلاً ، والاعلم أن الحمرة جاءت للانجليز من كثرة شرب الويسكى . وأنا مثلاً عندهم أحمر رغم أنى لا أشرب الويسكى ، وهو أمر محير حقاً ، ثم أنى رأيت في أمريكا الهنود الحمر وتفرست فيهم جيداً فلم أر أحداً منهم أحمر اللون ، وكلما تفحصت وجوه الصينيين واليابانيين عجت لماذا يسميهم الخواجات « الجنس الاصفر » . كل هذا مبين في كتابى عن « الوضعية المنطقية » .

فالمشكلة اذن ...

وانعقدت حواجب الحاضرين من فرط الدهشة فقد تعودوا أن يجدوا « الذائق الموضوعى » شحيحا فى الكلام ، وذهلوا من تدفقه وحماسة فى الشرح العلمى . وكانت خولة المايسطرية تقف بباب « صانع لاقعة » طول الوقت وتسمع كل هذا الكلام دون أن يحس بها أحد .

وفجأة دخلت مقاطعة : وما جدوى كل هذا الكلام ؟ الذائق الموضوعى يحسب نفسه فى محاضرة . ادخل فى الموضوع .

أجاب الذائق الموضوعى فى حدة : بل فيه جدوى كل الجدوى . فعندنا كتاب مثل « أبو سنة دهب لولى » و « أبو الفتوح الصباح » و « المجاهد بن الشماخ » وحضرتك وغيركم وغيركم تسمون كل من ليس أبيض ، أقصد من ليس أسود ، تسمونه أحمر ، وكل من ليس يمينيا تسمونه شيوعيا ، وكل من ليس رجعيا كافرا ، وهذا ينشر البلبلة وينشر الدموية بين المصريين . نعم ، لابد من تحديد المصطلحات .

قال : « صانع الاقعة » ، يبدو ان الامر يدعو فعلا الى عقد مؤتمر للكتاب والفنانين لمناقشة نظام الحكم — أقصد نظم الحكم — بعد عشر سنوات من تجنب الحوار . فليكن . وسأوزع على اعضاء المؤتمر كتابى « عودة الوعى » كورقة عمل تكون أساسا للمناقشة .

وظهر الامتعاض على وجوه وظهرت الهجة على وجوه أخرى ، وزام « المعلم العاشر » وهمهم وبرطم قائلا بصوت نصف مسموع : هذا استغلال للنفوذ . « صانع الاقعة » يريد أن يفرض علينا كتابه بوصفه رئيسا للمؤتمر .

وسمعه « صانع الاقعة » فقال فى الم واضح : أنا مستعد لان اتحدى .

فصاح الجميع بصوت واحد : لا يمكن ، لا يمكن .

قال « المعلم العاشر » : هل تسمح بعرض الامر على اعضاء مؤتمر الادباء والفنانين فى الجلسة الأولى ليتخذوا قرارهم فى جدول الاعمال ؟

اجاب « صانع الاقعة » : بكل سرور هذه منتهى الديمقراطية . ولكن عندى سؤال . أنت وزعت أقنعة على الادباء والفنانين فى مؤتمرهم الاول ، فهل اشتكى أحد من قناعه ؟

قال المعلم العاشر : طبعا كثيرون ، لانها اقنعة بعضها شفاف وبعضها ردىء الصنع ، ولكن أنت المسئول . فقد تخلّيت عنا ورفضت صناعة الاقعة للكتاب والفنانين حتى لا تغضب احدا .

قال « صانع الاقعة » : ولمن سأوجه الدعوة ؟

قال « المعلم العاشر » : غير مجموعة الحاضرين أنت تذكر الباقيين : على الزيبك الجوكمى الشهير بالزنبرك والايديولوجى الفهلوى وأبو سنة دهب لولى وأبو الفتوح الصباح والمجاهد بن الشماخ وشجرة

اللولى والماركسية المستسخة وعبد الحافظ خطة والفارس المتعالى وأبو سيفين صفيح وتاجر البهارات ويقال العروبة ويقال الاشتراكية ويقال الثقافة وابن عروس والمخلص الكفاء والمخلص الراسى وكافور الحاوى وأغا كافور الحاوى والقط الأسود الأليف وكاهن أنوبيس والمملوك الشارد وجراب اليسار مسلول وافندم ؟ أفندم ؟ وجوركى المذعور وحلاق الملوك والأمراء ولولو الجربان وعلى كل لون مفتري وعلى كل لون عياش وعلى كل لون غلبان وابن قرمط وسالم سليم سلامة النقشبندى وابن ماركوف والخشداش ايواظ ومعد وایاس وأغا طبوزادة وصى النقاش وصبى الزمار وصبى القرداقى وصبى الادباقى وابن روزنبرج وأبو شوشة حمى وأبو المعالى قطز والمتكتكين الاربعة .

قال « صانع الاقنعة » : طبعاً اذكرهم ، ولكن أين الباقون ؟

اجاب « المعلم العاشر » : أنت تعلم ان عشر سنوات مرت منذ تجمهرنا الاخير ليست بالشيء القليل ، وقد مرت فيها مياه كثيرة تحت كوبرى قصر النيل ، فالمعلم التاسع توفاه الله وكذلك عز الدين ايدمر الحيوى وناظر مدرسة ابن العميد وخليع القبيلة وبازرعة بن شخيوط كلهم ماتوا .

قال « صانع الاقنعة » دون أى أسف واضح وفي صوت روتينى : رحمهم الله . لا تنس أن تذكرنى فى الجلسة الأولى ان ادعو الحاضرين للوقوف تسع دقائق حدادا على المعلم التاسع ودقيقة واحدة على كل الباقين .

قال « المعلم العاشر » : ماذا تفعل بدنائير ؟ كم دقيقة نقف ؟

وبدت الحيرة على وجه « صانع الاقنعة » ولم يدر بم يجب الا أن تتم : كم ؟ كم ؟

قال « المعلم العاشر » : وجدت المخرج ! لقد كانت جنازتها مثل جنازة الفوهرر . ولا دقيقة . سنقول أن الشعب المصرى كله والامة العربية كلها وقفت عليها حدادا فلا داعى لتكرار الحداد على مؤسسة قومية .

قال « صانع الاقنعة » : هذا حل أعرج . دعنى أفكر . ولكن اين الباقون ممن كانت أصواتهم تجلجل فى المؤتمر الأول ؟

أجاب « المعلم العاشر » : مشتتون منذ سنوات فى أطراف الارض ، لا هم مهاجرون ولا هم مقيمون . ابن سيركوف وأبو فراس المنوفى فى باريس ، والفارس المفروس فى الهند ، وعميد الصعاليك فى أبى ظبى ويقال العروبة فى بغداد وحلاق الملوك والأمراء فى الجزائر والخشداش ايواظ فى السعودية وحامل الحقائق فى بيروت . وهكذا وهكذا . كل هؤلاء يمكن أن يشاركوا فى مداوات المؤتمر بارسال التقارير . ولكن الاحظر من كل هذا ان وباء سيناء قد قذف على مصر جعارين كثيرة من الصحراء الشرقية ، هذا غير العقارب والحيات . فما العمل ؟

قال « صانع الاقنعة » : نعم وكلهم يطنون كالزناير بالكلام حول نظم الحكم . لا بأس .

ستصنع لهم أقنعة كما صنعت للآخرين من قبلهم . وجه لهم الدعوة أيضا ما دام في مصر انفتاح ومنابر . اعطهم منبرا . ومع كل بطاقة دعوة أيها المقرر العزيز ، أرسل نسخة من لائحة الاجراءات لتذكر الادباء والفنانين بقواعدنا الذهبية في المداولات . الابتسام ثم الابتسام ثم الابتسام . اضرب اللكمات في ابتسام . تلقى اللكمات في ابتسام . ممنوع الضرب تحت الحزام . ممنوع التهريج أو الهزل للهزل لان كل كلامنا سيكون جدا في جد ، ولكن في ابتسام . أكد لهم حكاية الابتسام هذه لان الكلام في نظم الحكم كلام سائل ، ثم ان الصيف يدهمنا بسرعة سريعة . أما مكان الاجتماع فهو في موقف السيارات بميدان الاوبرا حيث كان للمثقفين مجد تليد ، ولو أدى الامر أن تجلو السيارات من الموقف — بدون اذن محافظة القاهرة .. ■

الفصل الثاني

الكباش والسياسة^(١)

وهكذا ما مر شهر على قرار « صانع الاقعة » بعقد المؤتمر الوهمي الثاني للأدباء والفنانين بجمهورية مصر حتى كان « المعلم العاشر » وهو مقرر المؤتمر ، قد أعد لكل شيء عدته فدعا كل أعضاء اتحاد الكتاب وكل أعضاء نقابات المهن التشكيلية والتمثيلية والتمزيكية والتحريكية الخ .. باختصار كل رعايا ربات الفنون التسع بما فيهن كليون . ربة التاريخ رعم أن التاريخ قد أصبح علما لافنا بوصفهم أعضاء اصليين ، ودعا من أراد الحضور من نقابات المحامين والمعلمين والمشرعين والاقتصاديين والروحانيين بوصفهم أعضاء مراقبين لهم حق الكلام ، لأن موضوع المؤتمر واسع وعميق ويمس كل المواطنين ، وما هذا الموضوع الا البحث في نظم الحكم .. وكان كل ذلك بمجرد اكتشاف نظرية « المنابر » . ثم نشر مقرر المؤتمر اعلانا على خمسة أعمدة بجميع اللغات الحية والمنقرضة في كافة صحف العالم الحديث والوسيط والقديم ، بحجم اعلانات الرئيس كيم ايل سونج ، يناشد كل عارف بنظم الحكم أو ذى رأى فيها أن يتحف المؤتمر بآرائه . وهكذا بلغ عدد المدعويين آلاف مؤلفة . ومع ذلك لم يحضر في كل مرة الا المئات .

وقبل نهاية الشهر كان مقرر المؤتمر قد أقنع محافظة القاهرة وبلديتها وإدارة المرور بها ان تجلى كل السيارات الواقفة في موقف سيارات الاوبرا ، فمن جلا بالحسنى جلا ، ومن لم يحل بالحسنى أجلى بالوينشات ، وتبرع

« المقاولون العرب » بتسوير موقع الاوبرا القديم بألواح خشبية جسيمة بارتفاع عشرة أمتار ، وباقامة المنصات وتثبيت المقاعد وتركيب الميكروفونات وكافة أجهزة الاستماع والتسجيل ، الخ .. واستردوا قيمة التبرع من ملصقات أفلام « السيقان العارية » و « غابة من السيقان » و « ثمن الخطيئة » و « من أجل حفنة من النساء » و « هذا أريده وهذا أحبه » و « مراهقة من الارياض » و « نساء تحت الطبع » و « احترسى من الرجال يا ماما » و « الو .. الو .. أنا القطة » و « ليتنى ما عرفت الحب » و « عرام المراهقات » و « العاشقات » .

وكانت هناك مشكلتان :

فقد اعترض بعض الادباء على وجود الرقاصين والنقاشين واللاتية والمشخصاتية من حيث المدأ في مؤتمر دائر حول نظم الحكم قائلين أن عباس الاول طرد رفاة الطهنطاوى وأغلق الوقائع المصرية عندما اكتشف ان قراءها من طبقة موسى أفندى الالاتى . ولكن « صانع الاقنعة » أحمد الفتنة بأن أصر على أن نظم الحكم هي التي تقرر نسبة اهتمام المجتمع والدولة برقص البجع وبرقص الشمعدان ، وتقرر أيضا كم كليتمنسترا وفيدرا وليدى ماكبت يخطر على المسرح مقابل كم شفيقة القبطية وزوبة الكلوباتية وسنية جنح ، وبذلك حسم هذا الموضوع الملتهب ، حسمه فقط من حيث الشكل .

كذلك طالب بعض الادباء والفنانين بأن يكون تمثيل العمال والفلاحين في المؤتمر بنسبة ٥٠ ٪ وفقا للمعمول به منذ اعلان الميثاق ، وطعنوا بعدم دستورية أية توصية يتخذها المؤتمر اذا لم يتوفر النصاب من البلد والععم والطواق واللاسات [الغريب ان احدا لم يذكر شيئا عن العفاريات وعن المناديل بقوية وعن الملايات اللف] . وتكونت جبهة من ابن عروس وتاجر الفولكلور وقباني الفولكلور وسريح الفولكلور وذهبوا الى « صانع الاقنعة » مطالبين بحضور متقال أحمد متقال والحاجة حضرة وغيرهما في المؤتمر ، فسألهم « صانع الاقنعة » سؤالا بسيطا اختلفوا في الاجابة عليه وهو :

هل تسمون فولكلورا ياخوخ خانونا الحبايب واحنا لم خنا » و « تحت الشجريا وهية » و « الطشت قال لى » و « السح الدح أمبو » ؟ وهنا نشبت معركة الفولكلور ، فقال « صانع الاقنعة » : عندما تتفقون على شئ أنا تحت أمركم ادعوا من تشاءون ، وبهذا حل المشكلة .

غير هذا لم تحدث مشاكل الا أنه نظرا لكثرة الحاضرين اتفقوا على الا يشترك في المداولات الا ١٢ ممثلا عن ١٢ إتجاها ، مع حق الكلام الموجز لكل الحاضرين ومع حق الاستعانة بالخبراء الاجانب والمصريين الموقى منهم والاحياء . ووزع « المعلم العاشر » على الحاضرين كراسة « عودة الوعى » والاوراق والاقلام ونسخا من لائحة اجراءات المؤتمر .

قال « صانع الاقنعة » : هل تقبلون « عودة الوعى » كورقة العمل الاساسية في المؤتمر ؟

قال « المعلم العاشر » :

— سيدى الرئيس بكل احترام ، لو أننا ابتدأنا مداولاتنا بمناقشة « عودة الوعى » لوضعنا العربية أمام الحصان ، لان كراسة سيدى الرئيس قد بتت سلفا فى نظم الحكم وفى نظام الحكم ، وهذا ما جئنا لنناقشه بعد جمع المعلومات الكافية عنه . أنا أقترح أن تكون مناقشة « عودة الوعى » فى الجلسة الختامية بعد تقصى كل الحقائق . هل نطرح الامر للتصويت ؟

وخشى « صانع الافعة » أن يرفض كتابه بالثلث ، وهو نوع من الحرص ، فقال : اذن سحبت كتابى مؤقتا . تفضل واقرأ جدول الاعمال .

وقال « المعلم العاشر » : نظم الحكم الرئيسية معروفة من عصر اليونان وهى حكم الملكية والطغيان والارستقراطية والاوليخارخية والديمقراطية والثيوقراطية والبلوتوقراطية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية . والقضية المطروحة أمامكم هى بأيها نبدأ ؟ فهناك مشكلة : ايها أسبق تاريخيا الملكية التى كان اليونان يسمونها « المونارخية » أم الطغيانية التى كان اليونان يسمونها « التيرانية » ؟

مجاهد بن الشماخ : ما هذا الكلام الفارغ ؟ رجعنا لكلام الخراجات ؟ هذه دسيصة من صصى المبشرين . نبدأ بالاسماء المستوردة وننتهى بالافكار المستوردة . ولماذا هذه المونارخية والاوليخارخية والملوخية ؟ ثم لماذا هذه السقراطية والابوقراطية والبيروقراطية ؟ لماذا لا نقول مثلا « الدين دولة » بدلا من أن نقول « الثيوقراطية » ؟

ثم لماذا اليونان أصلا ؟

بقال العروبة : لماذا لا نبدأ بالعرب وننتهى بالعرب ؟

كاهن انوبيس : ولماذا العرب ؟ لماذا لا نبدأ بالتحامسة والرعامسة وننتهى حيث انتهوا ؟

المعلم العاشر : المشكلة هى ..

مجاهد بن الشماخ : المشكلة فى يافوخك وحدك . ليست هناك مشكلة .

صانع الافعة : هذب الفاظك يا مجاهد يا شماخ ، دعه يطرح القضية .

المعلم العاشر : المشكلة هى أن كل نظم الحكم كانت فعلا معروفة قبل اليونان وغالبا كانت لها أسماء ، فحيث هناك مدلول فى الاغلب ان لهذا المدلول اسماء

الذائق الموضوعى : هذا غير صحيح فنحن فى الفلسفة نعرف أن هناك مدلولات بغير أسماء واسماء بغير مدلولات والاكثر شيوعا من كل هذا وجود أسماء على مدلولات غير مدلولاتها .

المعلم العاشر : أنا مع مجاهد بن الشماخ وبقال العروبة وكاهن انوبيس فى أن اليونان ليسوا البداية ولا النهاية فى نظم الحكم وأن العرب والفراعنة والاشوريين والبابليين والفينيقيين لغاية السومريين الخ ..

كانت عندهم نظم حكم بغير شك ، بل وعرفوا نظما متعددة من الحكم ، ولكن المشكلة أن اسماءها غير معروفة لدينا ، أو على الاقل غير معروفة بوضوح .

المجاهد بن الشماخ : كيف تقول غير معروفة بوضوح يا مخمور . ألم تقرأ أو حتى تسمع أن حزب الله هزم الاحزاب وحده ؟ معنى هذا ان مكة والجزيرة العربية في القرن الاول الهجرى كانت بها عدة أحزاب ، فالاحزاب جمع ، والحزب مفرد .

المعلم العاشر : طبعاً قرأت هذا ، واعرف ان احد هذه الاحزاب كان يسمى « اشراف مكة » وهو يدل على أن مكة كان بها حزب ارسقراطى حاكم وأن نظام الحكم فيها كان نظاما ارسقراطيا . ولكن — كما تقول — كلمة « أحزاب » في صيغة الجمع ، فماذا كانت اسماء بقية الاحزاب ؟ طبعاً نحن نعرف أيضاً أن اليهود قاتلوا النبي ، فلنقل ايضا انه كان هناك حزب آخر غير اشراف مكة هو « حزب اليهود » بنظامهم اليهودى ، وهكذا ، أما غير ذلك فالمؤرخون الاسلاميون لم يهتموا الا بمحصر أسماء القبائل والعشائر التى قتلت المسلمين الاوائل وحاولت اجهاض الدعوة الاسلامية فهل هذه القبائل هى « الاحزاب » ؟ ربما بمعنى أنها كونت « ربطيات » ضد المسلمين . ولكنى شخصيا كنت أتمنى أن يخصص المؤرخون وقتا أطول لاستقصاء نظم الحكم التى كانت تمارسها هذه الأحزاب والقبائل ووجدت في الاسلام ما يشكل خطرا عليها فهاجت عليه عند ظهوره . نفس الامر بالنسبة لمصر القديمة .

صانع الاقتعة : أقترح تأجيل هذا البحث الى أن يأتى حينه ، وسوف يأتى فعلا . أقترح أن نبدأ باليونان كما بدأ « المعلم العاشر » ، لسبب بسيط ، هو وضوح النظم والمذاهب السياسية والاجتماعية عند اليونان نظريا وعمليا . هل توافقون ؟ تكلموا برفع الايدى وليس بالهيفة ، لنكون جديرين باليونان .

موافقون [بالأيدى] ..

صانع الاقتعة : كذلك أدعو مجاهدا بن الشماخ وأبا الفتوح الصباح ، ومن رأى أن يعاونهما ، الى وضع تقرير لنا عن نظم الحكم عند العرب قبل الاسلام وبعده . موافقون ؟

موافقون [بالأيدى]

صانع الاقتعة : استمر يا حضرة المقرر .

المعلم العاشر : قلت ان المشكلة تبدأ حين نفكر : هل نبدأ بنظام الحكم الملكى أو بنظام حكم الطغاة ، أيهما أسبق ؟

أبو الفتوح الصباح : الملوك والطغاة شيء واحد : « ان الملوك اذا دخلوا قرية ... »

المعلم العاشر : هذا صحيح ، ولهذا ألغينا الملكية في مصر ، ولهذا قامت الجمهوريات في العالم . ولكن لنصل الى هذا الحكم النهائي ، فنحن بحاجة لتوثيقه بالبحث التاريخى . في تجربة اليونان بدأ الحكم

بالمملك ، ثم جاء بعدهم الارستقراط ثم الطغاة ، أما الديمقراطية فشئ متأخر نسبيا . هل نبدأ بالمملكة ؟

الايدولوجى الفهلوى : أنا معترض على هذا النهج من أساسه هناك مرحلة هامة تجاهلها « المعلم العاشر » ، هى مرحلة ما قبل التاريخ ، كان فيها نظام هام من نظم الحكم لابد من مناقشته .

صانع الأقنعة : وكيف عرفت هذا فالتاريخ يبدأ بعصر التدوين أى باختراع الكتابة ونقشها على مواد غير قابلة للتلف . وعصر ما قبل التاريخ لم تبق منه كتابة . فكيف عرفت بوجود هذا النظام ؟ .

الايدولوجى الفهلوى : وهل هذا بحاجة الى معرفة ؟ انه النظام الذى تقوم عليه طبيعة الأشياء . وهو مع أنه أقدم نظام سياسى واجتماعى واقرب النظم الى الفطرة لا يزال يطل برأسه من عصر لعصر رغم تقدم المدنية . ولأن ابن خلدون ومونتسكيو ودور كهايم وبرودون وسبنسر وجوستاف لوبون لم يعنوا بأن يجدوا له اسما فاسمحو الى أن أسميه مؤقتا « نظام الحكم الكبشى » .

وهنا ارتفعت من المؤثرين غاغة عظمت حتى أوشك « صانع الأقنعة » أن يفقد السيطرة على النظام فى الجلسة وتعال أصوات استنكار تقول : ماهذا ؟ ماهذا ؟

وسخسخت « الماركسية المسخسخة » كأن شيئا دغدغها، وهللت النساء الأدبيات والفنانات بوجه عام ، لان حديث الكباش ذكرهن بحديث التيوس وما كان للتيوس من مقام خاص فى اليونان القديمة ، كما ان للنعاج مقاما خاصا فى مصر الحديثة ، وانفجرت اسارير « كاهن انوبيس » لان هذا ذكره بطريق الكباش وبما قرأه فى الدكتور أحمد بدوى عن مآثر الاله الكبش خنوم رب الغنم على خصوبة الذكور والاناث .

وسأل « صانع الاقنعة » :

— ماذا تقصد بالضبط ؟

الايدولوجى الفهلوى : اذا قاطعنى أحد .

صانع الاقنعة : لن يقاطعك أحد . تفضل .

الايدولوجى الفهلوى : اقصد ببساطة ان أى نظام حكم معناه وجود حاكم ومحكومين أو قائد ومقودين . وفى مجتمع الغنم نجد أن قائد القطيع دائما كبش مهول مرهوب ذو قرنين مهولين مرهوين .

هذا الكبش لا أظن ان مجتمع الخراف والنعاج انتخبه أو استفتى عليه ، وان كان جهلنا بلغة الغنم يجعل من المستحيل القطع بشئ ، فكما أن للطير لغة فلا بد أن للغنم لغة وللحمير لغة وللكلاب لغة الخ .. وهذا يعقد الامور . ومع ذلك فالأرجح أن تصدى افخم الكباش واقواها لقيادة قطيعه تتم بعملية السيطرة البسيطة وليس عن طريق التفاهم وذلك بسبب تميز هذا الكبش الرئيس بصفات حسمانية وقدرات اقتحامية وذكورية وفحولية خاصة لا اراها نحن ولكن مجتمع الخراف يحس بها ويتعرف عليها

بالسليقة ، وربما تتجلى هذه الصفات القيادية درجة درجة عن طريق اختبارات قوة مع الكباش الاخرى يتربع بعدها الكباش القائد على رأس القطيع .

وكون القطيع يتبع قائده دون مناقشة أو تردد يدل ضمنا على ما يتمتع به الكباش القائد من ثقة رعيته المطلقة في قيادته ولو قادهم للغرق في النهر كما فعل كباش بنورج في كتاب رابليه . كل هذا يحدث في الطبيعة دون أى المام بعلم السياسة أو بالنظم والمذاهب فالكباش لم تقرأ كتاب « الأمير » لماكيا فيللى . وما دام الكباش الزعيم لم يصل الى الصدارة بعملية الانتخاب أو التفويض المألوفة في قولنا ان الامة مصدر السلطات والشعب مصدر التفويض الخ .. فمعنى هذا ان الكباش القائد يمارس زعامته بالحق الالهى وليس بالحق الطبيعى ، أو لعله مثل القائد بولنجبروك في مواجهة ريتشارد الثانى ظل الله على الارض عند شكسبير ليس في وجهه ضياء الملك ولكن يده على مقبض سيفه تعطيه الحق في خلع الملك والاستيلاء على عرش انجلترا . ونظير هذا عندنا هو حكاية سيف المعز وذهبه الشهيرة في تاريخنا .

وفي رأى البعض ان هذا هو جوهر نظرية الحق الطبيعى ، ولكنى اجد امرامحيرا لان الرياسة بقوة القرن أو بقوة السيف — لا بوراة ظل الله على الارض — اشبه شىء بالحق الطبيعى الممنوح من الالهة .

ارجوكم ان تهتموا بحكاية الكباش هذه لانها جوهر الفكر السياسى والاجتماعى عبر القرون ، ولا يمكن تجنبها لانها تتكرر في عصور مختلفة كلما ظهر الاسكندر دو القرنين أو يوليوس قيصر أو هولاكو أو جنكيزخان أو نابليون أو هتلر . نفس الظاهرة نجدها عند الملكة في مجتمع النحل وعند العملة الكبرى في مجتمع النمل .

وانا شخصا معتاد دائما كلما التقيت برئيس في مصلحة أو مؤسسة أو لجنة أن أتوهم كباشا واتفحص جبينه جيدا لارى ان كانت عليه بقعتان متخلفتان عن قرنين اقرضا لكى اكتشف لماذا وصل — هذا القائد — الى مركزه القيادى وفي احيان قليلة جدا يخيل الى انى ارى البقعتين ، ولكن الحزن والمفرح معا في مصر ان اكثر القياديين فيها ليسوا كباشا وليست فيهم اية صفات كبشية ، وبالتالي يتعذر على الناس تفسير وصولهم الى المراكز القيادية . ولهذا نجدهم بمجرد طردهم من مراكزهم أو احالتهم الى المعاش ينساهم الناس ولا يبقى منهم حتى أثر بعد عين . ثم أن ..

ورأى « صانع الاقنعة » اكثر من في القاعة يتشاءب ومنهم من غلبه النعاس فتدخل مقاطعا :

صانع الاقنعة : الايديولوجى الفهلوى اطلال وأمل . أنا طبعا أرى بعض الوجه فيما تقول يا ايديولوجى يا فهلوى واستطيع ان اربطه بكلام افلاطون وارسطو في حكم الصفوة ، ولكن هل نحن بحاجة حقا الى الاستشهاد بمملكة الحيوان ونحن نناقش المجتمعات البشرية ؟ أرى أن الكل مجهود فاستاذنك وأستاذنكم في رفع الجلسة ، فالى الاجتماع القادم ، وأرجو أن تساعدوا « المعلم العاشر » بعدم الاستطراد حتى ننجز شيئا من جدول الاعمال . وجدول الاعمال سيكون عن المونارخية والارستقراطية والثيرانية أى عن الملكية وحكم النبلاء وحكم الطغاة أما النظام الكبشنى فمؤجل مؤقتا .

وأنت يا معلم يا عاشر ، مادمت ستتكلم عن نظم الحكم عند اليونان فلا داعي للاعتقاد على الذاكرة .
يمكنك أن تصطحب معك أى خبير يقبله المؤتمر ليدلى أمامه بعلمه : ييورى أو مرمسون أو روستو
فتسيف .

مجاهد بن الشماخ : أو أى عفريت أزرق من أولئك الخواجات الملاعين .

صانع الاقنعة : رفعت الجلسة .

الفصل الثالث

التاج والصولجان^(١)

عندما افتتحت الجلسة الثالثة من الدورة الثانية للمؤتمر الوهمي للادباء والفنانين سمع الحاضرون لغطا عاليا بالمدخل انتهى الى شحان صاحب بين عشرة من علماء اليونانيات من مختلف الجنسيات والاعمار والعصور ، وكاد الشحان يصل الى حد التضارب بالأيدي ، وتطايرت في الهواء عبارات مثل « سكاتاموتروس » و « سكاتا في عينك » وكان بعض الادباء الحاضرين يعرفون بعض الكلمات اليونانية ففهموا أن الشتام وصلت الى حد البذاءة وسب الابهاء والامهات وما هو أكثر فاهابوا برئيس المؤتمر أن يتدخل ليفض هذا النزاع . فأمر « صانع الاقنعة » بدخول العلماء العشرة وصرخ فيهم قائلا : « هس » ، « من أنتم ؟ » . ماذا تريدون ؟ » .

وارتاح الحاضرون عندما شاهدوا اشباح العلامات [جمع العلامة] بيوري وجلوتز وجلبرت مري وشبرد وروسوتوفتسيف وموسن وابراهيم نصحي وصقر خفاجه ترغى وتزبد وبعضهم يشد شبح العلامة جوجيه من شعره ، وسمعوا شبح الكركوبة جين هاريسون يردح للجميع بصوت مسروع وبلهجة اتيكية خالصة ، وفي هذه الزحمة رأوا الدكاترة محمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد على يحاولان شنكلة الاشباح المتزاحمة ليمرقا قبل الآخرين . وعند زئير « صانع الاقنعة » صمت الكل فجأة ، وتقدم الدكتور عبد اللطيف أحمد على الى المنصة وقال وهو يفرك يديه في حليطة ظاهرة :

— كالْمِيرا ياسيدى الرئيس :

فاجاب « صانع الاقنعة » غاضبا :

ماذا تقول ؟

قال « المعلم العاشر » : كالْمِيرا كاليشبيرا كالنيكتا . افخاريس تو ارنا عرض اكتافك . انا اعرف أنك جئت لتتكلم عن نظم الحكم عند اليونان . سيدى الرئيس . أكثر هؤلاء لا يصلحون . انهم خبراء عصر يونانى رومانى أو خبراء بطالسة . وانت يا مدام هاريسون ، ماذا تفعلين هنا ؟ الا تحجلين من نفسك ؟ الست مختصة فى ديانات اليونان وأنت ياسى جيلبرت مرى ، يا بتاع التياترو . ماذا تفعل هنا ؟ نحن نريد خبيرا فى نظم الحكم . سيدى الرئيس : لن يتكلم الا جلوتز أو روستو فتسيف . أو حتى جيبون . الباقون ينسحبون .

قال « صانع الاقنعة » : يمكنهم أن يحضروا كمراقبين ، ولكن دون شوشرة .

المعلم العاشر : يكفى روستو فتسيف . معلوماته أحدث ، رغم انها قديمة . ولكن الموضوع قتل بحثا ولا جديد فيه .

صانع الاقنعة : فليكن . تفضل يا خواجه .

روستو فتسيف : سمعت بنظرية الايديولوجى الفهلوى فى نظام الحكم الكبشى ، ولا شك ان هذا كان النظام المعمول به عند اليونان أو على الاصح الجريج قبل عصر الهجرات . فانتقال جموع بشرية هائلة فى موجات من وسط آسيا فى الألف الثانية ق . م عبر هضبة ايران ثم هضبة الأناضول حتى الأرخييل وبلاد اليونان عملية شبيهة بهجوم اسراب الجراد أو طرود النحل أو قوافل الثمل أو قطعان الغنم ، ولا بد فيها من كبش أو ملكة يقود كل قطيع ، مثل أبو زيد الهلالي سلامة .

هذه المرحلة الكبشية لا نعرف عنها شيئا كثيرا ، ولكننا نعرف اشياء محددة عن نظام الحكم عند الجريج بعد استقرارهم فى بلاد اليونان وتأسيسهم مجموعة ممالك صغيرة فى حجم الترانزيستور ، يمكن أن نسميها ممالك جيب ، ولكن اسمها الرسمى عند المؤرخين هو « المدن الدول » أو « الدول المدن » ، حتى منذ حرب أو حروب طروادة بين ١٢٠٠ ق . م . و ١٠٠٠ ق . م .

صانع الاقنعة : كن محددا : لماذا تقول احيانا « اليونان » وتقول احيانا « الجريج » ؟ اسمك صعب يا خواجه . هل تسمح لى بان اسميك الخواجة روستو .

روستو فتسيف : روستو .. اسكالوب .. كما تشاء . العرب قالت « اليونان » لانها لم تعرف الا جريج « ايونيا » وهى الاقليم المكون من جزر الاخييل والمستعمرات الجريجية على ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وكان منهم هوميروس ولهذا اشتهروا حتى أطلق اسمهم على كل الجريج ، ثم ان هؤلاء الايونييين بسبب انهم كانوا سواحلية كانوا ملاحين ممتازين فكانوا اكثر الجريج ذرعا للبحار وتجولا فى الموانى

والامصار . وكانوا عندكم حتى ثورة ١٩٥٢ أول من يبيعون البسطرمة والجبنة الرومى والزيتون الاسود والنبيذ القبرصى ، ثم تبعهم بقية الجريج . أما « الجريج » فهم سكان كل بلاد الجريج وهم يزعمون ان جداهم الاعلى كان اسمه « جرايكوس » ولقبه « القوى فى المعارك » ، فأخذوا منه اسمهم ، وهو طبعا حد خرافى مثل عدنان وقحطان عندكم .

ومنذ ان دخلت على الجريج مقدونيا وسيطر الاسكندر الاكبر على كل البلاد الجريج وفتح بهم العالم القديم من سيوة الى السند مرورا باليمن والكويت جنوبا وأنطاكية ونيوى شمالا اشترط على كل جريجى أن يقول مع كل رمشة عين : جدى ليس جرايكوس ومع كل رمشة عين أخرى : جدى اسمه هيلين . وبهذا اصبح الجريج « بنى هيلين » أو الهلنيين كما أصبح العرب « بنى هلال » .

صانع الاقنعة : خلاص فهمنا . خش فى الموضوع .

روستو : الحقيقة اننا نعلم من « الالياذة » المنسوبة الى هوميروس ان الجريج كان عندهم ملوك — حتى فى زمن حرب طروادة . و « ملك » فى هوميروس معناه باسيليوس . كان اجا ممنون باسيليوس الجريج وكان بريام باسيليوس طروادة يعنى ان « ملك » معناه « باسيليوس » سواء اكان ملكا شرقيا أو ملكا غربيا . عندكم فى مصر الجديدة كنيسة البازيليك تعنى كنيسة الملك . يعنى الكاتدرائية . لا تسألونى : أى ملك لانه قطعاً ليس الملك فاروق .

وقبل ان يجتمع كل الجريج تحت امرة الملك اجا ممنون ويخرج بهم الى حرب طروادة كان اجا ممنون وأخوه منيلاوس يجلسان معا على عرش اقليم ارحوس ، وكل منهما يحمل صولجانا كما ذكر اسخيلوس ، وهو نظام غريب ومألوف معا عند خواجات الماضى السحيق من جريج رومان الخ .. ، وهو يجعل من العرش كنية يتزاحم عليها عجزان ، مثل حكاية تحتشمس الثالث وحتشبسوت عندكم أو حكاية شجرة الدر وقطرز عند المماليك . نفس الحكاية نجدها عند بطليموس ١٣ و كليوباترا مع فرق واحد وهو أن كليوباترا كانت تجلس بطليموس ١٣ على حجرها وليس الى جوارها ، كما كانت الملكة فى تجلس توت عنخ آمون على حجرها .

المهم اننا نعرف من هوميروس أن اجا ممنون هذا كان ملكا يجمع رؤساء الجريج فى اجتماعات ويستشيرهم ثم لا يأخذ برأيهم ويعمل ما فى دماغه . وفى المانيا النازية كان هتلر مستشار الرايخ الالمانى ومع ذلك كان يملك رقاب العباد . وحين كان طه حسين مستشار وزارة المعارف كان هو الوزير الحقيقى ، وليس نجيب الهلالى .

المعلم العاشر : نعود الى الموضوع . نحن لم نصل بعد لحكم الشورى . تكلم فى الباسيليوس .

روستو : فعلا . فى « الالياذة » مثلا اختلف الملك اجا ممنون مع اشجع ابطاله وهو آخيل على امراة اسيرة من طرواده اسمها بريسيس ، من منهما يلطشها . فجمع اجا ممنون مجلس الابطال ليحكم بينهما . فماذا حدث ؟

قالوا جميعا : الاسيرة من نصيب آخيل . ولكن اجا ممنون ركل حكم مجلس الشورى ولطش بريسيس لنفسه . وغضب آخيل غضبا شديدا لهذا الظلم الواقع عليه فاعتكف في خيمته ورفض الاشتراك في القتال فدارت الدوائر على اليونان وفتك بهم الطرواديون . وطبعا ندم اجا ممنون فيما بعد ، ولكن ندمه لم يكن على استبداده وانما كان لانه اكتشف خطؤه أو غالبا لان بريسيس لم تكن « طعمة » في المخبر كما كانت طعمة في المظهر .. وظل باستمرار يرى ان آخيل كان ينبغي أن ينحني أمام ارادة ملكة .

وسواء في « الالياذة » أو في « الاوديسا » نجد ان الملكية وراثية ، وفي اليونان القديمة حيثما وجد ملك وجد مجلس شورى . وفي « الاوديسا » أن المملكة بغير ملك تكون حائرة كحالة ايثاكا طوال غياب ملكها أوليس الشهير باوديسيوس ، ففيها يعربد النبلاء واصحاب السطوة ويرتعون في قصر الملك ، بل ويحاول كل منهم أن يستولى على المملكة وأن ينال ويجلس معها على سرير الملك .

ومع ذلك ، انتهبوا ايها السادة ، في اليونان القديمة كانت للملك كل هذه السلطات المطلقة اثناء الحرب فقط ، واذا اختير قائدا لحملة من الحملات فقط ، ولكن الدولة — لا الملك — هي التي كانت تقرر اعلان الحرب ، وهي التي تختار قائد الجيش في الحملة سواء اكان الملك أو أى بطل آخر . أما في الداخل فقد كانت سلطات الملك مقيدة ومقصورة على تقديم القرابين وقبادة الشعائر الدينية والفصل في بعض أنواع القضايا .

ومن العلماء من يرى ان سلطات الملك كانت قديما مطلقة في الميادين الثلاثة : العسكرية والدينية والقضائية ، وأن اليونان عرفت الملكية المطلقة طوال عصر الحروب والهجرات ، ولكن بحلول الاستقرار المدني ظهرت المدينة ، وفقد الملك كثيرا من سلطانه أولا لصالح الارستقراطية ثم صالح الشعب .

وتدهورت حال الملوك في اليونان القديمة في صورة موظف عام ينتخب سنويا ولا يميزه شيء عن زملائه من الرؤساء الا انه كان يقدم القرابين في اهم شعائر الدولة .

أما في اسبرطه فقد تدهورت حال الملوك اكثر فأكثر لدرجة ان ملك اسبرطه كان يقسم اليمين الدستورية شهريا امام جماعة « الايفور » ، وهم رؤساء البلاد باحترام قوانين البلاد ، بينما كان « الايفور » يقسمون اليمين شهريا ، نيابة عن أهل المدينة ، بالمحافظة على وضع الملك ما دام حافظا ليمينه . انتهى الثقة ! تصورا مثلا الزوج والزوجة يقيمان كل شهر حفلا يتعاهدان فيه أمام المدعويين على عدم الخيانة الزوجية ثم يوزعان الشربات .

طبعا سبب ذلك ان ملوك اسبرطه كانوا كما يسميهم ارسطو « جنرالات وراثيون » وحيث الجنرالات يخشى حكم العسكر ، فما بالكم اذا كان ابن الجنرال جنرالا ؟ وفي اسبرطه كانوا لا يأتئون على الملك جنرالا واحدا ، فكانوا يقيمون ملكين في وقت واحد ويسمونهما « أرخاجيتاي » ، أى « القواد الأول » . واستمر الحال على هذا المنوال حتى قرب ٢٠٠ ق . م . .

ومقدونيا ، بين ٧٥٠ و ٦٥٠ ق . م . ففى ٧٤٥ ق . م . عزل اعضاء الاسرة المالكة فى كورينث وكان عددهم نحو ٢٠٠ عضو ، ملكهم وأخذوا ينتخبون من بينهم سنويا ملكا على كورينث ، واقاموا نوعا جديدا من استبداد الارستقراطية بدلا من استبداد الملوك ، واستمر الحال على هذا المنوال نحو ٩٠ سنة . نفس الامر فى ميجارا واثينا .

وكان هؤلاء النبلاء يسمون انفسهم « ارستوى » ومعناها « الصفوة » أو « خير الناس » ، أو « الممتازون » . ومن هنا كان معنى « الارستقراطية » هو « حكم الصفوة » أو « حكم الممتازين » . ولم يكن نظامهم اقطاعيا بالمعنى المعروف لان ارضهم لم تكن اقطاعا من ملك أو من سلطة مركزية بل كانت ملكا خالصا لهم ، ولم تكن عليهم التزامات نحو رعاياهم أو نحو السلطة المركزية . وكان ابناء هذه الاسر الحاكمة يسمون انفسهم « يوباتريداى » أى « ابناء الاء النبلاء » .

ومنذ قيام الحكم الارستقراطى فى اليونان القديمة اصبح اسم الباسيليوس (اى الملك) الماجستير (أى الرئيس) . وفى اثينا وكورينث كان هذا الملك أو الرئيس ينتخب سنويا أو يعين سنويا باختيار « مجلس الاربواج » ، وهو مجلس النبلاء من مستشارى الملك وعدد أعضائه فى اثينا ١٢ عضوا .

وقد بدأ هذا النظام الارستقراطى فى الانهيار بين ٧٠٠ و ٦٠٠ ق . م . فنحو ٧٠٠ ق . م . نقرأ فى اشعار هسيود شكوى مرة من طغيان الارستقراطية فى اقليم بويوتيا ، وبين ٦٠٠ و ٥٠٠ ق . م . نقرأ لشاعرين من شعراء الارستقراطية ، هما الكايوس وثيرجينيس ، شكوى من اضطراب الاحوال فى عصرهم تدل على أفول سطوة النظام الارستقراطى .

وقد كان الاساس الاجتماعى لهذا النظام الارستقراطى حتى ٦٥٠ ق . م . هو النظام القبلى الذى قامت عليه الحياة اليونانية لغاية تبلور نظام « المدينة الدولة » أو « الدولة المدينة » نحو ٦٥٠ ق . م . حتى الجيش فى تلك العصور الاولى كان تكوينه قبليا . وكانت القبيلة أو « الفيلا » تنقسم الى « اخوات » أو « فراتريات » وكل « فراتريات » تنقسم الى « عشائر » أو مجموعات من الاسر « الجينوس » ، تماما كما كان الامر عند العرب وفى كافة القبائل البادية : الرابطة الاولى هى رابطة الدم ، أو الانتماء الى القبيلة .

اما الامر الثانى الذى احبكم أن تعرفوه فهو كراهية اليونان للنظام الملكى بجميع انواعه : البازيليكى والمونارخى والتيرافى .

صانع الافعة : نحن متشكرون يا خواجه روستو فتسييف . انت ملأت رؤوسنا علما ، ولكن ادخر قولك للمرة القادمة ، فنحن نسمع كثيرا عن حب اليونان للحرية . ونحن ننتظر منك أن تعلمنا متى وكيف ولماذا احب اليونان الحرية .

الفصل الرابع

اليونان ومشية الأوزة^(١)

عندما تأهب الأستاذ روستوفتسيف للدلاء بمعلوماته عن انتقال نظام الحكم في اليونان القديمة من الملكية المطلقة الى حكم الارستقراطية ، الى حكم الطغاة : ظهر في قاعة مؤتمر الادباء والفنانين شبح الدكتور محمد مندور واستأذن « صانع الاقنعة » قائلا :

— سيدى الرئيس ، لى بعض الملاحظات ...

صانع الاقنعة : اهلا يا دكتور ... غيبة طويلة .. اين كنت ؟

محمد مندور : كنت فى هاديس اترافع عن اوربيديس .

مجاهد بن الشماخ : وما هاديس وما أوربيديس . يريد ان نفهم .

صانع الاقنعة : هاديس مملكة الموتى ، وأوربيديس شاعر مسرحى يونانى اتهمه أرسطو فانيس بالتدليس .

رستو : سيدى الرئيس ، هذا الدكتور ليس منا لانه ناقد أدبى ولا يحسن الكلام الا عن أوليس .

محمد مندور : كذبت . أنا كتبت ايضا عن بركليس وعن ثوستوكليس ، وعن زينوفون وعن أفلاطون ، وعن اريستيب وعن زانتيب ، وعن هيلين وعن ديموستين ، وعن فيدياس وعن هيبياس وعن صولون وعن جلوكون ، وعن الاسكندر وعن اسكاماندر ، وعن فيليب وعن أوديب ، وعن بارناس وعن هاليكارناس وعن هيرودوت وعن برنادوت ...

(١) « الأهرام » ١٩٧٦/٦/٢

مجاهد بن الشماخ : اوقفوه .. اوقفوه ، ما كل هذا السجع ؟ السجع لم تعرفه الا العرب ، وهذه مؤامرة على القومية العربية .

محمد مندور : ثم انى حصلت على شهادات في اليونانيات واللاتينيات من السوربون ومن نابليون ومن مدينة النور ومن كفر مندور .

صانع الاقنعة : المهم . ما طلباتك ؟

محمد مندور : لا كلام اليوم عن اثينا . اثينا معناها الحرية . تكلموا اليوم عن اسبرطة .

روستو : مسيو محمد مندور على حق . لا كلام عن اثينا قبل الكلام عن اسبرطة ، لان الشيء لا يعرف الا بنقيضه .

صانع الاقنعة : لا بأس . لا بأس . وكيف وجدت الاسبرطيين ؟

روستو : وجدتهم اغرب منكم معشر المصريين . كان هيرودوت يكذب عنكم بعد ان زاركم نحو ٤٥٠ ق . م . انه بعد ان درس احوال المصريين وجدهم ارقى من اليونان في الديانة وفي القوانين وفي الطب وفي الهندسة وفي الزراعة وفي الفنون والصناعات . وجدهم ارقى من اليونان في كل شيء . الاشياء واحدا وجده عند اليونان ولم يجده عند « الفرغافروس » أو « البرباروس » مثلكم . يقصد « المتبررين » ، وهذا الشيء هو « الحرية » .

المهم ان هيرودوت حين كتب هذا الكلام كان كاذبا لان الاستعباد كان موجودا ايضا في اليونان ، ولا سيما في اسبرطة .

في اسبرطة مثلا كانت هناك طبقة حاكمة مكونة من عدد من الاسر مجموع افرادها لا يتجاوز ٢٥,٠٠٠ شخص يحكمون سكانا عددهم نحو ٥٠٠,٠٠٠ شخص ، اكثرهم من رقيق الارض ويسمون طبقة « الهيلوت » وهم يزرعون ويقلعون للاسبرطيين . ومن السكان فريق اسمه « اهل الاقاليم » (أو « بريكس » باليونانية) ، وهم سكان البنادر أو مدن اسبرطة وضواحيها . وهؤلاء كانوا مواطنين من الدرجة الثانية : كانوا « أحرارا » حقا مثل الاسبرطيين ، أى ليسوا أرقاء مثل « الهيلوت » . وكانوا على درجة من الحكم الذاتي ، ولكنهم كانوا عسكريا وسياسيا خاضعين للاسبرطيين .

وكانت في اسبرطة خرافة تقول ان واضع دستورها وشرائعها هو ليكوجورجوس الالهى ، وهو غالبا شخصية وهمية . ولكن لحسن الحظ كان الاسبرطيون مثل بقية اليونان يعتقدون أن « القانون » من عند الالهة ، ولهذا تجب على الجميع طاعته ، أما « القوانين » فهي من صنع البشر ، ولذا يمكن تعديلها وتطويرها . أى ان القانون كمبدأ أو فكرة مصدره الهى ودائم أما أى قانون محدد بالذات فوضعى ويمكن تغييره . وكانت هذه طريقتهم في اسباغ صفة « الشرعية » على القانون كمبدأ لالزام الكافة به ، بمثل ما

نقول نحن اليوم ان القانون يعبر عن « ضمير المجتمع » .

على كل ، في الاصلاح الدستوري الذى اتى به ليكوريوس نجد ، كالعادة القديمة ، على رأس دولة اسبرطة ملكين يجلسان على العرش ، ويحكمان من خلال « مجلس الشيوخ » ويسمى « جيروسيا » وهو مكون من ٣٠ عضوا كلهم من الاسر الارستقراطية ، ومن خلال « الجمعية الشعبية » وتسمى « ايبلا » ، وهى مكونة من كل الاسيريين البالغين سن الرشد الكاملى المواطنة ويعملون كفرنسان أو مشاة فى الجيش الاسيرطى ، وهؤلاء كانوا ينتخبون مجلس الشيوخ وينتخبون أيضا جماعة « الايفور » أو الرؤساء ، وهم حكام البلاد الحقيقيون وحراس الدستور . وبموجب دستور اسبرطة كانت « الجمعية الشعبية » لا تنظر الا فى الموضوعات التى يقدمها لها « الايفور » وسبق ان ناقشها « مجلس الشيوخ » ، ولم يكن للمواطنين حق اقتراح التشريعات ولكن التشريعات والقوانين لم تكن صحيحة ولا نافذة الا اذا اقترها « الجمعية الشعبية » فلنقل ان جماعة « الايفور » تشبه الوزراء المنتخبين . وهذا يكون النظام الاسيرطى بسيطا : ملكان على العرش معهما مجلس شيوخ منتخب ، ومجلس وزراء منتخب ، أما الناحيون فهم كل اهل اسبرطة الاحرار القائمين بالخدمة العسكرية . تصورا « مجلس الشعب » مكونا من نحو ٥٠٠٠ عضو يجتمعون ويخطبون ويقرعون فى سوق المدينة أو « الاجورا » وهو ميدان عظيم مثل سوق عكاظ فى مكة القديمة . انا سمعت من الاستاذ فيرنر ان كلمة « عكاظ » كانت اصلا « عجار » وهى من « اجورا » ثم قلبت الراء زايا أو طاء فصارت « عكوزا » مثل قولكم الدق و « العجوزة » ! فقولكم « سوق عكاظ » معناه « سوق السوق » وهو تكرار لا معنى له .. لا تستغربوا من وجود هذه الكلمات اليونانية فى لغتكم الجميلة ، فاريتريا مثل كان اسمها أريتريا فى هيرودوت وكان البحر الاحمر كله يسمى بحر ايتريا على الاقل منذ ٥٠٠ ق . م . لان الملاحين من ميناء اريتريا اليونانية شمال أثينا اسسوا مستعمرة يونانية فى شمال اثيوبيا .

مجاهد بن الشماخ : ما هذا ! التحشيش ؟ كيف تسمح لهذا الجاسوس الروسى أن يفترى ...

صانع الاقنعة : الخواجه روستوفتسيف امريكى وليس روسيا .

مجاهد بن الشماخ : روسى أو أمريكى لا يهم . كلهم كفار وكلهم جواسيس . ألم يسمع ان كل اللغات مأخوذة من اللغة العربية ؟ هذه الاجورا اصلها « عكاظ » ثم اصبحت « عجار » و « عجور » التى ينطقها الخواجات « اجورا » لعجزهم عن نطق العين . يعنى عكس ما يقول الخواجة على خط مستقيم . اما « اريتريا » فهى من اسم « الحارثة » وهو من عرب الشمال المعروفين بالنبط ، وقد فتح الحارثة بلاد اليونان والحبشة معا وترك اسمه فى كل مكان . ما دام الخواجة يقول اى كلام فمن حقنا ايضا ان نقول اى كلام .

على الزبيق الجوكى الشهير بالزنبرك : سيدى الرئيس .. نحن لم نأت هنا لنضيع الوقت على فقه اللغة . نحن نبحث فى نظم الحكم .

صانع الاقنعة : هل فرغت يا خواجه روستو ؟

روستو : فرغت ؟ أنا لم ابدا بعد . المهم ان الطبقة الحاكمة في اسيرطه كانوا كلهم جنودا على أهبة القتال وان كل فرد في اسيرطه كان خاضعا خضوعا مطلقا للدولة . كل اسيرطى كان جنديا له اسرة ومنزل ولكنه لم يكن يقيم مع اسرته ولا في منزله الا في الاجازات الرسمية للاغراض المعروفة . وانما كان الاسيرطى يقضى كل وقته في النوادى العسكرية التى كانوا يسمونها « فيدينيا » أو سيسنيا للبيادة أو للفرسان ، يتدرب فيها طول الوقت على القتال ، ويأكل فيها كل وجباته وينام فيها . وقد أخذنا نحن منهم نظام الثكنات والقشلاقات .

وكان الاسيرطى لا يعمل لاطعام نفسه أو اسرته بل كانت الدولة تتكفل بذلك . كانت الطريقة هى ان توزع الدولة على كل اسرة اسيرطية مساحة واسعة من الاراضى الزراعية ومعها عدد من اسر الارقاء « الهيلوت » يفلحون الارض ويزرعونها لصالح هذه الاسر العسكرية الاسيرطية . وكان الهيلوت في حالة عبودية كاملة للاسيرطيين . وكانت التزامات الهيلوت نحو سادتهم محددة وكان يسمح لهم الادخار ولكن لا يسمح لهم باقتناء الأرض . وكانت حالتهم لا بأس بها بوجه عام .

أما الاسيرطيون ، الاولاد منهم والبنات ، فكان لا يسمح للضعاف منهم عادة بالحياة . فكان الاطفال من الجنسين يتركون في العراء يموت منهم الضعفاء . أما الاصحاء فكانوا يظلون حتى سن السابعة في رعاية الامهات أو مربيات موظفات في الدولة ، وبعد سن السابعة يدخلون في رعاية الدولة . فكان الطفل ينضم في هذه السن الى فرقة اطفال يقودها طفل اسيرطى ويتعلم في هذه الفرقة اربعة أشياء : (١) شمال يمين ، أو يمين شمال ، لا أدري (٢) الرياضة البدنية (٣) الموسيقى (٤) طبعا القراءة كانت آخر شيء ولذا لم نسمع عن كاتب واحد خرج من اسيرطه .

كذلك كانوا يطبخون لانفسهم طبخا بسيطا وينامون على البوص الذى يجمعونه بانفسهم من شطآن الانهار . وكانت الدولة تشجعهم على السرقة . ولا سيما سرقة الطعام ، لتربيتهم على حب المغامرة . ومن كان يكشف أمره كان يضرب ضربا مبرحا عقابا له ، لا على السرقة ، ولكن على خيئته . وحين يشبون كان محرما عليهم الاشتغال بالتجارة أو بالصناعة . وكانت تنشئه البنات شبيهه بتنشئه الاولاد مع فرق واحد ، وهو ان البنت بعد الزواج تبقى عاطلة في بيتها .

وهكذا كان المجتمع الاسيرطى مكونا من ثلاث طبقات (١) الارستقراطية العسكرية ، ولا عمل لها الا الاستعداد للقتال (٢) الهيلوت الارقاء ولا عمل لهم الا فلاحه الارض وخدمة الاسيرطيين (٣) البريويكى ، وهذه عملها التجارة والصناعة .

صانع الاقنعة : هذه معلومات عظيمة ولكن ما فائدتها لنا ؟

روستو : لا مؤاخذه يا خبيبي دا موس سغلى .

المعلم العاشر : صانع الاقنعة يستر افكاره ، لماذا ؟ نحن نستر الشيء اما لانه مسروق أو لانه عورة أو لنحميه . لماذا تستر افكارك ؟ هل هي مسروقة ؟ هل هي عورة ؟ هل تريد ان نحميها ؟ انت في « براكسا أو مشكلة الحكم » بشرت بنوع من الاسبرطية في المجتمع المصرى .

صانع الاقنعة : هذا كان حلما افلاطونيا

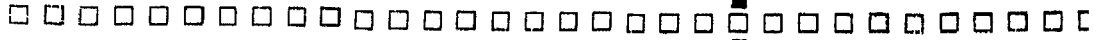
المعلم العاشر : ابدا . افلاطون حلم بالملك الفيلسوف أو بالفيلسوف الملك ، وهو شخص واحد . يعنى دماغ واحد يحرك سيفا واحدا . وحتى هذا ثبتت استحالة . لماذا تركت أثينا واتجهت الى اسبرطة ؟

صانع الاقنعة : هل نسيت الثلاثينات ؟ مصر امتلأت بالتجارب الاسبرطية . الكشف . الجواله . الامير فاروق . أحمد حسنين . على ماهر . المارشالة ميرة ثابت . حتى البات دخلن في اللعبة . أحمد حسين والقمصان الحضر . الدكتور بلال والقمصان الزرق ، عباس حليم وتشكيلات العمال . القاهرة امتلأت بالطواير والاستعراضات شبه العسكرية . الكل يبحث عن حل لانقاذ مصر من الديمقراطية باسم القوة والاستقلال . الحل كان اسبرطة . كل الناس تبحث عن اسبرطة . هل كان خطأ أن أحاول زرع عقل أثينا في جسد أسبرطة ؟

المعلم العاشر : لا . ولكن كان خطأ ان تحاول زرع عقل اسبرطة في جسد أثينا . في مصر قاسم أمين ولطفى السيد وطه حسين والعقاد وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ، في مصر محمد عبده وعلى عبد الرازق وشوق وابراهيم ناجى . في مصر سعد رطلول وعبد العزيز فهمى ومصطفى النحاس . عقل اسبرطة هو اللاعقل ، هو الصلبان المعقوفة ومشية الأوزة واوليبياد ميونيخ . ثم كيف تكون اسبرطية الارقاء من فلاحين وعمال ، أو تكون اسبرطة من غير ارقاء ؟ ثم كيف تكون اسبرطية الباشوات والبكوات ، وارستقراطيونا لا ينامون على القش والبوص والسمر وورد النيل ولكن ينامون على الخنز والديباج بين الشانزليزيه وبياريتز ؟ ربما أمكن ذلك في زمان الفرسان المماليك قبل أن تفسدهم مديية المصريين .

صانع الاقنعة : صدقت . ليت الشباب يعود يوما ، فنكتب كل شيء من جديد . ■

الفصل الخامس



ديمقراطية الموت^(١)

في الجلسة الخامسة من الدورة الثانية للمؤتمر الوهمي للادباء والفنانين المصريين ، تلقى « صانع الاقنعة » رسالة من العلامة روستوفتسيف تقول انه طريق الفراش بالملاريا وان خير من يشرح نظم الحكم عند اليونان في غيابه هو استاذ واستاذ الجميع العلامة جلوتز ، وان رعشة الملاريا ادرسته عندما استعرض في ذاكرته تاريخ العبودية عند اليونان والرومان وفي الحضارات القديمة بصفة عامة . وكان محمدا له ان يتحدث في موضوع اختاره بنفسه وسماه « ديمقراطية الموت » ، وهذا ما يمكن لجلوتز ان يتحدث فيه بتوسع .

قالت الماركسية المسخسخة :

— ولماذا الحديث عن ديمقراطية الموت . طبعا كلنا يعرف ان الموت ديمقراطي لان جميع البشر سواسية فيه وامامه . ونحن نريد ان نتكلم في ديمقراطية الحياة .

قال ابو الفتوح الصباح :

— من ذا الذى قال ان الموت ديمقراطي ؟ صحيح ان جميع البشر سواسية امامه ، ولكنهم ليسوا سواسية فيه . فممنهم من يقذف إلى قاع الجحيم وممنهم من ينعم على ضفاف الكوثر .

(١) « الأهرام » ١٩٧٦/٦/٩

كاهن انويس : أو فلنقل مع برنارد شو : الحياة تسوى جميع الناس ، والموت يبرز العظماء .

الذائق الموضوعي : انا لا ارى تناقضا من حيث القياس فقط . اذا كانت الحياة تسوى جميع الناس ، واذا كان الموت باب الحياة ، فالموت يسوى جميع الناس ايضا . وبالتالي فالحياة تكون ديمقراطية والموت يكون ديمقراطيا . ولكن هذا مناقض للواقع ، فالمعروف للخاص والعام ان الحياة ليست ديمقراطية وان الموت ليس ديمقراطيا . فالخطأ اذن في المقدمات وليس في النتائج .

المعلم العاشر : انا لا أظن ان الخواجه جلوتز جاء ليحدثنا عن ارائك الارض واراائك الجنة .

جلوتز : يعنى ايه أرائك يابك ؟

المعلم العاشر : يعنى كنب ، أو كما تقولون في لغتكم « كاناييه » .

جلوتز : مضبوط . أنا جئت لاحدثكم عن الارائك ففى الأصل لم تكن هناك أرائك ولا كراسى ولا ترابيزات ولا فوتيلات ولا اطباق أو ملاعق وشوك وسكاكين ، ولا كبايات وككوس وشفاشق ، ولا سرائر ولا مراتب لا مخدات ولا ملايات ولا بطاطين ولا دوايب ، ولا شيء . وكان كل الناس يجلسون وينامون على الأرض أو على حصير على أحسن تقدير . ثم ظهرت الارائك وبقية الأشياء مع ظهور المدنية . وكلما اختفت المدنية اختفت الارائك ، بدليل ان الفلاحين عندكم سوا عادة الجلوس على الأرائك والكراسى والنوم فوق مستوى سطح الأرض . المهم ان كل هذا تغير عندما بدأ اليونان يتمتدون وينهبون ماجاورهم من الشعوب ، ولكن طبعا كان يستأثر بالأرائك عندهم طبقة الارستقراط .

السؤال هو : لماذا ؟

الجواب : لأنهم كانوا وحدهم قادرين على الموت . اقصد الموت فى سبيل الأرائك والنفارق والشفاشق يجرى منها النيذ انهارا ، وأهم من هذا كله الموت فى سبيل الكرامة والفضامة والشرف والترف والحرية والذرية التى نسميها اليوم القومية . أما من كانوا عاجزين عن الموت فكانت لهم الأغلال والأثقال والأعمال الشاقة مع شظف العيش . ولم تكن هذه حال اليونان وحدهم ولكن كانت حال كل البشر منذ انسان الكهف وانسان الصين وانسان المرعى حتى اكتشاف الزراعة والصناعة .

هذا كان عصر الأبطال والملاحم فى العالم القديم ، ثم تكرر نفس هذا الموقف فى العالم الوسيط وسموه عصر الفروسية ، وهو عصر البارونات قطاع الطرق فى أوروبا الذين وجههم الباباوات الى الحروب الصليبية لينهبوا العالم الاسلامى بدلا من نهب العالم المسيحى وفى كل حالة أصبحت البطولة أو الفروسية وراثية فمن كثرة السلب والنهب بالسيف تكونت الثروات والعزوات والبيوتات والعائلات وكانت أكثر القبائل نهباً أشدها سطوة وأعظمها مجدا التى تسمونها ارستقراطية . نحن فى العالم الحديث نسلب ونهب ولكن بغير سيف : بالعمولات والسمسرات والمضاربات والرشوات والمقاولات والتلاعبات والاختناقات والكوميبيئات والحزبيات ، فنحن اليوم أذكى من أسلافنا فلا نضرب بسيوفنا

ولكن نضرب بسيف الدولة ، ونسمى هذا بورجوازية .

الأيديولوجى الفهلوى : الخواجة جلوتز ، نقطة نظام ، يسرد علينا تاريخ البشرية كله ولا يتكلم عن اليونان . ثم انه دخل فى اختصاصى واختصاص على الزيتى الجوكى واختصاص الماركسية المسخسخة لأنه دخل فى علم الاجتماع الذى نسميه اليوم علوما سياسية .

صانع الأقنعة : أنا فعلا تائه ، لا أعرف رأسى من رجلى . كيف بدأنا بآخيل وهكتور ثم انتهينا باستافسكى وأوناسيس ؟ أنت يا أستاذ جلوتز وعدتنا أن تتكلم فى الديمقراطية وفى الموت وفى الجسر القائم بينهما . عند اليونان طبعاً .

جلوتز : حلمك على ، مسيو لو بريزيدان . سأشرح كل شىء . الفرنسيون علموكم كلما فكرتم فى الديمقراطية ان تصرخوا : حقوق الانسان : الحرية ، المساواة ، الاخاء ، وأن تحملوا بالتاريس والتريكولور والمارسيلىز ، وان تلقوا خطبا عصماء حفظتموها من كتابات فولتير وروسو ودانتون وروبسبير ومارا ، وقصائد شماء حفظتموها من أشعار الفريد دى موسيه ودى فينى وفكتور هوجو . كل هذا بسبب ثوراتهم فى ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . طبعاً كل هذه كانت اشياء صحيحة ، ولكنها كانت رغاوى وفقايع رومانسية . لا تستهينوا بالرغاوى أيها السادة ، فالرغاوى ، ليس الصابون ، هى التى تنظف جسم الانسان . على كل حال ، الحقيقة هى ان الانسان اكتشف « حقوق الانسان » فى الحياة عندما اكتشف « حقوق الانسان » فى الموت . واليونان كانوا أول من اكتشفوا هذا .

صانع الاقنعة : ماذا تعنى ؟

كاهن انويس : انت هجاص يا خواجه جلوتز . المصريون وليس اليونان هم أول من اكتشفوا الحرية والمساواة والاخاء فى الموت . قبل الدولة الوسطى كان الفقراء عندهم محرومين من حق خلود ، تماما مثل القطط والكلاب والحمير اليوم . ولم يكن احد منهم يجرؤ على تحنيط زوجته أو ابيه أو ابنه .

لا اعلم ان كان هذا المنع بقوة القانون ام بحكم الامر الواقع . ولكن المسألة كانت محولة من نفسها لان الفقراء لم يكونوا يملكون ثمن التحنيط ، ثم ان الكهنة لم يكن لديهم وقت يضيعونه على الفقراء . ما دامت أوقاف الاغنياء أربح للمعبد ، ثم ان تحنيط الملايين كان معناه ازدحام الجنة ، وهو امر لم يكن مرغوباً فيه . من أجل هذا كله لم يعثر العلماء على مومياء واحدة لرجل فقير . كلهم ملوك أو امراء أو نبلاء أو من كبار الموظفين .

طبعاً الفقراء ، من العمدة فنازلا ، كانوا يكتفون بالتماثيل مثل شيخ البلد والعرضحالجى الذى يسمونه الكاتب القاعد القرفصاء ، فكانت هذه طريقتهم فى تخليد النفس لان الفنان كان ارخص من الكاهن . المهم ان الفقراء فى مصر قاموا قبل الدولة الوسطى بثورة شعبية لاكتساب حق الخلود بعد الموت مثل الاغنياء ، ونجحت الثورة واكتسبوا هذا الحق . هذا ما دونته صحائف التاريخ .

على الزبيق الجوكى : وهل استفادوا من هذا الحق ؟

الماركسية المسخسخة : نحن لم نسمع بجثة فقير محنط ، لا فى الدولة القديمة ، ولا فى الدولة الوسطى ، ولا فى الدولة الحديثة .

المعلم العاشر : لا ، ولكن كاهن انوبيس على حق . كانت هناك فعلا ثورة تطالب بالمساواة فى حق الخلود بعد الموت ، ولكن جهلنا بالديانة المصرية القديمة يجعلنا نجهل ابعادها الحقيقية . الذى لم يذكره كاهن انوبيس هو ان ثورات الفقراء الحقيقية من اجل المساواة فى حق البعث جاءت مع اديان التوحيد ، مع موسى وعيسى ومحمد : وكان اساسها ان البعث يكون للارواح لا للجساد . كان هذا انتقام الفقراء من الاغنياء ، بمعنى حنطوا انفسكم كما تريدون ، ولكن الامتياز الطبقي بين الجثث والجثث لا جدوى منه لان كل الناس سيجدون انفسهم محشورين فى الموقف .

جلوتز : رائع . رائع انتم رائعون ايها المصريون . وهذا ما سيجعلنا دائما نحن الخواجات ، نتعلم منكم . أنا لم أكن اتكلم عن المساواة امام الله .

كاهن انوبيس : انت كنت تتكلم عن ديمقراطية الموت . وهل لديمقراطية الموت معنى المساواة امام الله ؟

جلوتز : لا بد انى اسأت التعبير . ميا كولبا . انما الذى قصدته هو ان اليونان كانت أول من اكتشف ان المساواة فى حق الحياة لا يمكن ان تتحقق الا بالمساواة فى واجب الموت . أنا لا اتكلم الان عن الدين ولكنى اتكلم عن الدنيا . انتم تتقنون الدين ونحن نتقن الدنيا . أو هكذا تقولون وهكذا نقول .

ولكن اقرب لكم المسأله أطرح عليكم هذا السؤال : ما الفرق « الجوهري » بين المصرى والاجنبى ؟ هل هو فى لون بشرته ؟ هل هو فى لون شعره وعينه ؟ هل هو فى ملابسه وعاداته وتقاليده ؟ أبدا : الفرق الجوهري بين المصرى والاجنبى هو ان المصرى مستعد ان يموت من اجل مصر وان الاجنبى غير مستعد ان يموت من اجلها . وهذا معنى المساواة فى المواطنة وفى حقوق الانسان . وهذا هو المنطق وراء التجنيد الاجبارى والمساواة فى واجب الموت من أجل الوطن . مبرره الوحيد هو المساواة فى المواطنة . المساواة فى واجبات الانسان هى الملزم بالمساواة فى حقوق الانسان . اسألوا العلامة بيرين عن حالة المواطنة فى مصر القديمة . أنا أتكلم فقط عن المواطنة فى اليونان القديمة .

الذائق الموضوعى : بمعنى آخر كما ان تعريف الانسان فى ارسطو انه حيوان ناطق . فتعريف الانجليزى انه حيوان ناطق يموت من اجل المجترة ، وتعريف الفرنسى انه حيوان ناطق يموت من اجل فرنسا ، وتعريف المصرى انه حيوان ناطق يموت من اجل مصر .

على الزبيق الجوكى : هل معنى هذا ان المليون امريكى الذين هربوا من التجنيد فى حرب فيتنام ليسوا أميركانا ؟ وهل معناه ان كريستوفر كودويل ومئات الاجانب الذين ماتوا فى الحرب الاهلية الاسبانية كانوا اسباناً ؟ وهل معناه ان ملايين الهنود والسنغاليين الذين سبقوا المذابح الحرب العالمية الاولى

والثانية من انجلترا أو فرنسا كانوا انجليزا وفرنسيين ! وهل معناه ...

المعلم العاشر : انت تسأل اسئلة وجيبة ولكنها تعقد الأمور ، ولذا ارجو سحبها ثم طرحها في المستقبل مرة أخرى للمناقشة . المهم ان نعرف ماذا يريد الخواجة جلوتز ان يقول الان .

جلوتز : اريد ان اقول ببساطة انه في ايام « الالياذة » و « الاوديسا » ، كان الملوك والامراء والارستقراط والابطال في اليونان هم الصفوة التي تقاتل وتموت في الحروب ، ولهذا كانت لها كل الامتيازات الطبقية في المجتمع اليوناني ، وكان كل من دونهم من اليونانيين من التجار والزراع والصناع اما انصاف مواطنين لهم حق العمل والكسب ولكنهم محرومون من المشاركة في الحكم أو ما نسميه اليوم بالحقوق السياسية ، واما ارقاء ليست لهم اية حقوق الا حق التنفس وحق التناسل .

انظروا مثلاً ماذا كان سلاح المحارب في « الالياذة » و « الاوديسا » . كان آخيل يركب عجلته الحربية حتى ميدان القتال ، أى حتى يواجه هكتور . عندئذ يترجل الرجلان . وكان كل منهما مدججا بالسلاح الآتي : (١) رمحان أحدهما للطعنات والآخر احتياطي (٢) سيف معلق في وسطه لا يستعمله الا اذا رمى الرمحين دون ان يصيب غزيمه (٣) درع مقبضه من الداخل مربوط حول رقبته يتدلى على جنبه اثناء القتال ، فاذا قرر الفرار من المعركة ازاحه ليتدلى على ظهره .

وكانت المعارك اساسا معارك فردية . يصطف الجيشان ثم يبرز منهما البطلان أو الفارسان ، مجموعة وراء مجموعة ، تماما مثل ملاحم ابى زيد الهلالي والزناقي خليفة عندكم . اى أنها كانت اساسا مبارزات فردية . تبدأ بالاهانة والتهديد : أنا سأكسر رأسك . وأنا سأبظظ عينيك . أنا سأشرح جثتك . وأنا سأخرج احشاءك . كل هذا ليغلى الدم في العروق . نحن اليوم لا نفعل هذا لبعد المسافة بين الجيوش ، وانما نوزع التنبؤ أو الويسكى على الجنود والكونيكاك على الطيارين والكوكاكين على الخيول ليغلى دمها وتندفع الى الموت . ثم يبدأ الطعان . فاذا سقط بطل وراء بطل [بلغتنا ضابط وراء ضابط] وظهرت الغلبة لفريق هجمت صفوف الجنود والتحمت ، حتى ينتصر أحدها ، أو تعاد الكرة في اليوم التالي . من هنا نجد ان الجنود كانوا مجرد اكسسوار في المعارك لا يتحركون الا لعمليات التشطيط ، أما المعركة الحقيقية فكانت بين الابطال الفرسان . ولهذا كان الابطال الفرسان يستأثرون بكل الغنائم ويلقون بالفتات الى الجنود أو الخيالة التوابع . وعندما يعود الغزاة الى اليونان كانوا وحدهم يستأثرون بحكم البلاد .

وبين ٧٠٠ و ٦٠٠ ق . م . حدثت اكبر ثورة استراتيجية في اليونان القديمة . على فكرة « استراتيجية » معناها « عسكرية » لان العسكري اسمه باليونانية « استراتوس » . بدلا من الفروسية والبطولة الفردية ، قامت الحروب على اساس تشكيل « الجيوش » ، وكانت هذه الجيوش عبارة عن مجموعات من المشاة المدججين بالسلاح يسمونهم الهوبليت . كذلك تطورت الاسلحة فاصبح سلاح الهوبليت مكونا من الاتي (١) درعان ، درع معدني أو زرد كالشبك الثقيل مثبت

بأربطة حول الجسم من اعلى الصدر حتى السرة ، ودرع مربوط في الذراع اليسرى بحيث يتحرك معها (٢) ربح للطنع المباشر وليس للرمى على البعد .

كان ظهور الجيوش النظامية في اليونان القديمة بدلا من الاعتماد على الابطال والنبلاء الفرسان ، خطوة كبيرة نحو ديمقراطية القتال وديمقراطية الموت . لان الهوليت كانوا أولا من أوساط الحال وليسوا من الاغنياء . كانوا من أوساط الزراع القادرين على شراء ادوات القتال ، ففي تلك الايام لم تكن الدولة توزع الاسلحة على الناس . والانتقال من معارك الفرسان الى معارك المشاة يدل على ظهور الطبقة الوسطى ومحاولة اشتراكها في السلطة وكسر احتكار الارستقراطية للحكم في الدولة .

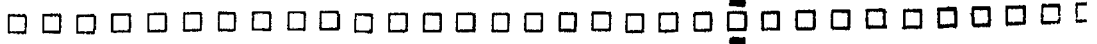
وفي كتاب « السياسة » لارسطو ان اليونان في العصور الغابرة كانت تعتمد في حروبها على الفرسان الذين كانوا من الطبقة الارستقراطية ، ولذا كانت الدساتير الاولى بعد سقوط الملكيات دساتير ضيقة لا تعطي الحقوق السياسية الا لابناء الارستقراطية . ولم تبدأ الدساتير في الاتجاه نحو الشعبية الا بظهور الهوليت وفي ارسطو ان اليونان كانت قبل زمانه تسمى انتقال حق القتال الى الهوليت أو المشاة « الديمقراطية » ، أما في زمانه فقد كان للديمقراطية معنى آخر ، وهو « حكم الدييوس » اى « حكم الشعب » .

صانع الاقعة : هل يستطيع السيد المقرر ان يلخص كلام الاستاذ جلوتر .

المعلم العاشر : اظن ذلك . هو باختصار ان الموت في سبيل الوطن شرف ، ومن يكتسب حق الموت للوطن ، يكتسب ايضا حق الحياة في الوطن ، يكتسب شرف المواطنة واساسه الحرية والمساواة . وقد كانت اسبرطة منذ ٧٠٠ ق . م . هى اكمل بلد يونانى طبق نظام الهوليت ، لذا كان كل الاسبرطيين احرارا لهم حق التصويت والاشتراك في حكم بلادهم ، لان كل الاسبرطيين كانوا من الهوليت ، وكانوا يفاخرون بأنهم جميعا « هومويوى » أى « متساوين » . وانما مشكلة اسبرطة هى أنها لم تفتح نادى المواطنة لكل سكان اسبرطة ولم تعط حق الموت لرقيق الارض .

والدرس الثانى المستفاد من هذه التجربة الانسانية هو ان الدولة الحديثة لا تستطيع ان تطبق نظام التجنيد الاجبارى على ابناء الفلاحين والعمال الا اذا اعطتهم كافة حقوقهم السياسية والمدنية بالفعل وليس بمجرد الكلام . من يكلف بشرف الموت يجب ان يحظى بشرف الحياة . هذا هو المعنى الاول لكلمة الديمقراطية ، والباقي كله تفاصيل . ■

الفصل السادس



التيმო قراطية^(١)

كان استاذنا ابو العلا عفيفى صاحب « محبى الدين بن عرى » يعلمنا سنة ١٩٣٣ فى دروس الفلسفة اليونانية ان صولون الحكيم بعد ان اعتزل حكم اثينا ، جاب الاقطار يتفلسف وكنا يومئذ نضحك من هذه الصورة لاننا كنا شبابا ، كما نضحك لان الصورة كاريكاتورية لان صولون غالبا لم يجب الاقطار ماشيا على قدميه فى شيخوخته وانما راكبا حمارا أو بغلا أو حصانا ، ولان الانسان ليس بحاجة الى الاسفار ليتفلسف . والصورة مضحكة لانها مثل قولك جلس الى مكتبه يتفلسف أو غطس فى البانيو ليتفلسف ، كما فعل ارشميدس يوم اكتشف قانون الاجسام الطافية . وقد كانت لليونان حكايات غريبة كثيرة من هذا النوع ، مثل حكاية ديوجين الذى كان يحمل مصباحا فى وضع النهار ليبحث عن الحقيقة .

وكان استاذنا طه حسين يقول فى عام ١٩٥٣ بين يدى الرئيس محمد نجيب ليمجد قانون الاصلاح الزراعى : ومن قبلك صولون حمى اثينا من مجتمعات النمل والنحل . ويومها لم نضحك لاننا كنا رجالا . ولعلنا عبسنا قليلا ، لان استاذنا صاحب « المعذبون فى الارض » دخل السياسة من بابها الخلفى .

(١) « الأهرام » ١٦/٦/١٩٧٦

همست بكل هذا وبأكثر منه في اذن «المعلم العاشر» ونحن ندخل قاعة مؤتمر الأدباء والفنانين فأصر «المعلم العاشر» ان يثير موضوع صولون مع العلامة جلوتز . قال :

— ولماذا تخفى علينا قصة صولون ؟

اجاب جلوتز :

لانا لا اخفى شيئا . كل شيء بأوانه . والان قد جاء الاوان . فقبل الحديث عن الديمقراطية لابد من الحديث عن التيموقراطية .

وحدث هياج بين المجتمعين . قال «مجاهد بن السماخ» :

— هذا الخواجة يستخف بعقولنا . نحن لم نسمع بشيء اسمه التيموقراطية ولو تركنا هؤلاء الخبراء الاجانب يلعبون بعقولنا فسنجد انفسنا في الجاهلية مرة أخرى .

قال «المعلم العاشر» :

— صبرا . هذا الخواجة لا يخترع ولا يلفق . على ضمانتي . التيموقراطية نظام من نظم الحكم حدثنا عنه المعلم الاول . . اقصد ارسطو ومؤسسه هو صولون . وبهذه المناسبة يا مجاهد يا شماخ . لم لسانك وكفى شوشرة على الخبراء الاجانب . واذا كنت جاهلا فليس هذا ذنبنا . نحن جئنا لتعلم ، فاما ان تستمع مثلنا وأما ان تتفضل من غير مطرود .

قال «مجاهد بن السماخ» متحديا .

— أنا ادفع جنيتها لمن يقول لي ما معنى التيموقراطية .

قال «ابو الفتوح الصباح» .

— اعوذ بالله . هذا ميسر ، والميسر رجس من عمل الشيطان .

قال «المعلم العاشر» :

— طيب . سيجارة لسيجارة .

مجاهد بن شماخ : أنا لا ادخن .

خولة المايسطرية : أنا ادفع لك السيجارة علبه سجائر . تكلم . انطق .

الماركسية المسخسخة : أنا لم أقل لكم ؟ اظهري على حقيقتك . عندما يراني اليمنيون أشرب سيجارة أو اشرب كأسا يصيحون : حذار من اليسار الفجار الفاسقين ، وهم يشربون الشيشة والجوزة وما هو العن .

صانع الالقعة : النظام . النظام .

المعلم العاشر : لوجه الله . بلا سجن ولا علب ولا جنهيات . التيموقراطية هي نظام الحكم الذى لا تفتح فيه الوظائف العامة الا للاغنياء .

الايدىولوجى الفهلوى : ولماذا لا تقول البلوتوقراطية ؟ نحن سمعنا عن البلوتوقراطية ولم نسمع عن التيموقراطية وانت وصفت مصر فى ١٩٣٨ بانها بلد بلوتوقراطية يوم كتبت « بلوتولاند »

المعلم العاشر : التيموقراطية نوع من أنواع البلوتوقراطية أو العكس بالعكس البلوتوقراطية من بلوتو رب المال عند اليونان ورب الكنوز المخبوءة تحت الارض لانه رب العالم السفلى ، أو ماتحت التربة . ونحن فى مصر لا نزال نقول يخبىء « الفلوس » تحت البلاطة ، رغم انه ليس هناك انسان عاقل اليوم يرفع البلاط فى بيته ليضع تحته المال والناس عندنا يخبىء المال فى المراتب وفى سلال المهملات وفى الدواليب الخ . ولكنهم فى العالم القديم والوسيط كانوا يخبثون الكنوز فى الزلج ويدفنون الزلج تحت الارض أى فى عالم الرب بلوتو ، كما نقرأ فى حواديت « الف ليلة وليلة » وفى حكايات الشاطر حسن . فالمقصود بتحت البلاطة هو تحت بلوتو ، فهو مجاز متحجر .

المهم ان البلوتوقراطية هي حكم اصحاب الكنوز ، أى المليونيرات والبليونيرات ، وليس مجرد الاغنياء ، أما التيموقراطية فهي كلمة عامة ، أى حكم الاغنياء وميسورى الحال بصفة عامة .

جلوتز : شكرا . شكرا . انت وفرت على نصف الكلام . حكم الاغنياء وميسورى الحال مثل صولون نفسه .

جوركى المدعور : انا لا افهم شيئا . اذا كانت التيموقراطية هي حكومة الأغنياء بينا الديمقراطية هي حكومة الشعب فكيف تقول ان التيموقراطية كانت مقدمة للديموقراطية ؟

جلوتز : سؤال وجيه . كما نقول نحن اليوم — على الاقل منذ الثورة الفرنسية — ان حكم البورجوازية مقدمة لحكم البروليتاريا ، وان حكم الرأسمالية مقدمة لحكم الاشتراكية .

هل تظن ان اليونان كانوا يختلفون عنا كثيرا ؟ لا

نحن نقول ان الماجنا كارتا كانت اساس الديمقراطية الانجليزية . لماذا ؟ لان انجلترا كان يحكمها ملك مطلق اسمه الملك جون ، كان حاكما بامر لا يقيد ارادته شيء . ثم ثار عليه النبلاء الانجليز ، وارغموه على ان يوقع وثيقة فى ١٥ يونيو ١٢١٥ يتعهد فيها باحترام حقوقهم وبالتزام القانون واجراءاته . وهكذا انتهت الملكية المطلقة وظهرت الملكية المقيدة فى انجلترا لصالح من ؟ لصالح الاستقرارية طبعا ، أو من نسميهم الأشراف أو النبلاء وفى مقدمتهم أمراء الاقطاع .

واستبدت الارستقراطية الانجليزية بالشعب الانجليزى بدلا من استبداد الملوك واستأثرت بالسلطات الثلاث ، التشريعية والتنفيذية والقضائية ، بدعى ان الدم الأزرق امتياز على الدم الاحمر ،

وبدعوى ان نبل المحتد وعراقة الاسلاف عليهما المعول في تكوين الصفوة الحاكمة وليس مجرد الغنى ، فالمال قد يجمع من تربية الخنازير أو من خسيس الاعمال ، ولكن المال لا يعوض عراقة الاصول وبالة الدم والتنشئة على اخلاق السيادة والشرف .

ولما استبدت الارستقراطيات الاوروبية بالسلطة ثار عليها الاغنياء المحدثو النعمة من التجار والوسطاء ورجال الصناعة ورجال الخدمات والسماصرة والمرايين والصيارفة والمصدرين والمستوردين الخ . . . وطالبوا بنصيبهم في حكم البلاد . وبنجاح ثوراتهم المتعاقبة لم يعد للنساء امتيازات موروثة واكتسب كل ذى مال حقوقه السياسية والمدنية .

وحتى « قانون الاصلاح الاكبر » عام ١٨٣٢ في انجلترا لم ينجح في اعطاء حق الانتخاب لكل المواطنين وانما خفض نصاب الملكية والضرائب المشترطة في الناخبين ، ولم يمتد حق التصويت الى الطبقة العاملة التى لا تملك شيئا الا بعد ١٨٦٠ . واخيرا امتد حق التصويت الى نساء انجلترا في ١٩١٨ بعد مظاهرات دامية قادتها ايديث كافيل وزعيمات النساء . أما في فرنسا فلم تحصل النساء على حق الانتخاب الا بعد الحرب العالمية الثانية .

الايدولوجى الفهلوى : كل هذه معلومات قديمة يعلمونها تلاميذ المدارس الثانوية يا سيد جلوتز . نحن نريد ان نعرف ماذا فعل صولون في اثينا القديمة لنقارن تيموقراطيتها .

جلوتز: المسألة بسيطة . عندما عريد الأشراف أو «اليوباتريداى» أى أبناء الآباء النبلاء ، في حكم اتيكيا ، وعاصمتها اثينا ، حتى ٦٣٢ ق . م . كثرت القلاقل الاجتماعية ومحاولات قلب نظام الحكم لصالح الفقراء . وقد كان التكتيك المألوف في دويلات اليونان الاخرى ، كما لاحظ هيرودوت وافلاطون وارسطو وغيرهم ، ان يظهر زعيم جماهيرى يتبنى قضايا الفقراء ويقود الثورة الشعبية ضد النبلاء باسم الجماهير بوصفه « المنقذ » أو « المخلص » ، فيطيح بالطبقة الارستقراطية ويصادر املاكها ويوزعها على اتباعه وينفى الطبقة الحاكمة أو يعدمها بحسب الحالة ، وبهذا يصبح « تيرانوس » أى ملكا شعبيا أو « فوهرر » أو « طاغية » سموه ما تشاءون من الاسماء ، ويتمتع هذا « الطاغية » بسلطات ليست لها حدود بموجب هذا التفويض الشعبى . ونماذج هذا الطغيان الشهيرة هى ظهور فيدون في ارجوس وكيسيلوس في كورينث وثياجنيس في ميجازا وديونيسيوس في سيراكوز وغيرهم . في كل مكان حول اثينا قاد زعماء الرعاع ثورات دموية واقاموا الطغيان الشعبى مكان الاستبداد الارستقراطى . الا اثينا نفسها فقد نجت من الطغيان بسبب صولون .

طبعا حدثت في ٦٢٣ ق . م . محاولة في اثينا بقيادة كيلون ولكن اشراف اثينا بقيادة ميچاكليس سحقوها واشتد الارهاب الارستقراطى ، وتبلور في قانون دراكونى الذى صدر في ٦٢٥ ق . م . وهو قانون وحشى في قسوته ولا سيما ضد الفقراء .

على الزيق الجوكى : شئ شبيه بحكم قراقوش عندنا .

جلوتز : بالضبط . وذهب مثلا أن يقال ان قانونا دراكونى بمعنى قانون مسرف فى القسوة . ومع ذلك فقد كان هذا القانون الدراكونى خطوة الى الأمام لأنه كان أول قانون مكتوب عرفته أثينا ، وكانت القوانين من قبل مجرد أحكام ومراسيم وتشريعات وقرارات شفوية تصدرها الارستقراطية الحاكمة .

وكانت مشكلة اثينا الكبرى هى قانون الدين الذى كان يبيح للدائن أن يرهن حرية المدين وحرية أسرته اذا عجز المدين عن السداد ، وبهذا يتحول المواطن الحر عبدا أو رقيقا يملكه دائنه ويتصرف فيه على النحو الذى يريده سواء بالبيع فى سوق النخاسة أو بالمقايضة عليه أو بتحويله الى دابة من دواب العمل .

وفى القرون السابقة لعصر صولون كان الأمر محتملا بعض الشيء لأن اليونان لم تعرف العملة وانما كان كل شئ فيها بالمقايضة أو الدفع عينا . فنرى « الالياذة » مثلا تقول ان سلاح السطل جلوكوس أو البطل ديوميدنفيس يقدر بالثيران . وفى « الأعمال والأيام » للشاعر هسيود تقدر ثروتك بمقدار ما فى جرنك من القمح . كانت المعادن النفيسة طبعا معروفة فى هوميروس ولكنها لم تكن قد استخدمت بعد كعملة . كذلك كانت العملة المعدنية معروفة فى الشرق القديم ولكن كأوران وليس كوحداث .

وأول عملة عرفتها اليونان كانت من أسياخ الحديد كأسياف الكباب والكفتة ، الواحد منها يساوى أوبول والقبضة منها أى ستة أسياخ ، تساوى دراخته ، أو ماتسمونه فى لعنكم درهما ، وأول عملة رسمية مدموغة صدرت فى اليونان فى جزر بحر ايجه وفى آسيا الصغرى بين ٦٢٥ و ٦٠٠ ق . م . وكانت الدمغة لضمان الوزن والنوع ، ولكن المهم فى هذا كله أن نظام المقايضة والثروة المعنية كان يضع حدا لتكدس الثروات . فلما ظهرت العملة الحديدية ثم الفضية والذهبية سواء فى شكل وحدات أو فى شكل أوزان تدهور الموقف لأن تكديس المعادن النفيسة جعل الثراء الفاحش ممكنا .

كان الأغنياء من نبلاء وتجار يقرصون صغار الزراع برهن محصولهم وحريرتهم . فإذا ساء المحصول وعجز الزراع عن السداد فقدوا حريتهم وحرية عائلاتهم وتحولوا الى رقيق يتصرف فيه الدائن كيفما شاء .

ووقفت أثينا على شفا ثورة رهيبة كادت أن تعصف بكل اغنيائها ، وهنا ظهر صولون — وهو من أثرياء الناس — مدافعا عن حقوق الفقراء فى أشعاره التى حفظت لنا بعضها الأجيال التالية . ففى أرسطو مثلا أبيات لصولون يقول فيها منددا بالأغنياء : « يا من تختمم بالأطايب ، ضعوا حدا لصلف عقولكم ، فنحن لم نعد نحتمل ولن تحسن عاقبتكم » وفيه أن صولون كان يلوم أغنياء أثينا على شقاء بيها وبأسائهم .

وفى ديموستين قصيدة لصولون يقول فيها أن المدينة التى تحميها الربة أثينا لن تهلك أبدا ، وأن المواطنين البغاة الذين يرومون تخطيمها هم « زعماء الديموس » أى « رعماء الشعب » الحشعون الذين يطالبون بالسلطة لنهب البلد مما أدى الى اشاعة العبودية فى أثينا ، « بما يزكى الحرب الأهلية ويوقظ الفتنة

النائمة» . وهكذا نجد صولون يندد في آن واحد بالأغنياء المستغلين وبزعماء الرعاع أو الزعماء الشعبيين الذين يحاولون إشعال الثورة في أثينا لاقامة التيرانية أو الطغيان باسم تحرير الجماهير .

لقد فقد كثير من الاثينيين الأحرار حريتهم وبيع عدد كبير من فقراء أثينا خارج البلاد . فما العمل ؟

العمل هو اصلاح القوانين لكبح الظالمين ورأب الانقسام في المدينة . الاعتدال في الاصلاح هو طريق النجاة . وفي ٥٩٤ ق . م . اختير صولون « أرخون » أو رئيسا للدولة . وهذا الاعتدال صرب اليمن واليسار معا كما نقول بلغة اليوم ، انقذ صولون طبقته النبيلة من كارثة محققة لو نشبت في أثينا لكانت تطيح بكل شيء على غرار ماجرى في كوريت وميجارا وسيراكيوز وميتلين .. الخ ، أو كما تقول أبياته : انه أنقذ « من بيدهم السلطان وكانوا لحاهم موضع اعجاب الناس » من دمار الثورة .

الغنى صولون قانون رهن الحرية الشخصية مقابل الدين وفاخر في شعره بأنه استرجع الى أثينا من بيعوا من أبنائها للخارج كعبيد ، كذلك حرر من استرقوا في أثينا ذاتها . ومنح الجنسية الاثينية للمهاجرين اليها من الصناع المهرة مع اسرهم ليدعم انتاجية الدولة ، وحظر تصدير الحاصلات الزراعية فيما عدا الزيوت ، وغير العملة بحيث جعلها تسير عملة كورينث .

وفي « الدستور الأثيني » لأرسطو أن صولون حرر طبقة صغار الزراع التي تسمى « هكتمورى » أى « دافعى سدى محصول » . فقد كان صغار الزراع يقترضون من كبار الملاك لتمويل زراعتهم أو لتصرف معاشهم برهن حريتهم وحرية أسرهم فإذا عجزوا عن رد القرض مع سدس المحصول صاروا عبيدا . وفي « حياة صولون » لبلوتارك كلام بنفس هذا المعنى .

غير أن أهم اصلاح جاء به صولون هو الاصلاح الدستورى . فقبل صولون كان شرف المولد هو المقياس الوحيد لأهلية شغل الوظائف العامة أو للاشتراك في الحكم ، فكسر صولون احتكار الأرستقراطية للحكم ، وفتح باب الوظائف العامة والمشاركة في الحكم لكل ذى مال كاف ، أى لجميع الأغنياء سواء أكانوا من أبناء البيوتات العريقة أم من أبناء المحدثين . وقسم الأثينيين الى اربع طبقات بحسب دخلهم العينى : (١) طبقة اليوباتريد — أى أبناء البيوتات ، وهم أصحاب الخمسمائة كيلة .. (٢) طبقة الهيببىس أى أصحاب الخيل ، وهم أصحاب الثلاثمائة كيلة .. (٣) طبقة اكزيوجيتاى أى أصحاب الرسن والثيران (صغار الزراع) ، وهم أصحاب المائتى كيلة .. (٤) طبقة اللثيتيس ، أى الأجراء أو الأنفار وهم من دخلهم دون المائتى كيلة .

وبعد ان كان الحكم محصورا في الطبقة الاولى اشرك فيه صولون الطبقة الثانية ، أما الطبقة الثالثة ، وهم مجموعة من الجند والمشاة (الهوبليت) فقد سمح لأبنائها بتقلد بعض الوظائف السياسية الصغرى . أما الشغالة أو الاجراء فقد اعطوا الحد الأدنى من الحقوق السياسية ، وهو حق التصويت في جمعية الشعب وحق الانتخاب .

هذه هي التيموقراطية التي حدثنا عنها ارسطو : من يكسب أكثر يحكم أكثر . وقد كانت أكثر الطبقات استفادة من دستور صولون هم الأغنياء الذين لاحسب لهم ، أو الأغنياء الجدد .

على الزيق الجوكى : يعنى بلغتنا نحن أغنياء شارع الشوارى ووكالة البلح وقطاع المقاولات والاستيراد والتصدير والجمعيات الاستهلاكية .

جلوتز : على العموم ، لاتنسوا أن صولون استغنى عن مجلس الاريوباج الاثينى القديم ، وهو مجلس الشيوخ أو مجلس المستشارين أو مجلس الوزراء لأن كل اعضائه كانوا من الارستقراط . وأنشأ مكانه مجلسا من العموم اشرك فيه حتى الزيجيتاى أى صغار الزراع . اما تحرير الشغالة فلم يأت فى اثينا الا متأخرا مع كلايستين عام ٥٠٧ ق . م . كما يقول ارسطو بسبب تضخم الاسطول الاثينى وتضخم عدد البحارة والبمبوطة لاتنسوا أيضا ان صولون جعل اجتماعات جمعية الشعب منتظمة ، وكانت قبله لا تحتمع الا نادرا ، وبذلك جعلها مصدرا حقيقيا للتشريع وسن القوانين ووضع سياسية اثينا ، صحيح انه لم يعط للشغالة حق تقصد المناصب العامة أو ادارة البلاد ، ولكنه اعطاهم الى جانب حق الانتخاب والتصويت حق استئناف الأحكام امام جمعية الشعب .

على الزيق الجوكى : اذن فالمطروح الآن : هل نحن فى ديمقراطية أو تيموقراطية .

جلوتز : هذه مسألة تخصكم ياسيدى . أنا هنا لأنيركم بتجارب الانسانية فى نظم الحكم .

صانع الأقنعة : فعلا . هذه مسألة داخلية . انتظر حتى ينصرف الضيوف الخواجات لنناقشها وربما طرحنها للتصويت .

جلونز : تذكروا دائما ان أشعار صولون قبل توليه الحكم كانت تخالف اشعاره بعد توليه الحكم . كان صولون قبل توليه السلطة نصير الفقراء والمدافع عن « دافعى السدس » ، [الهكتموروى] ضد اسعبيه الارستقراط، أما بعد توليه السلطة فقد كان يندد دائما بشكوى « الديوس » أى « الشعب » من نفس اصلاحاته ، ويصفهم بأنهم « اولئك الذين كانوا يتجمعون للنهب ، تملؤهم الأموال فى الثراء العريض ، ويظن كل منهم انه واجد الفرصة لجمع المال الوفير » .

هؤلاء أخطأوا فهمه لأنه رفض أن يقسم الأرض بالتساوى بين الأغنياء والفقراء .

كان صولون يمين على الأغنياء بأنه كان « يقمع الشعب » ، وقد كان فى استطاعته ان يكون طاغية شعبيا لو استجاب للجماهير ، ولكنه آثر ان يحمى الأغنياء من القتل والنفى والمصادرة ، كما حدث لأغنياء البلاد الأخرى . وكان يمين على الفقراء بأنه حررهم من العبودية .

صانع الأقنعة : هل سمعنا قصة الثورة البيضاء ؟ .

جلوتز : لقد سمعتم قصة كل الثورات البيضاء .

للمؤلف

- ١ — The Theory and Practice of Poetic Diction. M.Litt. Dissertation Cambridge University.
- ٢ — « فن الشعر » لهوراس . الناشر : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٥ . (كتب في كامبريدج ١٩٣٨) . الطبعة الثانية : الهيئة العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠ . الطبعة الثالثة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٨ .
- ٣ — « بروميتوس طليقا » للشاعر شلى . الناشر : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ . الطبعة الثانية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .
- ٤ — « صورة دوريان جراى » لأوسكار وايلد . الناشر : دار الكاتب المصرى ، القاهرة ١٩٤٦ . الطبعة الثانية : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٥ — « شبح كانترفيل » لأوسكار وايلد . الناشر : دار الكاتب المصرى ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
- ٦ — « بلوتولاند » وقصائد أخرى : « من شعر الخاصة » . الناشر : مطبعة الكرنك ، القاهرة ، ١٩٤٧ . الطبعة الثانية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٨ (نظم بين ١٩٣٨ ، ١٩٤٠ بكامبريدج) .
- ٧ — « فى الأدب الانجليزى الحديث » . الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ . الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ (بحوث نشر أكرها فى مجلة الكاتب المصرى خلال ١٩٤٦ و ١٩٤٧) .
- ٨ — Studies in Literature, Auglo-Egyptian Book-shop, Ciaro, 1954.
- ٩ — « مخاب سعى العشاق » لشكسبير . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، الطبعة الثانية : دار المعارف ١٩٦٧ (ترجمت ١٩٥٥) . الطبعة الثالثة فى البحث عن شكسبير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ١٠ — « دراسات فى أدبنا الحديث » . الناشر : دار المعرفة . القاهرة ، ١٩٦١ . (بحوث أكرها فى جريدة « الجمهورية » عام ١٩٥٤ وفى جريدة « الشعب » خلال ١٩٥٧ و ١٩٥٨) .
- ١١ — « الراهب » : مسرحية تاريخية . الناشر : دار ايزيس ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ١٢ — « دراسات فى النظم والمذاهب » . الناشر : المكتب التجارى ، بيروت ، ١٩٦٢ . الطبعة الثانية : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ١٣ — « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث » ، الجزء الأول : « قضية المرأة » الناشر : معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ . (محاضرات القيت على طلبة المعهد) .
- ١٤ — « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث » ، الجزء الثانى : « الفكر السياسى والاجتماعى » الناشر : معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٣ . الطبعة الثانية . الناشر : دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٤ . (محاضرات القيت على طلبة المعهد) .

- ١٥- « الاشتراكية والأدب » . الناشر : دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٣ . الطبعة الثانية : دار الهلال القاهرة ، ١٩٦٨ . (بحوث نشرت في « الجمهورية » خلال ١٩٦١ وفي « الأهرام » خلال ١٩٦٢ و ١٩٦٣) .
- ١٦- « الجامعة والمجتمع الجديد » . الناشر : الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ١٧- « دراسات في النقد والأدب » . الناشر : المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٤ . الطبعة الثانية : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ١٨- The Theme of Prometheus in English and French Literature (Ph.D.Dissertation, Princeton University, 1953). Ministry of Culture, Isis House, Cairo, 1963.
- ١٩- « المسرح العالمي » . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٢٠- « البحث عن شكسبير » . الناشر : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، الطبعة الثانية : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ . الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٢١- « نصوص النقد الأدبي عند اليونان » . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ . الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٢٢- « مذكرات طالب بعثة » . الناشر : روزاليوسف ، سلسلة الكتاب الذهبي ، القاهرة ، ١٩٦٥ . (كتبت في ١٩٤٢) .
- ٢٣- « دراسات عربية وغربية » . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٢٤- « على هامش الغفران » . الناشر : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ٢٥- « العناء : أو تاريخ حسن مفتاح » . الناشر : دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٦ (رواية كتبت بين القاهرة وباريس بين ١٩٤٦ و ١٩٤٧) .
- ٢٦- « اجامنون » لاسخيلوس . الناشر : دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٦ . الطبعة الثانية : في « ثلاثية أوربست » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٢٧- « المحاورات الجديدة: أو دليل الرجل الذكي الى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية » . الناشر : دار روزاليوسف ، القاهرة ، ١٩٦٧ . الطبعة الثانية : دار ومطابع المستقبل ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- ٢٨- « الثورة والأدب » . الناشر : دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٢٩- « انطونيوس وكليوباترا » لشكسبير . الناشر : دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ . الطبعة الثانية : في « البحث عن شكسبير » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٣٠- « حاملات القربان » لاسخيلوس . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ . الطبعة الثانية : في « ثلاثية أوربست » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

- ٣١— « أسطورة أوربست والملاحم العربية ». الناشر: دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٣٢— « الصافحات » لاسخيلوس . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ . الطبعة الثانية: فى « ثلاثية أوربست » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٣٣— « تاريخ الفكر المصرى الحديث » (جزءان) . الناشر : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩ (من الحملة الفرنسية الى عصر اسماعيل) . الطبعة الثانية (فى مجلد واحد) : مكتبة مديولى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٣٤— « الجنون والفنون فى أوروبا ٦٩ » . الناشر : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٣٥— « دراسات أوربسية » . الناشر : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٣٦— « الحرية ونقد الحرية » . الناشر : مؤسسة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٣٧— « الوادى السعيد » . الناشر : لصمويل جونسون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٣٨— « رحلة الشرق والغرب » . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٣٩— « ثقافتنا فى مفترق الطرق » . الناشر : دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٤٠— « أقمعة الناصرية السبعة » . الناشر : دار القضايا ببيروت : الطبعة الأولى ببيروت ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٦ . الطبعة الثالثة . مكتبة مديولى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٤١— « لمصر والحرية » . الناشر : دار القضايا ، بيروت ، ١٩٧٧ .
- ٤٢— « تاريخ الفكر المصرى الحديث » من عصر اسماعيل الى ثورة ١٩١٩ . (المبحث الأول : الخلفية التاريخية ، الجزء الأول) . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠ .
- ٤٣— « مقدمة فى فقه اللغة العربية » . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- ٤٤— « تاريخ الفكر المصرى الحديث » من عصر اسماعيل الى ثورة ١٩١٩ (المبحث الأول : الخلفية التاريخية ، الجزء الثانى) . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .
- ٤٥— « أقمعة أوربسية » . الناشر : دار ومطابع المستقبل ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- ٤٦— « ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية » . الناشر : مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٤٧— « تاريخ الفكر المصرى الحديث » من عصر اسماعيل الى ثورة ١٩١٩ ، (المبحث الثانى : الفكر السياسى والاجتماعى الجزء الأول) . الناشر : مكتبة مديولى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٤٨— « دراسات فى الحضارة » . دار المستقبل العربى — القاهرة ١٩٨٨ .

المحتويات _____ صفحة

الباب الأول تأملات في المسألة القومية

٧	الفصل الأول : في الأساطير السياسية
١٧	الفصل الثاني : معاتبات قومية
٢٥	الفصل الثالث : معنى القومية (١)
٣٣	الفصل الرابع : معنى القومية (٢)

الباب الثاني لقاءات حضارية

٤٣	الفصل الأول : حوض الحضارات : وحدة الخصائص
٥٣	الفصل الثاني : رحلة ثقافية
٥٩	الفصل الثالث : ملحمة الصخور والمياه
٦٥	الفصل الرابع : فلندكر الأهر قليلا
٧٣	الفصل الخامس : كلمة عن مكتبة الاسكندرية
٨١	الفصل السادس : الطريق الى الاسكندرية

الباب الثالث مواجهات حضارية

٩١	الفصل الأول : محارة بغير أفروديت
٩٩	الفصل الثاني : صراع الاضداد
١٠٥	الفصل الثالث : حوار الهلال مع الصليب
١١١	الفصل الرابع : الحيشيون الجدد
١١٧	الفصل الخامس : المَلحمة الأخيرة
١٢٥	الفصل السادس : مصر تواحه ماضيها

١٣٥	الفصل السابع : قصة العلمانية في مصر
١٤٩	الفصل الثامن : التاريخ بين الذات والموضوع
١٦١	الفصل التاسع : بين السياسة والفن
١٦٩	الفصل العاشر : الايديولوجيا والحريات
١٧٩	الفصل الحادى عشر : نحن والغرب : الناصرية الجديدة
١٨٧	الفصل الثانى عشر : نحن والغرب : فى انتظار معجزة
١٩٣	الفصل الثالث عشر : الثقافة والبترول
٢٠١	الفصل الرابع عشر : ترتيب العالم
٢٠٩	الفصل الخامس عشر : دورات النهضة والاضمحلال
٢١٧	الفصل السادس عشر : الشرق يواجه الغرب
٢٣١	الفصل السابع عشر : اليونسكو وثقيف العالم
٢٣٩	الفصل الثامن عشر : الثقافة والتنمية

الباب الرابع المحاورات الناقصة

٢٤٧	الفصل الأول : المحاورات الجديدة
٢٥٣	الفصل الثانى : الكباش والسياسة
٢٦١	الفصل الثالث : التاج والصولجان
٢٦٧	الفصل الرابع : اليونان ومشية الأوزة
٢٧٣	الفصل الخامس : ديمقراطية الموت
٢٧٩	الفصل السادس : التيموقراطية
٢٨٧	صدر للمؤلف :

١٩٨٩ / ١٩٧٦
الترقيم الدولي : ٣ - ٠٩٩ - ٤٤٢ - ٩٧٧

هذا الكتاب

قد يختلف - أيها القارئ العزيز - مع ما جاء في هذا الكتاب - كما يختلف نحن مع بعضه - وخاصة حول موضوع القومية العربية . ولكنك لا تغفل - كما لم نغفل نحن - إلا أن تقبل على قراءته بشغف ومبته فكريه . فالكتاب يتسم بمستوى بالغ الفنى والعمق والاستارة والرصانة ، سواء من حيث أسلوبه أو مادته . وهو جولة في مختلف مجالات الحضارة العربية - المصرية - الانسانية ، تحشد بالحوار والتساؤل والحساسة الفكرية واحتضان القيم الإنسانية الرفيعة . وهو يدفعك في كل صفحة من صفحاته إلى الإطلال على آفاق شاسعة من الخبرة الإنسانية ، وإلى عقد المقارنات التاريخية والاجتماعية ، وإلى الحوار مع الكاتب ، ومع نفسك ، مع الحياة ، مع الماضي والحاضر والمستقبل ...

ودار المستقبل العربي الحريصة دائماً على حرية الرأى والتعبير والبحث ، وعلى تنوع الإجتهاادات الجادة ، يسعدنا أن تقدم هذا الكتاب إلى قرائها وهي وثيقة من حسن تقبلهم وتقديرهم له خاصة أن كاتبه الدكتور لويس ، هو قمة من قمم الثقافة والأدب والعلم ويشرفنا أن نقدم له عملاً من أعماله الجادة ...

دار المستقبل العربي

٤١ شارع بيروت ، مصر الجديدة ، القاهرة

Dar Al-Mustaqbal Al-Arabi

41, Beirut Street, Heliopolis, Cairo

P.O.Box: 2485, «Heliopolis» Tel. 665900 «Cairo»

